

عودة شيرلوك هولمز



عودة شيرلوك هولمز





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان: عودة شيرلوك هولمز

ترجمة: إيمان سعودي

تحرير: محمد الجيزاوي

تدقيق لغوي: عماد غزير

الطبعة الأولى: مايو 2021م

رقم الإيداع: 2021/7947م

الترقيم الدولي: 978-977-85876-8-5

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





عودة شيرلوك هولمز



مغامرة المنزل المهجور

حدث في ربيع العام 1894 أن كانت لندن بأسرها مترقبة، لا سيما الطبقة الأرستقراطية التي أصابها الفزع، بسبب مقتل النبيل رونالد أدير في ظروف شديدة الغرابة والغموض. وقد عرف الناس بالفعل تفاصيل الجريمة التي وردت في تحقيقات الشرطة؛ لكن ظل قدرٌ كبير من تفاصيل تلك الواقعة مطموسًا، ذلك لأن الأدلة بالنسبة إلى هيئة الادعاء كانت من القوة أن لم يعُد ضروريًّا الإفصاح عن الحقائق كلها. والآن فقط، وبعد مرور ما يقرب من عشر سنوات، أصبح بإمكاني عرض تلك الحلقات المفقودة التي تُكمل تلك السلسلة العجيبة. وبرغم أن تلك الجريمة كانت مثيرة للاهتمام في حد ذاتها، فإن ذلك لا يُعَد شيئًا مقارنةً بتتمة القصة التي يصدقها العقل، والتي أصابتني بصدمة ومفاجأة أبلغ من أي حدثٍ مرَّ عليَّ في حياتي المليئة بالمغامرات. وحتى هذه اللحظة، وبعد أن مرَّت تلك الفترة الطويلة، أجدُ مشاعري تهتز كلما فكرت فيها، وأشعر مرة أخرى بهذا الفيض المفاجئ من الدهشة والذهول الذي يغمر ذهني بكليته. دعوني أُخبر أولئك الذين أظهروا اهتمامًا بتلك اللمحات التي كنت أبديها لهم من حين لآخر، عن أفكار وأفعال رجل استثنائي بحق، ألّا يلوموني في عدم إشراكي إياهم فيما أعرفه، فيما كان يُفترض بي أن أجعله واجبي الأول لولا حظرٌ قاطعٌ من شفتَيْ هذا الرجل شخصيًّا، حظرٌ لم يرفعه عني إلا في الثالث من الشهر الماضي.

يُمكن تصوُّر أن صداقتي الحميمية بشيرلوك هولمز أكسبتني ولعًا بعالم الجريمة، فلم أكفَّ يومًا بعد اختفائه عن القراءة بإمعان في مختلف القضايا التي تُعرض على العامة، حتى إنني حاولت أكثر من مرة استخدام أساليبه في حلِّها إشباعًا لغايةٍ شخصية عِندي، وإن كنت لم أحرز نجاحًا يُذكر. بيد أنه ما من قضية أثارت اهتمامي مثلما فعلت مأساة رونالد أدير. عندما قرأت أدلة التحقيق، التي أشارت إلى أن الجريمة كانت قتلًا متعمدًا، نفّذه شخص أو عدة أشخاص مجهولين، حينها أدركت بوضوحٍ أكبر مدى الخسارة التي تكبدها المجتمع بوفاة شيرلوك هولمز. كنت موقنًا من أن نقاطًا بعينها في تلك القضية الغريبة كانت لتروق له بصفة خاصة، وأن الملاحظة المتمرِّسة، واليقظة الذهنية، اللتين يتمتع بهما المحقق الجنائي الأول في أوروبا كانتا لتُكملان جهود الشرطة، أو بالأحرى تسبقانها. مضيت أقلّب القضية في ذهني طوال اليوم، ولم أجد تفسيرًا يبدو مناسبًا. وخشية أن أخبركم بالحكاية مرتين، سألخص حقائق القضية كما أُعلنت للعامة في ختام التحقيق.

النبيل رونالد أدير هو الابن الثاني لإيرل مينوث، حاكم إحدى المستعمرات الأسترالية في ذاك الوقت. عادت والدة أدير من أستراليا لتخضع لعملية المياه البيضاء في عينيها، وأقامت هي وابنها رونالد وابنتها هيلدا معًا في 427 شارع بارك لين. انتقل الشاب إلى مجتمع من أفضل المجتمعات، ولم يكن لديه –حسبما كان معلومًا– أي عداوات أو أي مشكلات بعينها. كان قد خطب الآنسة إيديث وودلي من كارستيرز، لكن الخطبة فُسِخَت باتفاق الطرفين قبل الواقعة ببضعة أشهر، ولم يبدُ أنها خلَّفت وراءها أي تأثيرٍ عميق. وبخلاف ذلك، كانت تسير حياة الرجل في إطار ضيق وتقليدي، فقد كان يتمتع بطابع هادئ قليل الانفعال. ومع ذلك، أدرك الموت هذا الشاب الأرستقراطي الوديع، في أغرب الصور وأقلها توقعًا، بين الساعة العاشرة والحادية عشرة والثلث ليلة الثلاثين من مارس لعام 1894.

كان رونالد أدير مغرمًا بلعب الورق، وكان دائم اللعب، لكنه لم يقارب قط أي رهانٍ قد يؤذيه. كان عضوًا في ثلاثة نوادٍ للعب الورق: بالدوين وكافيندش وباجاتل. وتبين أنه قد تناول العشاء في ليلة مقتله، ثم لعب ثلاثة أدوار من لعبة الهويست في النادي الأخير. وقد لعبَ هنالك أيضًا بعد ظهيرة ذاك اليوم. وقد أكَّدت شهادات من لعبوا معه –السيد موراي، والسير جون هاردي، والكولونيل موران– أنه كان يلعب الهويست، وأن أوراقهم جميًعا كانت متساوية نوعًا. وأن أدير ربما خسِر خمسة جنيهات لا أكثر. كان يمتلك ثروة ضخمة، ومثل تلك الخسارة لم تكن لتؤثر عليه بحال. اعتاد اللعب بصفة يومية تقريبًا في أحد هذه النوادي، لكنه كان لاعبًا حذرًا، وعادةً ما يخرج من اللعبة فائزًا. وأكَّدت شهادات الشهود أنه هو والكولونيل موران قد ربحا بالفعل، قبل بضعة أسابيع، ما يصل إلى أربعمائة وعشرين جنيهًا في جلسة لعب واحدة ضد كل من جودفري ميلنر واللورد بالمورال. وهذا هو كل ما أورده التحقيق عن أيامه الأخيرة.

عاد أدير من النادي في تمام العاشرة من مساء يوم الواقعة. كانت أمه وشقيقته تقضيان السهرة مع أحد الأقارب. وشهدت الخادمة بأنها سمعته يدخل غرفة الاستقبال في الطابق الثاني، والتي يتخذها عادةً غرفة جلوس. أشعلت له النار هناك، وعندما بدأ الدخان يتصاعد، فتحت النافذة. ولم يُسمع أي صوت من الغرفة حتى عودة السيدة مينوث وابنتها في الحادية عشرة والثلث. أرادت الأم أن تتمنى لابنها ليلة سعيدة فحاولت دخول الغرفة. بيد أن الباب كان موصدًا من الداخل، ولم يرد أحدٌ على صياحهن وطرقاتهن. لذلك بعثت السيدات في طلب المساعدة وكُسِر الباب؛ فإذ بالشاب التعِس ممدد قرب الطاولة. كان رأسه مشوهًا على نحو مروِّع من جراء طلقة مسدس متفجرة، ولكن لم يعثر المحققون على أي نوع من الأسلحة في الغرفة. وعلى الطاولة استقرت ورقتان نقديتان من فئة عشرة جنيهات، بالإضافة إلى سبعة عشر جنيهًا من العملات الفضية والذهبية من فئة عشرة بنسات، وقد رُتبت جميعًا في أكوام متفاوتة الحجم. وعُثر أيضًا على بعض الأرقام التي خُطت على ورقة وفي مقابلها أسماء بعض أصدقاء النادي، ويسهل التكهُّن بأنه كان يحاول، قبيل وفاته، أن يُدوِّن خسائره ومكاسبه في ألعاب الورق.

إن الفحص الدقيق للملابسات لم يَزد القضية إلا تعقيدًا. فأولًا، ما من سببٍ يدفع الشاب إلى إغلاق الباب من الداخل. الاحتمال القائم كان أن القاتل هو من أوصد الباب، ثم هرب بعدها من النافذة. غير أن النافذة ترتفع عن الأرض من الخارج ما لا يقل عن عشرين قدمًا، ويقع أسفلها حوضٌ من الزعفران المزهر بكامله. لم يبدُ على الزهور أو التربة أن أحدًا قد وطأها، ولم تظهر كذلك أي آثار أقدام على الشريط العشبي الضيق الفاصل بين المنزل والطريق. لذا يبدو أن الشاب نفسه هو من أوصد الباب. ولكن كيف وافته المنية؟ ما كان لأحدٍ أن يتسلق إلى النافذة دون أن يترك أثرًا. هَب أن رجلًا أطلق النار عبر النافذة، فلا بد أنه قنَّاصٌ بارع ليستطيع أن يُحدث تلك الإصابة المميتة باستخدام مسدس. وأكرر أن شارع بارك لين هو شارع لا يخلو من المارة، ويوجد موقف لعربات الأجرة على بعد مائة ياردة من المنزل. إلا أن أحدًا لم يسمع صوتَ إطلاق النار. ومع ذلك لدينا القتيل، ولدينا طلقة المسدس التي انفجرت كما يجدر بالرصاصات ذات الرأس اللين أن تفعل، وأحدثت جرحًا لا بد أنه تسبب في موتٍ فوري. كانت تلك ملابسات لغز بارك لين، التي ازدادت تعقيدًا بغياب الدافع كليًّا، حيث إنه لم يُعرَف

للشاب المدعو أدير –كما قلت آنفًا– أي أعداء، كما لم تجرِ أي محاولة للاستيلاء على ماله أو أيٍّ من الأشياء الثمينة في الغرفة.

ظللت طوال اليوم أقلب هذه الحقائق في ذهني، محاولًا الوصول إلى نظريةٍ يمكنها أن توفق بين هذه الحقائق جميعًا، والعثور على ذاك الخيط الأقل مقاومة الذي سبق وأخبرني صديقي المسكين بأنه نقطة الانطلاق لأي تحقيق. وأعترف أني لم أحرز تقدمًا يُذكر. في المساء خرجت لأتمشى قليلًا، ووجدت نفسي في نحو الساعة السادسة عند تقاطع شارع أوكسفورد بشارع بارك لين. كانت على الأرصفة مجموعة من المتسكعين يحدقون جميعهم إلى نافذة بعينها، وقادتني نظراتهم إلى المنزل الذي أتيت لرؤيته. وهناك وقف رجلٌ طويل نحيف، يرتدي عوينات ملونة، شككت بقوة في كونه محققًا يرتدي ثيابًا مدنية، وقد أخذ يوضح نظريته الخاصة عن الجريمة، بينما احتشد الآخرون حوله منصتين إلى ما يقول. اقتربت منه قدر ما استطعت، لكنَّ ملاحظاته بدت لي سخيفة فهممت بالانسحاب بشيء من الاشمئزاز، وحينها اصطدمتُ بكهلٍ أعرج كان خلفي، وأسقطت الكتب العديدة التي كان يحملها. أذكر أنني لاحظت عنوان أحدها بينما كنت ألتقطها من على الأرض وهو «أصل عبادة الأشجار»، وخطر بذهني أن هذا الرجل هو دون شك أحد أولئك المساكين المولعين بالكتب، الذين يجمعون المجلدات الغامضة والغريبة باعتبارها تجارة أو هواية. حاولت الاعتذار عما حدث، ولكن اتضح أن هذه الكتب التي أسأت معاملتها كانت –لسوء الحظ– ثمينة جدًّا في نظر صاحبها. فاستدار بعنف مطلقًا زمجرة غضب، وراقبت اختفاء ظهره المحني وفوديه الأشيبين بين الزحام.

لم يساعدني كثيرًا فَحْصِي للمنزل رقم 427 بشارع بارك لين في حل القضية التي انشغلت بها. كان يفصل بين المنزل والشارع جدار منخفض يعلوه سياج حديدي، لا يزيد ارتفاعهما معًا على خمسة أقدام؛ لذا كان يسهُل جدًّا على أي أحد أن يتسلَّقه إلى داخل الحديقة، أما الوصول إلى النافذة فكان غير ممكن بحال، حيث لم يكن هناك أنبوب ماء أو أي شيء يمكن أن يساعد حتى أكثر الرجال رشاقة على التسلق وصولًا إليها. وهكذا عدت إلى شارع كنسنجتون وقد اعترتني الحيرة أكثر من ذي قبل. ولم تكد تمر خمس دقائق على دخولي مكتبي حتى دلفت الخادمة لتقول إن ثمة شخصًا يريد رؤيتي. ولدهشتي لم يكن هذا الشخص سوى الكهل الغريب جامع الكتب، الذي أخذ يُحدِّق إليَّ بوجهه الشاحب ذي الملامح الحادة المحاطة بشعره الأبيض، ويحمل مجلداته القيِّمة –دستة منها على الأقل– تحت ذراعه اليمنى.

قال بصوت أجش غريب: «لقد اندهشت لرؤيتي يا سيدي».

اعترفت أنِّي كذلك فعلًا.

– حسنٌ، إن لي ضميرًا يقظًا يا سيدي، وعندما تصادف أن رأيتك تدلف إلى هذا المنزل، أتيت أعرج من خلفك، وقلت لنفسي: سأدخل وحسب وأزور ذلك الرجل النبيل الطيب، وأخبره بأنني لم أقصد سوءًا بتصرفي الفظ، وأنني ممنون له جدًّا لالتقاطه كتبي من على الأرض.

قلت: «إنك تعطي الأمر أكبر من حجمه، هل لي أن أسألك كيف عرفت من أكون؟».

– حسنٌ يا سيدي، إن لم يكن في ذلك تجاوز، فإنني جارك، ستجد متجر الكتب الصغير الذي أملكه عند ناصية شارع تشيرش، ولسوف تسرني رؤيتك هناك دون شك، ربما تهوى جمع الكتب أنت أيضًا يا

سيدي؛ إليك كتب الطيور البريطانية وكاتولوس والحرب المقدسة، كل منها صفقة رابحة في حد ذاته. يمكنك بخمسة مجلدات فقط أن تسد تلك الفجوة في ذلك الرف الثاني. إنه يبدو غير منظم، ألا تتفق معي يا سيدي؟

أدرت رأسي لأنظر إلى الخزانة الموجودة خلفي. وعندما استدرت ثانيةً كان شيرلوك هولمز واقفًا يبتسم في وجهي على الطرف الآخر من طاولة المكتب. هببت واقفًا، وأخذتُ أحدِّق إليه لبضع ثوانٍ بذهولٍ تام، ويبدو أني فقدت الوعي بعد ذلك لأول وآخر مرة في حياتي. مؤكد أن ضبابًا رماديًّا كان يحوم أمام عيني، وعندما امّحى وجدت ياقة قميصي مفكوكة وعلى شفتي وخز البراندي. كان هولمز منحنيًا فوق مقعدي وقنينته في يده.

قال الصوت الذي أذكره جيدًا: «عزيزي واتسون، إنني مدينٌ لك بألف اعتذار. لم يخطر لي أنك ستتأثر إلى هذه الدرجة».

قبضت على ذراعه صائحًا: «هولمز! أهذا أنت حقًّا؟ أحقًّا لم تزل على قيد الحياة؟ هل يُعقل أن تكون قد نجحت في الخروج من تلك الهاوية المروِّعة؟».

قال: «تمهَّل لحظة، أمتأكدٌ أنكَ جاهز لمناقشة الأمر؟ فقد تسببتُ لك في صدمة شديدة بعودتي الدرامية غير المبررة».

«إنني على ما يرام يا هولمز، لكنني حقًّا لا أستطيع تصديق عينيّ. يا إلهي! ما أصعب أن أصدق أنك أنت من بين جميع الناس تقف هنا في مكتبي!» قبضت على كمه ثانية وشعرت بالذراع النحيفة بارزة العروق من تحته. قلت: «حسنٌ، أنت لست شبحًا إذن، رفيقي العزيز، إن السعادة تغمرني لرؤيتك. اجلس وأخبرني كيف خرجت حيًّا من تلك الهوة المريعة».

جلس قبالتي وأشعل سيجارة بطريقته القديمة غير المبالية. كان يرتدي سترة بائع الكتب الرثة، ولكن رقدت بقية تلك الشخصية في كومة من الشعر الأبيض والكتب القديمة على الطاولة. بدا هولمز أنحف وأكثر حماسة من ذي قبل، لكن لاحت مسحة من الشحوب على وجهه الشبيه بالنسر، وَشَت بأن حياته لم تكن على ما يرام مؤخرًا.

قال: «إنني سعيدٌ بتمديد ساقي يا واتسون، ليس يسيرًا أبدًا أن يضطر رجل طويل إلى تعطيل إحدى قدميه لساعات متتالية لكي يتظاهر بالعرج. والآن يا صديقي العزيز، بالنسبة لما علينا تفسيره –إذا كان لي أن أطلب تعاونك– فإن في انتظارنا ليلة من العمل الشاق والخطير. لعل الأفضل أن أوضح لك الموقف برمته بعد انتهاء ذلك العمل».

– إن الفضول يملؤني. أفضِّل أن أعرف الآن.

– هل ستأتي معي الليلة؟

– إنني معك متى أحببت وأينما أحببت.

– إن ذلك ليشبه أيامنا الخوالي بحق. لدينا بعض الوقت لتناول العشاء قبل أن يتوجب علينا الذهاب. حسنٌ إذن، بخصوص تلك الهوة، فلم أجد صعوبة حقيقية في الخروج منها، لأنني ببساطة شديدة لم أسقط فيها قط.

– لم تسقط فيها قط؟

– نعم يا واتسون، لم أسقط فيها قط. إن رسالتي لك كانت صادقة تمامًا. فلم يكن لدي أدنى شك في أنني قد بلغتُ نهاية مسيرتي عندما رأيت الطيف المشؤوم للبروفيسور الراحل موريارتي واقفًا على قمة الطريق الضيق المؤدي إلى حريتي. لقد قرأت في عينيه الرماديتين عزمًا لا يثنيه شيء. فتبادلت معه بضع عبارات وحصلت على إذنه الكريم في أن أكتب الرسالة القصيرة التي تلقيتها أنت فيما بعد. تركتُها مع علبة سجائري وعصاي وسرت على طول الطريق، بينما موريارتي ما زال في أعقابي. وعندما وصلت إلى الحافة لم أرَ مفرًّا من مواجهته. لم يستلَّ أي سلاح، بل اندفع نحوي وألقى بذراعيه الطويلتين حولي. كان يعلم أن لعبته انتهت، وكان يتوق إلى الانتقام مني لا أكثر. ترنحنا معًا على حافة الشلال. لكنني كنت خبيرًا ببعض أساليب الباريتسو أو المصارعة اليابانية، التي نفعتني جدًّا في أكثر من مناسبة، فأفلتُّ من قبضته، وراح هو لبضع ثوانٍ يركل الهواء بجنون ويخدشه بكلتا يديه مطلقًا صراخًا مرعبًا. ولكن برغم جهوده لم يستطع استعادة توازنه، فسقط من علٍ. ومن فوق الحافة رأيته يسقط لمسافة طويلة. ثم اصطدم بصخرة وارتد عنها، ثم سقط في الماء ناثرًا إياه في كل مكان.

استمعت بذهول للتفسير الذي قدمه هولمز من بين دخان سيجارته، ثم صحت قائلًا:

– ولكن ماذا عن الآثار! لقد رأيت بعينَيَّ هاتين أن اثنين سارا في الطريق ولم يَعُد أيهما.

– هكذا جرت الأمور. ففي اللحظة التي اختفى فيها البروفيسور تبدَّت إليَّ الفرصة الاستثنائية السعيدة تلك التي وضعها القدر في طريقي. كنت أعلم أن موريارتي ليس وحده الذي أقسم على موتي. كان يوجد ثلاثة آخرون على أقل تقدير لن يزيدهم موت قائدهم إلا رغبة في الانتقام مني. وجميعهم من أشد الرجال خطورة. مؤكَّد سيقضي عليّ أحدهم. وعلى الجانب الآخر، إذا اقتنع العالم بأسره أنني مت، سيشعر هؤلاء الرجال بالحرية، ويكشفون عن أنفسهم، وعندئذ سأتمكن من تدميرهم، عاجلًا أو آجلًا. وحينئذ سيتسنى لي إعلان أنني ما زلت على قيد الحياة. مر كل هذا بذهني بسرعة فائقة ظننتُ معها أني قد فكَّرتُ في هذا كله قبل وصول البروفيسور موريارتي إلى قاع شلال رايشنباخ.

وقفت وتفحصت الجدار الصخري من خلفي.

– إنك تؤكد في سردك الخلاب للقصة –الذي قرأته باهتمام بالغ منذ بضعة أشهر– أن الجدار كان شديد الانحدار. لم يكن هذا صحيحًا تمامًا. كانت بضعة مواطئ للقدم ظاهرة، وكان ثمة حافة صغيرة. كان الجرف مرتفعًا للغاية لدرجة تجعل من الجليِّ استحالة تسلقه، وكان من المستحيل أيضًا أن أشق طريقي بطول الطريق المبتل دون أن أترك بعض الآثار. كان يمكنني حقًّا أن أسير بظهري، كما فعلت في مناسبات مماثلة، لكن مشهد ثلاث مجموعات من الآثار في اتجاه واحد كان من شأنه أن يوحي بأن في الأمر خداعًا لا محالة. عمومًا، فضَّلتُ حينها أن أخاطر بالتسلق. ولم يكن هذا بالأمر الهين يا واتسون، والشلال يهدر من تحتي. إنني لستُ شخصًا واسع الخيال، لكنني أكادُ أجزم أني سمعتُ صوت موريارتي يصرخ فيّ من الهاوية. كانت أي هفوة لتصبح قاتلة. وكلما خرجت أوراق العشب في يدي أو انزلقت قدمي على الشقوق الرطبة في الصخور، ظننتُ أني هالك. لكنني كافحت صعودًا، وفي النهاية وصلت إلى حافة يمتد عُمقها عدة أقدام مغطاة بالطحالب الخضراء الناعمة، حيث أمكنني الاستلقاء

مخفيًّا عن الأعين في أقصى درجات الراحة. كنت أتمدد هناك يا عزيزي واتسون بينما كنت أنت وكل من تبعوك تحققون بأكثر الطرق إثارة للشفقة وأبعدها عن الكفاءة في ظروف موتي.

في النهاية، وبعد أن خلصتم جميعًا إلى استنتاجاتكم الحتمية والخاطئة بكليتها، غادرتم إلى الفندق وبقيت أنا وحيدًا. تصوَّرتُ أنني قد بلغتُ نهاية مغامراتي، لكن شيئًا غير متوقع البتة أظهر لي أن ثمة مفاجآت ما زالت في انتظاري. فقد سقطت صخرة ضخمة من أعلى، وعبرت من جواري مدوية، ثم ارتطمت بالطريق، وسقطت في الهوة. لوهلة ظننته حادثًا؛ لكني في اللحظة التالية نظرت لأعلى، ورأيت رأسَ رجلٍ يظهرُ ومن ورائها سماء الغروب، وإذ بصخرة أخرى ترتطم بالحافة التي كنت أتمدد عليها تحديدًا، على بُعد قدمٍ واحد من رأسي. بالطبع كان معنى ذلك واضحًا. لم يكن موريارتي بمفرده. كان أحد الحلفاء قد بقي ليحرس المكان بينما يهاجمني البروفيسور؛ وحتى تلك النظرة الخاطفة وشت لي بخطورة ذاك الحليف. وقد كان شاهدًا، من بعيد دون أن أراه، على موت صديقه وهروبي. لقد انتظر، ثم شقَّ طريقه إلى قمة الجرف، وحاول أن ينجح فيما فشل فيه رفيقه.

لم يطل تفكيري في الأمر يا واتسون، فقد رأيت ذلك الوجه القاتم وهو ينظر مجددًا من أعلى الجرف، وعرفت أن تلك النظرة مقدمة لصخرة جديدة. تدحرجت هبوطًا إلى الممر. لا أظنني كنت لأفعل ذلك في الظروف العادية. فقد كان الهبوط أصعب مائة مرة من الصعود. لكنني لم أملك وقتًا للتفكير في الخطر؛ إذ سمعت صوت صخرة جديدة تمر بجواري وأنا أتشبث في أطراف المنحدر الصخري. وفي منتصف الطريق لأسفل انزلقت يدي، لكنني هبطتُ على الطريق بمباركة الرب مجروحًا أنزف. ووليت هاربًا، حتى قطعت عشرة أميال فوق الجبال في الظلام، وبعد أسبوع وجدت نفسي في فلورنسا، موقنًا أن أحدًا في العالم لا يعرف ما جرى لي.

لم يكن لدي إلا كاتم أسرار واحد – وهو أخي مايكروفت. أنا مدين لك بالاعتذار الشديد يا عزيزي واتسون، لكن كان مهمًّا جدًّا أن تعتقد أنني متُّ، ولا شك أنك ما كنت لتكتب مثل هذا التقرير المقنع عن نهايتي التعِسة لو لم تؤمن أنتَ نفسك بصحتها. ولعدة مرات خلال السنوات الثلاث الماضية تناولتُ قلمي لأكتب لك، لكنني خشيتُ أن يغريك اهتمامك الشديد بي إلى فعلٍ طائش يفضح سري. ولهذا السبب ابتعدت عنك هذا المساء عندما أسقطت كتبي، إذ كنتُ حينها في خطر، وكان أي إظهارٍ للدهشة أو العواطف من جانبك كفيلًا بجذب الانتباه إلى هُويتي ووقوع عواقب وخيمة لن يسعنا تداركها. أما مايكروفت، فقد اضطررت إلى الوثوق فيه كي أحصل على المال الذي أحتاج إليه. لم تجرِ الأحداث في لندن كما كنت أرجو، فقد خلَّفَت محاكمة عصابة موريارتي اثنين من أخطر أعضاء العصابة طليقين، وهما أشد أعدائي رغبة في الانتقام مني. لذلك سافرتُ لمدة عامين إلى التبت، واستمتعت بزيارة مدينة لاسا وقضيت عدة أيام مع اللاما الأعظم. لعلك قرأت عن الاستكشافات البارزة لشخصٍ نرويجي يُدعى سيجرسون، ولكنني متأكد من أنه لم يخطر ببالك قط أنك كنت بذلك تتلقى أخبارًا عن صديقك. ثم مررت بعدها ببلاد فارس، ونزلتُ بالحجاز، وزُرت الخليفة في الخرطوم، كانت زيارة قصيرة لكن ممتعة، وقد أبلغتُ وزارة الخارجية بنتائج تلك الزيارات. ثم عدت إلى فرنسا، حيث أمضيت بضعة أشهر في البحث عن مشتقات قطران الفحم، وهو بحثٌ أجريته في مختبر في مونبلييه بجنوب فرنسا. وبعدما

انتهيت منه على النحو الذي يرضيني، وعلمتُ أنه لم يبق من أعدائي في لندن سوى واحدٍ فقط، قررتُ الرجوع، وعجَّل برجوعي أخبار لغز بارك لين العجيب، الذي لم يجذبني فقط لكونه يستحق، وإنما لِمَا رأيت فيه من فرص شخصية مميزة جدًّا. فأتيت على الفور إلى لندن، واستعدتُ شخصيتي الحقيقية في شارع بيكر، تاركًا السيدة هادسون في نوبة هستيريا عنيفة، ووجدت أن مايكروفت قد حافظ على غرفتي وأوراقي تمامًا كما كانت دومًا. وهكذا يا عزيزي واتسون وجدت نفسي في الثانية من صباح اليوم في مقعدي العزيز وفي غرفتي القديمة، ولا أتمنى سوى أن أرى صديقي القديم واتسون جالسًا في المقعد الآخر الذي كان دومًا يزينه بجلوسه عليه.

استمعتُ إلى هذا السرد الاستثنائي في تلك الأمسية من شهر أبريل –السرد الذي كان ليصبح عصيًّا على التصديق بالنسبة إليَّ لو لم تؤكده رؤيتي الفعلية لتلك القامة الطويلة الهزيلة، والوجه المتقد حماسة، اللذين ما ظننتُ قط أن أراهما مرة أخرى. لقد علم بطريقة ما بفجيعتي وحزني، وأظهر تعاطفه بسلوكه لا بكلماته. قال لي:

– العمل أفضل علاج للحزن يا عزيزي واتسون، ولدي بعضٌ منه لكلينا الليلة، وإذا أمكننا تكليله بالنجاح فمن شأنه في حد ذاته أن يجعل ما على الأرض يستحق الحياة.

وعبثًا توسلت إليه أن يخبرني بالمزيد. فأجاب:

– ستسمع وترى ما يكفي قبل حلول الصباح، إن لدينا ثلاثَ سنوات ماضية لنتحدث عنها. لنكتفِ بهذا القدر حتى الساعة التاسعة والنصف، موعدُ انطلاقنا في مغامرة المنزل المهجور البارزة.

بدا لي الأمر حقًّا كالأيام الخوالي عندما وجدت نفسي جالسًا إلى جانبه في إحدى العربات في تلك الساعة، ومسدسي في جيبي ورجفة المغامرة في قلبي. كان هولمز باردًا وعابسًا وصامتًا. وعندما انعكس بريق مصابيح الشارع على ملامحه المتجهمة، رأيتُ حاجبيه مُقطَّبين من شدة التفكير وشفتيه مزمومتين. لم أعلم أي وحشٍ بري ذاك الذي كنا على وشك مطاردته في غابة الجريمة المظلمة بلندن، لكنني أيقنت من هيئة هذا الصياد المتمرس أنها مغامرة شديدة الخطورة، وأن ابتسامته الساخرة التي كانت تتخلل تجهُّمه بين الحين والآخر لا تبشر بأي خير فيما يتعلق بمسعانا.

ظننتُ أننا متجهان إلى شارع بيكر، بيد أن هولمز أوقف عربة الأجرة عند ناصية ميدان كافيندش. ولاحظت أنه عندما ترجَّل من العربة ألقى نظرة فاحصة يمينًا ويسارًا، وبذل قصارى جهده عند ناصية كل شارعٍ تالٍ ليتأكد أن أحدًا لا يتبعه. لا شك أن شارعنا كان باتجاهٍ واحد. فقد كان هولمز على دراية استثنائية بطرق لندن الجانبية، وفي هذه الأمسية كان يتنقل بسرعة وبخُطى واثقة عبر شبكة من الأزقة الخلفية والإسطبلات التي لم أدرِ يومًا بوجودها. وصلنا أخيرًا إلى طريق صغير، تصطف على جانبيه منازل قديمة مظلمة، ثم خرجنا منه إلى شارع مانشستر، ومنه إلى شارع بلاندفورد. وهنا انعطف هولمز سريعًا إلى ممر ضيق، وعَبَر بوابة خشبية ليدخل إلى ساحة مهجورة، ثم فتح الباب الخلفي لأحد المنازل بمفتاحٍ معه. دخلنا معًا وأغلق هولمز الباب وراءنا.

كان المكان يسبح في العتمة، وبدا لي أنه منزل مهجور. رنّت أقدامنا وطقطقت فوق الأرضية الخشبية الجرداء، ومسَّت يدي الممدودة جدارًا كانت أوراقه تتدلى في شرائط. قبضت أصابع هولمز الباردة النحيلة

على رسغي وقادتني إلى الأمام باتجاه رَدهة طويلة، حتى رأيت بصعوبة النافذة المروحية المعتمة الموجودة فوق الباب. وهنا انعطف هولمز فجأة ناحية اليمين، فوجدنا أنفسنا في غرفة كبيرة مربعة خالية، تتبدَّى الظلال الكثيفة في أركانها، فيما ألقَت مصابيح الشارع بضوءٍ خافت في وسطها. لم يكن بها مصباح قريب، وكانت النافذة مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار، فلم نستطع أن نُميِّز سوى ظلال أحدنا الآخر بالداخل. وضع رفيقي يده على كتفي وشفتيه قُرب أذني وهمس قائلًا:

– أتعرف أين نحن؟

أجبته محدقًا من النافذة المعتمة:

– هذا بالتأكيد شارع بيكر.

– بالضبط. إننا في منزل كامدن، الواقع في مواجهة مسكننا القديم.

– ولكن لمَ نحن هنا؟

– لإطلالته الممتازة على ذلك الركام البديع. هل لي يا عزيزي واتسون أن أطلب منك أن تقترب قليلًا من النافذة، وأن تأخذ جميع احتياطاتك كي لا تُظهر نفسك، ثم تُلقي نظرة على مسكننا القديم – الذي كان نقطة انطلاق العديد من مغامراتنا الصغيرة؟ لنرى إن كانت سنوات غيابي الثلاث قد سلبتني تمامًا قدرتي على مفاجأتك.

تسللت إلى الأمام ونظرت إلى النافذة المألوفة. وبمجرد أن وقعت عيناي عليها شهقت وصحت صيحة ذهول. كان الستار مسدلًا وثمة ضوء قوي يضيء الغرفة، بينما رأيتُ ظل رجلٍ جالس في مقعده بالداخل، وقد ظهرت حدود هيئته السوداء القاتمة على حاجز النافذة المضيء. لم تكُن العين لتُخطئ هذا الاتزان في الرأس ولا تربيعة الكتفين ولا حدة الملامح. كان الوجه نصف دائري، وبدا كواحدة من تلك الصور الظلية السوداء التي كان أجدادنا يحبون تأطيرها. كانت نسخة طبق الأصل من هولمز. مددتُ يدي مشدوهًا لكي أتأكد من أن الرجل ذاته كان واقفًا إلى جواري. فشعرتُ بهولمز يهتز ضحكًا في صمت.

ثم قال: «حسنًا؟».

صحتُ: «ربَّاه! هذا مدهش».

فقال وقد ميزتُ في صوته بهجة الفنان وفخره بأعماله: «كنت موقنًا أن حيلي لا تذوي بفعل السنين ولا يُفسدها التعود. إنه حقًّا يُشبهني نوعًا ما، أليس كذلك؟».

– أكاد أقسم إنه أنت.

– يرجع الفضل في تنفيذه إلى السيد أوسكار مونييه، من جرونوبل، الذي أمضى بضعة أيام في صنع القالب. إنه تمثالٌ نصفي من الشمع. أما البقية فرتبتها بنفسي في أثناء زيارتي لشارع بيكر بعد ظهر اليوم.

– ولكن لماذا؟

– لأنني أيها العزيز واتسون لدي من الأسباب القوية ما يجعلني أرغب في أن يظنني أناسٌ بعينهم هناك، بينما أنا في الواقع في مكانٍ آخر.

– وهل تظن أن المنزل مراقب؟

– بل متيقنٌ من أنه مراقب.

– من قِبل من؟

– من قِبل أعدائي القدامى يا واتسون. من قِبل المجموعة الساحرة التي يرقد زعيمها في قاع شلال رايشنباخ. لا تنسَ أنهم يعلمون، ولا أحد غيرهم يعلم، أنني ما زلت على قيد الحياة. وقد كانوا واثقين أنني سأعود إلى منزلي لا محالة إن عاجلًا أم آجلًا. وهكذا لم يكفُّوا عن مراقبته، وفي صباح اليوم رأوني أصل إليه.

– كيف عرفت؟

– لأنني تعرَّفتُ على المراقِب بمجرد أن ألقيت نظرة من نافذتي. إنه رجل مؤذٍ لدرجة خطيرة، يُدعى باركر، ويحترف قتل ضحاياه بالخنق، وهو عازف بارع على آلة قيثار اليهود. لم أعره أي اهتمام. لكنني أعرتُ بالغ اهتمامي للشخص الأشد إرهابًا الذي حرضه، صديق موريارتي الحميميّ، الرجل الذي أسقط الصخور من فوق الجرف، والذي يُعد أخطر مجرمي لندن وأمكرهم. ذلك هو الرجل الذي يطاردني الليلة يا واتسون، وهو بعينه الرجل الذي لا يدرك مُطلقًا أننا نلاحقه.

كانت خطط صديقي تتكشَّف تدريجيًا. فمن هذا المأوى القريب كنا نراقب المراقِبين، ونتعقب المتعقبين. كان ذاك الظل الزاوي هناك هو الطُّعم وكنا نحن الصيادين. وقفنا جنبًا إلى جنب بصمتٍ في الظلام ورُحنا نراقب الظلال المسرعة التي تمر من أمامنا ذهابًا وإيابًا. كان هولمز صامتًا بلا حراك؛ لكنني كنتُ أعلم بأنه شديد التيقظ، وأن عينيه مثبتتين بتركيزٍ على المارة المتدفقين. كانت ليلة قاتمة وعاصفة، وقد أخذت الرياح تصفر بصوتٍ عالٍ بطول الشارع. بينما كان أناسٌ كُثْرٌ يتحركون ذهابًا وإيابًا، وقد تلفع أغلبهم بالمعاطف والأوشحة. وخُيِّل إليَّ مرة أو اثنتين أنني رأيت الشخص ذاته من قبل، وقد لاحظت رجلين تحديدًا بدا أنهما يحتميان من الريح في مدخل أحد المنازل القريبة في الشارع. حاولتُ أن ألفت انتباه رفيقي إليهما، لكنه غمغم بنفاد صبر وواصل التحديق إلى الشارع. لاحظت تململه أكثر من مرة وهو يهز ساقيه وينقر بأصابعه بسرعة على الحائط. كنتُ متأكدًا أن صبره بدأ ينفد وأن خططه لم تُكلَّل بالنجاح كما كان يأمل. وفي النهاية، حينما اقترب منتصف الليل وبدأ الشارع يخلو شيئًا فشيئًا، مضى هولمز يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بخطى سريعة بانفعالٍ عارم. كدتُ أُبدي ملاحظة له عندما رفعت عيناي إلى النافذة المضاءة ومرة أخرى شعرت بذهولٍ شديد. قبضتُ على ذراع هولمز وأشرت إلى الأمام مُصيحًا:

– لقد تحرك الظل!

وبالفعل، لم يعُد الجزء الجانبي من التمثال هو المواجه لنا، بل الظهر.

مؤكَّد لم تخفِّف السنوات الثلاث الماضية من حدة طباعه أو نفاد صبره من عقلٍ أقلَّ ذكاءً منه.

إذ قال: «بالطبع قد تحرَّك، هل تراني هزليًّا أخرق يا واتسون كي أضع دمية واضحة وأتوقع أن ينخدع بها بعض من أذكى الرجال في أوروبا؟ إننا في هذه الغرفة منذ ساعتين، وقد غيَّرت السيدة هدسون وضعية هذا التمثال لثماني مرات، مرة كل ربع ساعة. وهي تفعل ذلك من الأمام حتى لا يُرى ظلها أبدًا. آه!» وسحب نفسًا عميقًا ثائرًا حادًّا. وفي الضوء الخافت رأيت رأسه يميل للأمام، وجسمه كله قد انتصب في اهتمام. كان الشارع خاليًا تمامًا في الخارج. ربما لا يزال هذان الرجلان رابضَيْن في المدخل، لكنني لم أعد أراهما. كان كل شيء ساكنًا ومظلمًا، عدا هذا الستار الأصفر المضيء أمامنا وفي داخله ترتسم حدود الهيئة القاتمة للتمثال. ومرة أخرى سمعتُ في الصمت المطبق الصفير الحاد الذي يشي بانفعالٍ شديدٍ مكبوت. وبعد لحظة، سحبني إلى أكثر أركان الغرفة سوادًا، وشعرتُ بيده المحذرة على شفتيَّ. كانت الأصابع التي أمسكت بي ترتجف. لم أرَ صديقي منفعلًا لهذه الدرجة قط، ورغم ذلك كان الشارع المظلم لا يزال يمتد أمامنا خاليًا وبلا حراك.

لكنني فجأة أدركت ما كانت حواسه الأكثر إرهافًا قد ميزته بالفعل. تناهى صوتٌ خافت إلى سمعي، ليس من جهة شارع بيكر، وإنما من الجزء الخلفي للمنزل نفسه الذي كنا مختبئين فيه. انفتح بابٌ وانغلق. تلاه صوت وقع خطوات مسرعة تتسلل عبر الممر – خطوات كان يُراد لها أن تكون صامتة، لكن صداها دوَّى عاليًا في أرجاء المنزل المهجور. ألصق هولمز ظهره إلى الحائط وفعلت مثله، واضعًا يدي قُرب مقبض مسدسي. حدقت إلى الظلام فرأيت هيئة مُبهمة لرجل، وقد بدا ظله أكثر سوادًا من سواد الباب المفتوح. وقف للحظة، ثم تسلل إلى الغرفة بركبتين مثنيتين وهيئته تُنذر بالخطر. كان ذلك الطيف المشؤوم على بُعد ثلاث ياردات منا، وقد أعددت نفسي لمواجهة انقضاضه، بَيْد أنني سرعان ما أدركت أنه لم يكن يدري بوجودنا. مر بالقرب منا، وانسل نحو النافذة، ثم بهدوء شديد ودون أدنى صوت فتحها بارتفاع نصف قدم. وبينما انهمك الرجل في فتحها، لم يعُد الزجاج المغبر يحجب ضوء الشارع فانعكس كله على وجهه. بدا الرجل في حالة من الانفعال العارم. كانت عيناه تلمعان كالنجوم وقسمات وجهه تتشنج. كان مسنًّا، ذا أنفٍ نحيلٍ بارز، وجبهة صلعاء عالية، وشاربٍ أشيب ضخم. يعتمر قبعة أوبرا مرفوعة إلى مؤخرة رأسه، ويضع معطفًا مفتوحًا ظهر من خلاله قميص سهرة. وجهه هزيل وداكن، موسوم بخطوط وحشية عميقة. يحمل في يده ما بدا كعصا، لكنه أصدر رنة معدنية ما إن أنزله على الأرض. ثم أخرج من جيب معطفه شيئًا ضخمًا، وانهمك في عمل انتهى بتكة حادة عالية كما لو أن زنبركًا أو مسمارًا قد سقط من مكانه. ثم انحنى وهو لا يزال جاثيًا على الأرض وألقى بكل ثقله وقوته على رافعة ما، مصدرًا بذلك صريرًا مدويًا استمر لفترة طويلة، وانتهى مرة أخرى بتكة قوية. ثم اعتدل الرجل ورأيته يحمل في يده بندقية من نوع ما، كعبها مشوه على نحو غريب. فتحها من عند الكعب، ووضع فيها شيئًا، ثم صكَّ المغلاق. بعدها انحنى لأسفل وأراح نهاية ماسورة البندقية على حافة النافذة المفتوحة، ورأيت شاربه الطويل يتدلى فوق الدبشك وعينيه تلمع وهي تحدق بامتداد الماسورة. ثم سمعت تنهيدة ارتياحه عندما ألصق كعب البندقية إلى كتفه، ورأى ذلك الهدف المذهل: الهيئة السوداء وراء الستار الأصفر، تتبدَّى واضحة عند نهاية بندقيته. بقي للحظة متجمدًا بلا حراك. ثم ضغط بإصبعه على الزناد. صدر أزيز مدوٍّ عجيب، ورنينٌ قوي للزجاج المتكسِّر. وعندها انقضَّ هولمز كالنمر على ظهر هذا القناص وأسقطه أرضًا على وجهه. لكنه لم يلبث أن نهض

مجددًا، وقبض بيديه على رقبة هولمز بقوة متشنجة، فضربته على رأسه بكعب مسدسي فسقط مجددًا على الأرض. ثم ألقيت نفسي فوقه وأمسكت به بينما أطلق رفيقي صافرة إنذار حادة، سمعتُ وقع أقدام تركض على رصيف الشارع، واندفع اثنان من رجال الشرطة يرتديان الزي الرسمي، ومعهما أحد المحققين يرتدي ثيابًا مدنية، عابرين المدخل الأمامي ومنه إلى الغرفة.

قال هولمز: «أهذا أنت يا ليستراد؟».

– نعم يا سيد هولمز. لقد تولَّيت المهمة بنفسي. لقد سُررت برؤيتك مرة أخرى في لندن يا سيدي.

– أظنك تحتاج إلى بعض المساعدة غير الرسمية. إن ثلاث جرائم قتل دون حل في عامٍ واحد ليس بالأمر المقبول يا ليستراد. لكنك بذلت جهدًا أقل من المعتاد مع لغز مقاطعة مولسي – وهذا يعني أنك تعاملت معه جيدًا إلى حد كبير.

نهضنا جميعًا على أقدامنا، وكان أسيرنا يتنفس بصعوبة، وقد وقف على كلٍّ من جانبيه شرطي قوي البنية. كان بعض المتسكعين قد بدؤوا بالتجمع في الشارع بالفعل. فتقدم هولمز ناحية النافذة وأغلقها وأنزل الستائر، وأشعل ليستراد شمعتين وأضاء الشرطيان مصباحيهما، فتمكنت أخيرًا من إلقاء نظرة فاحصة على أسيرنا.

كان الوجه الذي استدار نحونا مفعمًا بالحيوية واللؤم في آن. أعلاه جبين فيلسوف وأسفله فك شهواني، لا شك أن لدى هذا الرجل إمكانات عظيمة لكل من الخير والشر. ولكن ليس للمرء أن ينظر إلى عينيه الزرقاوين القاسيتين، بجفنيهما المتدليين بتهكم، أو إلى أنفه العدواني الشرس، أو إلى جبينه المتوعد ذي الخطوط العميقة، دون أن يقرأ أوضح إشارات الطبيعة دلالة على الخطر. لم يُلقِ بالًا لأي منا، إلا أن عينيه كانتا مثبتتين على وجه هولمز بتعبير امتزجت فيه الكراهية والذهول في آن، وأخذ يتمتم مرة تلو أخرى: «يا لك من شيطان! يا لك من شيطان ماكر!».

قال هولمز وهو يعدِّل ياقته المجعدة: «آه، أيها الكولونيل! تنتهي الرحلات بلقاء الأحبة، كما تقول المسرحية القديمة. لا أظنني سررت برؤيتك منذ أغدقت عليَّ بملاطفاتك وأنا ممدد على حافة شلال رايشنباخ».

ظل الكولونيل يحدق إلى صديقي كما لو كان مخدَّرًا، ومضى يردد: «يا لك من مخادع، شيطان مخادع!».

قال هولمز: «لم أعرِّفك بعد، هذا أيها السادة هو الكولونيل سباستيان موران، الذي كان يومًا أحد أفراد جيش جلالة الملكة في الهند، وأفضل قناص للطرائد الثقيلة أنجبته إمبراطوريتنا الشرقية على مر الزمان. أظن أن حصيلتك من النمور التي اصطدتها ما زالت لا تُضاهى أيها الكولونيل، ألستُ محقًّا؟».

لم ينطق الكهلُ الشرس بكلمة، بل ظل يرمق رفيقي بغضب؛ وقد بدا هو نفسه بعينيه الضاريتين وشاربه الكث شبيهًا بالنمر على نحو عجيب.

قال هولمز: «أعجب كيف أن حيلتي البسيطة جدًّا تلك أمكنها خداع صياد متمرس مثلك، لا بد أنها مألوفة جدًّا لك. ألم تقيد جَديًا صغيرًا من قبل تحت شجرة، وتتربص فوقها ببندقيتك، وتنتظر أن يجذب الطُّعم النمر؟ هذا المنزل المهجور كان شجرتي وأنت نمري. ربما كنت تحمل أكثر من سلاحٍ واحد

تحسبًا لمجيء عدة نمور، أو تحسبًا للفرضية البعيدة بأن يخذلك تصويبك». ثم أشار حوله قائلًا: «هؤلاء هم أسلحتي الاحتياطية. الحالة نفسها تمامًا».

اندفع الكولونيل موران إلى الأمام مزمجرًا بغيظ، ولكن سحبه الشرطيان إلى الخلف. بدا منظر وجهه المحتقن غضبًا مروِّعًا.

قال هولمز: «أعترف أنك فاجأتني مفاجأة صغيرة، فلم أكن أتوقع أنك ستستخدم هذا المنزل المهجور وهذه النافذة الأمامية القريبة. ظننتك ستنجز مهمتك من الشارع، حيث كان صديقي ليستراد ومساعداه ينتظرانك. أما فيما عدا ذلك، فقد جرى كل شيء كما توقعته».

التفت الكولونيل موران إلى المحقق قائلًا:

– سواء كان لديك سببٌ لاعتقالي أو لا، فما من مبرر يسوِّغ خضوعي لسخرية هذا الشخص. إذا كنتُ قد أصبحت بين يدي القانون، لتسرِ الأمور بالقانون إذن.

قال ليستراد: «حسنٌ، ما قلتَه منطقي بما فيه الكفاية، هل لديك شيءٌ آخر تريد أن تقوله يا سيد هولمز قبل أن نمضي؟

كان هولمز قد التقط البندقية الهوائية الضخمة من الأرض وأخذ يفحص آلية عملها، قال:

– سلاحٌ رائع وفريد من نوعه، لا يصدر ضجيجًا عاليًا لكن قوته رهيبة. كنت أعرف فون هيردر، الحرفي الألماني الكفيف، الذي صنع هذا السلاح بناءً على طلب البروفيسور الراحل موريارتي. كنت أعلم بوجوده منذ سنوات، وإن لم تتح الفرصة لي قط كي أمسكه بيدي. إنني أوصيك أن توليه عناية خاصة يا ليستراد، وكذا الرصاص الخاص به.

قال ليستراد، بينما تحرك الفريق بأكمله تجاه الباب: «يمكنك الوثوق بنا في هذا الصدد يا سيد هولمز، هل من شيء آخر تود قوله؟

– أريد أن أعرف وحسب التهمة التي تنوي توجيهها لهذا الشخص؟

– التهمة؟ عجبًا يا سيدي، بالطبع إنها محاولة قتل السيد شيرلوك هولمز.

– كلا يا ليستراد. لا أعتزم الظهور في القضية مطلقًا. فإليك، وإليك وحدك، يعود الفضل في الاعتقال الاستثنائي الذي قمت به. نعم يا ليستراد، إنني أهنئك! فقد تمكنت من الإيقاع به بجمعك المعهود بين الدهاء والجرأة.

– الإيقاع به! الإيقاع بمن يا سيد هولمز؟

– الرجل الذي كانت قوة الشرطة بأكملها تبحث عنه عبثًا – الكولونيل سباستيان موران، الذي أردى النبيل رونالد أدير برصاصة متفجرة من بندقية هوائية عبر النافذة المفتوحة في واجهة الطابق الثاني من المنزل رقم 427، بشارع بارك لين، في الثلاثين من الشهر الماضي. هذه هي التهمة يا ليستراد. والآن يا واتسون، إذا كنت تستطيع تحمل تيار الهواء الآتي من نافذة مكسورة، فأظن أن نصف ساعة في مكتبي مع سيجار قد تمنحك بعضًا من التسلية المفيدة.

ظل مسكننا القديم على حاله بفضل إشراف مايكروفت هولمز وعناية السيدة هدسون المستمرة له. وبينما دخلت لاحظت ترتيبًا غير مألوف، بيد أن المعالم القديمة كانت كلها في أماكنها. فكان الركن الكيميائي والطاولة الخشبية الملطخة بالأحماض في مكانهما. وعلى الرف اصطفت الدفاتر الضخمة التي تحوي قصاصات ومراجع، كان ليسعد كثير من مواطنينا بحرقها. والرسوم التوضيحية وحقيبة الكمان وحامل البايب –بل حتى الخف الفارسي الذي يحتوي على التبغ– رأيتها جميعًا بينما ألقيت نظرة حولي. كان بالحجرة سيدتان – إحداهما هي السيدة هدسون، والتي ابتسمت لكلينا بابتهاج حينما دخلنا؛ والأخرى كانت تلك الدمية الغريبة التي لعبت دورًا بالغ الأهمية في مغامرة هذا المساء. كانت عبارة عن مجسم شمعي لصديقي نُفِّذ بإبداع لدرجة شعرتُ معها أنه نسخة طبق الأصل منه. موضوعًا على طاولة صغيرة ويلتف حوله رداءٌ قديم لهولمز بحيث بدا ظله من الشارع مثاليًّا تمامًا.

قال هولمز: «أرجو أن تكوني قد اتخذتِ احتياطاتك كافة أيتها السيدة هدسون».

– كنت أذهبُ إليه زحفًا على ركبتي يا سيدي، تمامًا مثلما أخبرتني.

– ممتاز. لقد نفذت الأمر على نحوٍ جيد جدًّا. هل لاحظتِ أين ذهبت الرصاصة؟

– نعم يا سيدي، أخشى أنها قد أفسدت تمثالك الجميل، فقد مرَّت عبر الرأس مباشرة وارتطمت بالحائط. لقد التقطتها من على السجادة. ها هي ذي!

أخذها هولمز وأراني إياها قائلًا: «كما تلاحظ يا واتسون، فإنها رصاصة مسدس لينة. هنا تكمن العبقرية، فمن ذا الذي يتوقع أن تنطلق رصاصة كهذه من بندقية هوائية. لا بأس أيتها السيدة هدسون، إنني في غاية الامتنان لمساعدتك. والآن يا واتسون، دعني أراك جالسًا في مقعدك القديم مرة أخرى، فثمة عديد من النقاط التي أودُّ مناقشتها معك».

كان قد خلع معطفه الرث، وصار الآن هولمز القديم الذي أعرفه في ردائه المنزلي الرمادي الذي أخذه من تمثاله.

قال ضاحكًا وهو يتفقد جبهة التمثال المهشمة: «لم تفقد أعصاب ذاك الصياد العجوز ثباتها ولا عيناه حدتهما. رصاصة عمودي في منتصف مؤخرة الرأس تمامًا مخترقة المخ. لقد كان أفضل قناص في الهند، ولا أظن أن هناك الكثير ممن هم أفضل منه في لندن. هل سمعت باسمه من قبل؟».

– كلا، لم أسمع به.

– حسنًا، هكذا هي الشهرة! إذن، إن لم تخني الذاكرة، فإنك لم تسمع أيضًا باسم البروفيسور جيمس موريارتي، الذي كان يتمتع بواحدٍ من أعظم عقول هذا القرن. أعطني فقط دليل السير الذاتية من على الرف.

راح يقلِّب الصفحات ببطء، متكئًا على كرسيه وهو ينفث دخانًا كثيفًا من سيجاره قبل أن يقول:

– إن مجموعة حرف الميم عندي ممتازة، موريارتي وحده يكفي لمنح أي حرف شهرة واسعة، وها هو ذا مورجان المسمِّم، وميريدو صاحب الذاكرة الشنيعة، وماثيوس الذي أطاح بنابي الأيسر في غرفة الانتظار بمحطة تشيرنج كروس، وأخيرًا، ها هو ذا صديقنا الذي كنا بصحبته الليلة.

ناولني الكتاب وقرأت:

موران، سباستيان، كولونيل. عاطل عن العمل. عضو سابق في كتيبة روَّاد بنجالور الأولى. ولد في لندن عام 1840. ابن السير أغسطس موران الحاصل على وسام الاستحقاق برتبة فارس من الدرجة الأولى، والسفير البريطاني السابق لبلاد فارس. تلقى تعليمه في مدرسة إيتون وجامعة أوكسفورد. وخدم في بعثة جوفاكي، والحملة الأفغانية، وجهار آسياب (المراسلات)، وشيربور، وكابول. ومؤلف كتاب «الطرائد الثقيلة في الهيمالايا الغربية»، 1881، وكتاب «ثلاثة أشهر في الغابة»، 1884. العنوان: شارع كوندويت. النوادي: الهنود البريطانيون، وتانكرفيل، وباجاتل لألعاب الورق.

وقد كُتب على الهامش بخط هولمز الدقيق:

ثاني أخطر رجل في لندن.

قلت وأنا أعيد إليه المجلد: «هذا مذهل، إن سيرة الرجل هي سيرة جندي شريف».

قال هولمز: «هذا صحيح، فقد كان يبلي حسنًا حتى مرحلة معينة. ولطالما كان رجلًا ذا أعصاب حديدية، وما زالت تُروى في الهند قصة زحفه في أحد مصارف المياه وراء نمرٍ جريح من آكلي لحوم البشر. إن بعض الأشجار يا واتسون تنمو إلى ارتفاعٍ بعينه، ثم تنحرف فجأة انحرافًا قبيحًا، وكثيرًا ما نرى مثل هذا في البشر. إن لديَّ نظرية مفادها أن الفرد يمثل في تطوره مسيرة أسلافه كاملةً، وأن مثل هذا التحول المفاجئ إلى الخير أو الشر يعود إلى التأثير القوي لفروع نسبه. ويصبح الشخص، إذا جاز التعبير، صورة مصغرة لتاريخ عائلته».

– هذا دربٌ من الخيال دون شك.

– حسنًا، أنا لا أصرُّ على صحتها. وأيًّا كان السبب، فقد انحرف الكولونيل موران عن طريق الخير. وبرغم أنه لم يفتضح علنًا، فقد أصبحت الهند مكانًا لا يتسع له. فتقاعد وجاء إلى لندن، ومرة أخرى اكتسب سمعة سيئة. وعندئذٍ تقرَّب منه البروفيسور موريارتي، وقد عمل لصالحه لفترة رئيسًا لمساعديه. أغدق موريارتي عليه مالًا وفيرًا ولم يستغله إلا في مهمة أو اثنتين من المهام رفيعة المستوى الذي لم يستطع التعهد بها لأي مجرم عادي. لعلك تذكُر وفاة السيدة ستيوارت من بلدة لودر عام 1، هل تذكرها؟ حسنًا، إنني على يقين من أن موران كان وراءها؛ ولكن يتعذر عليَّ إثبات ذلك. فقد أخفى الكولونيل آثاره بدهاء فائق لم نستطع معه إدانته حتى بعدما تفككت عصابة موريارتي. أتذكر كيف مضيتُ أغلق النوافذ يوم زرتك في مسكنك خوفًا من البنادق الهوائية؟ لا شك أنك ظننتني متوهمًا. كنت أعرف تمامًا ما أفعله، كنت أعرف بوجود هذا السلاح الاستثنائي، وأعرف أيضًا أن أحد أفضل القناصين في العالم سيكون خلفه. وقد طاردنا هو وموريارتي عندما كنا في سويسرا، وكان هو دون ريب من جعلني أعاني تلك الدقائق الخمس اللعينة على حافة شلال رايشنباخ.

لك أن تتخيل كم أمعنت في قراءة الصحف في أثناء إقامتي المؤقتة في فرنسا، متربصًا لأي فرصة للزجِّ به في السجن. فما دام الكولونيل حرًّا طليقًا في لندن، لم تكن حياتي لتستحق أن تُعاش بحال. كان ليلاحقني خياله ليلًا ونهارًا، وآجلًا أو عاجلًا كانت لتسنح له فُرصته. ماذا كان عساني أفعل؟ لم يكن ممكنًا أن أرديه قتيلًا بمجرد أن أراه، إذن لتوجَّب عليَّ أن ألقي بنفسي في قفص الاتهام. ولم يكن

لينفعني استدرار عطف القضاة، فلن يسعهم التدخل فيما قد يبدو مجرد ارتيابٍ جنوني. لذا لم يكن بيدي حيلة سوى ترقُّب أخبار المجرمين، موقنًا أني سأنال منه عاجلًا أو آجلًا. ثم وقعت وفاة رونالد أدير هذا. جاءتني الفرصة أخيرًا! بالمعلومات التي أملُكها بالفعل، ألم يكن الكولونيل موران هو من فعلها دون شك؟ كان يلعب الورق مع الفتى؛ ثم تبعه من النادي إلى المنزل؛ ثم أطلق عليه النار من النافذة المفتوحة. لم يكن ثمَّة شك في هذا. الرصاصات وحدها تكفي للف حبل المشنقة حول عنقه. وهكذا عدتُ على الفور. ورصدني المراقب، الذي عرفت أنه سيوجه انتباه الكولونيل إلى وجودي. لم يسعه إلا أن يربط بين عودتي المفاجئة وجريمته وأن يشعر بقلقٍ رهيب. كنت على يقين من أنه سيسعى لإبعادي عن طريقه على الفور، وأنه سيأتي بسلاحه القاتل لهذا الغرض. فتركتُ له هدفًا ممتازًا وراء النافذة، وأبلغتُ الشرطة بأن وجودهم قد يكون ضروريًّا –بالمناسبة يا واتسون، إنك قد رصدتَ وجودهم في ذلك المدخل بدقة متناهية– فقد اتخذتُ أنا ما بدا لي موقعًا جيدًا للمراقبة، ولم أتصور قط أنه سيختار الموقع ذاته لشن هجومه. والآن يا عزيزي واتسون، هل بقي أي شيء تودّ مني أن أوضحه؟

قلت: «نعم، إنك لم توضح لي الدافع وراء قتل الكولونيل موران للنبيل رونالد أدير».

– آه! أيها العزيز واتسون، ها نحن قد وصلنا إلى مملكة الحدس حيث قد يخطئ أكثر العقول منطقية. يمكن لكل منا أن يضع فرضيته الخاصة بناءً على الدليل الحالي، وفرضيتك قد تكون صحيحة بقدر ما قد تكون فرضيتي.

– إذن، هل وضعت فرضية؟

– لا أظن تفسير الحقائق صعبًا. فقد ورد في شهادة الشهود أن الكولونيل موران والشاب أدير قد ربحا معًا مبلغًا كبيرًا من المال. لا شك أن موران كان يغش في اللعب –إنني على يقين من ذلك. وأظن أن أدير في يوم مقتله قد اكتشف أن موران يغش. وعلى الأرجح تحدَّث معه على انفراد، وهدد بفضحه ما لم يلغِ عضويته في النادي طواعية ويعد بعدم لعب الورق مجددًا. من المستبعد أن يسارع شابٌّ صغير مثل أدير بنشر فضيحة شنعاء تفضح رجلًا شهيرًا يكبره كثيرًا في العمر. لقد تصرَّف هكذا كما تصورتُ على الأرجح. أما إقصاء موران عن نواديه فسوف يعني الخراب له، هو من يعيش على أرباحه غير المشروعة من ألعاب الورق. ولهذا السبب قتل أدير، الذي كان يحاول في تلك اللحظة أن يحسب مقدار المال الذي يتوجب عليه إعادته بنفسه، إذ رفض أن يتربح من اللعب القذر لشريكه. وأغلق الباب خشية أن تفاجئه السيدتان وتصران على معرفة ما يفعله بهذه الأسماء والعملات المعدنية. هل تظن فرضيتي منطقية؟

– ليس لدي أدنى شك في أنك أصبتَ كبد الحقيقة.

– ستؤكد المحاكمة فرضيتي أو تدحضها. وحتى ذلك الحين، ومهما حدث، فلن يزعجنا الكولونيل موران بعد الآن، وسوف تزين البندقية الهوائية الشهيرة لفون هيردر متحف سكوتلاند يارد، وستكون للسيد شيرلوك هولمز الحرية مرة أخرى لكي ما يُكرِّس حياته للتحقيق في تلك القضايا الصغيرة الممتعة التي تجلبها الحياة المعقدة في لندن بوفرة.

مغامرة بنَّاء نوروود

قال السيد شيرلوك هولمز: لقد أصبحت لندن من وجهة نظر الخبير الجنائي مدينة مضجرة إلى حدٍّ غير مألوف منذ وفاة البروفيسور الراحل موريارتي.

فأجبته: لا أظنك ستجد كثيرًا من مواطنينا المحترمين يؤيدون رأيك.

قال مبتسمًا بينما يدفع مقعده للخلف مبتعدًا عن طاولة الإفطار: حسنٌ حسن، يجب ألا أكون أنانيًّا، لا شك أن المجتمع هو الرابح في هذا، وما من خاسر سوى الخبير المسكين العاطل عن العمل، الذي ضاعت وظيفته. لقد كانت جرائد الصباح تحمل للمرء احتمالات لا نهاية لها عندما كان هذا الرجل حاضرًا. لم يكن يترك سوى أثرٍ خافت يا واتسون، علامة واهنة، لكنها كانت كافية لتُخبرني بأن ذاك العقل الخبيث العظيم لم يزل حيًّا، مثلما أن أضعف هزة على حافة الشبكة تذكِّر المرء بالعنكبوت القبيح المتواري في مركزها. سرقات بسيطة، اعتداءات غاشمة، عنفٌ غير مبرر – كلها بالنسبة لمن يمتلك الدلائل بمكانة وحدة متكاملة متصلة. وبالنسبة لطالب علم في مدرسة الإجرام العالمية، لم تقدم أي عاصمة أوروبية المزايا التي قدَّمتها لندن في ذلك الحين. ولكن الآن.. هز كتفيه في استهجانٍ ساخر من الوضع الذي لعب هو دورًا كبيرًا في إرسائه.

في ذاك الوقت الذي أحكي عنه، كان قد مضى على عودة هولمز بضعة أشهر، وكنت قد بعت عيادتي بناءً على طلبه، وعدت لمشاركته في سُكنى منزلنا القديم بشارع بيكر. أما عيادتي الواقعة في شارع كنسنجتون، فقد ابتاعها شاب يُدعى فيرنر، والذي منحني بقليل من الاعتراض، وعلى نحوٍ مريب، أعلى سعر جرؤت على طلبه، وهي الواقعة التي فسرت نفسها بعد بضعة أعوام عندما اكتشفت أن فيرنر على صلة قرابة بعيدة بهولمز، وأن صديقي هو في الواقع صاحب المال.

لم تكن شهور شراكتنا في السكن خالية من الأحداث مثلما ذكر هولمز، فقد وجدتُ عندما راجعت مذكراتي أن تلك الفترة تضمنت قضية أوراق الرئيس السابق موريُّو، وكذا القضية المروعة للباخرة الهولندية فريزلاند، والتي كادت تكلِّف كلينا حياته. ومع ذلك كانت طبيعته الباردة الأبية تنفر من كل أنواع الإطراء العلني، وقد ألزمني بأشد الكلمات صرامة ألا أقول كلمة عنه أو عن أساليبه أو نجاحاته، وهو الإلزام الذي لم يُرفع إلا مؤخرًا، كما سبق وأوضحت.

كان السيد شيرلوك هولمز متكئًا إلى ظهر مقعده بعد شكواه الغريبة، بسط جريدته الصباحية بتروٍّ، عندما لفت انتباهنا ضرب الجرس، تلاه مباشرةً صوت قرع أجوف، كما لو أن أحدهم يطرق بقبضته على الباب الخارجي. وما إن انفتح الباب حتى سمعنا اندفاعه العنيف إلى داخل البهو، ثم وقع أقدامه المسرعة تقعقع على الدَّرج، وبعد لحظة اقتحم الغرفة شابٌّ شديد الاهتياج وقد جحظت عيناه، وجهه ممتقع وشعره أشعث. أخذ ينقل بصره من أحدنا للآخر مرتجفًا، وعندما رأى نظراتنا المتسائلة أدرك أنه بحاجة إلى الاعتذار عن هذا الدخول الفظِّ.

صاح قائلًا: آسف يا سيد هولمز. رجاءً لا تلومني، فأنا أكاد أجن. أعرِّفك بنفسي يا سيد هولمز، أنا البائس جون هيكتور مكفارلن.

أعلن الشاب هذا وكأنما الاسم وحده يشرح سبب زيارته وطريقتها؛ لكنني رأيتُ من تعبيرات وجه صديقي الجامدة أن هذا لم يعني له أكثر مما عنى لي.

قال هولمز وهو يمرر علبة سجائره: تفضل سيجارة سيد مكفارلن، أنا على ثقة مع أعراضك تلك أن الدكتور واتسون سيصف لك عقارًا مهدئًا. لقد كان الطقس حارًّا جدًّا في الأيام القليلة الماضية. والآن إن كنت قد استعدتَ تماسُكك، فسيسرني أن تجلس في هذا المقعد وتخبرنا ببطء وهدوء شديدين من تكون؟ وماذا تريد؟ لقد ذكرت اسمك وكأنما يُفترض أن أكون على دراية به، لكنني أؤكد لك أنِّي لا أعلم عنك شيئًا عدا الحقائق الواضحة، وهي أنك محامٍ أعزب، وعضوٌ في جماعة البنائين الأحرار، ومصابٌ بداء الربو.

ولما كنتُ على دراية بأساليب صديقي، لم يصعُب عليَّ تتبُّع استنتاجاته، وملاحظة ثياب الرجل غير المهندمة، وحزمة الأوراق القانونية في يده، والتميمة المتدلية من سلسلة الساعة، وأنفاسه الحثيثة. أما ضيفنا فقد حدقت إليه بذهول.

– نعم، كل ما قلتَه صحيح يا سيد هولمز، وعلاوة عليه فإنني أتعس الرجال حظًّا في لندن في هذه اللحظة. أستحلفك بالله ألا تتخلى عني يا سيد هولمز! وإن جاؤوا للقبض عليّ قبل أن أنهي قصتي، فاجعلهم يمهلونني وقتًا كي أُخبرك بالحقيقة كاملة. حينها سأذهب إلى السجن برضا وأنا على يقين من أنك تعمل خارجه لأجلي.

قال هولمز: يقبضون عليك! يا له من خبرٍ سا... أقصد مثير للاهتمام. بأي تهمة تتوقع أن يُقبض عليك؟

– بتهمة قتل السيد جوناس أولديكر، القاطن بضاحية لوور نوروود.

أظهرت تعبيرات وجه صديقي تعاطفًا أخشى أنه لم يخلُ كليًّا من الرضا.

قال: يا إلهي! كنت لتوّي أقول لصديقي الدكتور واتسون على مائدة الفطور إن القضايا المثيرة قد اختفت من جرائدنا.

مد ضيفنا يدًا ترتعش والتقط جريدة الديلي تلغراف، التي كانت لا تزال مُلقاة على ركبة هولمز.

– لو نظرت فيها يا سيدي لعلمتَ فورًا القضية التي جئتك بسببها هذا الصباح. إنني أشعر وكأن اسمي ومحنتي قد صارا على لسان الناس أجمعين. ثم قلب صفحات الجريدة ليعرض الصفحة الوسطى. ها هي ذي، وإذا أذنتَ فسوف أقرؤها عليك. استمع لهذا يا سيد هولمز. العنوان الرئيس هو: قضية غامضة بضاحية لوور نوروود. اختفاء بنَّاء معروف. اشتباه في القتل والحرق العمد. دليل على هُوية المجرم. ها هو الدليل الذي يتتبعونه بالفعل يا سيد هولمز، وأنا موقن من أنه يشير إليّ دون شك. إنهم يلاحقونني من محطة جسر لندن، ولا بد أنهم ينتظرون فقط صدور المذكرة للقبض عليّ. سيُحطم هذا قلب أمي – سيُحطم قلبها! اعتصر يديه في خوف وتوجس، وأخذ يهتز إلى الخلف والأمام في كرسيه.

نظرت باهتمام إلى هذا الرجل المتهم بارتكاب جريمة عنف. كان وسيمًا باهتًا ذا شعرٍ أشقر وعينين زرقاوين مذعورتين ووجهٍ حليق وفم واهن مرهف. ربما كان عمره يناهز السابعة والعشرين؛ وشت ملابسه وسلوكه بأن صاحبهما رجلٌ نبيل. وبرزت من جيب سترته الصيفية الخفيفة حزمة من الأوراق القانونية أفصحت عن مهنته.

قال هولمز: يجب أن نستغل الوقت المتاح لنا، هلا تكرمت يا واتسون وتناولت الصحيفة لتقرأ علينا الفقرة المعنية.

فقرأت أسفل العناوين الرئيسة الحامية التي قرأها ضيفنا هذه القصة المثيرة:

– في وقت متأخر من ليلة أمس، أو وقت مبكر من صبيحة هذا اليوم، وقع حادثٌ في لوور نورووود يُخشى أنه يشير إلى جريمة خطيرة. السيد جوناس أولديكر هو أحد السكّان المعروفين في تلك الضاحية التي ظل يعمل فيها بنَّاءً لسنوات عديدة. السيد أولديكر رجلٌ أعزب، يبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، ويسكن في منزل ديب دين، في نهاية شارع سيدنهام. وقد اشتُهر بأنه رجلٌ متحفظٌ وانطوائي له عادات غريبة. كان السيد جوناس شبه متقاعد من عمله منذ عدة سنوات، ذاك العمل الذي قيل إنه حصّلَ منه ثروة طائلة. ومع ذلك، ما زال يحتفظ في الجزء الخلفي من منزله بساحة أخشاب صغيرة. وفي الليلة الماضية، في نحو الثانية عشرة صباحًا، انطلق تحذيرٌ من اندلاع النيران في أحد أكوام الخشب. وسرعان ما وصلت سيارات الإطفاء إلى الموقع، لكنّ الخشب الجاف ظل يحترق بضراوة شديدة، وتعذَّر إيقاف الحريق حتى أتى على كومة حطب كاملة. حتى هذه اللحظة بدا الحادث عاديًّا ولكن ظهرت مؤشراتٌ جديدة تشير إلى وقوع جريمة خطيرة. فقد أثار غياب صاحب المنشأة عن موقع الحريق دهشة الحضور، وتلا ذلك تحرِّيات أظهرت أنه كان غائبًا عن منزله أيضًا. بفحص غرفته تبين أنه لم ينم في فراشه، وأن الخزانة الموجودة فيها كانت مفتوحة، وعددًا من الأوراق المهمة كان مبعثرًا في أرجاء الغرفة، وأخيرًا، ظهرت علامات تشير إلى وقوع صراع قاتل، إذ عُثر على آثار خفيفة من الدم داخل الغرفة، وعكاز من خشب البلوط، وقد ظهر على مقبضه أيضًا بقع من الدم. وقد عُلِم أن السيد جوناس أولديكر قد استقبل ضيفًا في غرفة نومه في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، وتبيَّن أن العصا التي عُثر عليها ملكٌ لهذا الضيف، وهو محامٍ شاب من لندن يُدعى جون هيكتور مكفارلن، الشريك الأصغر في شركة جراهام ومكفارلن، وعنوانها 426 مباني جريشام، في منطقة إيسترن سنترال بلندن. هذا وتعتقد الشرطة أن بحوزتها دليلًا يقدم دافعًا مقنعًا جدًّا لارتكاب الجريمة، ولا شك في أن التطورات المثيرة ستأتي تباعًا.

في وقت لاحق. –أشيع أثناء طباعة الخبر أن السيد جون هيكتور مكفارلن قد اعتُقِل بالفعل بتهمة قتل السيد جوناس أولديكر. ومن المؤكد على أقل تقدير أنه قد أُصدِرت مذكرة اعتقال في حقه. تضمَّنت التحريات التي أُجريت في نورووود تطوراتٍ مشؤومة. فإلى جانب علامات الصراع في غرفة البنَّاء التعِس، وُجدت النوافذ الفرنسية لغرفة نومه (الموجودة في الطابق الأرضي) مفتوحة، ووُجدت علامات تدل على سحب جسمٍ ضخم إلى كومة الخشب. وأخيرًا، يؤكد التحقيق على أنه قد عُثِر على بقايا متفحمة بين رماد الخشب المحترق. وتعتقد الشرطة أن جريمة من أكثر الجرائم إثارة قد ارتكبت؛ حيث ضُرب الضحية بهراوة حتى الموت في غرفة نومه، وفُتِّشت أوراقه، وسُحِبت جثته إلى كومة الخشب، ثم أُضرِمت فيها النيران لإخفاء كل آثار الجريمة. وقد تولَّى الإشراف على التحقيق الجنائي المفتش المخضرم ليستراد، من شرطة سكوتلاند يارد، الذي يتتبع القرائن بحماسته وحكمته المعهودتين.

استمع شيرلوك هولمز لهذه القصة الغريبة بعينين مغلقتين وقد ألصق رؤوس أصابع كل يدٍ بالأخرى.

قال بلهجته الفاترة: في هذه القضية بعض النقاط المثيرة للاهتمام دون شك، هل لي أولًا أن أسألك يا سيد مكفارلن كيف لا تزال طليقًا في حين تبدو الأدلة كافية لتبرير اعتقالك؟

– إنني مقيم مع والديّ يا سيد هولمز في تورينجتن لودج، بمقاطعة بلاكهيث؛ لكنني اضطررت في الليلة الماضية إلى العمل حتى وقت متأخر جدًّا مع السيد جوناس أولديكر، فمكثت في فندق في نوروود، وأتيت إليكم من هناك. لم أكن أعرف شيئًا عن هذه القضية حتى استقللت القطار، وحينها قرأتُ ما سمعته أنت لتوك. فأدركت على الفور خطورة موقفي، وهرعتُ لأضع القضية بين يديك. إنني واثق من أنهم حاولوا إلقاء القبض عليّ إما من مكتبي بلندن أو من منزلي. لقد تبعني رجل من محطة جسر لندن، ولا شك لديَّ – يا إلهي! ما هذا؟

كان هذا رنين الجرس، أعقبه مباشرةً وقع خطوات ثقيلة على الدَّرج. وبعد لحظة ظهر صديقُنا القديم ليسترِاد عند مدخل الباب. ولمحت من وراءه شرطيًّا أو اثنين يقفان بالخارج في زيهما الرسمي.

قال ليستراد: السيد جون هيكتور مكفارلن؟

فنهض عميلنا التعِس بوجهٍ ممتقع.

– إنني أعتقلك بتهمة القتل العمد للسيد جوناس أولديكر، القاطن بضاحية لوور نوروود.

التفت إلينا مكفارلن بيأس ثم غاصَ في كرسيه مرة أخرى محطَّمًا.

قال هولمز: أمهلنا قليلًا يا ليستراد. فنصف ساعة أو نحوها لن تصنع فارقًا بالنسبة لك. فهذا السيد المهذب كان على وشك أن يسرد لنا ملابسات هذه القضية المثيرة، علَّ ذلك يساعدنا على حلها.

قال ليستراد متجهمًا: لا أظنُّ أن ثمة صعوبة في حلها.

– بيد أني مهتمٌّ لسماع روايته بشدة.

قال ليستراد: حسنًا يا سيد هولمز. يصعب عليّ أن أرفض أي طلبٍ لك، فقد أفدت الشرطة مرة أو مرتين في الماضي، ونحن شرطة سكوتلاند يارد مدينون لك برد الجميل، ولكنِّي في الوقت ذاته ملزمٌ بالبقاء مع سجيني، وملزمٌ بتحذيره من أن أي شيءٍ يقوله يمكن أن يُستخدَم ضده.

قال ضيفنا: لا أطمع فيما هو أكثر. كل ما أطلبه هو أن تسمعوا الحقيقة المطلقة وتتعرَّفوها.

نظر ليستراد إلى ساعته قائلًا: سأمنحكم نصف الساعة.

قال مكفارلن: عليَّ أن أوضح قبل أي شيء إنني لم أكُن أعرف شيئًا عن السيد جوناس أولديكر. كان اسمه مألوفًا لي، فقد عَرفه والداي منذ سنوات عديدة، لكنَّ السبلَ تفرقت بهم. ولذلك فوجئت كثيرًا عندما دخل إلى مكتبي بالمدينة بالأمس في الثالثة عصرًا. وزادت دهشتي حينما أخبرني بسبب الزيارة. كان يحمل في يده عدة أوراق مأخوذة من مفكرة ما، ومغطاة بكلمات خُطَّت على عجل –ها هي ذي– ثم وضعها على مكتبي قائلًا:

تلك وصيتي يا سيد مكفارلن، أودُّ منك أن تضعها في إطارٍ قانوني مناسب، وسوف أجلس هنا ريثما تفعل ذلك.

وهكذا انكببتُ على نسخها، ولك أن تتخيل ذهولي عندما وجدته قد أوصى لي، مع بعض التحفظات، بجميع ممتلكاته. كان رجلًا غريبًا ضئيل البنية يشبه حيوان النمس، له رموشٌ بيضاء، وحينما نظرت إليه رأيتُ عينيه الرماديتين الثاقبتين مثبتتين عليّ بتعبير يدلُّ على الاستمتاع. بالكاد استطعت تصديق عينيَّ وأنا أقرأ بنود الوصية لكنه وضَّح أنه أعزب بلا أقرباء على قيد الحياة تقريبًا، وأنه كان يعرف والديَّ في شبابه، ولطالما سمع بكوني شابًّا أهلًا للدعم، وأنه موقن من أن ماله سيكون في أيدٍ أمينة. بالطبع لم يسعني إلا أن أشكره متلعثمًا. ثم أنهيت الوصية كما طلب ووقَّعنا عليها وشهد عليها كاتبي. هذه الورقة الزرقاء هي الوصيّة التي نسختُها، وهذه القصاصات هي المسودَّة، كما أوضحت سلفًا. بعدها أخبرني السيد جوناس أولديكر بأن ثمَّة عددًا من المستندات –عقود بناء، وسندات ملكية، ورهون عقارية، وأسهم، وما إلى ذلك– التي يُفترض بي الاطلاع عليها وفهمها. أخبرني بأنه لن يهدأ له بالٌ حتى يسوّى كل شيء، وتوسَّل إليَّ أن أزوره في منزله بنوروود تلك الليلة، وأن أجلب الوصية معي لتسوية الأمور. وقال: تذكر يا بُني ألا تذكر كلمة واحدة عن الأمر لأبويك حتى تُسوَّى الأمور كلها. سنحتفظ بها مفاجأةً صغيرة لهما. كان مصرًّا جدًّا على هذه النقطة، وجعلني أعِده بالوفاء بها.

لك أن تتخيل يا سيد هولمز كم كنتُ في وضع لا يسمح لي برفض أي طلبٍ يطلبه مني. فقد كان وليَّ نعمتي، وكل رغبتي أن أحقق أمانيه على كافة وجوهها. لذلك أرسلتُ برقية إلى المنزل أقول فيها إنني منشغلٌ بعملٍ مهم، وأنه يتعذَّر عليَّ أن أعرف إلى متى سأتأخر. أما السيد أولديكر فقد أخبرني أنه يرغب في تناول العشاء معي في التاسعة، لأنه قد لا يصل إلى منزله قبل تلك الساعة. بيد أني واجهتُ شيئًا من الصعوبة في العثور على منزله، ومرَّت نصف ساعة زائدة قبل أن أصل إليه. وحينها وجدته.

قال هولمز: لحظة واحدة! من فتح لك الباب؟

– سيدة في منتصف العمر، أظنُّها مدبرة المنزل.

– وهل هي، حسبما أظن، مَن ذكرت اسمَك؟

قال مكفارلن: بالضبط.

– أكمِل من فضلك.

مسح مكفارلن جبينه المندَّى ثم استأنف روايته: –

– قادتني المرأة إلى غرفة جلوس أُعِد فيها عشاءٌ زهيد. وبعدها اصطحبني السيد جوناس أولديكر إلى غرفة نومه، التي رأيتُ بها خِزانة ثقيلة. فتحها وأخرج حزمة من المستندات فحصناها معًا. وكانت الساعة بين الحادية عشرة والثانية عشرة حينما انتهينا. قال إن علينا ألا نزعج مدبرة المنزل، وأرشدني إلى طريق الخروج مشيرًا إليه من نافذته الفرنسية، التي كانت مفتوحة طيلة مدة الزيارة.

سأل هولمز: هل كانت الستائر مسدلة؟

– لست متأكدًا، لكنني أظنُّها كانت نصف مسدلة. نعم، أذكُر كيف سحبها لأعلى حتى يفتح النافذة. لم أستطع العثور على عصاي، فقال: لا تهتم يا بني، فأنا آمل أن أراكَ كثيرًا في الفترة القادمة، وسوف أحتفظ بعصاك ريثما تعود وتطالب بها. تركته هناك، وكانت الخزانة مفتوحة، والأوراق مكدَّسة في حزم

على الطاولة. كان الوقت متأخرًا جدًّا على الرجوع إلى بلاكهيث، لذلك أمضيتُ الليلة في نزل أنيرلي آرمز، ولم أعرف المزيد حتى قرأتُ هذه القصة المروعة في الصباح.

قال ليستراد الذي ارتفع حاجباه مرة أو مرتين خلال هذا السرد الغريب: هل من شيءٍ آخر تودُّ أن تسأل عنه يا سيد هولمز؟

– ليس قبل أن أذهب إلى بلاكهيث.

قال ليستراد: تقصِد نوروود.

– أوه، نعم؛ لا شك أن هذا هو ما قصدته. قالها هولمز بابتسامته الغامضة. لقد تعلَّم ليستراد من خلال تجارب أكثر مما يريد الاعتراف به أن هذا العقلَ الحادَّ كالموسى يمكنه أن يصل إلى ما يعدُّه هو عصيًّا على الفهم. ورأيته ينظر إلى صديقي نظرة تفيض بالفضول.

قال: أعتقد أن علينا التحدث معًا حالًا يا سيد هولمز، والآن يا سيد مكفارلن ثمة شرطيان بالخارج وعربة بانتظارك على الباب. فنهض الشاب التعِس وخرج من الغرفة وهو يرمقنا بنظرة تضرُّع أخيرة. أوصله الشرطيان إلى العربة، لكنَّ ليستراد بقي.

كان هولمز قد التقط القصاصات التي شكَّلت مسودَّة الوصية، وأخذ يعاينها وقد اعتلى وجهه اهتمامٌ بالغ.

قال: توجد بعض الملاحظات بشأن هذه الوثيقة يا ليستراد، أليس كذلك؟ ودفعها باتجاهه.

نظر المفتش إليها بحيرة.

وقال: يمكنني قراءة السطور القليلة الأولى، وتلك التي في منتصف الصفحة الثانية، وسطرٍ أو اثنين في النهاية. فتلك السطور واضحة كما لو أنها مطبوعة، بيد أن خطَّ الكتابة فيما بينها سيئٌ جدًّا، وهناك ثلاثة مواضع لا يمكنني قراءتها البتة.

قال هولمز: ماذا تستنتج من هذا؟

– حسنًا، ما الذي تستنتجه أنت من هذا؟

– لقد كُتبت في قطار؛ الخط الجيد يمثل المحطات، والخط السيئ يمثل الحركة، والخط البالغ السوء يمثل المرور فوق محولات السكة الحديدية. من شأن العين الخبيرة بالخطوط أن تُدرك على الفور أن هذه الوثيقة قد صيغت على أحد خطوط السكك الحديدية المارة عبر ضاحية ما، حيث لا يمكن لأي مكان، بخلاف المناطق المجاورة للمدن الكبرى، أن يكون به هذا التسلسل السريع لمحولات السكك الحديدية. وإذا أقررنا أنه انشغل طوال رحلته في صياغة الوصية، فلابد أنه استقل قطارًا سريعًا، لم يتوقف إلا مرة واحدة بين محطتي نوروود وجسر لندن.

طفق ليستراد يضحك ثم قال:

– إنك تغلبني عندما تبدأ في طرح نظرياتك يا سيد هولمز. وما تأثير هذا على القضية؟

– حسنًا، إنه يؤكِّد قصة الشاب؛ أن جوناس أولديكر قد صاغ الوصية خلال رحلته بالأمس. هذا مثير للفضول، أليس كذلك؟ أن يكتب أحدهم مثل هذه الوثيقة الشديدة الأهمية بهذه الطريقة المغرِقة في

العشوائية. هذا يدلُّ على أنه لم يكن يعتبرها ذات أهمية عملية كبيرة. فلو أراد أحدهم أن يكتب وصية لا ينوي تنفيذها مطلقًا، لفعل مثل هذا الرجل.

قال ليستراد: حسنًا، لقد صاغ شهادة وفاته بيده في الوقت نفسه.

– أوه، هل تظن ذلك؟

– ألا تظنه أنت؟

– حسنًا، هذا وارد جدًّا؛ لكن القضية لم تزل غير واضحة لي.

غير واضحة؟ لو لم تكن هذه القضية واضحة، فماذا عساه يكون واضحًا إذن؟ ها هو ذا شاب يدرك فجأة أنه في حالة توفي كهل بعينه سيجني ثروة. فماذا يفعل؟ لن يتفوَّه بكلمة لأحد، لكنه يختلق ذريعة ما لزيارة عميله في تلك الليلة؛ وينتظر حتى يذهب الشخص الوحيد الآخر في المنزل إلى فراشه، ثم يقتل الرجل في غرفته المنعزلة، ويحرق جثته في كومة الحطب، وينصرف إلى فندق مجاور. إن بقع الدم في الغرفة وكذلك على العصا تكاد لا تُذكر. ربما ظنَّ أن جريمته قد تمت دون إراقة دماء، وأمِل إن اختفت الجثة أن تُخفي معها كل أثر يدل على طريقة وفاتها – تلك الآثار التي قد تشير إليه، لسببٍ أو لآخر. أليس هذا كله واضحًا؟

قال هولمز: إن ما يُدهشني أيها العزيز الطيب ليستراد هو الوضوح الشديد للمسألة. إن الخيال ليس من صفاتك العظيمة؛ ولكن إذا استطعت للحظة واحدة أن تضع نفسك في مكان ذلك الشاب، هل ستختار الليلة التالية لكتابة الوصية بالذات لارتكاب جريمتك؟ ألن يبدو لك خطيرًا أن تصنع صلة وثيقة بين الحدثين؟ ثم هل ستختار مناسبة يكون وجودك في المنزل معروفًا فيها، وقد سمحت لك الخادمة بالدخول؟ وأخيرًا، هل ستبذل جهدًا كبيرًا لإخفاء الجثة ورغم هذا تترك عصاك دليلًا على ارتكابك للجريمة؟ اعترف يا ليستراد، إن هذا كله مستبعد الحدوث جدًّا.

– بالنسبة للعصا يا سيد هولمز، فأنت تعلم مثلما أعلم أن كثيرًا ما يكون المجرم مشتتًا ويفعل أشياء كان ليتجنبها رجلٌ هادئ الأعصاب. واردٌ جدًّا أن يكون قد خشي العودة إلى الغرفة. أعطني نظرية أخرى تناسِب الوقائع.

قال هولمز: يمكنني بمنتهى السهولة أن أمنحك دزينة منها، إليك على سبيل المثال نظرية ممكنة جدًّا، بل مرجحة كذلك. اعتبرها هدية مجانية. يعرض الرجل العجوز وثائق ذات قيمة واضحة. فيراها متشردٌ عابر من خلال النافذة ذات الستائر نصف المنسدلة. يخرج المحامي فيدخل المتشرد! يلاحظ وجود عصا فيمسك بها، ويقتل أولديكر، ويغادر بعد إحراق الجثة.

– ولِمَ قد يُحرِق المتشرد الجثة؟

– لِم قد يُحرِقها مكفارلن إذن؟

– لإخفاء دليل ما.

– ربما أراد المتشرد أن يُخفي وقوع أية جريمة بالمرة.

– ولمَ لم يسرق المتشرد أي شيء؟

– لأنها كانت أوراقًا لا يستطيع تداوُلها.

هز ليستراد رأسه، رغم أن سلوكه بدا لي أقل ثقةً من ذي قبل.

– حسنًا يا سيد شيرلوك هولمز، يمكنك البحث عن متشردك، وريثما تجده سنحتفظ بصاحبنا هذا. سوف يُظهر المستقبل أي النظريتين هي الصحيحة. ولكن انتبه فحسب لهذه النقطة يا سيد هولمز: فحتى الآن، حسبما نعلم، لم تختفِ أي من الأوراق، والسجين هو الوحيد في العالم الذي لا يملك دافعًا لإخفائها، وذلك لأنه الوريث القانوني وسيرِثُها على أية حال.

بدا صديقي قد فوجئ بتلك الملاحظة.

وقال: لا أعتزم أن أنكر أن الأدلة من بعض نواحيها تدعم نظريتك بشدة، إنما أودُّ الإشارة فحسب إلى وجود نظريات أخرى محتملة الحدوث. وكما قلت، من شأن المستقبل أن يحسم المسألة. طاب صباحك! أظن أنني سأمرُّ بنوروود خلال اليوم لأرى ما وصلتَ إليه في تحقيقك.

نهض صديقي فور انصراف المفتش وأخذ يستعد لعمل اليوم بهمَّة رجلٍ تنتظره مهمة جديرة به.

قال وهو يرتدي معطفه الطويل: لا بد أن تكون وجهتي الأولى يا واتسون، كما قلت، إلى بلاكهيث.

– ولِمَ ليس إلى نوروود؟

– لأننا في قضيتنا هذه لدينا حادث جاء في أعقاب حادث آخر. وقد ارتكبت الشرطة خطأً بتركيز انتباهها على الحادث الثاني، إذ تصادف أن يكون هو الحادث الجنائي. لكن من الجلي بالنسبة إليَّ أن الأسلوب المنطقي لحل القضية هو البدء بمحاولة إلقاء بعض الضوء على الحادث الأول – الوصية الغامضة، التي كُتبت فجأة لوريث غير متوقع. قد يُسهم هذا قليلًا في تبسيط ما تلاه. ولا يا صديقي العزيز، لا أظنك تستطيع المساعدة. وقوع الخطر ليس محتملًا، وإلا ما كنت لأحلم بالتحرُّك من دونك. إنني واثق من أنِّي سأخبرك حينما أراك في المساء أنني قد تمكَّنت من مساعدة هذا الشاب البائس الذي استجار بي.

تأخر صديقي في العودة، واستطعت أن أرى بنظرةٍ واحدة إلى وجهه الذي أنهكه القلق أن آماله العريضة لم تتحقق. ظلَّ لساعة يعزف على آلة الكمان خاصته محاولًا تهدئة مزاجه المتكدر. وفي النهاية ألقى الآلة أرضًا وانهمك في سردٍ مفصَّل لحظِّه العاثر.

– الأمور كلها تسير بسوء يا واتسون – بأسوأ ما يكون. لقد تحلَّيت بالجرأة أمام ليستراد، لكنني أعتقد لأول مرة أن الرجل يمضي على الطريق الصحيح ونحن على الطريق الخطأ. إنَّ حدسي كله في اتجاه والوقائع كلها في الاتجاه الآخر، وأخشى ما أخشاه ألا تتسم هيئة المحلفين البريطانية بالذكاء الذي يجعلها تعطي الأفضلية لنظرياتي على حساب وقائع ليستراد.

– هل ذهبت إلى بلاكهيث؟

– نعم يا واتسون، لقد ذهبت إلى هناك، وسرعان ما اكتشفتُ أن الراحل المأسوف عليه أولديكر كان وغدًا كبيرًا. كان الأب قد خرج يبحث عن ابنه، بينما وجدت الأم في المنزل. امرأة رقيقة المشاعر ضئيلة البنية زرقاء العينين، ترجف خوفًا وغضبًا. وبالطبع لم تعترف ولو حتى باحتمالية أن يكون ابنها

مذنبًا، لكنها لم تُبدِ دهشةً أو أسفًا على مصير أولديكر. بل على العكس تمامًا، تحدثت عنه بازدراء شديد لدرجة أنها عززت، من دون قصد، دعوى الشرطة إلى حدٍّ بعيد. ذلك لأن ابنها لو سمع حديثها عن الرجل بهذه الطريقة، لأوجد فيه هذا ميلًا لكراهيته واستخدام العنف ضده بطبيعة الحال. فقد قالت: كان أشبه بقردٍ ماكر خبيث أكثر من كونه إنسانًا، وهكذا كان دومًا، منذ أن كان شابًّا.

سألتُها: هل كنت تعرفينه حينها؟

– نعم، كنت أعرفه جيدًا. الواقع أنه كان خاطبًا قديمًا لي. وحمدًا لله أنني شعرتُ برغبة في الابتعاد عنه والزواج برجلٍ أفضل، حتى وإن كان أفقر. لقد كنت مخطوبة له يا سيد هولمز حينما سمعت بقصة صادمة عن إطلاقه قطة في قفصٍ للطيور، وقد روَّعتني قسوته الوحشية لدرجة أنني لم أرِد أن يربطني به شيء. ثم مضت تفتش في مكتبٍ، وما لبثت أن استخرجَت لي صورة لامرأة مشوهة وممزقة بطريقة فاضحة باستخدام سكين. وقالت: هذه صورتي، وقد أرسلها لي في تلك الحالة صبيحة زفافي مصحوبة بلعناته.

فقلتُ لها: حسنٌ لقد سامحك الآن على أية حال. فقد ترك كل ممتلكاته لابنك.

صاحت بانفعال حقيقي: لا أنا ولا ابني نريد شيئًا من جوناس أولديكر، حيًّا كان أو ميتًا. إنني أثق في عدالة الله يا سيد هولمز، هو من عاقب هذا الرجل اللئيم، وهو نفسه من سيُظهر براءة ابني من دمه، في الوقت المناسب.

وهكذا حاولت تتبع خيطٍ أو اثنين، بيد أني لم أصل لشيءٍ قد يؤيد فرضيتنا، بل وجدت عدة نقاط من شأنها أن تعارضها. فاستسلمت في النهاية وانصرفت إلى نوروود.

كان ذاك المكان المسمَّى ديب دين عبارة عن فيلَّا حديثة مبنية من الطوب الصخري، تقع في الجزء الخلفي من الأراضي التابعة لها، يمتدَّ أمامها مرجٌ من آجامِ نبات الغار. أما إلى يمينها، وعلى مسافة ما من الطريق، فقد قامت ساحة الأخشاب التي وقع فيها الحريق. ها هي ذي خريطة تقريبية لها على ورقة من مفكِّرتي. هذه النافذة على اليسار هي نافذة غرفة أولديكر. ويمكن للسائر في الطريق أن يلقي نظرة داخلها كما ترى. وهذا هو العزاء الوحيد فيما توصلت إليه اليوم. لم يكن ليستراد هناك، لكنَّ رئيسَ ضبَّاطه حظي بالشرف. فقد عثروا لتوهم على كنزٍ دفين. كانوا قد قضوا الصباح كله ينبشون بين رماد كومة الحطب المحترق، وإلى جانب البقايا العضوية المتفحمة، عثروا على عدة أقراص معدنية تغيَّر لونها. فحصتُها بعناية، ولم يكن ثمَّ شك في أنها أزرار سروال. بل ميزتُ أيضًا أن أحدها يحمل اسم هايامز، الذي كان خيَّاط أولديكر. ثم بحثت في المرج بعناية شديدة بحثًا عن علامات وآثار، لكن الجفاف جعل كل شيء بصلابة الحديد. تعذَّر عليَّ رؤية أي شيء باستثناء آثار جرِّ جسمٍ ما عبر سياج منخفض من شجيرات الحناء يمتد بموازاة كومة الأخشاب. كل هذا بالطبع يتناسب مع النظرية الرسمية. ظللت أزحف ببطء على المرج وشمس أغسطس تحرق ظهري، لكنني نهضتُ بعد ساعة دون أن أصل إلى شيء.

حسنٌ، وبعد هذا الفشل الذريع ذهبت إلى غرفة النوم وفحصتها هي الأخرى. كانت بقع الدم خافتة جدًّا، مجرَّد لطخات وتغيُّر في اللون، غير أنها كانت لدمٍ أُريق حديثًا دون شك. لم تكن العصا هناك، لكن

قيل إن العلامات عليها كانت خافتة كذلك. لا شك في أن العصا تخصُّ عميلنا، فقد اعترف بهذا. وأمكنني تمييز آثار قدمي كلا الرجلين على السجادة، لكن لا أثر لوجود شخص ثالث، وتلك نقطة أخرى في صالح الجانب الآخر. كانت النقاط تتراكم لصالحهم طوال الوقت فيما بقينا نحنُ في طريقنا المسدود.

لم أجنِ سوى بصيص أملٍ صغير – رغم أنه لا يمثل شيئًا. فقد فحصت محتويات الخزانة، والتي أُخرج أغلبها وتُرِك على الطاولة. كانت الأوراق موضوعة داخل مظاريف مختومة فتحت الشرطة واحدًا أو اثنين منها. لم تكن من وجهة نظري ذات قيمة مادية كبيرة، وكذا دفتر الحساب المصرفي الذي لم يدل على تمتُّع السيد أولديكر بهذا القدر الكبير من الثراء. ولكن بدا لي أن ثمة أوراقًا ناقصة، إذ عثرتُ على إشارات لبعض الوثائق –ربما الأكثر قيمة– التي لم تكن موجودة بين الأوراق. لا شك أننا إذا تمكنَّا من إثبات غيابِها، فسوف تتحوَّل حُجَّة ليستراد ضده، فمن ذا الذي يسرق شيئًا يعلم أنه سيرثه عما قريب؟

وفي النهاية، بعدما فتَّشت الأماكن كلها ولم أصل لشيء، مضيتُ أجرِّب حظي مع مدبرة المنزل، السيدة ليكسنتون، وهي امرأة داكنة ضئيلة البنية صموت، لها نظرة جانبية مريبة. كان بإمكانها أن تدلنا على شيءٍ ما لو أرادت –إنني واثقٌ من هذا. لكنها بدت كأنما تحتفظ بأسرارها في بئر عميقة. بلى، لقد سمحت للسيد مكفارلن بالدخول في الساعة التاسعة والنصف. وتمنت لو أن يدها قد شُلّت قبل أن تفعل ذلك. وقد آوت إلى الفراش في العاشرة والنصف. كانت غرفتها في الطرف الآخر من المنزل، لذا لم تسمع شيئًا مما حدث. ترك السيد مكفارلن قُبعته في البهو، وأغلب ظنها أنه ترك عصاه أيضًا. ولم يوقظها إلا إنذار الحريق. لقد قُتل سيدها العزيز المسكين لا محالة. هل كان لديه أيُّ أعداء؟ حسنٌ، كل إنسان له أعدائه، غير أن السيد أولديكر كان يُبقي نفسه بمعزل عن الناس، ولم يكن يجتمع بأحدٍ إلا لأجل العمل. وحينما رأت الأزرار أكَّدت أنها تخص الثياب التي كان يرتديها السيد أولديكر في الليلة السابقة. كانت كومة الحطب جافة جدًّا، إذ إن السماء لم تُمطِر منذ شهر، ولذا دبَّت فيها النار كأنها الهشيم، وفي الوقت الذي بلغت فيه الخادمة المكان، لم يسعها أن ترى شيئًا سوى اللهب. وقد ميزت هي وجميع رجال الإطفاء رائحة اللحم المحترق المنبعثة منه. لم تدرِ شيئًا عن الأوراق ولا عن شؤون السيد أولديكر الخاصة.

ها هو ذا تقريري عن فشلي يا عزيزي واتسون. ومع ذلك... مع ذلك...

ضم قبضتيه النحيلتين وقد اعتراه يقينٌ دفين، وقال:

– أعلم أن هذا كله خطأ. أشعر به في قرارة نفسي. ثمَّة شيء لم يظهر بعد، ومدبرة المنزل تلك تعرفه. لقد رأيت نوعًا من التحدي في عينيها العابستين، والذي لا يُرافق إلا المتسترين على الجرائم. ولكن لا طائل من الحديث يا واتسون؛ فما لم تصادفنا ضربة حظ فإنني أخشى أنَّ قضية اختفاء نوروود لن تُضاف إلى هذا السجل التاريخي لنجاحاتنا، وهذا ما أتوقع أن يكون جمهورنا الصبور مضطرًّا لتقبله، عاجلًا كان أم آجلًا.

قلتُ: مؤكَّد أن هيئة الشاب ستُدِر عطف هيئة المحلفين، أليس كذلك؟

– تلك حُجة محفوفة بالمخاطر يا عزيزي واتسون. أتذكُر ذاك القاتل المروع المدعو بيرت ستيفنز، الذي أرادنا أن نُظهر براءته عام 1887؟ هل شهدتَ يومًا شابًّا من طلاب المدارس الدينية أدمث خُلقًا

منه؟

– معك حق.

– ما لم ننجح في التوصل إلى نظرية بديلة، فإن مصير هذا الرجل إلى الضياع. إنني لا أكادُ أجد ثغرة في الدعوى المقدمة ضده، بل إن جميع التحقيقات الإضافية قد ساعدت في تعزيزها. بالمناسبة، لقد لاحظتُ نقطة صغيرة مثيرة للفضول بشأن تلك الأوراق التي قد تكون نقطة انطلاقنا في هذا التحقيق. حينما نظرتُ في دفتر الحساب المصرفي، وجدتُ أن السبب الأساسي في انخفاض قيمة الرصيد يعود إلى الشيكات الكبيرة التي صُرفت خلال العام الماضي إلى السيد كورنيليوس. وأقرُّ أنِّي أتطلع لمعرفة من عساه يكون السيد كورنيليوس هذا، الذي أجرى معه بنَّاءٌ متقاعد مثل هذه المعاملات المالية الضخمة. هل من الممكن أن يكون له يدٌ في القضية؟ ربما كان كورنيليوس سمسارًا، لكننا لم نعثر على أي سندٍ يتوافق مع تلك المدفوعات الكبيرة. وفي غياب أي دلائل أخرى، عليَّ أن أنتقل بتحرياتي الآن إلى المصرف للاستفسار عن هذا الرجل الذي صرف تلك الشيكات. ولكني أخشى يا زميلي العزيز أن تنتهي قضيتنا نهاية شائنة يقدِّم فيها ليستراد صاحبنا إلى حبل المشنقة، وهو ما سيكون دون شك انتصارًا لشرطة سكوتلاند يارد.

لا أعرف مقدار ما حصل عليه شيرلوك هولمز من النوم تلك الليلة، لكنني عندما نزلتُ لتناول الإفطار وجدته ممتقع الوجه منهكًا، وعيناه المتقدتان أشدُّ لمعانًا من أثر الظلال السوداء المحيطة بهما. كان البساط حول كرسيه مغطًّى بأعقاب السجائر وبالطبعات الأولى لجرائد الصباح. وقد أُلقيت على الطاولة برقية مفتوحة.

سألني وهو يقذف بالبرقية نحوي: ما رأيك في هذا يا واتسون؟

كانت من نورووود، وتقول:

– دليلٌ مهمٌّ جديد. تهمة مكفارلن ثابتة لا ريب فيها. أنصحُك بالتخلي عن القضية. – ليستراد

قلت: يبدو جادًّا.

فأجاب هولمز بابتسامة مريرة: إنه ليستراد يتفصَّح بانتصاراته التافهة، ومع ذلك، ربما لا يزال التخلي عن القضية سابقًا لأوانه. فالأدلة المهمة الجديدة سلاح ذو حدين على كل حال، وربما تُصيب اتجاهًا مختلفًا تمامًا عن ذاك الذي يتصوره ليستراد. تناول إفطارك يا واتسون وسوف نذهب معًا لنرى ما يسعنا فعله. أحسُّ أني بحاجة إلى رفقتك ودعمك المعنوي اليوم.

لم يتناول صديقي إفطاره، فقد كانت إحدى سماته الغريبة أنه لا يسمح لنفسه بتناول الطعام في لحظات الشدة، وقد عهدته يعول على قوته الحديدية حتى يسقط مغشيًّا عليه من الإعياء، وكان يقول ردًّا على احتجاجاتي الطبية: لا يمكنني في الوقت الحالي أن أهدر طاقتي وقوة أعصابي في الهضم. لذلك لم أتفاجأ عندما ترك وجبته دون مساس هذا الصباح، وانطلق معي إلى نورووود. كان لا يزال حشدٌ من المتفرجين المهووسين متجمِّعين حول منزل ديب دين، الذي لم يكن سوى فيلًا من فيلّات الضواحي تمامًا مثلما تخيلته. قابلنا ليستراد عند البوابة، وقد توهَّج وجهه بالنصر، ونضح سلوكه بالظفر.

صاح: حسنًا يا سيد هولمز، هل أثبتَّ خطأنا بعد؟ هل وجدت المتشرد؟

أجاب رفيقي: لم أصِل إلى أي نتيجة.

– لكننا وصلنا إليها بالأمس، والآن ثبتت صحتها؛ لذا عليكَ أن تقر بأننا سبقناك بخطوة هذه المرة يا سيد هولمز.

قال هولمز: واضحٌ أنك تشعر بأن هذا خارجٌ عن المألوف.

ضحك ليستراد بصوتٍ عالٍ وقال:

– إن كراهيتك للهزيمة لا تزيد عن أي مِنا، ولكن لا يمكن للمرء أن يتوقع أن تسير الأمور على هواه طوال الوقت، أليس كذلك أيها الدكتور واتسون؟ تفضَّلا إذا سمحتما أيها السيدان وأعتقد أنِّي سأقنعكما تمام الإقناع بأن جون مكفارلن هو مرتكب هذه الجريمة.

قادنا عبر الممر ومنه إلى البهو المظلم في الطرف الآخر.

وقال: هنا حيث لا بد أن الشاب مكفارلن قد جاء ليأخذ قبعته بعد أن ارتكب جريمته، والآن، انظرا إلى هذا. وبطريقة درامية مفاجئة أشعل ليستراد عودًا من الثقاب وكشف بضوئه بقعة دمٍ على الجدار المطلي بالأبيض. وبينما قرَّب الثقاب أدركتُ أنها كانت أكثر من بقعة. كانت بصمة إبهام واضحة.

انظر إليها بعدستك المكبرة يا سيد هولمز.

– نعم، ها أنا أفعل.

– إنك تدرك أنه ما من بصمتين متطابقتين، أليس كذلك؟

– لقد سمعت شيئًا من هذا القبيل.

– حسنٌ إذن، هلا قارنت من فضلك هذه البصمة بتلك الطبعة الشمعية لبصمة إبهام الشاب مكفارلن الأيمن، التي أمرتُ بنسخها هذا الصباح؟

وبينما حمل الطبعة الشمعية بالقرب من بقعة الدم، لم يتطلب الأمر عدسة مكبرة لإدراك أن كلتا البصمتين كانتا دون شك لنفس الإصبع. بدا لي واضحًا أن عميلنا البائس قد هلك.

قال ليستراد: هذه هي النهاية.

فردَّدتُ تلقائيًّا: نعم، إنها النهاية.

قال هولمز: إنها النهاية.

لفت شيء في نبرته انتباهي، فالتفتُّ لأنظر إليه. كان تغييرًا عجيبًا قد طرأ على وجهه، كأنما يصارع بهجة داخلية. لمعت عيناه كالنجوم. وبدا لي كما لو كان يبذل مجهودًا جبارًا كي يمنع نفسه من الانفجار في الضحك.

ثم قال أخيرًا: يا إلهي! يا إلهي! حسنٌ، والآن من كان ليصدق ذلك؟ وكم يمكن للمظاهر أن تكون خادعة، بالتأكيد! يا له من شاب يبدو للناظر إليه لطيفًا! ذلك درسٌ لنا حتى لا نثق في حكمنا، أليس كذلك يا ليستراد؟

قال ليستراد: بلى، فبعضنا يتعمَّد التصرف بغرور بعض الشيء يا سيد هولمز.

كانت وقاحة الرجل مستفزة، لكننا لم نغضب منها.

– يا لحسن الحظ الذي جعل هذا الشاب يضغط على الحائط بإبهامه الأيمن ليتناول قبعته من على المشجب! يا له من تصرف طبيعي جدًّا أيضًا إذا قلَّبته في ذهنك. كان هولمز هادئًا في الظاهر، لكن جسده بالكامل كان يضطرب من الإثارة المكبوتة وهو يتحدث. بالمناسبة يا ليستراد، من الذي توصَّل إلى هذا الاكتشاف الرائع؟

– كانت السيدة ليكسنتون مدبرة المنزل هي من لفتت انتباه شرطي دورية الليل إليه.

– أين كان شرطي دورية الليل؟

– بقي في حراسة غرفة النوم حيث ارتُكبت الجريمة، ليتأكد من أن شيئًا لم يُمَس.

– ولكن لماذا لم ترَ الشرطة هذه البصمة بالأمس؟

– حسنًا، لم يكن لدينا سبب محدد لفحص البهو بعناية. كذلك فإنها ليست في مكان واضح جدًّا، كما ترى.

– لا، لا، بالطبع ليست كذلك. أظن أنه ما من شك إذن في أن العلامة كانت هنا بالأمس، أليس كذلك؟

نظر ليستراد إلى هولمز كما لو كان يظنه قد فقد عقله. وأعترفُ بأنني شخصيًّا قد فوجئت بأسلوبه المضحك وملاحظاته الجامحة.

قال ليستراد: لا أعرف إن كنت تظن أن مكفارلن هذا قد خرج من السجن في جنح الليل حتى يعزز الأدلة ضد نفسه. لكنني سأترك لأي خبير بصمات في العالم مهمة تحديد ما إذا كانت تلك بصمة إبهامه أم لا.

– إنها بصمة إبهامه دون ريب.

قال ليستراد: هاك، هذا يكفي. إنني رجل عملي يا سيد هولمز، وعندما أحصل على دليلي أتوصل إلى استنتاجي. إذا كان لديك أي شيء لتقوله فستجدُني أكتب تقريري في غرفة الجلوس.

استعاد هولمز رباطة جأشه، على الرغم من أنني ما زلت أرى وميضًا من التسلية على محياه.

قال: يا للخسارة! يا له من تطور مؤسف جدًّا يا واتسون، أليس كذلك؟ ورغم ذلك، هناك بعض الملاحظات الغريبة حوله، وتحمل شيئًا من الأمل لعميلنا.

قلت بحماس: يسرني سماع ذلك، فقد خشيتُ أن يكون أمره قد انتهى.

– لم أكن لأقول ذلك يا عزيزي واتسون. فالحقيقة أن ثمة ثغرة خطيرة حقًّا في هذا الدليل الذي يعلق عليه صديقنا أهمية كبيرة.

– حقًّا يا هولمز! وما هي؟

– فقط أنني موقن أن تلك العلامة لم تكن موجودة حينما فحصت البهو بالأمس. والآن يا واتسون، لنحظ بجولة صغيرة تحت أشعة الشمس.

بعقل حائر ولكن بقلب عاد إليه دفء الأمل، رافقتُ صديقي في نزهة حول الحديقة. أخذ هولمز يفحص كل واجهة من واجهات المنزل على حدة باهتمامٍ بالغ. ثم أخذ الطريق إلى الداخل وجال في المبنى

بأكمله من القبو حتى العلية. كانت أغلب الغرف غير مفروشة، لكن هولمز فحصها جميعها بدقة. وأخيرًا، في الرواق العلوي، الذي يمتد بين ثلاثِ غرف نومٍ غير مشغولة، داهمته نوبة أخرى من البهجة.

قال: إن لتلك القضية بعض السمات الفريدة حقًّا يا واتسون، أعتقد أن الوقت قد حان لنفضي إلى صديقنا ليستراد بما وجدناه. لقد حظي ببعض المرح على حسابنا، وربما نحظى بمثله على حسابه إذا ثبتت صحة قراءتي لهذه القضية. نعم، نعم؛ أظنني أعرف كيف يجدر بنا التعامل معها.

كان مفتش شرطة سكوتلاند يارد ما زال يكتب في الرَّدهة عندما قاطعه هولمز قائلًا:

– فهمتُ أنك تكتب تقريرًا عن هذه القضية.

– هذا ما أفعله.

– ألا تعتقد أن هذا سابق لأوانه قليلًا؟ فأنا لا أستطيع الكفَّ عن التفكير في أن دليلك غير مكتمل.

كان ليستراد يعرف صديقي جيدًا إلى الحد الذي يمنعه من الاستخفاف بكلامه، فوضع قلمه ونظر إليه بفضول.

– ماذا تعني يا سيد هولمز؟

– أعني فقط أن ثمة شاهدًا مهمًّا لم تره.

– هل تستطيع إحضاره؟

– أعتقد ذلك.

– فافعل إذن.

– سأبذل قصارى جهدي. كم شرطيًّا لديك؟

– أستطيع أن أجلب ثلاثة بنداءٍ واحد.

قال هولمز: ممتاز! هل لي أن أسأل إن كانوا جميعًا ضخام البنية أقوياء أصحاب أصواتٍ جهورية؟

– لا أشكُّ أنهم كذلك، رغم أنني لا أفهم علاقة أصواتهم بالمسألة.

– ربما يمكنني مساعدتك على فهم العلاقة بالإضافة إلى أمرٍ أو أمرين آخرين. تفضَّل باستدعاء رجالك، وسوف أحاول.

وبعد خمس دقائق، تجمع ثلاثة من رجال الشرطة في الرَّدهة.

قال لهم هولمز: سوف تجدون في المبنى الخارجي كمية كبيرة من القش. أودُّ منكم أن تأتوا بحزمتين منه. ستكون له فائدة كبرى في إخراج الشاهد الذي أريده، حسبما أعتقد. شكرًا جزيلًا لكم. أعتقد أن معك بعض أعواد الثقاب في جيبك يا واتسون. والآن يا سيد ليستراد، أودُّ منكم جميعًا مرافقتي إلى الطابق العلوي.

كما قلت من قبل، كان ثمة رواق واسع هناك، يمتد بين ثلاث غرف نومٍ خاوية. حشدَنا شيرلوك هولمز عند أحد طرفي الرواق، قطَّب الشرطيان جبينهم وأخذ ليستراد يحدق إلى صديقي بملامح تتناوب بين الانبهار والترقُّب والتهكُّم. بينما وقف هولمز أمامنا كساحرٍ يؤدي خدعة.

– هلا أرسلت أحد شرطييك لإحضار دلوين من الماء من فضلك؟ ضعوا القش على الأرض هنا، على مسافة من الحائط من كلا الجانبين. والآن أعتقد أننا جميعًا مستعدون.

بدأ وجه ليستراد يحتقن غضبًا قبل أن يقول:

– لا أعرف إن كنت تلعب لعبة معنا يا سيد شيرلوك هولمز. إذا كنت تعلم شيئًا فبالتأكيد يمكنك قوله دون كل هذه السخافة.

– أؤكد لك يا ليستراد أن لدي سببًا وجيهًا لكل ما أفعله هنا. لعلَّك تتذكر كيف تشفيت فيّ قليلًا منذ بضع ساعات عندما بدا أن الحظ حليفك، لذا عليك ألا تُضمر ضغينة تجاهي إن تفاخرت قليلًا واحتفلت الآن. هل لي أن أطلب منك يا واتسون أن تفتح تلك النافذة، ثم تشعل ثقابًا وتضعه على حافة القش؟

فعلتُ ما طلب فدارت دوامات من الدخان الرمادي بامتداد الرواق بفعل تيار الهواء، بينما كان القش الجاف يطقطق ويشتعل.

– والآن سنرى إن كان في استطاعتنا العثور على ذاك الشاهد لأجلك يا ليستراد. هل لي أن أسألكم جميعًا أن تصيحوا بكلمة حريق؟ الآن إذن؛ واحد، اثنان، ثلاثة.

صحنا جميعًا: حريق!

– شكرًا لكم. سأزعجكم، مرة أخرى.

– حريق!

– مرة واحدة بعد أيها السادة، كلكم معًا.

– حريق! لا بد أن الصيحة قد رنت في جميع أنحاء نوروود.

ما كادت الصيحة تتلاشى حتى حدث شيءٌ عجيب. انفتح بابٌ فجأة مما بدا أنه جدار صلب في نهاية الرواق، واندفع منه رجل ذاوٍ ضئيل البنية كأرنبٍ يخرج من جحره.

قال هولمز: عظيم! واتسون، دلوًا من الماء فوق القش. سوف يفي هذا بالغرض! ليستراد، اسمح لي بأن أقدم لك شاهدك الأساسي المفقود، السيد جوناس أولديكر.

حدَّق المفتش إلى الوافد الجديد بدهشة عارمة. كان الأخير يرمش بعينيه في الضوء الساطع للرواق، وهو يحدق إلينا وإلى النار المشتعلة. كان ذا وجهٍ بغيض – ماكر وشرير وخبيث، بعينين مراوغتين لونهما رمادي فاتح ورموشهما بيضاء.

قال ليستراد أخيرًا: ما هذا إذن؟ ماذا كنت تفعل طوال هذا الوقت، هه؟

أطلق أولديكر ضحكة مرتبكة متراجعًا عن وجه المفتش المحتقن الذي يتقلص بالغضب.

– لم أتسبب في أي ضرر.

– لم تتسبب في ضرر؟ لقد بذلت قصارى جهدك لتسوق رجلًا بريئًا إلى حبل المشنقة. ولولا هذا السيد النبيل، لربما نجحت في مسعاك.

بدأ هذا الكائن الحقير ينشج. لم أكن لأنجح يا سيدي. كانت مجرد مزحة.

فقال ليستراد: أوه! مزحة، أحقًّا هذا؟ لن تجد مَن يضحك لها، أعدك بذلك. ألقِ القبض عليه وأبقِه في غرفة الجلوس حتى آتي.

ثم استأنف كلامه بعد أن انصرفوا:

– لم يسعني التحدث أمام الشرطيين يا سيد هولمز، أما أمام الدكتور واتسون فلا أخجل من القول بأن هذا أذكى شيءٍ رأيتُك تفعله حتى الآن، وإن كنتُ عاجزًا عن فهم كيف فعلته. لقد أنقذت حياة رجلٍ بريء، ومنعت فضيحة خطيرة كان من شأنها أن تدمر سمعتي كرجل شرطة.

فابتسم هولمز وربّت على كتف ليستراد.

– وبدلًا من تدمير سمعتك يا سيدي العزيز، ستجدها تحسنت إلى حدٍّ كبير. فقط أدخِل بعض التعديلات على ذاك التقرير الذي كنت تكتبه، وسيدرك الجميع مدى صعوبة تضليل المفتش ليستراد.

– ألا ترغب في ظهور اسمك؟

– مطلقًا. فالعمل في حد ذاته مكافأة. ربما يُنسب لي الفضل يومًا عندما أسمح لمؤرخي المتحمس بنشر أوراقه مرة أخرى، أليس كذلك يا واتسون؟ حسنٌ الآن، لنرَ أين كان يكمن هذا الجرذ.

كان هناك حاجز من الألواح الخشبية والجص يمتد عبر الرواق على بعد ستة أقدام من نهايته، مع باب مخفي بعناية. كان المخبأ مضاءً من الداخل بشقوق تحت الأفاريز، وبداخله عدد قليل من قطع الأثاث وإمدادات الطعام والمياه، بالإضافة إلى عدد من الكتب والأوراق.

قال هولمز عندما خرجنا: هذه ميزة أن تكون بنَّاءً، فقد استطاع أن يبني مخبأه الصغير دون مساعدة من أحد –فيما عدا مدبرة منزله العزيزة بالطبع، والتي لا يجب أن نهدر وقتًا قبل أن نضيفها إلى حقيبة غنائمك يا ليستراد.

– سآخذ بنصيحتك. ولكن كيف عرفت بأمر هذا المخبأ يا سيد هولمز؟

– لقد حسمت أمري بأن الرجل كان يختبئ في المنزل عندما سرتُ في رواقٍ فوجدته أقصر بستة أقدام من الرواق المماثل له بالأسفل، فبدا لي أين كان يختبئ. وفكرتُ في أنه لن يجرؤ على البقاء هادئًا مع وجود إنذارٍ بالحريق. كان يمكننا بالطبع أن ندخل ونقبض عليه، لكنني فضَّلتُ أن أجعله يكشف نفسه؛ بالإضافة إلى أنني كنت مدينًا لك ببعض الغموض يا ليستراد، بسبب تشفِّيك في الصباح.

– حسنًا يا سيدي، لقد تعادلت معي في ذلك بالتأكيد. ولكن كيف عرفتَ أنه كان في المنزل أصلًا؟

– بصمة الإبهام يا ليستراد. لقد قلتُ إنها النهاية؛ وقد كانت كذلك، ولكن بطريقة مختلفة جدًّا. كنت أعلم أنها لم تكن موجودة هناك بالأمس. فأنا أعطي التفاصيل اهتمامًا بالغًا، لعلك لاحظت ذلك، وكنت قد فحصت الرَّدهة وتأكدتُ من نظافة الجدار. لذا، لا بد أنها وُضعت أثناء الليل.

– ولكن كيف؟

– بمنتهى البساطة. عند ختم تلك الأوراق، طلب جوناس أولديكر من مكفارلن أن يُحكم غلق أحدها بوضع إبهامه في الشمع الطري. لا بد أن هذا حدث بسرعة كبيرة وبطريقة طبيعية لدرجة أنِّي أراهن أن الشاب نفسه لا يذكر شيئًا منه. ومن المرجح جدًّا أن يكون هذا ما حدث، ولم تكن لدى أولديكر نفسه

فكرة عن الطريقة التي سيستغل بها تلك البصمة. وعندما أمعن التفكير خلال اختبائه في وكره، خطرت له فجأة فكرة الدليل الدامغ الذي يمكنه تلفيقه ضد مكفارلن باستخدام بصمة الإبهام تلك. كان أبسط شيء في العالم بالنسبة له أن يأخذ طبعة شمعية من الختم، ويخضبها بأكبر قدر من الدم يمكنه الحصول عليه من وخزة إبرة، ثم يضع العلامة على الجدار أثناء الليل، إما بيده هو نفسه أو بيد مدبرة منزله. إذا فحصت تلك الوثائق التي أخذها معه في معتكفه، فأراهن أنك ستجد بينها الختم ببصمة الإبهام عليه.

قال ليستراد: رائع! رائع! أصبح الأمر واضحًا كالشمس حينما فسَّرته. ولكن ما الهدف من وراء هذا الخداع العميق يا سيد هولمز؟

كان من الممتع بالنسبة لي أن أرى كيف تغيرت طريقة المحقق المتعجرفة فجأة إلى طريقة طفلٍ يسأل معلمه إجابةً عن أسئلته.

– حسنًا، لا أظن أن هذا يستعصي على التفسير كثيرًا. إن ذاك الرجل الذي ينتظرنا بالأسفل شخصٌ خبيث ومولع بالانتقام. أتعرف أن والدة مكفارلن قد رفضت الزواج منه ذات مرة؟ لا تعرف! لقد أخبرتك أن عليك الذهاب إلى بلاكهيث أولًا ثم إلى نوروود. حسنًا، لقد حمل الضغينة في عقله الشرير الماكر من جراء هذه الإساءة –كما اعتبرها هو– وكان يتوق للانتقام طوال حياته، دون أن تتاح له الفرصة قط. وخلال العام أو العامين المنصرمين انقلبت الأمور ضده، بسبب مضاربات سرية على ما أعتقد، فوجد نفسه في وضع سيئ. فقرر أن يخدع دائنيه، وفي سبيل ذلك، دفع شيكات مصرفية ضخمة لشخصٍ يُدعى السيد كورنيليوس، والذي أظنه هو أولديكر نفسه تحت اسمٍ آخر. لم أتعقب هذه الشيكات بعد، لكنني لا أشك أنه أودعها تحت هذا الاسم في بعض المدن الإقليمية حيث كان أولديكر يعيش بهويته الثانية من وقت لآخر. كان ينوي تغيير اسمه كليًّا، وسحب هذه الأموال، ثم الاختفاء وبدء حياة جديدة في مكانٍ آخر.

– حسنًا، هذا مرجَّح بما فيه الكفاية.

– أغرته الفكرة بأن باختفائه سيقدر على إبعاد كل الملاحقات من طريقه، وفي الوقت نفسه ينتقم انتقامًا كبيرًا وساحقًا من حبيبته القديمة إذا استطاع أن يعطي انطباعًا بأنه قُتل على يد ابنها الوحيد. إن ما فعله كان تحفة فنية من الخسة، وقد نفذها باحتراف. فكرة الوصية التي ستعطي دافعًا واضحًا للجريمة، والزيارة السرية التي لا يعرف بها والداه، والاحتفاظ بالعصا، والدم، وبقايا الحيوانات والأزرار في كومة الخشب، كلها باهرة. كانت شبكة بدا لي منذ ساعاتٍ قليلة أنه لا سبيل إلى الهروب منها. لكنه تنقصه الموهبة الفذة للفنان، وهي أن يعرف متى يتوقف. لقد أراد تحسين ما كان مثاليًّا بالفعل –إحكام الحبل أكثر حول عنق ضحيته البائسة– وبهذا دمَّر كل ما فعل. هلم بنا ننزل يا ليستراد، فلدي سؤال أو اثنان أود أن أطرحهما عليه.

كان الكائن الخبيث جالسًا في ردهته الخاصة ويقف على كلا جانبيه اثنان من رجال الشرطة.

كان ينشج دون انقطاع: لقد كانت دعابة يا سيدي العزيز، مزحة لا أكثر. أؤكد لك يا سيدي أنني أخفيت نفسي لا لشيءٍ إلا لأرى تأثير اختفائي، وأنا متأكد أنك لست ظالمًا لدرجة أنك تتصور أني كنت

لأسمح بأن يصيب الشاب المسكين السيد مكفارلن أي ضرر.

قال ليسترار: هذا تبت فيه هيئة المحلفين، وعلى أية حال، لا بد أن نلقي القبض عليك، إن لم يكن بتهمة الشروع في القتل، فبتهمة التآمر.

قال هولمز: وربما سيحجز دائنوك على الحساب المصرفي للسيد كورنيليوس.

انتفض الرجل الضئيل وأدار عينيه الخبيثتين تجاه صديقي.

قال: إنني مدينٌ لك بالكثير، وربما أسدد ديوني يومًا ما.

ابتسم هولمز بتسامح قائلًا:

– أتصور أن وقتك سيكون مشغولًا جدًّا لبضع سنوات قادمة. بالمناسبة، ما الذي وضعته في كومة الخشب بجانب سروالك القديم؟ كلبًا ميتًا كان أم أرانب أم ماذا؟ ألن تقول؟ ربَّاه، كم أنت فظ! حسنٌ حسن، أراهن أن الدماء والرماد المتفحم كانا لزوجين من الأرانب. إذا كتبت هذه القصة يومًا ما يا واتسون فلتجعلها أرانب.

مغامرة الرجال الراقصين

مرت بضع ساعات كان هولمز فيها جالسًا بصمت، وقد مال بظهره الطويل الرفيع فوق وعاء كيميائي يحضِّر فيه منتجًا ذا رائحة كريهة جدًّا. غاص رأسه في صدره، وبدا من وجهة نظري كطائرٍ ضامرٍ عجيب، بريشٍ رمادي شاحب وعُرفٍ أسود.

قال فجأة: إنك إذن لا تنوي الاستثمار في أسهم جنوب إفريقيا يا واتسون، صحيح؟

أبديت ذهولي. فرغم اعتيادي ملكات هولمز الفضولية، كان هذا الاختراق المفاجئ لأكثر أفكاري خصوصية غير قابلٍ للتفسير بالمرة.

سألته: كيف علمت ذلك بحق السماء؟

استدار بكرسيه في اتجاهي، وقد تصاعد البخار من أنبوب الاختبار في يده وتجلَّى بريق الاستمتاع في عينيه الغائرتين.

قال: والآن يا واتسون، اعترف بأنك ذُهِلت كُليًّا.

– إنني أعترف.

– عليَّ أن أجعلك توقِّع على ورقة تشهد فيها بذلك.

– لمَ؟

– لأنك في غضون خمس دقائق ستقول إن الأمر كله بسيط إلى حد العبث.

– إنني موقن بأني لن أقول شيئًا من هذا القبيل.

وضع هولمز أنبوب الاختبار في حامله وراح يُحاضر كأستاذٍ جامعي يخاطب طلابه، قائلًا: كما ترى يا عزيزي واتسون، ليس عسيرًا أن يُكوِّن المرء سلسلة من الاستنتاجات يعتمد كلٌّ منها على ما يسبقه، وكلٌّ منها بسيطٌ في حد ذاته. فإذا تكتَّم حينها على جميع الاستنتاجات الوُسطى، ولم يُطلع جمهوره إلا على نقطة انطلاقه والنتيجة النهائية، بإمكانه أن يُحدث تأثيرًا مذهلًا، وإن كان على الأرجح خادعًا. والآن، لم يكن من الصعب حقًّا –بالنظر إلى الشق الظاهر بين سبابتك اليسرى وإبهامك– أن أعرف أنك لا تعتزم استثمار رأس مالك الصغير في حقل الذهب.

– لا أجد صلة بين الأمرين.

– هذا متوقع؛ لكنني أستطيع في عُجالة أن أريك صلة وثيقة. إليك الحلقات المفقودة من السلسلة متناهية البساطة: أولًا: كان لديك أثر طباشير بين سبابتك اليسرى وإبهامك عندما عُدت من النادي ليلة أمس. ثانيًا: إنك تضع الطباشير في هذا الموضع عندما تلعب البلياردو لتثبيت العصا. ثالثًا: أنت لا تلعب البلياردو أبدًا إلا مع ثورستن. رابعًا: قد أخبرتني منذ أربعة أسابيع أن لدى ثورستن خيارًا ستنتهي صلاحيته في غضون شهر بشأن أحد الممتلكات بجنوب إفريقيا، ويرغب في مشاركتك إياه. خامسًا: دفتر شيكاتك حبيس درجي، ولم تطلب مني المفتاح. سادسًا وأخيرًا: إنك لا تنوي استثمار أموالك بهذه الطريقة.

صحتُ قائلًا: يا لها من بساطة عبثية!

قال هولمز بشيءٍ من الغيظ: بالطبع! كل المشكلات تصبح شديدة السخافة بمجرد أن تُفسَّر لك. إليك واحدة لم يفسرها أحدٌ بعد. أرني ما يمكنك أن تستشف من ورائها يا صديقي واتسون. وألقى بورقة على الطاولة ثم استدار عائدًا إلى تحليله الكيميائي.

نظرت بدهشة إلى الرسوم الغريبة على الورقة، ثم صحتُ قائلًا: ما هذا يا هولمز، تلك رسمة طفل.

– أوه، أهكذا تراها؟

– ماذا عساها تكون غير ذلك؟

– هذا ما يتوق إلى معرفته السيد هيلتون كيوبت، القاطن بمنزل ريدلينج ثورب مانور بمقاطعة نورفولك. لقد جاءت هذه الأحجية الصغيرة في البريد الصباحي، وكان يُفترض بصاحبها أن يتبعها في القطار التالي. ثمَّة من يدق الجرس يا واتسون. لن أندهش إذا كان هو.

تعالى صوت وقع خطوات متثاقلة على الدرج، وفي اللحظة التالية دخلَ رجل طويل حليق متورد الوجه، وقد دلَّت عيناه الصافيتان ووجنتاه المتوردتان على أنه قادم من مكانٍ بعيد عن ضباب شارع بيكر. بدا كأنه قد جلب مع دخوله نفحة من هواء الساحل الشرقي القوي المنعش النقي. صافح كلينا، ولم يكد يجلس حتى استقرت عيناه على الورقة ذات الرسوم الغريبة، والتي كنتُ قد فحصتها لتوِّي وتركتها على الطاولة.

فصاح قائلًا: حسنًا يا سيد هولمز، ماذا تستشف من وراء تلك الرسمة؟ سمعتُ أنك مولع بالألغاز المريبة، ولا أظنك تستطيع العثور على لغز أكثر إثارة للريبة من هذا. لقد أرسلتُ الورقة مسبقًا لعلَّك تجد وقتًا لدراستها قبل حضوري.

قال هولمز: مؤكد أنها عملٌ غريب نوعًا، بل تبدو لأول وهلة كما لو كانت مزحةً صبيانية. فما هي إلا عدة رسوم صغيرة سخيفة لأناسٍ يرقصون بعرض الورقة. ما الذي دفعك إلى أن تولي شيئًا غريبًا كهذا أي أهمية؟

– لستُ أنا من يُوليه الأهمية يا سيد هولمز، إنما هي زوجتي. إنه يُخيفها حتى الموت. لم تقل لي شيئًا، لكنني أستطيع رؤية الهلع في عينيها. لذا أريد غربلة هذا الأمر حتى آخره.

رفع هولمز الورقة ليغمرها ضوء الشمس. كانت الصفحة مقطوعة من مفكرة ما، وقد رُسِم عليها بالقلم الرصاص على النحو التالي:



فحصها هولمز لبعض الوقت، ثم طواها بعناية ووضعها في مفكرته، ثم قال:

– هذه القضية تُبشر بأن تكون واحدة من أكثر القضايا غرابة وإثارة للاهتمام. لقد أرسلت إليَّ بعض التفاصيل يا سيد هيلتون كيوبت، لكنني سأكون في غاية الامتنان لو تكرَّمت بإعادتها كلها مرة أخرى على مسامع صديقي الدكتور واتسون.

قال ضيفنا، وهو يعاود شبك أصابع يديه القويتين ببعضهما ثم بسطهما بعصبية: لستُ أنا بالراوي الجيد، فسلني التوضيح إذا صادفت إبهامًا في حكايتي. سأبدأ من وقت زواجي في العام الفائت؛ لكنني أود القول قبل أي شيء إنني رغم كوني لستُ بالرجل الثري، فإن عائلتي ظلَّت تسكن ريدلينج ثورب على مدى خمسة قرون، وما من عائلة أكثر شهرة منها في مقاطعة نورفولك. لقد أتيت إلى لندن في العام الفائت من أجل احتفالات اليوبيل، وأقمتُ بنزلٍ في ساحة راسل؛ لأن باركر كاهن أبرشيتنا كان يقيم فيه حينئذ. وهناك التقيتُ بفتاة أمريكية اسمها باتريك، إلسي باتريك. صرنا صديقين بطريقة ما، وقبل أن ينتهي شهر إقامتي كنت واقعًا في حبها بقدر ما يمكن لرجلٍ أن يحب. تزوجنا بهدوء في أحد مكاتب الزواج المدني، ثم عدنا إلى نورفولك زوجين. ستعتقد يا سيد هولمز أن من الرعونة بمكان أن يتزوج رجلٌ ينحدر من عائلة عريقة بامرأة ما بهذه الطريقة، من دون أن يعرف شيئًا عن ماضيها أو عائلتها؛ لكنك لو رأيتها وعرفتها لساعدك ذلك على تفهُّم موقفي.

كانت إلسي صريحة جدًّا في هذا الشأن. ولا يسعني الادعاء بأنها لم تمنحني فرصًا عديدة للخروج من علاقتنا لو كنتُ رغبتُ في ذلك. قالت لي: لقد مررتُ بعلاقات بغيضة في حياتي أتمنى لو أني نسيتُها برمتها. وأفضِّل ألا ألمِّح إلى الماضي أبدًا، فهو موجع جدًّا بالنسبة لي. فإذا تزوجتني يا هيلتون، فاعلم أنك تتزوج بامرأة ليس لديها ما تخجل منه على مستواها الشخصي؛ ولكن عليك أن تكتفي بكلمتي ضمانًا، وأن تسمح لي بالتزام الصمت حيال كل ما فات من حياتي قبل أن أصبح لك. إذا وجدت هذه الشروط أصعب مما يجب، فعُد إلى نورفولك ودعني لحياة الوحدة التي وجدتني فيها. وقد قالت لي هذه الكلمات بالذات قبل يومٍ واحد فقط من زفافنا. فأخبرتُها بأنني راضٍ بالزواج منها وفقًا لشروطها، ولم أزل مُلتزمًا بكلمتي.

حسنًا، مرَّ الآن عام واحد على زواجنا، كنا فيه سعيدَيْن للغاية. بيد أني منذ نحو شهر –في نهاية شهر يونيو– بدأتُ أرى بوادر المتاعب لأول مرة. فذات يوم تلقَّت زوجتي رسالة من أمريكا. رأيتُ عليها طابع البريد المميز. وحينما قرأتها، امتقع وجهها من الفزع وألقت بها في نار المدفأة. لم تُشِر إلى الأمر بعد ذلك، ولا فعلتُ أنا، فوعد الحُر دين عليه؛ لكنها لم تعرف السكينة للحظة واحدة منذ ذلك الحين. لم تفارق تعابير الخوف وجهها، كأنما تنتظر شيئًا ما وتترقبه. كان حريًّا بها أن تثق بي. كانت لتجد فيّ أحد أفضل أصدقائها. ولكن ما دامت لا تخبرني بشيء من تلقاء نفسها، فلا يسعني أن أنبس بكلمة. ضع في اعتبارك يا سيد هولمز أن زوجتي امرأة صادقة، ومهما بلغت فداحة المشكلات التي مرَّت بها في حياتها السابقة، فلم يكن لها ذنبٌ فيها. إنني مجرد إقطاعيٍ بسيط من نورفولك، ومع ذلك، لن تجد رجلًا في إنجلترا يُبجِّل شرف عائلته مثلما أفعل. وهي تعرفُ ذلك جيدًا، وكانت تعرفه جيدًا قبل أن تتزوج بي. لذا فإنها لن تلوث شرف عائلتي أبدًا – إنني متيقن من هذا.

حسنًا، ها قد وصلتُ إلى الجزء الغريب من قصتي. فمنذ نحو أسبوع –في يوم الثلاثاء من الأسبوع الفائت– وجدتُ على عتبة إحدى النوافذ عددًا من الرسوم الصغيرة الراقصة كتلك التي على الورقة. كانت قد رُسمت بالطباشير. فظننتُ أن فتى الإسطبل هو من رسمها، لكنه أقسم أنه لا يعرف عنها شيئًا. على أية حال، كانت تلك الرسوم قد رُسمت في أثناء الليل، فأمرتُ بغسلها، ولم أذكر الأمر لزوجتي إلا فيما

بعد. فإذا بها تأخذ المسألة بجدية شديدة، وتتوسل إليَّ أن أُريها الرسوم متى ظهر منها المزيد. وطوال أسبوعٍ لم يظهر شيء، حتى وجدت هذه الورقة صباح أمس ملقاة على المزولة في الحديقة. وحين أريتُها لإلسي، سقطت مغشيًّا عليها. ثم صارت منذ ذلك الحين أشبه بامرأة تعيش حُلمًا، شبه ذاهلة، وفي عينيها رُعبٌ لا يتوارى. عندها راسلتك وبعثتُ إليك بالورقة يا سيد هولمز. هذا ليس بالأمر الذي يُمكنني عرضه على الشرطة، فسوف يضحكون مني، أما أنت فسوف تخبرني بما عليَّ فعله. إنني لست رجلًا ثريًّا؛ لكن إذا كان خطرٌ ما يتهدد فتاتي العزيزة فأنا على استعداد لأن أنفق آخر شلنٍ لدي كي أحميها.

كان إنسانًا نقيًّا، هذا الرجل القادم من الأراضي الإنجليزية العتيقة، بسيطًا وصريحًا ودمث الخلق، له عينان زرقاوان واسعتان تفيضان بالجدية، ووجهٌ رحبٌ وسيم. لاح في قسماته حبه لزوجته وثقته بها. وقد أنصت هولمز إلى قصته بأقصى ما في إمكانه من اهتمام، ثم جلس لبعض الوقت يُفكِّر صامتًا.

وقال أخيرًا: ألا تظن يا سيد كيوبت أن الحل الأسلم هو أن تَسَل زوجتك مباشرة أن تبوح لك بسرها؟

فهز هيلتون كيوبت رأسه الضخم قائلًا:

– وعد الحر دين عليه سيد هولمز. لو أرادت إلسي إخباري لفعلت. وما دامت لم تفعل، فليس لي أن أجبرها على الوثوق فيَّ. ولكن لدي الحق في محاولة اكتشاف الأمر بنفسي – وسوف أفعل.

– إذن سأساعدك من كل قلبي. ولكن أخبرني أولًا، هل سمعت بقدوم أي غرباء في الحيّ الذي تعيش فيه؟

– لا.

– إنك تسكُن في منطقة شديدة الهدوء على ما أظن. ألن يثير ظهور وجهٍ جديد فيها القيل والقال؟

– في الجوار المباشر، نعم. ولكن لدينا عدد من الاستراحات الصغيرة التي يستقبل فيها المزارعون النزلاء، وهي لا تبعد كثيرًا منا.

– واضح أن لهذه الرسوم الغريبة معنى. فلو كانت عشوائية تمامًا لاستحال علينا فهمها. ما دامت ممنهجة، فسوف نسبر غورها من دون شك. لكن هذه العينة بالذات قصيرة إلى الحد الذي لا يسعني معه فعل شيء، والحقائق التي جئتني بها مبهمة لدرجة أن ليس بها ما يصلح ركيزة لبدء التحقيق. أقترح أن تعود إلى نورفولك، وأن تراقب الوضع من كثب، وأن تأخذ نسخة من أي رجالٍ راقصين جدد قد يظهروا. فمن المؤسف بحق أننا لا نملك نسخة من تلك الرسوم التي رُسمت بالطباشير على عتبة النافذة. ولتستعلم بحذر أيضًا عن قدوم أي غرباء في الحي. ثم عندما تجمع بعض الأدلة الجديدة عاود زيارتي. هذا هو أفضل ما يسعني نُصحك به أيها سيد هيلتون كيوبت. وإذا جدَّ طارئ جديد، سأكون دومًا على أهبة الاستعداد لزيارتك بأقصى سُرعة في منزلك بنورفولك.

ترك هذا اللقاء شيرلوك هولمز غارقًا في أفكاره، ورأيته عدة مرات في الأيام القليلة التالية يُخرج قصاصة الورق من مفكرته ويطيل النظر إلى الأشكال الغريبة المرسومة عليها. إلا أنه لم يأتِ على ذكر القضية إلا بعد مرور أسبوعين أو نحوهما. فبعد ظُهر أحد الأيام، كنت أتأهب للخروج من المنزل عندما ناداني قائلًا:

– يجدُر بك أن تبقى هنا يا واتسون.

– لِمَ؟

– لأنني تلقَّيت برقية من هيلتون كيوبت هذا الصباح – أتذكُر هيلتون كيوبت، صاحب قضية الرجال الراقصين؟ من المُفترض أن يصل إلى شارع ليفربول في الواحدة والثلث. قد يصل إلى هنا في أي لحظة. وقد فهمتُ من برقيته أن أحداثًا مهمة قد جدَّت.

لم ننتظر طويلًا، فقد جاء إقطاعي نورفولك مباشرة من المحطة بأسرع ما يمكن لعربة تجرها الجياد أن تحضره. كان يبدو قلقًا ومغتمًّا، بعينين مُتعبتين وجبينٍ مُقطب.

قال وهو يغوص في المقعد ذي الذراعين كما يجدر برجلٍ مُنهك: إن هذا الذي يحدث يضغط على أعصابي يا سيد هولمز، إنه لسيئ بما فيه الكفاية أن تشعر بأنك محاطٌ بأناسٍ لا تراهم ولا تعرفهم وهم يترصدونك؛ ولكن عندما تدرك –علاوة على ذلك– أن هذا يقتل زوجتك ببطء، يصير الأمر فوق احتمال البشر. إنها تذوي من جراء ما يحدث، تذوي فحسب أمام عيني.

– ألم تقل شيئًا بعد؟

– كلا يا سيد هولمز، لم تقل شيئًا. ومع ذلك، مرَّت لحظات أرادت فيها الفتاة المسكينة أن تتحدث، ولكنها لم تستطع أن تُرغم نفسها على اتخاذ مثل هذه الخطوة. وقد حاولت مساعدتها؛ لكني أراهن أني فعلتُ ذلك بصورة خرقاء، فأخفتُها من الحديث. لقد راحت تتكلم عن عائلتي العريقة، وسُمعتنا في البلدة، وفخرنا بشرفنا الذي لا تشوبه شائبة، وشعرتُ في كل مرة بأنها ستتطرق إلى الموضوع؛ ولكن بطريقة ما كان ينقطع حديثها قبل أن نصل إلى بيت القصيد.

– ولكن ثمة ما اكتشفته بنفسك، صحيح؟

– اكتشفتُ الكثير يا سيد هولمز. فقد أتيتُك بعددٍ من الرسومات الجديدة لرجالٍ راقصين كيما تتفحصها، والأهم من ذلك أنني قد رأيت الرجل.

– مهلًا، الرجل الذي يرسمها؟

– نعم، فقد ضبطته متلبسًا وهو يرسم. لكنني سأخبرك بكل شيء بالترتيب. عندما عدتُ إلى منزلي بعد زيارتي لك، كان أول ما رأيته في الصباح التالي هو مجموعة جديدة من الرجال الراقصين. كانت مرسومة بالطباشير على الباب الخشبي الأسود لمخزن المعدات، ذاك الواقع بجوار البستان على مرأى من النوافذ الأمامية. فأخذت نسخة طبق الأصل، وها هي ذي. ثم فضَّ الرجل ورقة ووضعها على الطاولة، وأردَف: ها هي ذي نسخة من الرسوم الغريبة:



قال هولمز: ممتاز! ممتاز! أكمل رجاءً.

– وبمجرد أن أخذت النسخة مسحتُ الرسم؛ ولكن بعد يومين ظهر نقش جديد. لدي نسخة منه هنا:



فرك هولمز كفيه ببعضهما مقهقهًا بسرور ثم قال:

– الأدلة تتراكم سريعًا.

– وبعد ثلاثة أيام وجدتُ رسالة مرسومة على ورقة، ومثبتة أسفل حجر صغير على المزولة. ها هي ذي. وكما ترى فهذه الرسمة تتطابق تمامًا مع سابقتها. عندئذٍ قررت التربُّص به؛ وهكذا أخرجت مسدسي وجلست مُتيقظًا في مكتبي المطل على الحديقة والبستان. وفي نحو الثانية صباحًا حينما كنت جالسًا قرب النافذة، والمكان يسبح في ظلامٍ دامس لا يقطعه سوى ضوء القمر الآتي من الخارج، سمعتُ وقع خطوات خلفي، كانت زوجتي في رداء نومها. راحت تتوسَّل إليَّ أن آتي إلى الفراش. فأخبرتها صراحةً بأنني أودُّ أن أرى من هذا الذي يدبر لنا تلك الحيل السخيفة. فقالت إنها مجرد مزحة لا معنى لها، ولا ينبغي أن آخذها على محمل الجد.

وقالت: إذا كانت تُزعجك لهذه الدرجة يا هيلتون، فيمكننا أن نسافر، أنا وأنت، ونتجنب هذا الإزعاج.

فقلت لها: ماذا، أيطردنا مهرج من منزلنا؟ يا إلهي، لئن فعلنا لتسخرن منا البلدة بأسرها.

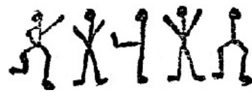
قالت: حسنًا، تعالَ إلى الفراش؛ وسوف نناقش الموضوع في الصباح.

وفجأة وبينما هي تتحدث، رأيت وجهها الشاحب يزداد شحوبًا في ضوء القمر، وانغرست أصابعها في كتفي. كان شيئًا ما يتحرك في ظل مخزن المعدات. رأيت طيفًا داكنًا يتسلل نحو زاوية المخزن ثم يجلس مقرفصًا أمام الباب. قبضت على مسدسي وهرعت باتجاه الخارج، فإذا بزوجتي تلف ذراعيها حولي وتُمسك بي بعنف. حاولت التحرر منها، لكنها تشبثت بي باستماتة أكبر. ثم تحررت منها أخيرًا، لكنني في الوقت الذي فتحت فيه الباب ووصلت إلى مخزن المعدات كان الرجل قد اختفى. ومع ذلك، فقد ترك علامة على وجوده، إذ رأيتُ على الباب الترتيب نفسه للرجال الراقصين الذي تكرر ظهوره مرتين بالفعل، والذي نسخته على تلك الورقة. ورغم أني ركضت في جميع الأنحاء باحثًا عنه، فلم أرَ أثرًا لوجوده في أي مكان. ولكن الغريب أنه كان موجودًا هناك طوال الوقت دونما ريب، لأنني حينما فحصت الباب مرة أخرى في الصباح، رأيته قد نقش المزيد من رسومه أسفل السطر الذي رأيته مُسبقًا.

– هل هذا الرسم الجديد معك؟

– نعم؛ إنه قصير جدًّا، لكنني أخذت نسخة منه، ها هي ذي.

ومرة أخرى أخرج ورقة. وكان الرسم الراقص الجديد على هذا النحو:



قال هولمز وقد أدركتُ من عينيه تحمُّسه الشديد: أخبرني، أكانت هذه مجرد إضافة للرسم الأول، أم بدت منفصلة تمامًا عنه؟

– كانت مرسومة على لوحٍ مختلف من الباب.

– عظيم! هذا هو الأكثر أهمية بين كل ما عداه بالنسبة لما نريد. إنه يغمرني أملًا. والآن يا سيد هيلتون أكمل إفادتك الشيقة رجاءً.

– ليس لدي المزيد لأقوله يا سيد هولمز، عدا أني غضبتُ من زوجتي في تلك الليلة لأنها أعاقتني حينما كان بإمكاني القبض على ذاك الوغد المتسلل. قالت لي إنها خافت أن أتعرض للأذى. ولوهلة خطر لي أن ما تخشاه حقيقةً ربما كان أن يتعرض هو للأذى، فلا شك عندي أنها تعرف هذا الرجل وتعرف ما يعنيه بهذه الرموز الغريبة. ولكن ثمَّة نبرة في صوت زوجتي يا سيد هولمز، ونظرة في عينيها تقهر أي شك، وأنا موقن أنها إنما كانت تريد سلامتي فعلًا. ها هو ذا كل ما حدث، وأنا الآن بحاجة إلى نصيحتك فيما يجب عليَّ فعله. فما أرغب فيه هو أن أضع نصف دزينة من صبية المزرعة بين الشجيرات، فإذا ما عاد هذا الرجل مجددًا أبرحوه ضربًا حتى يتركنا في سلام إلى الأبد.

قال هولمز: أخشى أن القضية أكثر عمقًا من أن تُحل بمثل هذه المكائد البسيطة، إلى متى تستطيع البقاء في لندن؟

– عليَّ أن أعود اليوم. لن أترك زوجتي وحدها طوال الليل لأي سببٍ كان. إنها متوترة جدًّا وقد توسلت إليّ أن أعود.

– أظن أن معك حق. لو كنتَ بقيتَ قليلًا لعُدتُ معك على الأرجح في غضون يوم أو يومين. أما الآن فستترك لي هذه الرسومات، وأعتقد أنني سأزورك قريبًا وأُلقي بعض الضوء على قضيتك.

حافظ شيرلوك هولمز على سلوكه الاحترافي الهادئ حتى انصرف ضيفنا، وإن كان من السهل عليّ –أنا الذي أعرفه جيدًا– أن أرى شدة تحمُّسه. فما إن اختفى ظهر هيلتون كيوبت العريض عبر الباب حتى انطلق رفيقي إلى الطاولة، وبسط أمامه كل قصاصات الرجال الراقصين، وألقى بنفسه في حسابات معقدة ومفصلة. ولمدة ساعتين راقبته يغطي صفحة بعد أخرى بأشكال وحروف، مستغرقًا تمامًا في مهمته حتى بات واضحًا أنه نسي وجودي. أحيانًا ما كان يحرز تقدمًا فيصفر ويغني فرحًا بعمله؛ وأحيانًا أخرى كانت تعتريه الحيرة، فيجلس لفترات طويلة بجبينٍ مقطب وعينين خاويتين. وأخيرًا قفز من كرسيه صائحًا صيحة رضا، وأخذ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يفرك كفيه بعضهما ببعض. ثم كتب برقية طويلة على استمارة تلغرافية. وقال: إذا كان ردُّ هذه البرقية كما أتمنى، فسوف تحظى بقضية جميلة يا واتسون لتضيفها إلى مجموعتك الروائية، أتصوَّر أن بإمكاننا أن نذهب إلى نورفولك غدًا، وننقل لصديقنا بعض الأنباء المؤكدة عن السر الذي يزعجه.

أقرُّ بأنني كدت أموت فضولًا، لكنني أعلم بأن هولمز يحب الإفصاح عن اكتشافاته في الوقت الذي يناسبه وبطريقته الخاصة؛ لذا انتظرت حتى يحين الوقت الذي يناسبه ليخبرني بما اكتشف.

ولكن تأخر الرد على برقيته، إذ تلاها يومين من نفاد الصبر، أرهف هولمز سمعه فيهما كلما سمع رنين الجرس. وفي مساء اليوم الثاني، وصلت رسالة من هيلتون كيوبت. كانت الأمور كلها مستقرة عِنده، فيما عدا نقشًا طويلًا ظهر في صباح ذلك اليوم على قاعدة المزولة. وقد وضع نسخة منه مع الرسالة وكانت كما يلي:

انحنى هولمز على ذلك النقش العجيب لبضع دقائق، ثم هب فجأة واقفًا على قدميه وهو يصيح صيحة دهشة وفزع، ثم قال وقد امتقع وجهه قلقًا:

– لقد تركنا المسألة تتمادى بما فيه الكفاية، هل من قطار يتجه إلى شمال والشم الليلة؟

نظرت في جدول المواعيد فوجدت القطار الأخير قد انطلق لتوه.

فقال هولمز إذن سنتناول الإفطار مبكرًا ونستقل أول قطارٍ في الصباح، فوجودنا هناك شديد الضرورة. آه! ها هي ذي برقيتنا المنتظرة. لحظة واحدة أيتها السيدة هدسون؛ فقد نُرسِل معك ردًّا. كلا، هذا ما توقعته تمامًا. إن هذه الرسالة تحتم علينا ألا نضيع ساعة واحدة قبل أن نخبر هيلتون كيوبت بما يحدث، إنها مؤامرة خطيرة وغير مألوفة تلك التي تورَّط فيها إقطاعي نورفولك البسيط.

وهكذا ثبت بالفعل، والآن بينما أحكي النهاية الحالكة لقصة لم تزِد في نظري عن كونها سخيفة وغريبة، ينتابني مرة أخرى الفزع والرعب اللذان شعرت بهما وقتئذ. لشد ما أتمنى لو كان لديَّ نهاية أكثر إشراقًا أنقلها لقرائي، ولكن هذا توثيق لوقائع حقيقية، وعليَّ أن أتبع سلسلة الأحداث الغريبة وصولًا إلى ذروتها المُظلمة التي جعلت من منزل ريدلينج ثورب مانور كلمة تتردد في طول إنجلترا وعرضها لبضعة أيام.

ما كدنا نصل إلى شمال والشم، ونُعلن عن وجهتنا، حتى هرع إلينا مدير المحطة قائلًا: هل أنتما المحققان القادمان من لندن؟

فلاح الانزعاج على وجه هولمز وقال: ما الذي جعلك تظن شيئًا كهذا؟

– لأن المفتش مارتن القادم من مدينة نورتش قد مر من هنا لتوه. ولكن ربما تكونا الجراحين. إنها لم تمُت بعد –أو لم تكن كذلك بحسب آخر التقارير. لعلكما وصلتما في الوقت المناسب لإنقاذها– رغم أنها لن تُنقذ إلا وحبل المشنقة في انتظارها.

أظلم وجه هولمز قلقًا.

وقال: إننا ذاهبان إلى منزل ريدلينج ثورب مانور، لكننا لم نسمع بشيء مما جرى هناك.

قال مدير المحطة: إنها واقعة بشعة، فقد أصيب السيد هيلتون كيوبت وزوجته بطلقات نارية. لقد أردته زوجته ثم أطلقت النار على نفسها – أو هكذا قال الخدم. فمات هو وبقيت هي تصارع الموت. يا ربِّي، يا ربِّي، إحدى أعرق عائلات بلدة نورفولك وأرفعها مكانة.

لم يزِد هولمز كلمة وهرع إلى إحدى العربات، وطوال طريقنا البالغ سبعة أميال لم يفتح فمه قط. نادرًا ما رأيته بهذه الدرجة من الجزع. فقد بدا مغتمًّا طوال رحلتنا من المدينة، ولاحظت تصفحه للجرائد الصباحية باهتمام قلق؛ أما الآن فإن التحقق المفاجئ لأسوأ مخاوفه قد تركه في حزنٍ مُطبق. أسند ظهره إلى مقعده، وتاه في تأمل واجم. ومع ذلك كان حولنا الكثير مما يلفت الانتباه، إذ كنا نمر عبر منطقة ريفية لا تختلف في تفردها عن أي ريف من أرياف إنجلترا، حيث أظهرت الأكواخ القليلة المتناثرة فيها عدد السكان في ذلك الحين، بينما انتصبت الكنائس الضخمة ذات الأبراج المربعة على كلا الجانبين وسط الطبيعة الخضراء المنبسطة لتشي بمجد الشرق الإنجليزي العريق ورخائه. وأخيرًا رأينا حافة بحر الشمال البنفسجية فوق الضفة الخضراء لساحل مقاطعة نورفولك، وأشار السائق بسوطه ناحية اثنين من الأسقف المائلة المبنية بالقرميد والخشب اللذين برزا من وسط بستانٍ من الأشجار قائلًا: هذا هو منزل ريدلينج ثورب مانور.

وبينما صعدت بنا العربة عبر الرواق المُعمَّد المؤدي إلى الباب الأمامي رأيتُ بجوار ملعب التنس كلًّا من مخزن المعدات الأسود والمزولة ذات القاعدة، اللذين يرتبطان لدينا بتلك الوقائع الغريبة. ترجَّل رجلٌ أنيق ضئيل الحجم من عربة عالية بنشاطٍ ورشاقة وشاربٍ مفتول. وقدم لنا نفسه باسم المفتش مارتن من شرطة نورفولك، واندهش أيما اندهاش لدى سماعه اسم رفيقي.

– ربَّاه يا سيد هولمز، لم تُرتكب الجريمة إلا في الثالثة من صباح اليوم. كيف أمكنك أن تسمع بها في لندن وتصل إلى مسرحها بالسرعة التي وصلت أنا بها؟

– لقد توقعت حدوثها. وجئت على أمل منعها.

– مؤكَّد إذن أن بحوزتك دليلًا مهمًّا لا نعرف نحن به، فقد قيل لي إنهما كانا زوجين متحابين إلى أقصى الحدود.

قال هولمز: ليس لدي دليلٌ سوى الرجال الراقصين. سأفسر لك الأمر لاحقًا. أما الآن وقد فات أوان منع هذه المأساة، فإنني متلهف جدًّا لاستخدام ما بحوزتي من معلومات لضمان تحقيق العدالة. هل ستُشركني في تحقيقك، أم تحبذ أن أواصل تحقيقي المستقل؟

قال المفتش بجدية: إنه لمن دواعي فخري أن نعمل معًا يا سيد هولمز.

– في هذه الحالة سأكون ممتنًّا إذا استمعت إلى الشهود وعاينت مسرح الجريمة دونما تأخير.

كان لدى المفتش مارتن من الفطنة ما جعله يسمح لصديقي بتسيير الأمور على طريقته الخاصة، واكتفى بتدوين النتائج بدقة. كان الجرّاح المحلي، وهو كهل أشيب الشعر، قد نزل لتوه من غرفة السيدة هيلتون، وأخبرنا بأن إصابتها خطيرة، لكنها ليست مميتة بالضرورة. فقد اخترقت الرصاصة الجزء الأمامي من دماغها، وربما يمضي بعض الوقت قبل أن تستعيد وعيها. وعندما سألناه هل تعرَّضت لإطلاق النيران أم أطلقتها على نفسها، أبى المجازفة برأيٍ قاطع. فلا شك أن الرصاصة أُطلقت من مسافة قريبة جدًّا. ولم يُعثر إلا على مسدسٍ واحد في الغرفة أُفرِغت ماسورتاه. أصيب السيد هيلتون كيوبت برصاصة في القلب. واحتمالية أن يكون هو من أردى زوجته ثم أطلق النار على نفسه متساوية مع كونها هي الفاعلة، فقد كان المسدس ملقًى على الأرض في منتصف المسافة بينهما.

سأل هولمز: هل نقل أحدهم الجثة؟

– لم نلمس شيئًا سوى السيدة. لم نستطع تركها جريحة على الأرض.

منذ متى وأنت هنا أيها الطبيب؟

– منذ الرابعة.

– هل يوجد أحدٌ غيرك؟

– نعم، هذا الشرطي.

– ألم تلمس شيئًا؟

– مُطلقًا.

– لقد تصرفت بحرصٍ شديد. من أرسل في طلبك؟

– الخادمةساندرز.

– أهي من أعلنت عن الحادث؟

– هي والسيدة كينج، الطاهية.

– وأين هما الآن؟

– في المطبخ، حسبما أظن.

– إذن أعتقد أن من الأحرى أن نسمع قصتهما على الفور.

تحولت الرَّدهة القديمة بنوافذها العالية وجدرانها ذات الألواح البلوطية إلى محكمة تحقيق. جلس هولمز على مقعد كبير عتيق الطراز وعيناه العنيدتان تلتمعان في وجهه المُنهك. وقرأت فيهما عزمًا أكيدًا على أن يُكرس حياته لهذا التحقيق حتى يثأر لموكله الذي فشل في حمايته. ثم شكَّلنا أنا والمفتش الأنيق مارتن وطبيب البلدة ذو الشعر الأشيب ورجل شرطة قرويٌّ بليد بقية هذا الجمع الغريب.

روت المرأتان قصتهما بوضوحٍ كافٍ. فقد أيقظهما من نومهما صوتُ انفجار مرتفع، ثم أعقبه بدقيقة صوت انفجارٍ ثان. كانتا تنامان في غرفتين متجاورتين، فهرعت السيدة كينج إلى ساندرز ونزلتا الدَّرج معًا. كان باب المكتب مفتوحًا وعلى الطاولة بالداخل انتصبت شمعة مشتعلة. كان سيدهما ممددًا على وجهه في وسط الغرفة وقد فارق الحياة. أما زوجته فكانت جاثية بجوار النافذة، ورأسها متكئ إلى الحائط. كانت إصابتها مروعة، وقد خضبت الدماء جانب وجهها كله. كانت تتنفس بصعوبة لكنها لم تقدر على قول شيء. امتلأ الممر والغرفة بالدخان ورائحة البارود. ولا شك أن النافذة كانت مغلقة ومؤصدة من الداخل، فقد أكدت المرأتان على هذه النقطة. فأرسلتا من فورهما في طلب الطبيب والشرطي، ثم نقلتا سيدتهما بمساعدة السائس وصبي الإسطبل إلى غرفتها. كانت السيدة وزوجها قد أويا إلى الفراش ليلة أمس؛ إذ شوهدت مرتدية ثوبها وزوجها واضعًا عباءة فوق ثياب النوم. لم يتحرك أي شيء في المكتب. وعلى حد علم الخادمتين لم ينشب أي شجار بين الزوج والزوجة. ولطالما شهدهما الناس زوجين متحابين إلى أبعد حد.

تلك كانت النقاط الأساسية في شهادة الخادمتين. وأجابتا عن سؤال المفتش مارتن بأنهما على يقين من أن كل الأبواب كانت موصدة من الداخل، وأنه ما من أحد ليستطيع الهروب من المنزل. وأجابتا عن سؤال هولمز بأنهما تذكران تمييزهما لرائحة البارود من لحظة خروجهما مسرعتين من غرفتهما بالطابق العلوي. قال هولمز لزميله المحقق: أوصيك بأن توليِّ هذه المعلومة اهتمامًا فائقًا. والآن أعتقد أننا صرنا في وضعٍ يسمح لنا بإخضاع الغرفة لفحصٍ شامل.

تبين أن المكتب عبارة عن غرفة صغيرة، تصطف الكتب على جوانبها الثلاثة، وبها طاولة كتابة تواجه نافذة عادية مطلة على الحديقة. أول ما استرعى انتباهنا كانت جثة الإقطاعي تعِس الحظ، التي تمددت بضخامتها على أرضية الغرفة. وبدا من ثيابه غير المهندمة أنه استيقظ من نومه في عُجالة. أصابته الرصاصة من الأمام، وبقيت في جسده بعدما اخترقت قلبه. لا شك أن وفاته كانت فورية ولم يصحبها ألم. لم يكن ثمَّ أثرٌ للبارود على ثوبه أو يديه. ووفقًا لشهادة جرَّاح البلدة، كان أثر البارود يلطِّخ وجه السيدة، أما يداها فلا.

قال هولمز: إن غياب تلك الآثار لا يعني شيئًا، بينما وجودها قد يعني كل شيء. فما لم يتسرب البارود من الخلف بسبب عيار ناري غير مُحكم، بوسع المرء أن يطلق عديدًا من الرصاصات دون ترك أي علامة. أقترح أن تُنقل جثة السيد كيوبت الآن. ألم تستخرج الرصاصة بعد من جسد المصابة أيها الطبيب؟

– إن ذلك يحتم إجراء عملية خطيرة. لكنَّ المسدس لم يزل يحوي أربع رصاصات. أُطلقت اثنتان ووقعت إصابتان، وبهذا يمكننا تتبع مسار كل الرصاصات.

قال هولمز: –أهكذا إذن! لعل بإمكانك أيضًا تتبُّع الرصاصة التي أصابت حافة النافذة بوضوحٍ شديد؟

ثم استدار هولمز فجأة مشيرًا بإصبعه الطويل النحيف إلى فجوة محفورة في إطار النافذة السفلي على ارتفاع بوصة واحدة تقريبًا من القاعدة.

صاح المفتش قائلًا: يا إلهي! كيف تأتَّى لك أن تراها؟

– لأنني بحثت عنها.

قال طبيب البلدة: مذهل! أنت محق تمامًا يا سيدي. إذن ثمَّة رصاصة ثالثة أطلقها أحدهم، ومن ثم لا بد أن شخصًا ثالثًا كان حاضرًا. لكن من عساه يكون وكيف استطاع أن يهرب؟

أجابه شيرلوك هولمز: هذا هو اللغز الذي أوشكنا على حله، أتذكر أيها المفتش مارتن أنني، حينما سمعتُ الخادمتين تقولان بأنهما اشتمتا رائحة البارود فور مغادرتهما غرفتيهما، أشرتُ إلى أن لهذه النقطة أهمية كُبرى؟

– نعم يا سيدي؛ بيد أني أعترف بأني لم أفهمك تمامًا.

– إن هذا يُشير إلى أن كلًّا من النافذة وباب الغرفة كان مفتوحًا وقت إطلاق النار. وإلا ما كان دخان البارود ليتطاير بهذه السرعة في أنحاء المنزل. فلا بُد من وجود تيار هوائي في الغرفة ليحدث ذلك. ومع ذلك، لم تُفتح النافذة والباب إلا لفترة قصيرة جدًّا من الوقت.

– ولماذا تقول ذلك؟

– لأن الشمعة لم تذُب.

فصاح المفتش: ممتاز! ممتاز!

– وبيقيني أن النافذة كانت مفتوحة وقت وقوع المأساة أدركتُ أن شخصًا آخر كان حاضرًا، وقد وقف خارج هذه النافذة المفتوحة وأطلق النار من خلالها. أي طلقة موجهة إلى هذا الشخص قد تصيب إطار النافذة. نظرتُ فرأيت أثر رصاصة لا تخطئه عين!

– ولكن من أغلق النافذة وأوصدها؟

– على الأرجح كانت الزوجة التي دفعتها غريزتها الأولى إلى أن تُغلق النافذة وتوصدها. ولكن مهلًا! ما هذا؟

كانت على طاولة المكتب حقيبة يد نسائية – حقيبة يد صغيرة مصنوعة من جلد التمساح ومُزخرفة بالفضة. فتحها هولمز وقلبها ليُخرج محتوياتها. لم يكن بها إلا عشرون ورقة نقدية من فئة الخمسين جنيهًا من مصرف إنجلترا، رُبطَت معًا برباطٍ مطاطي ولا شيء آخر.

قال هولمز وهو يسلم الحقيبة ومحتوياتها إلى المفتش: علينا الاحتفاظ بهذه الحقيبة، فسوف نحتاج إليها في المحاكمة، والآن يتحتَّم علينا معرفة المزيد عن هذه الرصاصة الثالثة، والتي يتضح من الشق الموجود في الخشب أنها أُطلقت من داخل الغرفة. أودُّ أن أرى السيدة كينج الطاهية مرة أخرى. لقد قلتِ أيتها السيدة كينج إنك استيقظتِ على صوت انفجار مرتفع. عندما قلتِ هذا، هل قصدت أنه بدا لك أعلى من صوت الثاني؟

– حسنًا، لقد أيقظني من نومي يا سيدي، لذا يصعُب عليَّ الحكم. لكنه بدا مرتفعًا جدًّا بالفعل.

– ألا تعتقدين أن هذا الصوت ربما كان صادرًا من رصاصتين أُطلقتا تقريبًا في اللحظة ذاتها؟

– مؤكَّد لا يمكنني الجزم يا سيدي.

– أظنُّه كان كذلك دون شك. وأظن أيضًا أننا استنفدنا كل ما يمكن لهذه الغرفة أن تخبرنا إياه أيها المفتش مارتن. إذا تفضلت بالخروج معي، فسنرى ما لدى الحديقة من أدلة جديدة لتقدمها لنا.

امتد حوض أزهار مؤديًا إلى نافذة المكتب، ولم نكد نقترب منه حتى اعترتنا جميعًا موجة اندهاش. فقد كانت الزهور مدهوسة لأسفل، وآثار الأقدام مطبوعة في كل مكان على الوحل. كانت آثار قدمي رجل، له أصابع طويلة وحادة على نحو غريب. فتش هولمز بين العشب والأوراق كما يفتش كلب الصيد عن طائرٍ جريح. ثم انحنى للأمام مطلقًا صيحة رضا والتقط أسطوانة نحاسية صغيرة.

قال: مثلما توقَّعت، المسدس كان مزودًا بقاذف، وها هي ذي خرطوشة الطلقة الثالثة، لقد بتُّ موقنًا أيها المفتش مارتن أن قضيتنا على وشك الاكتمال.

أظهر وجه مفتش البلدة اندهاشه الشديد للتقدم السريع الاحترافي لتحقيق هولمز. كان يميل قليلًا في البداية إلى التأكيد على طريقته هو. غير أن الإعجاب قد طغى عليه الآن وبات مستعدًّا لاتباع هولمز أينما قاده دونما سؤال.

سأله: فيمن تشتبه؟

– لسوف أتطرَّق إلى ذلك لاحقًا. فثمَّة بعض النقاط في معضلتنا هذه لم أستطع شرحها لك بعد. والآن وقد وصلنا إلى هذا الحد، أفضل أن أواصل مساري الخاص، ثم أوضح المسألة برمتها مرة واحدة بصورة نهائية.

– ليكن إذن يا سيد هولمز، ما دمنا سنتوصل إلى الجاني.

– لستُ أرغب في اختلاق الأحاجي، ولكن يصعب الدخول في تفسيرات طويلة ومعقدة ونحنُ في ساعة العمل. إن خيوط القضية كلها في يدي. حتى لو لم تستعد هذه السيدة وعيها، فلم يزل بإمكاننا اقتفاء أثر أحداث الليلة الماضية والتأكد من أن العدالة ستأخذ مجراها. لكنني أودُّ بدايةً أن أعرف إن كان ثمَّة نُزُل في هذا الحي يُدعى إلريدج؟

استجوبنا الخدم ولكن لم يسمع أي منهم عن مثل هذا المكان. ألقى فتى الإسطبل ضوءًا على الأمر إذ ذكر أن مزارعًا بهذا الاسم عاش على بُعد أميال ناحية قرية إيست راستن.

– أهي مزرعة منعزلة؟

– منعزلة تمامًا يا سيدي.

– ربما لم يسمعوا بعد عن كل ما حدث هنا خلال الليل، أليس كذلك؟

– بلى، ربما يا سيدي.

فكر هولمز قليلًا قبل أن ترتسم ابتسامة غريبة على وجهه.

قال: أسرِج حصانك أيها الفتى، أود منك أن تنقل رسالة إلى مزرعة إلريدج.

أخرج من جيبه القصاصات المختلفة للرجال الراقصين وبسطها أمامه على طاولة المكتب، وانكبَّ في العمل عليها لبعض الوقت. وأخيرًا سلَّم رسالة إلى الفتى، طالبًا منه أن يُسلِّمها يدًا بيد للشخص المرسلة إليه، ومنبِّهًا إياه بعدم الإجابة عن أي نوع من الأسئلة قد يُطرَح عليه. رأيت الجزء الخارجي من الرسالة التي عُنوِنَت بأحرف متفرقة وغير منتظمة، ومُختلفة تمامًا عن كتابة هولمز الدقيقة المعتادة. كانت الرسالة مرسلة إلى السيد آيب سلاني، من مزرعة إلريدج، قرية إيست روستون، مقاطعة نورفولك.

ثم عقَّب هولمز قائلًا: أظنُّ أيها المفتش أن عليك المسارعة بإرسال برقية لطلب الدعم، فإذا ثبت أن حساباتي صحيحة، قد تضطر إلى نقل سجينٍ خطير جدًّا إلى سجن المقاطعة. ومن المؤكَّد أن الصبي الذي سيحمل هذه الرسالة لن يستطيع أن يُرسل برقيتك أيضًا. أما أنت يا واتسون، فإذا كان ثمَّة قطار ذاهبٌ إلى مدينتنا بعد الظهر فحريٌّ بنا أن نستقله، إذ عليَّ أن أنجز تحليلًا كيميائيًّا مهمًّا، وهذا التحقيق يدنو سريعًا من نهايته.

عندما أُرسل الفتى بالرسالة، أعطى شيرلوك هولمز تعليماته للخدم. فإذا حضر أي زائر سائلًا عن السيدة هيلتون كيوبت عليهم ألّا يُفصحوا بأي معلومات عن حالتها، بل يُدخلوه فورًا إلى غرفة الاستقبال. وقد أكَّد عليهم الالتزام بهذه النقاط بأقصى درجات الجدية. وأخيرًا تقدَّم باتجاه غرفة الاستقبال مشيرًا إلى أن الأمر الآن قد صار خارجًا عن إرادتنا، وأن علينا تزجية الوقت بأفضل ما يمكن ريثما نعرف ما يخبئه لنا القدر. انصرف الطبيب إلى مرضاه، ولم يبق إلا المفتش وأنا.

جذب هولمز مقعده إلى الطاولة وبسط أمامه الوريقات المختلفة المرسوم عليها الرجال الراقصون الغرباء، ثم قال: أظنني أستطيع مساعدتكما على تمضية ساعة ممتعة ومجدية في آن. أما أنت يا صديقي واتسون فأنا مدينٌ لك بكل تعويضٍ عن عدم إشباعي لفضولك الطبيعي لفترة طويلة. وأنت أيها المفتش، فقد تكون هذه الواقعة برمتها كدراسة احترافية رائعة. عليَّ أن أخبركما قبل كل شيء عن الظروف المثيرة للاهتمام والمرتبطة بمشاوراتي السالفة مع السيد هيلتون كيوبت في شارع بيكر. بعدها لخَّص هولمز باختصار الحقائق التي أخبرتكم بها سلفًا. وها هي ذي تلك الرسومات العجيبة قد بسطتُها أمامي، ويمكن للمرء أن يبتسم لرؤيتها لو لم يثبت أنها نذير مأساة مروعة كهذه. إنني على دراية كبيرة بأنواع الكتابة السرية كافة، بل كتبتُ بنفسي دراسة متواضعة في هذا الصدد، وفيها حللت لغز مائة وستين شفرة مختلفة؛ إلا أنني أعترف بأن هذه جديدة عليَّ تمامًا. كان هدف مُخترعي نظام

هذه الشفرة على ما يبدو هو إخفاء حقيقة أن هذه الرموز تحمل رسالة ما، وإعطاء انطباعٍ بأنها مجرد رسومات عشوائية لأطفال.

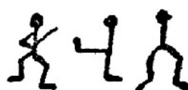
ولكن حالما أدركت أن تلك الرموز تمثل حروفًا، وبعدما طبقت قواعد فك جميع أنواع الكتابة السرية، وجدتُ أن الحل كان من أسهل ما يكون. كانت الرسالة الأولى المعروضة عليَّ قصيرة إلى الحد الذي تعذر عليَّ أن أجزم بشيء إلا بأن هذا الرمز:



يمثل الحرف E. وكما تعرفان فإن الحرف E هو الأكثر شيوعًا بين حروف اللغة الإنجليزية، إنه مهيمنٌ على اللغة بحيث يتوقع المرء أن يجده الأكثر تكرارًا حتى في جملة واحدة قصيرة. ومن بين خمسة عشر رمزًا في الرسالة الأولى، وجدتُ أربعة منهم متماثلين، لذا كان منطقيًا أن أجزم بأن هذا الرمز هو الحرف E. صحيحٌ أني لاحظت أن الرمز كان يرفع علمًا في بعض الأحيان ولا يفعل في بعضها الآخر، ولكن يُحتمل من طريقة توزيع الأعلام أنها استُخدمت لتقسيم الجملة إلى كلمات. وقد قبلت بهذه الفرضية ودوَّنت أن الحرف E يُرمز له بهذا الرمز:



وهنا تظهر الصعوبة الحقيقية لتحقيقي؛ وهي أن ترتيب الحروف الإنجليزية بعد الحرف E لم يكُن مميزًا بحال، وأي رجحان قد يظهر لأحد الحروف دون غيره في ورقة عادية مطبوعة يمكن دحضه بجملة واحدة قصيرة. فمثلًا، الحروف T، A، O، I، N، S، H، R، D، L تأتي بالترتيب ذاته من ناحية تكرارها؛ بينما تتكرر الحروف T، A، O، I بصورة أكثر تقاربًا، وستكون تجربة كل مزيج منها من أجل الوصول إلى معنى هي بمثابة مهمة بلا نهاية. لذا انتظرتُ مجيء رسائل جديدة. وفي لقائي الثاني بالسيد هيلتون كيوبت، أعطاني جملتين قصيرتين أخريين، ورسالة بدت مكوَّنة من كلمة واحدة؛ نظرًا إلى عدم وجود أعلام بها. ها هي ذي الرموز. والآن في الكلمة المفردة وجدت حرفي E في الترتيب الثاني والرابع لكلمة من خمسة أحرف. قد تكون تلك الكلمة هي sever أو lever أو never. ولا شك في أن الاحتمال الأكبر هو المعنى الأخير: «مستحيل»، والذي جاء ردًّا على طلبٍ ما، وبدا من الوقائع أنه كان ردًّا كتبته السيدة. وبافتراض صحة هذا الاحتمال، صار بإمكاننا القول بأن هذه الرموز:



تمثل الأحرف N وV وR على التوالي.

بحلول ذلك الوقت كنتُ ما زلتُ أواجه صعوبة، ولكن داهمتني فكرة مواتية حصلتُ منها على عدة أحرف أخرى. فقد خطر لي أنه إذا كانت هذه الطلبات آتية، مثلما أتوقع، من شخصٍ كان على علاقة عاطفية مع السيدة في حياتها السابقة، فإن الكلمة التي تحتوي على حرفي E بينهما ثلاثة أحرف محتمل

جدًّا أن تكون إشارة إلى اسم ELSIE. وعند التدقيق وجدت أن هذه الكلمة تمثل خاتمة الرسالة التي تكررت ثلاث مرات. لقد كانت طلبًا لإلسي لا محالة. بهذه الطريقة حصلت على الأحرف L وS وI. ولكن ماذا عساه هذا الطلب يكون؟ كانت الكلمة التي تسبق إلسي مكوَّنة من أربعة أحرف فقط، وتنتهي بحرف E. لا بد أن تلك الكلمة هي COME. إذ إنني جربت جميع الكلمات الأخرى ذات الأربعة أحرف المنتهية بحرف E، لكنها لم تبد ملائمة لما يحدث. لذا كان بحوزتي في هذا الوقت الأحرف C وO وM وبتُّ جاهزًا للانقضاض على الرسالة الأولى مرة أخرى، وتقسيمها إلى كلمات ووضع نقاط لكل رمز ما زال مجهولًا. وبعد معالجتي لها صارت على النحو التالي:

.M .ERE ..E SL.NE.

والآن لم يكن للحرف الأول أن يكون سوى A، وهو الاكتشاف الأكثر نفعًا، حيث إنه تكرر ما لا يقل عن ثلاث مرات في هذه العبارة القصيرة، ثم تجلَّى أيضًا الحرف H في الكلمة الثانية. والآن أصبحت العبارة كالتالي:

.AM HERE A.E SLANE

أو، بعد ملء الفراغات البديهية بالاسم:

AM HERE ABE SLANEY

أنا هنا آيب سلاني

بحلول هذا الوقت أصبح لدي أحرف كثيرة إلى الحد الذي يمكنني من التقدم بثقة في معالجة الرسالة الثانية، والتي ظهرت على هذا النحو:

.A. ELRI.ES

هنا لم أستطع فهم العبارة إلا بوضع حرفي T وG مكان الحرفين المفقودين، وأن أفترض أنه اسم منزل أو نزل كان يقيم فيه المُرسِل.

أنصتنا أنا والمفتش مارتن باهتمام شديد إلى السرد الشامل والواضح للكيفية التي توصل بها صديقي إلى استنتاجاته، تلك التي مكنتنا من اجتياز الصعوبات التي واجهتنا بكليتها.

سأله المفتش مارتن: وماذا فعلت بعدها يا سيدي؟

– كانت لدي كل الأسباب التي جعلتني أفترض أن آيب سلاني هذا أمريكي، نظرًا إلى أن كلمة آيب هي لفظة أمريكية رخيمة، ولأن رسالة من أمريكا كانت هي نقطة بداية المأساة كلها. وقد كان لدي كذلك كل سبب يدفعني إلى الاعتقاد بوجود سر جنائي في المسألة. فتلميحات السيدة إلى ماضيها ورفضها إدخال زوجها إلى دائرة أسرارها يشير إلى هذا الاتجاه. لذا أرسلت برقية إلى صديقي ويلسون هارجريف من شرطة نيويورك والذي استعان أكثر من مرة بخبراتي في عالم الجريمة بلندن. سألته عما إن كان اسم آيب سلاني مألوفًا لديه. وها هو ذا رده: أخطر محتالي شيكاغو. وفي الليلة ذاتها التي تلقيت فيها إجابته، أرسل إليَّ هيلتون كيوبت آخر رسالة من سلاني. وبالعمل عليها وفقًا لما اهتديت إليه من حروف، صارت على هذا النحو:

ELSIE.RE.ARE TO MEET THY GO[1].

وبإضافة الحرفين P وD اكتملت الرسالة التي أظهرت لي أن الوغد قد انتقل من الاستمالة إلى التهديد، وقد علَّمتني خبرتي بمحتالي شيكاغو أن هذا الرجل ربما يضع تهديده موضع التنفيذ سريعًا. فهرعت من فوري إلى نورفولك مع صديقي وزميلي الدكتور واتسون، لأجد الأسوأ قد وقع بالفعل.

قال المفتش بحرارة: يزيدني شرفًا أن شاركتك حل هذه القضية، لكنني أريدك أن تعذرني إن حدَّثتُك بصراحة. فأنت لستَ مسؤولًا إلا أمام نفسك، أما أنا فمضطر إلى إبلاغ رؤسائي بكل ما يجري. فإذا كان آيب سلاني هذا القاطن بمزرعة إلريدج هو القاتل فعلًا، واستطاع الهرب فيما أنا جالسٌ هنا، فلا شك أنّي سأواجه مشكلة كُبرى.

– لا داعي للقلق. إنه لن يحاول الهرب.

– وما يدريك؟

– إن هربه سيكون اعترافًا بجريمته.

– لنذهب إذن ونُلقي القبض عليه.

– إنني أتوقع حضوره هنا في أية لحظة.

– ولكن لم عساه يأتي؟

– لأنني أرسلتُ إليه طالبًا حضوره.

– لكن هذا غير معقول يا سيد هولمز! لِمَ عساه يأتي بناءً على طلبك؟ ألن يثير هذا شكوكه ويجعله يلوذ بالفرار؟

قال شيرلوك هولمز: أظنني كتبتُ له رسالة مقنعة. في الواقع، وإن لم يُخطئني حدسي كليًّا، فها هو الرجل نفسه يقترب على الممشى.

كان ثمة رجل يحث الخطى في الطريق المؤدي إلى الباب. كان طويلًا وسيمًا داكن البشرة ذا لحية سوداء خشنة وأنفٍ كبير معقوف يوحي بالعدوانية، يضع حُلة من الصوف الرمادي، ويعتمر قبعة من القش، ويحمل عصا يلوِّح بها في سيره. راح يمشي بخيلاء صاعدًا الممر كأنه صاحب المكان، ثم سمعنا طرقه المدوِّي الواثق على الجرس.

قال هولمز أرى أيها السادة أن نتخذ مواقعنا وراء الباب. إن كلَّ احتياطٍ ضروري لدى تعاملنا مع رجلٍ كهذا. جهِّز أصفادك أيها المفتش، واتركا الحديث لي.

انتظرنا في صمتٍ لدقيقة – واحدة من تلك الدقائق التي لا يسع المرء نسيانها. ثم انفتح الباب وخطا الرجل إلى الداخل. وفي لمح البصر ألصق هولمز مسدسًا إلى صدغه ووضع مارتن الأصفاد حول رسغيه. حدث كل هذا بسرعة ودقة شديدتين حتى إن الرجل أصبح بلا حول ولا قوة قبل أن يدرك أنه يتعرض للهجوم. حدق إلينا واحدًا تلو الآخر بعينين سوداوين تتوهجان غضبًا. ثم انفجر في ضحكة مريرة.

– حسنًا أيها السادة، لقد تفوقتم عليّ هذه المرة. يبدو أنني أسقطت نفسي في شَرَككم. لكنني جئت هنا تلبيةً لدعوة من السيدة هيلتون كيوبت. لا تخبرونني أنها شاركتكم خطتكم تلك، لا تخبروني أنها

ساعدت في نصب الفخ لي.

– لقد أُصيبت السيدة هيلتون كيوبت إصابة حادة وهي على أعتاب الموت.

فصاح الرجل صيحة حزن مبحوحة دوت في أنحاء المنزل.

صاح قائلًا بغضب: أيها المجنون! إنه هو من أصيب، لا هي. من عساه يؤذي إلسي الصغيرة؟ ربما أكون هددتها، فليسامحني الله، لكني لم أكن لأمس شعرة من رأسها الجميل. اسحب ما قلته يا هذا! قل إنها لم تصب بأذى!

– لقد عُثر عليها مصابة إصابة بليغة إلى جانب زوجها الميت.

غاص في مقعده مصدرًا أنينًا عميقًا ودفن وجهه في يديه المقيدتين. ولخمس دقائق ظل صامتًا. ثم رفع رأسه مرة أخرى، وراح يتحدث بهذا الهدوء الفاتر المصاحب للقنوط.

قال: ليس لدي ما أخفيه عنكم أيها السادة، إن كنت أطلقت النار على الرجل فقد أطلق ناره عليّ، وليس في هذا تعمدًا للقتل. أما إذا كان ظنكم أن بإمكاني أن أصيب تلك المرأة بأذى، فأنتم لا تعرفونني إذن ولا تعرفونها. أؤكد لكم أنه ما من رجل في هذا العالم أحبَّ امرأة أكثر مما أحببتها أنا. كان لي الحق فيها. كانت موعودة لي منذ سنين. من يكون هذا الإنجليزي حتى يفرق بيننا؟ أؤكد لكم أنني الأحق بها منذ البداية، وأنني إنما كنت أطالب بحقي.

قال هولمز بصرامة: لقد لاذت بالفرار منك عندما اكتشفت حقيقتك، وهربت من أمريكا لتتجنبك، وتزوجت برجلٍ نبيلٍ جديرٍ بالاحترام في إنجلترا. فإذا بك تطاردها وتتعقبها وتُحيل حياتها جحيمًا لتدفعها إلى هجران زوجها الذي أحبته وتفر معك أنت، الشخص الذي طالما خافته وأبغضته. فانتهيت إلى التسبب في مقتل رجلٍ نبيل، ودفع زوجته إلى الانتحار. هذا ما جنيته يا سيد آيب سلاني، وسوف تُسأل عنه أمام القانون.

قال الأمريكي: إذا ماتت إلسي فلن أبالي بما يحدث لي. وفتح إحدى يديه ونظر إلى ورقة مجعدة في كفه. ثم صاح وفي عينيه نظرة شك: مهلًا أيها السيد، أتحاول إخافتي بحديثك أم ماذا؟ إذا كانت إصابة السيدة بهذا السوء الذي تقول، فمن كتب هذه الورقة؟ وألقى الورقة على الطاولة أمامنا.

– أنا كتبتها لإحضارك إلى هنا.

– أنت كتبتها؟ ما من أحدٍ على وجه الأرض خارج عصابتنا يعلم سر الرجال الراقصين. كيف عساك تكتبها؟

قال هولمز: ما يخترعه رجلٌ يكتشفه آخر، ثمة عربة أجرة قادمة لتقلك إلى مدينة نورتش يا سيد سلاني. أما الآن، فلديك فرصة للتكفير قليلًا عما اقترفته يداك. أتعلم بأن السيدة هيلتون كيوبت كانت متهمة بقتل زوجها، ولولا وجودي هنا والمعلومات التي تصادف أني امتلكتها، ما كانت لتنجو من هذه التهمة؟ إن أقل ما تدين لها به هو أن توضح للعالم أجمع أنها لم تكن مسؤولة بأي شكل، مباشرًا كان أو غير مباشر، عن هذه النهاية المأساوية.

قال الأمريكي: لا أطمع فيما هو أفضل من هذا، بل أظن أن أفضل حجة يمكنني أن أقدمها لنفسي هي الحقيقة العارية المطلقة.

صاح المفتش، بنزاهة القانون الجنائي البريطاني المهيب: من واجبي أن أحذرك أن هذا سوف يستخدم ضدك.

هز سلاني كتفيه قائلًا: لسوف أجازف بذلك إذن. في البداية، أود منكم أيها السادة أن تدركوا أنني أعرف هذه السيدة منذ كانت طفلة. كنا عصابة مؤلفة من سبعة أفراد في شيكاغو، وكان والد إلسي هو زعيمنا. كان باتريك العجوز هذا رجلًا ذكيًّا. إنه هو من اخترع تلك الكتابة، التي تبدو كخربشة طفل ما لم يكن معك مفتاحها. حسنٌ، تعلَّمت إلسي بعضًا من أساليبنا؛ لكنها لم تستطع تحمُّل ما نرتكبه، وكان بحوزتها القليل من المال الذي كسبته بطرق شرعية، ففرَّت منا جميعًا وسافرت إلى لندن. كانت إلسي مخطوبة لي، وأظنها كانت لتتزوجني لو كنت اتخذت لنفسي مهنة أخرى؛ لكنها أبت الانخراط في أي شيء له علاقة بالعصابة. لم أعرف مكانها إلا بعدما تزوجت من هذا الإنجليزي. فكتبتُ لها، لكنني لم أتلق أي رد. وهكذا أتيتُ إلى هنا، ولأن خطاباتي لم تُجدِ نفعًا، وضعتُ رسائلي حيث تستطيع قراءتها.

حسنًا، مرَّ شهر على وجودي هنا الآن. كنتُ أقيم فيه في تلك المزرعة، حيث كانت لي غرفة بالأسفل أستطيع الدخول والخروج منها في كل ليلة دون أن ينتبه لي أحد. حاولت قدر وسعي استمالة إلسي. وعرفت أنها كانت تقرأ رسائلي، لأنها كتبت لي ردًّا ذات مرة أسفل إحداها. ثم غلبني غضبي وبدأتُ في تهديدها. حينها أرسلَت إلسي لي رسالة، تتوسل إليّ فيها أن أمضي بعيدًا وتقول إن قلبها سينفطر إذا لحقت بزوجها أي فضيحة. وأخبرتني بأنها ستهبط إلى الطابق السفلي عندما ينام زوجها في الثالثة صباحًا وتتحدث معي عبر النافذة الطرفية، شريطة أن أذهب بعدها وأتركها في سلام. وهكذا هبطت وأحضرت معها بعض المال، في محاولة منها لرشوتي حتى أرحل. أغضبني هذا، فقبضتُ على ذراعها وحاولت سحبها عبر النافذة. وفي تلك اللحظة اندفع زوجها ممسكًا بمسدسه في يده. فسقطت إلسي على الأرض، وأصبحنا أنا وهو وجهًا لوجه. كنت مسلحًا أنا الآخر، فرفعت مسدسي لأخيفه كيما يدعني أهرب. لكنه أطلق رصاصة وأخطأني، فيما سحبت الزناد في اللحظة ذاتها، فسقط أرضًا. أطلقتُ ساقي للريح عابرًا الحديقة، وبينما ركضتُ سمعتُ النافذة توصد من خلفي. وأشهد الله أن كل كلمة قلتها هي الحقيقة أيها السادة، ولم أسمع بشيء حتى جاء ذاك الفتى راكبًا حصانه وسلمني الرسالة التي أحضرتني إلى هنا وجعلتني أوقع نفسي كالأحمق في أيديكم.

كانت عربة الأجرة قد وصلت بينما يتحدث الأمريكي. جلس في داخلها اثنان من رجال الشرطة بالزي الرسمي. فنهض المفتش مارتن وربت على كتف سجينه.

– حان وقت الذهاب.

– هلا سمحتم لي برؤيتها أولًا؟

– كلا، إنها غائبة عن الوعي. أما أنت أيها السيد شيرلوك هولمز، فإن حدث وصادفتني قضية مهمة، يسرُّني أن أجدك حينها إلى جانبي مرة أخرى.

وقفنا عند النافذة نراقب عربة الأجرة بينما تسير مبتعدة. وعندما استدرتُ وقعت عيناي على قصاصة الورق التي ألقى بها السجين على الطاولة. كانت الرسالة التي خدعه هولمز بها.

قال هولمز مبتسمًا: حاول أن تقرأها يا واتسون.

لم يكن بها سوى هذا السطر الصغير من الرجال الراقصين:



قال هولمز: إذا استخدمت الشفرة الذي شرحتها سلفًا، سترى أن معناها ببساطة هو: تعالَ إلى هنا على الفور. كنت موقنًا أنها دعوة لن يرفضها، إذ لن يتصور أبدًا أنها قد تأتي من أحدٍ غير السيدة. وبهذه الطريقة يا عزيزي واتسون، انتهينا إلى استخدام الرجال الراقصين في الخير مع أنهم لطالما كانوا عملاء الشر، وأظنني أوفيت بوعدي لك أن أمنحك قصة استثنائية تضيفها إلى مفكرتك. سينطلق قطارنا في الثالثة وأربعين دقيقة، وآمل أن نتمكن من العودة إلى شارع بيكر في موعد العشاء.

أما أنا، فأختتم حكايتي بكلمة أخيرة. لقد حُكم على الأمريكي آيب سلاني بالإعدام في جلسات محاكم الجنايات التي انعقدت شتاءً في مدينة نورتش؛ ولكن تغيرت عقوبته إلى الأشغال الشاقة مراعاةً لملابسات الحادث، ولأن هيلتون كيوبت في الحقيقة هو من أطلق النار أولًا. أما بالنسبة للسيدة هيلتون كيوبت فلا أعرف عنها سوى أنها تعافت تمامًا، وأنها لم تزل أرملة، وأنها قد كرَّست حياتها كلها لرعاية الفقراء وإدارة ممتلكات زوجها.

فلتستعدِّي يا إلسي لملاقاة ربِّك.

مغامرة راكبة الدراجة الوحيدة

كان شيرلوك هولمز كثير الانشغال في الفترة بين عامي 1894 و1901. ويسعني القول إنه ما من قضية عامة على أي قدر من الصعوبة خلال تلك السنوات الثماني إلا استُشير فيها، إلى جانب مئات من القضايا الخاصة التي كان يُعد بعضها من أشد القضايا تعقيدًا وغرابة، والتي لعب دورًا بارزًا في حلها. كان نتاج هذه الفترة الطويلة من العمل المستمر عددًا من النجاحات المذهلة، وبعض الإخفاقات التي لم يجد مفرًّا منها. ولأنني احتفظت بملاحظات بالغة التفصيل عن كلٍّ من هذه القضايا، وشاركتُ بنفسي في العديد منها، فيمكن تصوُّر صعوبة مهمة اختيار واحدةٍ منها دون البقية. ومع ذلك، سأظل ملتزمًا بقاعدتي السابقة، وأعطي الأفضلية لتلك القضايا التي لا تستمد أهميتها من وحشية الجريمة بقدر ما تنبع من براعة الحل وطابعه الدرامي. لهذا السبب سأضع الآن أمام القارئ وقائع قضية الآنسة فيوليت سميث، راكبة الدرَّاجة الوحيدة على طريق تشارلينتن، والتسلسل الغريب لتحقيقنا، الذي توِّج بمأساة غير متوقعة. صحيح أن الظروف لم تسمح بظهورٍ صارخ لتلك القدرات التي يشتهر بها صديقي، لكنها برزت بفعل بعض النقاط في هذه القضية من وسط السجلات الطويلة الحافلة بالجرائم، والتي أجمع منها المعلومات اللازمة لكتابة تلك الروايات الصغيرة.

بالرجوع إلى دفتر ملاحظاتي لعام 1895، أجد أننا في يوم السبت، الثالث والعشرين من أبريل، سمعنا اسم الآنسة فيوليت سميث لأول مرة. وحسبما أتذكر لم تلقَ زيارتها أي ترحيبٍ من هولمز، الذي كان منهمكًا في ذاك الوقت بقضية بالغة الغموض والتعقيد تتعلق بالاضطهاد الغريب الذي يلاقيه جون فنسنت هاردن، مليونير التبغ الشهير. كان صديقي –الذي يحب الدقة وتركيز التفكير أكثر من أي شيءٍ آخر– يستاء من كل ما يشتت انتباهه عن القضية التي بين يديه. ولأن القسوة لم تكن من طباعه تعذَّر عليه أن يرفض سماع قصة الشابة الجميلة الطويلة الرشيقة ذات الشخصية الملكية، التي عرفتنا بنفسها في شارع بيكر في وقت متأخر من المساء، وتوسَّلت مساعدته ونصيحته. لم يستطع إقناعها بأن وقته مشغول بالفعل تمام الانشغال، فقد جاءت الشابة بعزمٍ لا ينثني لسرد قصتها، وبدا جليًّا أنها لن تترك الغرفة إلا بالقوة. طلب هولمز من المتطفِّلة الجميلة بقلة حيلة وابتسامة مرهَقة أن تتخذ مقعدًا وتخبرنا بما يُزعجها.

قال بينما يرشقها بنظراته الثاقبة: على الأقل مُحال أن تكون صحتك هي مصدر انزعاجك، فلا بد أن راكبة درَّاجة نشيطة مثلك تتوقَّد بالطاقة.

نظرت إلى قدميها بدهشة، ولاحظت خشونة طفيفة في جانب النعل بسبب احتكاك حافة الدواسة.

– نعم، إنني أمارس ركوب الدراجات كثيرًا يا سيد هولمز، ولهذا علاقة بزيارتي لك اليوم.

أمسك صديقي بيد السيدة غير المقفزة وفحصها بالاهتمام الشديد وبرودة المشاعر التي قد يفحص بها العالم عينته.

ثم قال وهو يترك يدها: لا بد أن تعذريني. فهذا عملي. كدتُ أقع في خطأ افتراض أنك تكتبين على الآلة الكاتبة. لكنها بالطبع الموسيقى. هل لاحظت أطراف الأصابع المسطحة يا واتسون؟ إنها شائعة في كلا المهنتين، ومع ذلك ثمة روحانية في وجهها لا تولدها الآلة الكاتبة. قالها وأدار وجهها بلطف ناحية الضوء، قبل أن يُكمل قائلًا: هذه السيدة موسيقية.

– نعم يا سيد هولمز، فأنا أدرّس الموسيقى.

– في الريف، حسبما أفترض من لون بشرتك.

– نعم يا سيدي، قرب مدينة فارنهام، على حدود مقاطعة سري.

– حي جميل ولنا فيه كثيرٌ من الذكريات الشيقة. أتذكر يا واتسون أننا ألقينا القبض على المزور آرشي ستامفورد بالقرب من هناك؟ والآن يا آنسة فايوليت، ما الذي حدث لك قُرب مدينة فارنهام على حدود مقاطعة سري؟

وهكذا أدلَت الشابة بوضوح ورباطة جأش شديدين بالإفادة التالية:–

– إن والدي متوفًّ يا سيد هولمز. إنه جيمس سميث، الذي قاد الأوركسترا في المسرح الملكي القديم. وقد تركنا أنا وأمي دون أقرباء على الإطلاق، باستثناء عمٍّ واحد يدعى رالف سميث كان قد سافر إلى إفريقيا منذ خمسة وعشرين عامًا، ولم نتلق أي اتصال منه منذئذ. تركنا والدي بعد مماته فقيرين جدًّا، لكننا رأينا ذات يوم إعلانًا في جريدة التايمز يستعلم عن مكاننا. ولك أن تتخيل مدى حماستنا، فقد ظننا أن أحدهم ترك لنا ثروة. ذهبنا على الفور إلى المحامي الذي ورد اسمه في الجريدة. وهناك التقينا برجلين، السيد كاروثرز والسيد وودلي، اللذين عادا للوطن في زيارة من جنوب إفريقيا. قالا إن عمي كان صديقًا لهما، وأنه توفِّي منذ بضعة أشهر في فقر مُدقع بجوهانسبرج، وإنه قد طلب منهما وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يعثرا على أقربائه، ويتأكدا من أنهم لا يعانون أي عوز. بدا غريبًا لنا أن العم رالف، الذي لم يُعرنا انتباهًا عندما كان على قيد الحياة، أصبح شديد الحرص على الاعتناء بنا وهو يحتضر؛ لكن السيد كاروثرز فسر ذلك بأن عمِّي كان قد سمع لتوه عن وفاة شقيقه، لذا شعر بالمسؤولية تجاهنا.

قال هولمز: عُذرًا. متى كان هذا اللقاء؟

– في ديسمبر الماضي – منذ أربعة أشهر.

– رجاءً أكملي.

– بدا لي السيد وودلي أبغض البشر على الإطلاق. كان يحدق إليَّ طوال الوقت –كان شابًّا خشنًا، منتفخ الوجه ذا شارب أحمر وشعرٍ يلتصق على جانبي جبهته. فكرت كم هو مقيت – وكنت موقنة أن سيريل لن يرغب في أن أعرف مثل هذا الشخص.

قال هولمز مبتسمًا: أوه، اسمه سيريل إذن!

توردت الشابة خجلًا وضحكت.

– نعم يا سيد هولمز؛ سيريل مورتن، مهندس كهرباء ويحدونا الأمل أن نتزوج بنهاية الصيف. ويحي، كيف تطرَّقت بالحديث إليه؟ ما أردت قوله هو أن السيد وودلي كان بغيضًا بحق، أما السيد كاروثرز – الذي كان أكبر سنًّا– فكان أكثر لطفًا. رجل داكن البشرة شاحبها، حليق الذقن ويميل إلى الصمت؛ لكن له أسلوبٌ مهذب وابتسامة لطيفة. سأل عن حالنا، وعندما علم بفقرنا المدقع اقترح أن أذهب لأدرِّس الموسيقى لابنته الوحيدة ذات العشر سنوات. قلت له أنني لا أحب أن أترك والدتي، فاقترح أن أعود إلى المنزل كل نهاية أسبوع، وعرض عليّ مائة جنيه إسترليني في العام، وهو ما كان أجرًا رائعًا دون شك،

فانتهيت إلى القبول، وذهبت إلى تشيلترن جرينج، التي تبعد نحو ستة أميال من فارنهام. كان السيد كاروثرز أرملَ، لكنه وظّف مدبرة منزل –وهي امرأة عجوز في غاية الاحترام تُدعى السيدة ديكسون– لرعاية منزله. كانت الطفلة رقيقة جدًّا، وكل شيء يُبشِّر بالخير. ووالدها السيد كاروثرز طيب ومولع بالموسيقى، حظينا بأمسيات ممتعة معًا. وفي نهاية كل أسبوع كنت أعود إلى منزلنا بالبلدة لأمي.

أول صدع في سعادتي كان وصول السيد وودلي ذي الشارب الأحمر. فقد جاء لزيارتنا لمدة أسبوع. وآه، لقد بدت لي ثلاثة أشهر! شخص كريه، يسخر من الجميع، لكنه كان معي أسوأ إلى أبعد حد. فقد صرَّح بحبه المقيت تجاهي، وأخذ يتباهى بثروته، وقال إنني إن تزوجته سيجلب لي أجمل ماسَات لندن، وأخيرًا وعندما فشلت كل محاولاته في جذب انتباهي، قبض عليَّ ذات يوم بعد العشاء بين ذراعيه –كان شديد القوة– وأقسم أنه لن يدعني حتى أُقبِّله. فجاء السيد كاروثرز وانتزعه عني، فانقضَّ على مُضيفه وطرحه أرضًا وجرح وجهه. كانت تلك هي نهاية زيارته كما يمكنك أن تتخيل. وفي اليوم التالي، اعتذرَ لي السيد كاروثرز، وأكَّد لي أنني لن أتعرض لمثل هذه الإهانة مرة أخرى. ولم أرَ السيد وودلي منذ ذلك الحين.

والآن يا سيد هولمز، وصلتُ أخيرًا إلى مشكلتي التي حدت بي إلى طلب نُصحك اليوم. خُذ في اعتبارك أنني أركب دراجتي كل يوم سبت إلى محطة فارنهام لأستقل قطار الثانية عشرة واثنتين وعشرين دقيقة إلى البلدة. والطريق من تشيلترن جرينج مهجور، وفي إحدى البقع يكون منعزلًا تمام الانعزال، حين يمتد لمسافة تزيد على الميل بين مرج تشارلينتن من جانب، والغابة التي تحيط بمنزل تشارلينتن من الجانب الآخر. لن تجد طريقًا أشد قفرًا منه في أي مكان آخر، وقلَّما تلتقي بعربة أو قروي حتى تصل إلى الطريق السريع بالقرب من كروكسبري هيل. كنت أعبر هذه البقعة منذ أسبوعين عندما حدث أن ألقيت نظرة من فوق كتفي، فرأيت رجلًا يركب دراجة هو الآخر على بعد نحو مئتي ياردة مني. بدا رجلًا في منتصف العمر، ذا لحية قصيرة داكنة. وحينما كدتُ أصل إلى فارنهام، نظرتُ خلفي ثانيةً فوجدت الرجل قد اختفى، لذا لم أُطل التفكير في الأمر. لك أن تتخيل دهشتي يا سيد هولمز عندما رأيت الرجل ذاته على المسافة ذاتها مني في طريق عودتي يوم الاثنين. وزادت دهشتي عندما تكرر الحادث مرة أخرى، تمامًا مثلما حدث من قبل، في يومي السبت والاثنين التاليين. لقد حافظ دائمًا على مسافة مني ولم يزعجني بأي شكل، لكن الأمر لم يزل شديد الغرابة دون شك. ذكرتُ الأمر للسيد كاروثرز، الذي بدا مهتمًّا بما أقول، وأخبرني أنه طلب حصانًا وعربة، كي لا أعبر هذه الطرق المنعزلة في المستقبل من دون رفيق.

كان يُفترض أن يأتي الحصان والعربة هذا الأسبوع، لكنهما لم يصلا لسببٍ ما، ومرة أخرى اضطررت أن أركب درَّاجتي إلى المحطة. وكان هذا صباح اليوم. ومثلما تتوقَّع، فقد نظرت حولي حينما وصلت إلى مرج تشارلينتن، وبالطبع رأيت الرجل، تمامًا مثلما حدث في الأسبوعين الماضيين. لقد بقي دومًا بعيدًا، لذا لم أستطع تبيُّن وجهه، لكنني على يقين من أنه شخصٌ لا أعرفه. كان يرتدي حلة داكنة مع قبعة من القماش. والشيء الوحيد الذي استطعت رؤيته بوضوح من وجهه هي لحيته الداكنة. واليوم لم أشعر بالقلق كما شعرتُ بالفضول، فعقدت العزم على معرفة من هو، وماذا يريد. أبطأت

الدراجة، فأبطأ هو الآخر. ثم توقفت تمامًا، فتوقَّف بدوره. لذا نصبت له فخًّا. ثمة منعطفٌ حاد في الطريق، فدرت حوله بسرعة شديدة ثم توقفت وانتظرت. توقعت أن ينعطف سريعًا ويتجاوزني قبل أن يتمكن من التوقف. لكنه لم يظهر قط. ثم عدت أدراجي ونظرت عند الناصية. استطعت أن أرى لمسافة ميل من الطريق، لكنه لم يكن عليه. والأكثر غرابة أنه ما من طريق جانبي في هذا المكان يمكنه أن يسلكه.

ضحك هولمز وفرك يديه قائلًا: إن لهذه القضية طابعًا خاصًّا بكل تأكيد، كم مضى من الوقت بين انعطافك واكتشافك أن الطريق كان خاليًا؟

– دقيقتان أو ثلاث.

– لا يمكنه إذن أن يكون قد عاد أدراجه، وأنت تقولين إنه ما من طريق جانبي، صحيح؟

– نعم.

– لا بد إذن أنه اتخذ ممرًّا للمشاة على هذا الجانب أو ذاك.

– لا يمكن أن يكون على جانب المرج وإلا كنت لأراه.

– إذن بإجراء عملية استبعاد صغيرة نصل إلى حقيقة أنه قد شقَّ طريقه نحو منزل تشارلينتن، والذي يقع كما فهمت على أحد جانبي الطريق. أي شيء آخر؟

– لا شيء يا سيد هولمز. غير أن حيرة شديدة تملَّكتني وشعرتُ بأن بالي لن يهدأ حتى أراك وأسمع نصيحتك.

جلس هولمز في صمت لقليل من الوقت.

وفي النهاية سألها: أين خطيبك؟

– إنه يعمل في شركة ميدلاند إلكتريكال في كوفنتري.

– ألا يأتيكِ في زيارات مفاجئة؟

– أوه يا سيد هولمز، كأني لن أتعرف عليه!

– هل كان لديك أي معجبين آخرين؟

– كثرٌ قبل سيريل.

– ومنذئذ؟

– فقط هذا البغيض وودلي، إن كان لنا أن نصفه بالمُعجب.

– لا أحد غيره؟

بدت عميلتنا الجميلة مرتبكة بعض الشيء.

سألها هولمز: من هو؟

– أوه، قد يكون مجرد وهم يراودني؛ لكن يبدو لي أحيانًا أن صاحب عملي السيد كاروثرز، يحمل قدرًا كبيرًا من الاهتمام تجاهي. لقد جمعنا القدر معًا بطريقة ما، وأشاركه العزف في الأمسيات. لكنه لم يقل شيئًا قط. إنه رجلٌ نبيل بحق. لكن الفتاة تشعر دومًا بمثل هذه الأشياء.

قال هولمز بجدية: هه! ما عمله؟

– إنه رجلٌ ثري.

– أليس لديه عربات أو خيول؟

– حسنًا، إنه على الأقل ميسور الحال إلى حد ما. لكنه يذهب إلى المدينة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، فهو شديد الاهتمام بأسهم الذهب في جنوب إفريقيا.

– أرجو أن تُطلعيني على أية تطورات جديدة يا آنسة سميث. أنا منشغل جدًّا في الوقت الحالي، لكنني سأجد الوقت لإجراء بعض التحريات بشأن قضيتك. وفي غضون ذلك، لا تتخذي خطوة دون أن تُطلعيني عليها. إلى اللقاء، وأنا على يقين أننا لن نسمع منك إلا أخبارًا طيبة.

قال هولمز وهو يدخن غليونه بتأمُّل: إنه جزءٌ من نظام الطبيعة الثابت أن يكون لمثل هذه الفتاة من يلاحقها، بقلبه وليس بدراجة على الطرق الريفية المنعزلة. إنه عاشق سري لا محالة. لكن ثمة تفاصيل غريبة وموحية في القضية يا واتسون.

– إنه يظهر فقط في تلك البقعة؟

– بالضبط. لا بد أن نسعى أولًا لمعرفة سكان منزل تشارلينتن. ثم ماذا عن العلاقة التي تربط كاروثرز بوودلي، هما الرجلان المختلفان عن بعضهما بعضًا أشد الاختلاف؟ كيف أصبح كلاهما حريصًا على البحث عن أقرباء رالف سميث؟ ونقطة أخرى. أي رب منزل هذا الذي يدفع ضعف الأجر السائد لمعلمة، في حين أنه لا يمتلك حصانًا رغم بُعد المحطة عنه بمسافة ستة أميال؟ هذا غريب يا واتسون – غريب جدًّا!

– هل ستذهب إلى هناك؟

– كلا يا صديقي العزيز، بل ستذهب أنت. فربما هي حيلة تافهة، ولا يسعني قطع بحوثي المهمة لأجلها. ستصل باكرًا من صباح يوم الاثنين إلى فارنهام؛ وتختبئ بالقرب من مرج تشارلينتن؛ وترصد تلك الأحداث بنفسك، وتتصرف حسبما ترتئي. ثم تعود إليّ بعد أن تتحرى عن سكان منزل تشارلينتن وتبلغني بما حدث. أما الآن يا واتسون، فلا تزد كلمة في هذه المسألة حتى يصير لدينا موطئُ قدم صلبٌ يسعنا عبوره وصولًا إلى الحل.

تأكدنا من الفتاة أنها تستقل يوم الاثنين قطارًا يغادر ووترلو في التاسعة وخمسين دقيقة، لذا انطلقتُ أنا باكرًا ولحقت بقطار التاسعة وثلاث عشرة دقيقة. ومن محطة فارنهام لم أجد صعوبة في التوجه إلى مرج تشارلينتن. كان من المستحيل أن أخطئ موقع مغامرة الشابة، فالطريق يمتد بين المرج المفتوح من جانب وسياج طقسوس عتيق يطوق حديقة تعجّ بالأشجار البديعة من الجانب الآخر. كان للحديقة مدخل رئيس من الحجر المرصع بالأشنة، وعلى جانبيه عمودان يعلو كلًّا منهما شعارات نبالة متحللة؛ ولكن بجوار ممر العربات المركزي هذا لاحظت وجود عدة مواضع مفتوحة في السياج تمر عبرها دروبٌ صغيرة. لم يكن المنزل مرئيًّا من الطريق، لكن كل ما يحيط به كان يشي بالكآبة والدمار.

كان المرج مغطًّى برُقع ذهبية من زهور الجولق، تتلألأ تحت ضوء شمس الربيع الساطعة. اتخذت مكمنًا خلف إحدى تلك الأجمات، لأشرف على كل من بوابة منزل تشارلينتن وجزء طويل ممتد من الطريق على كلا الجانبين. كان الطريق مهجورًا عندما اختبأت، أما الآن فقد رأيت درَّاجًا يقود دراجته عبره من الاتجاه المعاكس وصوب الاتجاه الذي أتيت منه. كان يرتدي حُلة داكنة اللون ولمحتُ لحيته السوداء. عندما وصل إلى نهاية أراضي تشارلينتن، قفز من فوق دراجته وقادها عبر إحدى فتحات السياج، مختفيًا عن ناظري.

مرت ربع الساعة قبل أن يظهر درَّاجٌ آخر. هذه المرة كانت الشابة القادمة من المحطة. رأيتها تنظر حولها بينما تتقدم تجاه سياج تشارلينتن. بعد لحظة خرج الرجل من مخبئه، وقفز على دراجته وتبعها. لم يكن يتحرك في كل ما يحيط بنا من طبيعة سوى هذين الشخصين؛ الفتاة الرشيقة التي تجلس منتصبة فوق دراجتها، والرجل خلفها ينحني لأسفل فوق مقود دراجته، تشوب كل حركة من حركاته مسحة ماكرة غريبة. نظرَت الفتاة إلى الخلف تجاهه وأبطأت سرعتها، فأبطأ هو الآخر. توقفت فتوقف أيضًا من فوره، محافظًا على مسافة مئتي ياردة خلفها. كانت حركتها التالية فجائية وجريئة في آن. فقد أدارت عجلاتها فجأة واندفعت صوب الرجل مباشرة! لكنه كان سريعًا مثلها، وانسحب في هروب مستميت. والآن عادت إلى الطريق مرة أخرى، رافعة رأسها زهوًا، وقد تلاشى أي اهتمام لديها بمرافقها الصامت. أما هو فقد استدار ثانيةً، وظل محافظًا على مسافته حتى أخفاهما انعطاف الطريق عن ناظريّ.

بقيت في مخبئي، وحسنًا فعلت، لأن الرجل عاود الظهور مرة أخرى عائدًا ببطء على دراجته. دخل عبر بوابات منزل تشارلينتن وهبط عن دراجته. ولبضع دقائق استطعت أن أراه واقفًا بين الأشجار. يداه مرفوعتان كأنما يضبط ربطة عنقه. ثم ركب دراجته وقادها بعيدًا باتجاه منزل تشارلينتن. ركضت عبر المرج ونظرت من بين الأشجار. ولمحت من بعيد المبنى الرمادي القديم بمداخن تيودور الشامخة خاصته، لكن الدرَّاج أسرع بين مجموعة كثيفة من الشجيرات، ولم أره مرة أخرى.

ومع ذلك، شعرتُ بأني أبليتُ حسنًا هذا الصباح، فسرت عائدًا بمعنويات مرتفعة إلى فارنهام. لم يستطع سمسار المنطقة أن يخبرني شيئًا عن منزل تشارلينتن، وأحالني إلى شركة شهيرة في بول مول. عرجت عليها في طريقي إلى المنزل، وقابلني مالك الشركة بدماثة. كلا، لا أستطع تأجير منزل تشارلينتن في فصل الصيف. لقد تأخرت قليلًا، فقد استؤجر منذ نحو شهر. يُدعى مستأجره السيد ويليامسن. كان رجلًا مسنًّا حسن السمعة. واعتذر السمسار المهذب لعدم قدرته على إخباري بالمزيد، لأن شؤون عملائه ليست محلًّا للمناقشة.

استمع السيد شيرلوك هولمز بانتباه إلى تقريري الطويل الذي أبلغته به في المساء، لكنه لم يستخرج منه كلمة الثناء المقتضبة التي كنت آملها، وكنت لأُقدِّرها. بل على العكس من ذلك، فقد ازداد وجهه عبوسًا عن المعتاد وهو يُعلق على الأمور التي فعلتها وتلك التي لم أفعلها.

– لقد أسأت اختيار المخبأ يا عزيزي واتسون. كان حريًّا بك أن تقف وراء السياج؛ كنت لتحظى بنظرة قريبة لهذا الشخص المثير للاهتمام. أما والحال هكذا فقد كنتَ بعيدًا عنه بمئات الياردات، ولم

تصفه بأكثر مما وصفته الآنسة سميث. إنها تظن أنها لا تعرف الرجل؛ لكني واثق من أنها تعرفه. وإلا فلماذا كان قلقًا إلى هذا الحد من اقترابها الشديد منه بحيث ترى ملامحه؟ لقد قلت إنه كان منحنيًا على المقود. هذا أيضًا نوعٌ من التخفي، ألا ترى. لقد أخفقت؛ بل أمعنت في الإخفاق. ثم ها هو يعود إلى المنزل وأنت ترغب في معرفة هويته، فإذا بك تذهب إلى سمسار منازل في لندن!

صحت بشيء من الحدة: ما الذي كان يُفترض بي فعله؟

– تذهب إلى أقرب حانة. ذلك هو مركز ثرثرة الأرياف. كانوا سيخبرونك بأسمائهم واحدًا تلو الآخر، من السيد إلى غاسلة الأطباق. ويليامسن! إنه لا يوحي لي بأي شيء. إذا كان رجلًا مسنًّا فهو ليس الدرَّاج النشط الذي يفر من ملاحقة تلك الشابة الرياضية بهذه السرعة. ماذا كسبنا من رحلتك الاستكشافية؟ معرفة أن قصة الفتاة صحيحة؟ لم أكن أشك في صحتها. أن ثمة علاقة بين الدرَّاج ومنزل تشارلينتن؟ لم أكن أشك في هذا أيضًا. أن ويليامسون يستأجر منزل تشارلينتن؟ من أفضل منه ليفعل؟ حسنٌ حسن يا سيدي العزيز، لا تُحبط هكذا. لن يسعنا فعل الكثير حتى يوم السبت القادم، وفي هذه الأثناء سأُجري بعض التحريات بنفسي.

في صباح اليوم التالي تلقينا رسالة من الآنسة سميث، تروي بإيجاز ودقة الأحداث نفسها التي رأيتها، لكن لُب الرسالة كان يكمن في التذييل الذي قال:

– إنني متيقنة من أنك ستحفظ سري يا سيد هولمز حينما أخبرك بأن وضعي هنا أصبح صعبًا بعدما عرض عليَّ صاحب العمل الزواج. إنني أثق بصدق مشاعره ونبلها إلى أبعد حد. لكنني بالطبع في الوقت ذاته مرتبطة بشخصٍ آخر. لقد تلقى رفضي بجدية شديدة، ولكن بلطفٍ شديد أيضًا. لكنك تُدرك مع ذلك مدى توتُّر الوضع الذي أنا فيه.

قال هولمز مفكرًا، بعدما أنهى قراءة الرسالة: يبدو أن صديقتنا الشابة قد وقعت في ورطة خطيرة. إن هذه القضية تحمل من الأهمية وإمكانية التطور أكثر مما ظننتُ في البداية. ولن يضيرني أن أنعم بيومٍ هادئ سالم في الريف، إذ أودُّ الذهاب بعد ظهر اليوم واختبار واحدة أو اثنتين من النظريات التي كونتها.

كان ليوم هولمز الريفي الهادئ نهاية فريدة، فقد وصل إلى شارع بيكر في وقتٍ متأخر من المساء بشفة مقطوعة وكدمة داكنة على جبينه، بالإضافة إلى هيئة عامة من الإسراف في الشراب كانت لتجعله هو شخصيًّا موضع تحقيق من شرطة سكوتلاند يارد. أما هو فكان مبتهجًا أيما ابتهاج بمغامرته، وضحك كثيرًا وهو يرويها.

قال: إنني لا أمارس الرياضة بنشاطٍ إلا لمامًا، حتى إنني دائمًا ما أستمتع حين أفعل. أنت تدري بامتلاكي بعض المهارة في رياضة الملاكمة البريطانية العتيقة. والتي تأتي بالنفع أحيانًا؛ فاليوم على سبيل المثال، كنت لأتعرض لمذلة مخزية من دونها.

توسلت إليه أن يخبرني ما حدث.

– لقد وجدت حانة البلدة التي أخبرتك عنها، وهناك أجريت تحرياتي بحذر. جلست إلى المشرب وأخبرني مالك الحانة الثرثار بكل ما أريد. ويليامسون رجل ذو لحية بيضاء، يعيش بمفرده مع طاقمٍ

صغير من الخدم في منزل تشارلينتن. ويُشاع عنه أنه رجل دين أو كان يومًا كذلك؛ ولكن صدمتني واقعة أو اثنتان حدثتا أثناء إقامته القصيرة في منزل تشارلينتن، ولا تنمان عن التدين بحال. فقد أجريت بعض التحريات بالفعل في إحدى الهيئات الكنسية، وأخبروني بأن ثمة رجلًا بهذا الاسم بين رجال الكنيسة، كان الظلام يكتنف حياته المهنية. وأخبرني المالك أيضًا بأن هذا الرجل عادةً ما يستقبل زوارًا في نهاية كل أسبوع –زيارة عائلية حميمة يا سيدي– في منزل تشارلينتن، ولا سيما رجلًا ذا شارب أحمر يُدعى السيد وودلي دائمًا ما يكون هناك. ولم نكد نذكره حتى أظهر لنا نفسه. فقد كان يشرب جعته في الحانة وسمع المحادثة بأكملها. من أنا؟ وماذا أريد؟ وماذا أقصد بأسئلتي؟ كانت لهجته حادة ونعوته معبِّرة. ثم أنهى سلسلة الإهانات بلكمة عنيفة فشلت في تفاديها بالكامل. ثم كانت الدقائق التالية ممتعة. وجَّهت للهمجي الغاضب لكمة بيدي اليسرى، وخرجت كما تراني، فيما عاد السيد وودلي إلى منزله بعربة. وهكذا انتهت رحلتي الريفية، وعليَّ الاعتراف بأن يومي برغم كونه ممتعًا، فإنه لم يكن مثمرًا أكثر من يومك.

جاءنا يوم الخميس برسالة أخرى من عميلتنا تقول:

لن يدهشك يا سيد هولمز أن تسمع بأنِّي نويت ترك العمل لدى السيد كاروثرز. فحتى الأجر المرتفع لا يمكنه تعويضي عن وضعي المُزعج. سأعود إلى البلدة في يوم السبت ولا أنوي الرجوع. لقد أحضر السيد كاروثرز عربة، ومن ثم فإن مخاطر الطريق المنعزل –إن وُجدت– قد انتهت الآن.

أما الدافع وراء مغادرتي، فإنه لا يخص الوضع المتوتر مع السيد كاروثرز، بل أيضًا عودة ذاك الرجل البغيض –السيد وودلي– إلى الظهور. لقد كان قبيحًا على الدوام، لكنه يبدو الآن أقبح من أي وقت مضى، فقد تعرض على الأرجح إلى حادثٍ ما ترك ملامحه مشوَّهة. رأيته من النافذة، وحمدًا للرب أنِّي لم أقابله. ظل يتحدث طويلًا مع السيد كاروثرز، الذي تركته هذه المحادثة منفعلًا بشدة. لا بد أن وودلي يقيم في الجوار؛ لأنه لم ينم هنا، ومع هذا لمحته مرة أخرى صباح اليوم وهو يتسلل بين الشجيرات. ولن ألبث أن أجد بصحبتي هنا حيوانًا بريًّا متوحشًا طليقًا. إنني أبغضه وأخشاه أكثر مما أستطيع الوصف. كيف يمكن للسيد كاروثرز تحمُّل مثل هذا المخلوق للحظة؟ على أية حال، ستنتهي جميع مشكلاتي يوم السبت.

قال هولمز بجدية: إنني على يقين يا واتسون، على يقين، من أن أحدهم يحوك مكيدة خطيرة حول هذه الفتاة، ومن واجبنا التأكُّد أن أحدًا لن يزعجها في رحلتها الأخيرة تلك. أعتقد يا واتسون أن علينا تخصيص بعض الوقت للذهاب معًا صباح يوم السبت، والتأكد من أن هذا التحقيق الغريب وغير المثمر لن يؤول إلى نهاية مؤسفة.

أقرُّ بأني حتى هذه اللحظة لم أكن أنظر إلى القضية بجدية، فقد بدت لي غريبة ومثيرة للريبة أكثر من كونها خطيرة. أن يكمُن رجلٌ في انتظار فتاة شديدة الجمال ليتبعها ليس بالأمر الجديد، وما دام يفتقر للجرأة لا إلى الحد الذي يمنعه من مخاطبتها فحسب، بل يهرب منها إذا اقتربت منه، فهو ليس بمعتدٍ مخيف. أما وودلي الهمجي فقد كان شخصًا مختلفًا تمامًا، لكنه لم يُزعج عميلتنا إلا في مناسبة واحدة، والآن هو في زيارة لمنزل كاروثرز دون التطفل عليها. لا شك أن الرجل الذي يقود الدراجة هو أحد أفراد

جماعة نهاية الأسبوع تلك في منزل تشارلينتن التي تحدث عنها مالك الحانة؛ لكن هويته ومبتغاه يظلان غامضين. كان أسلوب هولمز الحاد وحقيقة أنه وضع مسدسًا في جيبه قبل مغادرتنا مسكننا هو ما جعلني أشعر بأن ثمة فاجعة قد تكون كامنة خلف هذا التسلسل الغريب للأحداث.

أشرقت الشمس بعد ليلة ممطرة، وبدا ذلك الجانب من البلدة الذي يغطيه المرج مع الأجمات المتوهجة من نباتات الجولق المزهرة أكثر جمالًا للأعين التي سئمت كآبة لندن وألوانها الرمادية. سرنا أنا وهولمز على طول الطريق الرملي الفسيح نستنشق هواء الصباح، مبتهجين بتغريد الطيور وعبير الربيع المُنعِش. من منطقة مرتفعة على الطريق على حافة تل كروكسبري أمكننا رؤية منزل تشارلينتن الكئيب بارزًا من بين أشجار البلوط العتيقة، التي كانت –رغم قِدمها– لا تزال أحدث عهدًا من المبنى الذي تحيط به. أشار هولمز إلى المسار الطويل من الطريق الذي يشبه جرحًا أصفر ضاربًا إلى الحمرة يمتد بين المرج البُني والغابة الخضراء. ومن بعيد، لمحنا عربة تتحرك في اتجاهنا مثل نقطة سوداء. أطلق هولمز صيحة تنم عن نفاد صبره قبل أن يقول:

لقد جئت قبيل الموعد بنصف الساعة، إذا كانت تلك عربتها فلا بد أنها ستستقل قطارًا مبكرًا. أظنها لسوء الحظ يا واتسون ستتجاوز تشارلينتن قبل أن نتمكن من مقابلتها.

في اللحظة التي تجاوزنا فيها المرتفع لم نعد قادرين على رؤية العربة، لكننا تقدمنا مسرعين لدرجة ظهرت معها آثار نمط حياتي الكسول، واضطررت إلى التخلف عن هولمز. أما هو فكان مواظبًا على التدريب، حيث كان لديه مخزون لا ينضب من الطاقة العصبية يمكنه الاعتماد عليه. لم تتباطأ خطواته المندفعة للحظة حتى توقف فجأة على بعد مئة ياردة أمامي، ورأيته يرفع يده بحركة تنم عن حزنٍ وأسى. وفي اللحظة ذاتها ظهرت من منعطف الطريق عربة صغيرة فارغة، كان حصانها يخب، يلاحقه زمامه المفكوك على الأرض، وينطلق صوبنا سريعًا.

صاح هولمز وأنا أركض إليه لاهثًا: تأخرنا كثيرًا يا واتسون؛ تأخرنا كثيرًا! من الحمق أنني لم أراع هذا القطار المبكر! إنه اختطاف يا واتسون – اختطاف! أو قتل! الله وحده يعلم ما حدث! سُدّ الطريق، أوقف الحصان! جيد. والآن اركب ودعنا نرى إن كان باستطاعتنا تدارك عواقب حماقتي.

قفزنا داخل العربة، وبعد أن أدار هولمز الحصان أعطاه ضربة حادة بالسوط، هرعنا عائدين على طول الطريق. وعندما استدرنا في المنعطف انفتح أمامنا الطريق الممتد بين منزل تشارلينتن والمرج بأكمله. تشبثت بذراع هولمز، وقلت لاهثًا:

– هذا هو الرجل!

كان درَّاجًا منفردًا قادمًا تجاهنا. وكان رأسه لأسفل وكتفاه متقوِّسين ويضع كل طاقته في التبديل. كان مسرعًا كما لو كان في سباق. وفجأة رفع وجهه الملتحي، ورآنا بقربه، فتوقف وقفز عن دراجته. كانت لحيته السوداء كالفحم تتناقض تناقضًا ملحوظًا مع شحوب وجهه، وكانت عيناه تتوهجان كما لو كان مصابًا بالحمى. حدّق إلينا وإلى العربة الصغيرة. ثم طفت نظرة مشدوهة على وجهه.

صاح ممسكًا دراجته بحيث تسد طريقنا: مهلًا! توقفا هناك! من أين جئتما بهذه العربة؟ أوقف العربة يا رجل! قالها وسحب مسدسًا من جيبه الجانبي. قلت أوقفها وإلا أقسم أن أضع رصاصة في

حصانك.

ألقى هولمز الزمام على ركبتي ونزل من العربة.

قال بطريقته السريعة الواضحة: أنت من نرغب في رؤيته. أين الآنسة فيوليت سميث؟

– هذا ما أسألك عنه. إنكما تركبان عربتها. لا بد أنكما تعرفان مكانها.

– لقد وجدنا العربة على الطريق، ولم يكن فيها أحد. فركبناها عائدين لمساعدة الفتاة.

صاح الغريب في غمرة يأسه: يا إلهي! يا إلهي! ماذا أفعل؟ لقد نالا منها، كلب الجحيم المدعو وودلي وذاك القس الوغد. هيا يا رجل، هيا، إن كنت صديقها حقًّا، فقف إلى جانبي وسوف ننقذها، حتى لو أدَّى هذا إلى هلاكي في غابة تشارلينتن.

ركض مشتت الانتباه، ومسدسه في يده، نحو ثغرة في السياج. تبعه هولمز فتركتُ الحصان يرعى بجانب الطريق، وتبعتهما.

قال مشيرًا إلى آثار عدة أقدام على الطريق الموحل: لقد خرجوا من هنا، مهلًا! توقف لحظة! من هذا الذي في الأجمة؟

كان فتًى في السابعة عشرة من عمره تقريبًا، يرتدي زي سائس، بأربطة جلدية وحذاء طويل الرقبة. كان ممددًا على ظهره وركبتيه مرفوعتين، وفي رأسه جرح مريع. كان فاقد الوعي لكنه حي. ألقيت نظرة على جرحه فوجدته لم يخترق العظم.

صاح الغريب: إنه بيتر السائس، لقد قاد العربة إلى هنا. أوقفه الوحوش وضربوه بالهراوات. دعه مستلقيًا؛ لا يمكننا فعل أي شيء له، لكننا قد نستطيع إنقاذها من أسوأ مصير يمكن أن يصيب امرأة.

ركضنا محمومين على الطريق الذي اخترق الأشجار. وعندما وصلنا إلى الشجيرات التي أحاطت بالمنزل توقف هولمز.

– لم يذهبوا إلى المنزل. ها هي آثارهم على اليسار – هنا، بجانب أجمات الغار! آه، هذا ما توقعته!

وبينما هو يتحدث دوَّت صرخة حادة لامرأة من بين مجموعة الشجيرات الخضراء الكثيفة أمامنا، صرخة انطلقت برعبٍ شديد وانتهت فجأة في أعلى طبقاتها بصوت اختناق وغرغرة. صرخ الغريب وهو يندفع عبر الأجمات: من هذا الطريق! من هذا الطريق! إنهم في صالة البولينج، آه، الكلاب الجُبناء! اتبعاني أيها السيِّدان! لقد تأخرنا كثيرًا! تأخرنا كثيرًا! يا إلهي!

وصلنا فجأة إلى فسحة خضراء جميلة محاطة بالأشجار العتيقة. وعلى الجانب الآخر منها، تحت ظل شجرة بلوط هائلة، وقفت مجموعة فريدة من ثلاثة أشخاص. إحداهم كانت امرأة –عميلتنا– متدلية الأطراف وفاقدة الوعي، وحول فمها منديل. وقبالتها وقف شابٌ همجي غليظ الوجه، ذو شارب أحمر، يرتدي حذاءً طويل الرقبة في ساقيه المتباعدتين، ويضع إحدى يديه على خاصرته، وبالأخرى يلوح بسوط الخيل، هيئته بكاملها توحي بالتبجح والانتصار. وبينهما يقف رجلٌ مسن رمادي اللحية يرتدي رداءً كهنوتيًّا قصيرًا فوق حُلة صوفية فاتحة اللون، وبدا جليًّا أنه قد أنهى لتوه مراسم الزفاف، إذ كان يدس كتاب الصلاة في جيبه عندما دخلنا، ويربت على ظهر العريس الشرير في تهنئة مرحة.

لهثت قائلًا: لقد تزوجا!

صاح مرشدنا: هيا!، هيا! وانطلق عبر الفسحة، وأنا وهولمز في أعقابه. وعند اقترابنا، ترنَّحت الفتاة متكئة على جذع الشجرة. انحنى لنا القس السابق ويليامسون بأدبٍ زائف، وتقدم المتنمر وودلي نحونا وهو يضحك ضحكة وحشية جذلة.

قال: يمكنك نزع لحيتك يا بوب، فأنا أعرفك بما فيه الكفاية. حسنًا، لقد جئت أنت وأصدقاؤك في الوقت المناسب لأعرِّفكم بالسيدة وودلي.

كانت إجابة مرشدنا فريدة من نوعها. فقد انتزع اللحية الداكنة التي كان يتنكر بها وألقاها على الأرض، كاشفًا عن وجهٍ طويلٍ شاحب وحليق تحتها. ثم رفع مسدسه وسدده نحو الشاب الهمجي الذي تقدَّم نحوه والسوط الخطير يتأرجح في يده.

قال حليفنا: نعم، أنا بوب كاروثرز، ولسوف أصوِّب وضع هذه المرأة حتى لو شُنقت في سبيل ذلك. لقد أخبرتك بما سأفعله إن أزعجتها، وأقسم إنني سأفي بوعدي!

– لقد فات الأوان، إنها زوجتي!

– كلا، إنما هي أرملتك.

أصدر مسدسه صوتًا مدويًا ورأيت الدماء تنبثق من مقدمة صدرية وودلي. دار حول نفسه صارخًا وسقط على ظهره، وتحول وجهه الأحمر القبيح فجأة إلى شحوب مرقط مريع. انفجر الرجل المسن –الذي كان لا يزال يرتدي رداءه الكهنوتي– في سلسلة من الكلمات البذيئة التي لم أسمع بها من قبل، وأخرج مسدسه، لكن قبل أن يتمكن من رفعه كانت فوهة سلاح هولمز أمام عينيه.

قال صديقي بلهجة باردة: يكفي هذا، ألقِ مسدسك! التقطه يا واتسون! صوبه إلى رأسه! شكرًا لك. وأنت يا كاروثرز، أعطني هذا المسدس. لا نريد مزيدًا من العنف. هيا، سلمه لي!

– من أنت إذن؟

– اسمي شيرلوك هولمز.

– يا إلهي!

– يبدو أنك سمعت عني. وسوف أقوم بدور الشرطة الرسمية حتى وصولهم. ثم نادى على سائس خائف ظهر عند حافة الفسحة، تعال. خذ هذه الرسالة بأقصى سرعة إلى فارنهام. ثم كتب بضع كلمات على ورقة من مفكرته. أعطِها لمفتش الشرطة في مركز الشرطة. يجب أن أحتجزكم جميعًا تحت رعايتي الشخصية حتى يصل.

سيطرت شخصية هولمز القوية والبارعة على المشهد المأساوي، وصاروا جميعًا كالدُّمى بين يديه. وجد ويليامسون وكاروثرز نفسيهما يحملان وودلي الجريح إلى داخل المنزل، ومددت ذراعي للفتاة الخائفة. وُسِّد الرجل المصاب في فراشه، وفحصته بناءً على طلب هولمز. توجهت بتقريري إلى حيث جلس في غرفة الطعام القديمة التي اكتست جدرانها بالبُسُط المزخرفة.

وقلت: سوف يعيش.

صاح كاروثرز قافزًا من مقعده: ماذا؟! سأصعد إلى الطابق العلوي وأُجهز عليه أولًا. هل تخبرني أن تلك الفتاة، ذاك الملاك، سترتبط بروورينج جاك وودلي مدى الحياة؟

قال هولمز: لا داعي للقلق بشأن هذا. فثمَّة سببان وجيهان جدًّا ينفيان أنها زوجته تحت أي ظرف. أولهما أن لدينا كل الحق في التشكيك في أهلية السيد ويليامسون لإتمام مراسم الزفاف.

صاح الوغد المسن: إنني كاهن رسمي.

– وقد جُرِّدت من لقبك أيضًا.

– عندما تُنصَّب كاهنًا تظل كاهنًا.

– لا أظن ذلك. ماذا عن الترخيص؟

– لدينا ترخيص بترسيم الزفاف. إنه هنا في جيبي.

– إذن فقد حصلت عليه عن طريق الخداع. ولكن على أية حال، الزواج بالإكراه ليس زواجًا، إنه جناية خطيرة كما ستكتشف بعد قليل. سيكون لديك متسع من الوقت للتفكير في هذه النقطة طوال العشر سنوات القادمة أو نحوها، ما لم أكن مخطئًا. أما أنت يا كاروثرز، فكان حريًّا بك أن تُبقي مسدسك في جيبك.

– بدأتُ أقتنع بهذا يا سيد هولمز؛ لكنني عندما فكرت في كل الاحتياطات التي اتخذتها لحماية هذه الفتاة –التي أحببتها يا سيد هولمز، وهي أول مرة أعرف فيها معنى الحب– جُننت عندما رأيتُها تقع تحت سطوة أكثر الأشخاص همجية وحقارة في جنوب إفريقيا، رجل يُسبب اسمه ذعرًا شديدًا من كيمبرلي إلى جوهانسبرج. ربَّاه يا سيد هولمز، ربما لن تصدِّق ما أخبرك به، لكنني منذ أن عملت تلك الفتاة في بيتي لم أدعها تمر أمام هذا المنزل قط –حيث عرفت أن هذين الوغدين يكمنان– دون أن أتبعها على دراجتي، فقط لأطمئن أنها قد مرَّت بسلام. حافظت على مسافة منها، ووضعت لحية حتى لا تتعرف عليّ، لأنها فتاة طيبة تعتد بنفسها، وما كانت لتبقى في الوظيفة طويلًا إن عرفت أنني أتبعها في طرق البلدة.

– لِمَ لَم تخبرها بما يتربص بها من خطر؟

– لأنها كانت لتتركني أيضًا حينئذ، ولم أستطع تحمل ذلك. حتى لو لم تحبني فقد كان يكفيني أن أنعم بجمالها حولي في المنزل، وأن أسمع نبرة صوتها.

قلتُ: حسنًا، إنك تسمي هذا حبًّا يا سيد كاروثرز، لكنني أسميه أنانية.

– ربما الاثنان معًا. على أية حال، لم أستطع أن أدعها ترحل. وفوق ذلك، بوجود هذين الشخصين في الجوار، كان الأسلم أن يكون بقربها شخصٌ يحرسها. ثم عندما وصلت البرقية عرفت أنهما ملزمان بالتحرك.

– أية برقية؟

تناول كاروثرز برقية من جيبه قائلًا:

– هذه.

كانت قصيرة وموجزة:

لقد مات الكهل.

قال هولمز: همم! أعتقد أنني أفهم كيف تسلسلت الأحداث. وأفهم كيف يمكن لهذه الرسالة أن تُلزمهما بالتحرك. لكن ريثما ننتظر يمكنك أن تخبرني بقدر ما تستطيع.

انفجر الفاسق المُسن الذي يرتدي الرداء الكهنوتي في وابلٍ من الألفاظ البذيئة.

قال: ويحك، إن وشيت بنا يا بوب كاروثرز سأفعل بك ما فعلته بجاك وودلي. يمكنك أن تثغو بما تُكنه في قلبك للفتاة، فهذا شأنك وحدك، أما إن وشيت بأصدقائك لهذا الشرطي ذي الملابس المدنية، فسوف تندم على هذا.

قال هولمز وهو يشعل سيجارة: لا داعي قداستك لمثل هذا الانفعال، إن القضية واضحة بما يكفي ضدك، وكل ما أطلبه هو قليل من التفاصيل لإشباع فضولي. ومع ذلك، إن كان يصعب عليك إخباري بنفسك؛ فلي أن أضطلع أنا بهذا الدور، وسنرى حينها أي فرصة لديك في إخفاء أسرارك. بادئ ذي بدء، جاء ثلاثة منكم من جنوب إفريقيا للاشتراك في هذه اللعبة –أنت يا ويليامسون وكاروثرز ووودلي.

قال الكهل: الكذبة الأولى، لم أرَ أيًّا منهما قط إلا منذ شهرين، ولم أذهب إلى إفريقيا في حياتي على الإطلاق، لذا يمكنك وضع هذه الترهات في غليونك وتدخينها أيها السيد هولمز الفضولي!

قال كاروثرز: ما يقوله صحيح

– حسنٌ حسن، لقد جاء اثنان منكم. قداسته صناعة محلية. كنتما تعرفان رالف سميث في جنوب إفريقيا. وكان لديكما سببٌ للاعتقاد بأنه لن يعيش طويلًا. واكتشفتما أن ابنة أخته سترث ثروته. ماذا عن هذا – هه؟

أومأ كاروثرز وسبَّ ويليامسون.

– كانت أدنى أقربائه دون شك، وكنتما تعلمان بأن الكهل لن يترك وصية.

قال كاروثرز: إنه لا يستطيع القراءة أو الكتابة.

– لذا جئتما وبدأتما في ملاحقة الفتاة. كانت الفكرة أن يتزوجها أحدكما فيحصل الآخر على نصيبٍ من الغنيمة. ولسبب ما وقع الاختيار على وودلي زوجًا لها. لِمَ كان ذلك؟

– لعبنا بالأوراق عليها أثناء رحلتنا. وفاز هو.

– مفهوم. فاستدرجت أنت الفتاة لتعمل في خدمتك، وهناك كان على وودلي أن يغازلها. لكنها أدركت أي همجيٍ سكير هو، ورفضت أي علاقة تربطها به. ثم اختلَّت ترتيباتكما أكثر لوقوعك في حب الفتاة. ولم يعد بإمكانك احتمال فكرة امتلاك هذا الوغد لها.

– نعم، لم أستطع!

– فوقع شجارٌ بينكما تاركًا إياك تستشيط غضبًا، وبدأ هو في وضع خططه الخاصة المُستقلة.

صاح كاروثرز بضحكة مريرة: هذا مذهل يا ويليامسون، لا يوجد الكثير مما يمكننا أن نخبر به هذا الرجل. نعم، تشاجرنا وطرحني أرضًا. لكنني رددتُ له الضربة منذ قليل. ثم لم أعُد أراه. كان هذا

عندما تعرَّف على هذا القس المنبوذ. اكتشفتُ أنهما نصبا فخًّا معًا في هذا الموضع المُطلِّ على الطريق الذي تمر به في طريقها إلى المحطة. فأبقيت عيني عليها منذ تلك اللحظة، لأنني أدركتُ أن الشر يحوم حولها. كنت أراهما من وقت لآخر، سعيًا إلى معرفة ما يخططان له. ومنذ يومين جاء وودلي إلى منزلي بهذه البرقية، والتي تقول إن رالف سميث قد مات. سألني إن كنت مستعدًّا لإتمام الاتفاق. فأجبته بالنفي. سألني إن كنت سأتزوج الفتاة بنفسي وأعطيه نصيبًا. قلت إنني مستعدٌّ لفعل هذا عن طيب خاطر، بيد أنها لن تقبل. قال: دعنا نزوجكما أولًا، وبعد أسبوع أو أسبوعين قد تختلف نظرتها للأمور فأجبته بأنني لن أمارس العنف بأي شكلٍ كان. وهكذا خرج وهو يلعن، مثلما يجدر بوغدٍ سليطِ اللسان مثله، وأقسم إنه سيمتلكها رغمًا عني. وقررت الفتاة ترك العمل عِندي بنهاية هذا الأسبوع، فأتيت بعربة لتأخذها إلى المحطة، لكنني بلغتُ من القلق أن تبعتُها على دراجتي. بيد أنها انطلقت باكرًا، وقبل أن أستطيع اللحاق بها كان الأذى قد وقع. لم أعرف ذلك إلا عندما رأيتكما أيها السيدان تقودان عربتها عائدين.

نهض هولمز وألقى بنهاية سيجارته في المدفأة قائلًا: لقد كنتُ غبيًّا جدًّا يا واتسون. حينما ذكرت في تقريرك أنك رأيت الدرَّاج يضبط ربطة عنقه بين الشجيرات، كان حريًّا بهذا وحده أن يخبرني بكل شيء. ومع ذلك يمكننا تهنئة أنفسنا على تلك القضية الغريبة والفريدة من نوعها في بعض النواحي. أرى ثلاثة من شرطة المقاطعة قادمين، ويسعدني رؤية السائس الصغير قادرًا على مواكبتهم؛ ومن ثم لن يصاب هو أو العريس المريب بضرر دائم جرَّاء مغامرتهما الصباحية. أظن يا واتسون أن بإمكانك –بصفتك طبيبًا– أن تعتني بالآنسة سميث وتخبرها بأنها إن تعافت بما يكفي فستسعدنا مرافقتها إلى منزل والدتها. أما إن لم تكن تماثلت للشفاء تمامًا فتلك إشارة لنا كي نُرسل برقية إلى مهندس كهربائي شاب في ميدلاندز ليأتي ويُكمل العلاج. أما بالنسبة لك يا سيد كاروثرز، فأعتقد أنك فعلت ما بوسعك للتعويض عن اشتراكك في مؤامرة شريرة. إليك بطاقتي يا سيدي، وإن كانت شهادتي ستنفعك في محاكمتك فسوف تجدها تحت تصرفك.

في غمرة نشاطنا المتواصل، غالبًا ما يصعُب عليَّ –كما لاحظ القارئ على الأرجح– أن أختم رواياتي، وأن أُعطي التفاصيل النهائية التي قد يتوقعها الفضوليون. فكل قضية كانت مقدمة لأخرى، وبمجرد انتهاء الأزمة يختفي أبطالها من حياتنا المزدحمة. إلا أنني وجدتُ ملاحظة قصيرة في نهاية مخطوطاتي تتناول هذه القضية والتي سجلت فيها أن الآنسة فيوليت سميث قد ورثت بالفعل ثروة ضخمة، وأنها الآن زوجة سيريل مورتون الشريك الرئيس لمورتون أند كينيدي، شركة الكهرباء الشهيرة في وستمنستر. حوكم كل من ويليامسون ووودلي بتهمة الاختطاف والاعتداء، وحُكم على الأول بالحبس لسبع سنوات وعلى الثاني بعشر. لم أدوِّن شيئًا عن مصير كاروثرز، لكنني واثق من أن المحكمة لم تنظر في اعتدائه بجدية شديدة، نظرًا إلى أن وودلي يحظى بسمعة كونه أخطر الهمجيين، وأظن أن بضعة أشهر من الحبس كانت كافية لاستيفاء متطلبات العدالة.

مغامرة مدرسة بريوري

لقد شهد مسرحنا الصغير بشارع بيكر دخولًا دراميًّا لبعض الشخصيات وخروجًا دراميًّا لبعضها الآخر، إلا أنني لا أتذكر ظهورًا باغتنا وأذهلنا أكثر من الظهور الأول لثورنيكروفت هكستابل. سبقَته بطاقته الخاصة إلى الدخول ببضع ثوانٍ، بدت البطاقة صغيرة جدًّا لتتسع لامتيازاته الأكاديمية الكثيرة من ماجستير ودكتوراه وغيرهما، ثم تبعها بنفسه. كان شديد الضخامة والغرور والوقار، حتى إنه بدا تجسيدًا دقيقًا للثبات والثقة. ورغم ذلك، كان أول ما فعله حينما انغلق الباب من خلفه أن ترنح مستندًا إلى الطاولة، ومن ثم انزلق على الأرض، وهكذا رأينا هذا الجسد المهيب ممددًا أمامنا فاقدَ الوعي على البساط المصنوع من فرو الدب.

فزعنا واقفين، ولبضع لحظات ظللنا نحدِّق بدهشة صامتة إلى هذه القطعة الضخمة من الحطام، التي حدَّثتنا بهبوب عاصفة مفاجئة ومميتة بعيدًا في محيط الحياة. ثم هرع هولمز جالبًا وسادة ليضعها تحت رأسه وجئتُ أنا بالبراندي لشفتيه. حفرت تجاعيد العناء خطوطها على الوجه الأبيض الغليظ، وتلوَّن الجيبان المتدليان أسفل العينين بالرمادي، وارتخى الفم الواسع من كلا جانبيه في حزن، وانتشر الزغب في ذقنه المستدير. رأينا في قميصه وياقته آثار رحلته الطويلة، وقد انتصب شعره الأشعث فوق رأسه. كان هذا الرجل الراقد أمامنا في حالة من الكرب الشديد.

سأل هولمز: ما باله يا واتسون؟

قلتُ بينما أفحص بإصبعي نبضه الضعيف، حيث تدفَّق سائل الحياة واهنًا ضعيفًا: إعياء شديد – ربما من الإجهاد والجوع ليس إلا.

قال هولمز وهو يسحب شيئًا من جيب ساعة الرجل: تذكرة عودة محجوزة من ماكلتون في شمال إنجلترا، لم تحن الساعة الثانية عشرة بعد. لقد ابتدأ رحلته مبكرًا دون شك.

بدأ الجفنان المتغضنان يرتجفان، ثم نظر إلينا بعينين خاويتين رماديتين. وبعد لحظة هبَّ واقفًا ووجهه يحتقن خزيًا.

– اعذر ضعفي يا سيد هولمز؛ لقد كنتُ مجهدًا قليلًا. أشكرك، لا شك أنني إن حظيت ببعض الحليب والكعك سأصبح أفضل حالًا. لقد جئتُ بنفسي يا سيد هولمز لأتأكد من أنك ستعود معي. فقد خشيتُ ألا تقنعك البرقية بالأهمية القصوى لهذه القضية.

– عندما تستعيد عافيتك بالكامل...

– لقد أصبحت على ما يرام. لا أدري كيف صرتُ بهذا الضعف. أرجو أن تأتي معي إلى ماكلتون يا سيد هولمز على متن القطار التالي.

هز صديقي رأسه نفيًا، ثم قال:

– يمكن لزميلي الدكتور واتسون أن يخبرك كم نحن منشغلون في الوقت الحالي. لقد وُكلت في قضية وثائق فيريرز، ومحاكمة قضية أبيرجافيني على الأبواب. لن يخرجني من لندن في الوقت الحالي إلا مسألة في غاية الأهمية.

لوح ضيفنا بيديه قائلًا: في غاية الأهمية! ألم تسمع بحادثة اختطاف الابن الوحيد لدوق هولدرنيس؟

– ماذا؟ عضو مجلس الوزراء السابق؟

– بالضبط. لقد حاولنا إبقاء الأمر بعيدًا عن أعين الصحافة، غير أن بعض الشائعات نُشرت في جريدة جلوب ليلة أمس. ظننتُ أنها ربما تكون قد بلغت أسماعك.

مدّ هولمز ذراعه الطويل النحيل والتقط مجلد حرف الهاء في موسوعته المرجعية.

وأخذ يقرأ قائلًا: «دوق هولدرنيس السادس، عضو المجلس الملكي وأحد فرسان الرباط، وكثير من الألقاب الأخرى! فقد كان أيضًا بارون بلدة بيفرلي، وإيرل مدينة كارستون، يا إلهي، يا لها من قائمة! يشغل منصب لورد ملازم بهالامشاير منذ عام 1900. وقد تزوَّج بإيديث، ابنة السير تشارلز آبلدور عام 1888. وريثه وابنه الوحيد هو اللورد سالتير. ويمتلك الدوق نحو مئتين وخمسين ألف فدان، بالإضافة إلى محاجر التعدين في لانكشاير وويلز. العنوان: منزل كارلتون هاوس؛ قلعة هولدرنيس، هالامشاير؛ قلعة كارستون، بانجور، ويلز. وكان لورد الأميرالية عام 1872؛ ووزير الخارجية لفترة» حسنٌ حسن، هذا الرجل هو دون شك أحد أعظم رعايا التاج!

– الأعظم وربما الأكثر ثراءً أيضًا. إنني مُدرك يا سيد هولمز أن لك معايير عالية جدًّا في المسائل المهنية، وأنك مستعد للعمل لأجل العمل. ورغم ذلك، أودُّ أن أخبرك بأن سموه قد أعلن بالفعل عن رصد شيك بقيمة خمسة آلاف جنيه إسترليني للشخص الذي يعثر له على ابنه، وألفٍ أخرى لمن يستطيع الإرشاد عن الرجل، أو الرجال، الذين أخذوه.

قال هولمز: هذا عرضٌ يليق بالأمراء. أعتقد أننا سنرافق الدكتور هكستابل في عودته إلى شمال إنجلترا يا واتسون. والآن أيها الدكتور هكستابل، بعدما تنتهي من تناول ذاك الحليب ستتلطَّف بإخباري بما حدث، ومتى حدث، وكيف حدث، وأخيرًا ما علاقة الدكتور ثورنيكروفت هكستابل القادم من مدرسة بريوري الواقعة قرب ماكلتون بكل هذا، ولِمَ أتى بعد ثلاثة أيام من وقوع الحدث –حالة ذقنك تشي بالمدة– لطلب خدماتي المتواضعة؟

أنهى ضيفنا الحليب والكعك. فعاد البريق إلى عينيه واكتست وجنتاه بحمرة الدموية، بينما تجهَّز ليشرح لنا الموقف بنشاطٍ وصفاءٍ ذهنيٍّ كبير.

– عليَّ أن أعلمكما أيها السيدان بأن مدرسة بريوري هي مدرسة إعدادية وأنا مؤسسها ومديرها. ربما يعيد اسمي إلى ذاكرتكم كتابي الذي عنوانه: ملاحظات هكستابل في أعمال هوراس. تعد مدرسة بريوري أفضل مدارس إنجلترا وأكثرها رقيًّا دون استثناء. اللورد ليفرستوك وإيرل بلاكووتر والسير كاثكارت سوميس – جميعهم عهدوا بأبنائهم إلي. لكنني شعرت أن مدرستي بلغت ذروة نجاحها عندما أرسل لي دوق هولدرنيس سكرتيره، السيد جيمس وايلدر، منذ ثلاثة أسابيع ليبلغني بأنه على وشك أن يعهد إليَّ باللورد سالتير الصغير، البالغ من العمر عشر سنوات، ابنه ووريثه الوحيد. لم يخطر ببالي أن تلك الرسالة هي بادرة لأكبر محنة ساحقة في حياتي.

وصل الصبي في الأول من مايو، وكانت هذه بداية الفصل الدراسي الصيفي. فتى جميل، سرعان ما اعتاد علينا. أستطيع إخبارك أنه لم يكن سعيدًا تمامًا في منزله. وأرجو ألا يكون هذا القول دربًا من دروب الطيش، بيد أن ذكر نصف الحقائق سيكون أمرًا سخيفًا في مثل هذه الحالة. لا يخفى على أحد أن

الحياة الزوجية للدوق لم تكن هادئة، وانتهى الأمر بالانفصال برضا الطرفين، واتخذت الدوقة من جنوب فرنسا مقرًّا لها. حدث هذا قبل فترة قصيرة جدًّا، وعُرفَ عن الصبي تعاطفه القوي مع والدته، وأن الغم قد أصابه بعد رحيلها من قلعة هولدرنيس، ولهذا السبب رغب الدوق في إرساله إلى مؤسستي. وخلال أسبوعين كان الصبي هادئًا في سُكناه معنا، وبدا في غاية السعادة.

شوهد لآخر مرة في ليلة الثالث عشر من مايو – أي ليلة الاثنين الماضي. كانت غرفته في الطابق الثاني، ولكن يمكن الوصول إليها من خلال غرفة أخرى أكبر ينام فيها صبيَّان. هذان الصبيان لم يسمعا أي شيء، لذا من المؤكد أن الفتى سالتير لم يخرج من هذا الطريق. كانت نافذته مفتوحة، وتنمو خارجها نبتة لبلاب قوية تصل إلى الأرض. ورغم أننا لم نعثر على أي آثار أقدام تحتها، فإن هذا هو المخرج الوحيد الممكن دون شك.

اكتشفنا غيابه في السابعة من صباح الثلاثاء. وتبيَّن أنه قد نام في فراشه، ثم ارتدى ثيابه كاملةً قبل خروجه في زيه المدرسي المعهود ذي السترة السوداء القصيرة والسروال الرمادي الداكن. لم تظهر أي علامات على دخول أحدهم الغرفة، ومؤكد لو كان هناك أي بكاء أو مقاومة كان ليسمعها كونتر، الصبي الأكبر سنًّا في الغرفة الأخرى، والذي يتميز بنومه الخفيف جدًّا.

عندما اكتُشف اختفاء اللورد سالتير، تفقدت على الفور كل من في المؤسسة بأكملها، الأولاد والمعلمين والخدم. وعندها تأكدنا أن اللورد سالتير لم يفر وحده. فقد كان هايديجر، المعلم الألماني مفقودًا هو الآخر. كانت غرفته في الطابق الثاني، في الطرف الأبعد من المبنى، وتواجه الإطلالة نفسها التي تُطل عليها غرفة اللورد سالتير. ووجدنا أنه قد نام في فراشه هو الآخر؛ غير أنه حسبما يبدو قد رحل دون أن يرتدي ثيابه كاملةً، فقد وجدنا قميصه وجواربه ملقاةً على الأرض. وقد هبط دون شك على فروع شجرة اللبلاب، فقد استطعنا رؤية آثار أقدامه حيث هبط على العشب. كان يحتفظ بدراجته في سقيفة صغيرة بجانب المرج، وقد اختفت كذلك.

إنه يعمل معي منذ عامين، وقد جاء بتوصيات رفيعة؛ لكنه كان رجلًا صموتًا عبوسًا، ولا يحظى بشعبية كبيرة سواء بين المعلمين أو الأولاد. لم نعثر على أي أثر للهاربين، والآن ونحن في صباح يوم الخميس ما زلنا نجهل مكانهما كما كنا في يوم الثلاثاء. استعلمنا بالطبع في قلعة هولدرنيس، فهي لا تبعد سوى بضعة أميال، واعتقدنا أنه قد عاد إلى أبيه في نوبة مفاجئة من الحنين إلى المنزل؛ لكنهم لم يسمعوا عنه خبرًا. إن الدوق في غاية القلق، أما أنا فقد رأيت بنفسك حالة الإنهاك العصبي التي أصابتني بسبب القلق وشعوري بالمسؤولية. فإذا كنت تعتزم يا سيد هولمز أن تضع كامل قواك في هذه القضية، فإني أناشدك أن تفعل هذا فورًا، فلن تحظى في حياتك بقضية أكثر أهمية من تلك.

أنصت شيرلوك هولمز إلى إفادة مدير المدرسة التعس بأقصى درجات الاهتمام. وظهر من حاجبيه المقطبين والأخدود العميق بينهما أنه لم يكن بحاجة إلى مناشدة ليركز كامل انتباهه على المشكلة التي – بغض النظر عن الفائدة الهائلة المنطوية عليها– من شأنها أن تغري حبه للتعقيد والخروج عن المألوف مباشرة. وهكذا سحب دفتر ملاحظاته ودوَّن على عجل ملاحظة أو اثنتين.

قال بصرامة: لقد قصَّرت كثيرًا بعدم قدومك إليّ عاجلًا، فها أنا سأبدأ تحقيقي بعائق خطير جدًّا. فعلى سبيل المثال، من المستحيل ألا يسفر ذاك اللبلاب وذاك العشب عن شيءٍ لِعَين الخبير.

– لستُ أنا الملوم يا سيد هولمز. فقد كان سموه حريصًا أشد الحرص على تجنب أي فضيحة علنية. لقد خشي أن يُفشى سر تعاسة أسرته أمام العالم أجمع، فلديه رعب عميق من أي شيء من هذا القبيل.

– ولكن هل أُجريَ أي تحقيق رسمي؟

– نعم يا سيدي، لكنه كان مخيبًا للآمال. فقد عثروا على دليلٍ واضح على الفور، إذ أبلغ أحدهم عن رؤية صبيٍّ وشاب يغادران محطة مجاورة على متن قطارٍ مبكر. وليس قبل ليلة أمس حين وصلتنا الأخبار عن تعقُّب هذين الشخصين في ليفربول، وأنه قد ثبت أن لا علاقة لهما بقضيتنا. وبعدها جئتُ إليك مباشرةً على متن قطار مبكر في يأس وخيبة أمل، بعد أن قضيتُ ليلة كاملة من الأرق.

– وأحسبُ أن التحقيقات المحلية قد هدأت خلال تتبُّع ذاك الدليل الخاطئ.

– بل توقفت تمامًا.

– وهكذا أُهدِرت أيام ثلاثة. لقد عولجت هذه القضية على نحوٍ مؤسف للغاية.

– أشعر بذلك، وأعترف به.

– ورغم ذلك لا بد من وجود حل نهائي للمشكلة، وسيسرني بشدة أن أحقق فيها. هل تمكنت من تتبع أي صلة بين الصبي المفقود وهذا المعلم الألماني؟

– كلا، على الإطلاق.

– هل كان الفتى بين طلبة المعلم؟

– لا؛ لم يتبادل معه كلمة واحدة قط على حد علمي.

– هذا غريبٌ جدًّا بكل تأكيد. هل كان للصبي دراجة؟

– لا.

– هل فقدت أي دراجة أخرى؟

– لا.

– هل هذا مؤكد؟

– تمامًا.

– حسنًا، الآن هل تقترح بجدية أن ذاك الألماني قد قاد دراجته على الطريق في سكون الليل حاملًا الصبي بين ذراعيه؟

– قطعًا لا.

– ما النظرية التي تجول في ذهنك إذن؟

– ربما كانت الدراجة تمويهًا. ربما أخفاها في مكان ما وهرب الاثنان سيرًا على الأقدام.

– صحيح؛ لكنه يبدو تمويهًا سخيفًا، أليس كذلك؟ هل كانت ثمة دراجات أخرى في تلك السقيفة؟

– العديد منها.

– ألم يكن يفترض به أن يخفي اثنتين إن كان يرغب في الإيحاء بفكرة أنهما هربا فوقهما؟

– أظن ذلك.

– بالطبع كان حريًّا به أن يفعل. إن نظرية التمويه لا تستقيم. لكن الواقعة نفسها تعد نقطة انطلاق رائعة للتحقيق. ففي كل الأحوال، ليست الدراجة بالشيء الذي يسهل إخفاؤه أو تدميره. هل أتى أحد لرؤية الصبي في اليوم السابق لاختفائه؟

– لا.

– هل تلقى أية رسائل؟

– نعم؛ رسالة واحدة.

– ممن؟

– من أبيه.

– هل تفتح رسائل الأولاد؟

– لا.

– كيف عرفت إذن أنها من أبيه؟

– كان شعار النبالة على الظرف، وقد كُتب العنوان بخط الدوق المميز. بالإضافة إلى أن الدوق يذكر أنه كتبه.

– متى كانت آخر رسالة تلقاها قبل ذلك؟

– ليس قبل بضعة أيام.

– هل تلقى أي رسالة من فرنسا؟

– لا؛ على الإطلاق.

– بالتأكيد ترى الغرض من أسئلتي. إما أن الصبي قد أُخذ بالإكراه أو أنه ذهب بمحض إرادته. في الحالة الأخيرة من المتوقع أن يحتاج فتى صغيرٌ كهذا إلى تحريض خارجي يدفعه إلى فعل مثل هذا الأمر. إذا لم يزره أي أحد، فلا بد من أن ذلك التحريض قد جاء مكتوبًا. لذلك أحاول معرفة المرسل.

– أخشى أنّي لا أستطيع مساعدتك كثيرًا، فمراسله الوحيد –على حد علمي– كان أباه.

– الذي كتب إليه في يوم اختفائه تحديدًا. هل كانت العلاقة بين الأب وابنه ودية؟

– سمو الدوق لم يكن ودودًا مع أحدٍ قط، فهو منهمك بكليته في القضايا العامة الكبيرة، ويصعب أن تنفذ إليه جميع المشاعر العادية. لكنه كان لطيفًا دومًا مع الصبي على طريقته الخاصة.

– لكن تعاطف الأخير كان مع أمه.

– نعم.

– هل قال هذا؟

– لا.

– هل قاله الدوق إذًا؟

– يا إلهي، كلا!

– ما أدراك به إذن؟

– كنت قد أجريت بعض المحادثات السرية مع السيد جيمس وايلدر، سكرتير سموه. وهو من زوَّدني بمعلومات عن مشاعر اللورد سالتير.

– فهمت. بالمناسبة، تلك الرسالة الأخيرة من الدوق –هل عُثر عليها في غرفة الصبي بعد رحيله؟

– لا؛ لقد أخذها معه. أحسب يا سيد هولمز أن الوقت قد حان لنذهب إلى يوستن.

– سأستدعي عربة، وخلال ربع الساعة سنكون في خدمتك. إذا كنت ستراسل الديار يا سيد هكستابل فلا بأس أن توحي للناس في حيك بأن التحقيق ما زال جاريًا في ليفربول، أو أي مكانٍ آخر قادتك الأدلة الخاطئة إليه. وفي هذه الأثناء سأجري تحرياتي في مدرستك في هدوء، علَّ الرائحة لم تختفِ تمامًا بحيث يمكن لكلبَي صيد كهلين مثلي أنا وواتسون أن يشتمّاها.

ذلك المساء وجدنا أنفسنا في الجو البارد المنعش لبلدة بيك، حيث تقع مدرسة الدكتور هكستابل الشهيرة. كان الظلام قد حل بالفعل عندما وصلنا إليها، وكان بانتظارنا بطاقة على طاولة البهو. ثم همس الخادم بشيء ما في أذن سيده، الذي التفت إلينا قائلًا والانفعال بادٍ على كل قسمة من قسماته:

– إن الدوق هنا، هو والسيد وايلدر ينتظران في المكتب. تعاليا أيها السيدان حتى أعرفكما بهما.

كنت قد رأيتُ بالطبع صورًا لرجل الدولة الشهير، لكنه كان مختلفًا تمامًا عن صورِه. كان رجلًا طويل القامة مهيبًا، أنيق الملبس، ذا وجهٍ نحيل مُنهك وأنفٍ طويل ومعقوف بشكلٍ غريب. أما بشرته فكانت شاحبة شحوب الموتى، وقد زادها شحوبًا تناقضها الشديد مع لحيتِه الطويلة المتدرجة ذات اللون الأحمر الزاهي، والتي تدلت فوق صدريته البيضاء، مع سلسلة ساعته المتلألئة أطرافها. هكذا بدا صاحب الحضور المهيب الذي أخذ ينظر إلينا بصرامة من موقعه في منتصف البساط أمام مدفأة الدكتور هكستابل. وبجانبه وقف شاب يافع، عرفتُ أنه وايلدر، سكرتيره الخاص، ضئيل البنية وعصبيًّا ومتحفزًا، له عينان ذكيتان لونهما أزرق فاتح وملامح متقلبة. كان هو من استهلَّ المحادثة في الحال بنبرة قاطعة وواثقة.

قال: لقد اتصلتُ بك هذا الصباح أيها الدكتور هكستابل لمنعك من الذهاب إلى لندن، ولكن بعد أن فات الأوان. علمتُ أنك تعتزم دعوة السيد شيرلوك هولمز لتولي هذه القضية. إن سموه مندهش من إقدامك على اتخاذ مثل هذه الخطوة دون استشارته.

– حينما علمتُ أن الشرطة فشلت –

– سموه غير مقتنع بأي حال من الأحوال بأن الشرطة قد فشلت.

– ولكن لا شك يا سيد وايلدر –

– إنك تدرك جيدًا يا دكتور هكستابل أن سموه حريصٌ أشد الحرص على تجنب أي فضيحة علنية. ويفضِّل ألا يضع ثقته إلا في أقل عددٍ من الأشخاص.

قال الدكتور بانكسار: يمكننا تدارك الأمر بسهولة؛ فبإمكان السيد شيرلوك هولمز أن يعود إلى لندن على متن قطار الصباح.

قال هولمز بأشد لهجاته فتورًا: هذا صعب يا دكتور، هذا صعب، فهذا الهواء الشمالي عليل ومنعش، لذا أعتزم أن أقضي بضعة أيام في رُباكم، وأن أشغل ذهني بقدر ما أستطيع. ولك بالطبع أن تقرر ما إن كنت سأبيت في منزلك أو في نُزُل القرية.

استطعتُ أن أرى الدكتور البائس في أقصى درجات الحيرة، التي أنقذه منها الصوت العميق الجهوري للدوق ذي اللحية الحمراء، والذي دوَّى مثل جرس العشاء.

– أتفق مع السيد وايلدر يا دكتور هكستابل أنه كان من الحكمة أن تستشيرني. ولكنك وضعت ثقتك بالفعل في السيد هولمز، لذا سيكون من العبث ألا نستفيد من خدماته. بدلًا من الذهاب إلى النُّزُل يا سيد هولمز، يسرني أن تأتي وتبقى معي في قلعة هولدرنيس.

– أشكر سموك. أعتقد أن من الأجدر بي أن أبقى في مسرح اللغز من أجل مصلحة التحقيق.

– كما تشاء يا سيد هولمز. أي معلومات يمكنني أنا والسيد وايلدر أن نوافيك بها، ستكون حتمًا تحت تصرفك.

قال هولمز: ربما سأضطر إلى زيارتك في القلعة. أما الآن فأودُّ فقط أن أسألك يا سيدي إن كان قد جال بذهنك أي تفسير بشأن الاختفاء الغامض لابنك؟

– لا يا سيدي، لم يحدث.

– اعذرني إن أشرتُ لما قد يكون مؤلمًا بالنسبة لك، ولكن ما من بديل. هل تعتقد أن للدوقة أي صلة بالأمر؟

أظهر الوزير العظيم ترددًا ملموسًا، ثم أجاب أخيرًا:

– لا أعتقد ذلك.

– التفسير الآخر الأكثر وضوحًا هو أن الطفل قد اختطف بغرض الحصول على فدية. ألم يطالب أحد بشيء من هذا القبيل؟

– نعم يا سيدي.

– سؤال آخر يا سمو الدوق. أعرف أنك كتبت إلى ابنك يوم حدوث الواقعة.

– لا؛ بل كتبت له في اليوم السابق له.

– بالضبط. لكنه تلقاها في ذاك اليوم.

– نعم.

– هل كان هناك شيءٌ في رسالتك قد يفقده توازنه أو يدفعه لاتخاذ خطوة مماثلة؟

– لا يا سيدي، قطعًا لا.

– هل أرسلت تلك الرسالة بنفسك؟

قاطع السكرتير رد الدوق مقتحمًا الحوار بشيءٍ من الجرأة وقال:

– ليس من عادة سموه أن يرسل الرسائل بنفسه. كانت تلك الرسالة موضوعة على طاولة المكتب مع رسائل أخرى، وقد وضعتها بنفسي في حقيبة البريد.

– هل أنت متأكد أن تلك الرسالة كانت بينها؟

– نعم؛ لقد لاحظتها.

– كم عدد الرسائل التي كتبتها سموك في ذلك اليوم؟

– عشرون أو ثلاثون. لدي كمٌّ كبير من المراسلات. ولكن مؤكد لا صلة لها بالأمر، أليس كذلك؟

قال هولمز: ليس تمامًا.

فتابع الدوق كلامه قائلًا: من جهتي نصحت الشرطة بتوجيه انتباهها إلى جنوب فرنسا. لقد سبق وقلتُ إنني لا أظن الدوقة قد تُشجِّع مثل هذا التصرف الوحشي، لكن الفتى لديه أفكار خاطئة كثيرة، ومن المحتمل أن يكون قد هرب إليها، بمساعدة هذا الألماني وتحريضه. أعتقد أننا سنعود إلى المنزل الآن يا دكتور هكستابل.

استطعت أن أرى لدى هولمز أسئلة أخرى يود طرحها؛ لكن الأسلوب المباغت للدوق النبيل دلَّ على انتهاء المقابلة. كان جليًّا أنه بسبب طبيعته الأرستقراطية العتيدة رأى أن هذه المناقشة مع غريبٍ حول شؤونه العائلية الخاصة أمرًا مقيتًا للغاية، وأنه خشي أن يُلقي كل سؤال جديد ضوءًا أشد قسوة على الزوايا التي يظللها الكتمان من تاريخه كدوق.

عندما غادر النبيل وسكرتيره، ألقى صديقي بنفسه فورًا في التحقيق بشغفه المعهود.

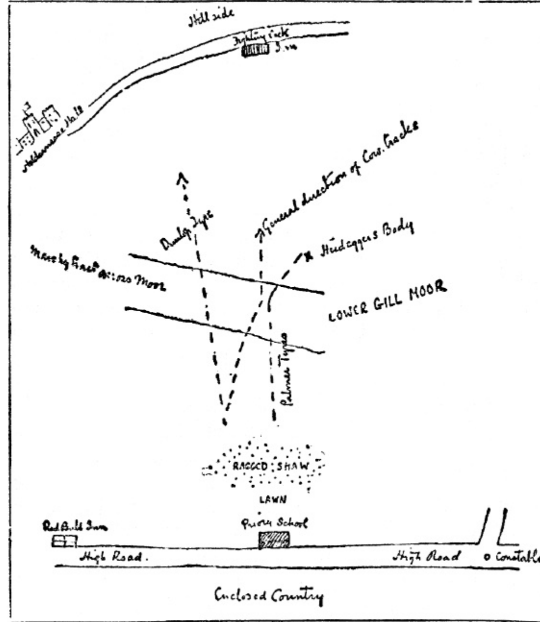
فُحصت غرفة الصبي بعناية، ولم يسفر هذا عن شيء سوى القناعة المطلقة بأن هروبه لم يكن ممكنًا إلا من خلال النافذة. ولم تُقدم غرفة المعلم الألماني ومتاعه أي دليل آخر. إلا أن فرعًا من نبتة اللبلاب قد سقط تحت وطأة وزنه، ورأينا في ضوء المصباح أثر عقبيه على العشب حيث نزل. كان هذا الأثر الوحيد على العشب الأخضر القصير هو الشاهد المادي الوحيد المتبقي من هذا الهروب الليلي الذي يتعذر تفسيره.

ترك شيرلوك هولمز المنزل بمفرده، ولم يعد إلا بعد الحادية عشرة. كان قد حصل على خريطة توضيحية كبيرة للحي وأحضرها معه إلى غرفتي باسطًا إياها على الفراش. ثم سلَّط المصباح على منتصفها، وبدأ يدخن فوقها، وبين الحين والآخر كان يشير إلى الأماكن المهمة بغليونه الذي تفوح منه رائحة العنبر.

قال: إن هذه القضية تستحوذ عليّ يا واتسون، لا ريب أن بها بعض النقاط المهمة. أريدك أن تعي في هذه المرحلة المبكرة تلك المعالم الجغرافية التي قد يكون لها علاقة وطيدة بتحقيقنا.

انظر إلى هذه الخريطة. هذا المربع المظلل هو مدرسة بريوري. سأضع دبوسًا فيه. وهذا الخط هو الطريق الرئيس. وهو كما ترى يتجه شرقًا وغربًا مارًّا بالمدرسة، وكما ترى أيضًا لا يوجد طريق جانبي

لمسافة ميل في كلا الاتجاهين. إذا هرب هذان الاثنان من طريق فهو هذا الطريق لا محالة.



- بالضبط.

- إن واتتنا فرصة استثنائية فسنتمكن من التحقق مما جرى على هذا الطريق في الليلة المعنية. ففي هذه النقطة، التي أضع عليها غليوني، كان شرطي البلدة في الخدمة من الساعة الثانية عشرة حتى السادسة. هذا كما ترى أول تقاطع في الجانب الشرقي. يؤكد هذا الرجل أنه لم يغب لحظة عن موقعه، وهو متأكد من أنه لا الصبي ولا الرجل يمكنهما المرور من هذا الطريق دون أن يراهما. لقد تحدثت مع هذا الشرطي الليلة، وقد بدا لي جديرًا بالثقة. هذا يجعلنا نستبعد هذا الاتجاه. علينا الآن التعامل مع الاتجاه الآخر. يوجد نُزُل هنا، يدعى ريد بول، كانت مالكته مريضة. وقد أرسلت إلى ماكلتون في طلب طبيب، لكنه لم يصل إلا في الصباح لانشغاله بحالة أخرى. كان سكان النُّزُل يقظين طوال الليل في انتظار قدومه، ويبدو أن أحدهم كان يراقب الطريق باستمرار. وهم يؤكدون ألا أحد قد مر. إذا كانت شهادتهم صحيحة، فقد حالفنا الحظ في استبعاد اتجاه الغرب، وفي الجزم أيضًا بأن الهاربين لم يستخدما هذا الطريق بالمرة.

اعترضت قائلًا: ولكن الدراجة؟

- صحيح. سنأتي على ذكر الدراجة عمّا قريب. لنستكمل استنتاجنا: إن لم يكن هذان الاثنان قد سلكا هذا الطريق، فلا بد أنهما اجتازا البلدة إلى شمال الدار أو جنوبه. وهذا مؤكد. دعنا نزن الأمرين. إلى جنوب السكن كما ترى، توجد منطقة كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة، مقسمة إلى حقول صغيرة بينها جدران حجرية. هنا، أقرُّ بأن استخدام الدراجة مستحيل. لذا يمكننا استبعاد هذه الفكرة. ننتقل إلى شمال السكن. هنا تمتد أيكة من الأشجار تُعرف باسم راجيد شو، وعلى الجانب الأبعد تقع رابية كبيرة منحدرة تُدعى رابية لوور جيل، تمتد لمسافة عشرة أميال وتنحرف تدريجيًّا لأعلى. هنا، إلى جانب هذا الخلاء تقع قلعة هولدرنيس، على بعد عشرة أميال من الطريق، وستة فقط من الرابية. وهو سهل مقفر على نحو غريب. يمتلك عدد قليل من مزارعي الرُّبى مساحات صغيرة منه يُربّون فيها الأغنام

والماشية. وفيما عدا هؤلاء، ما من أحدٍ في هذا المكان سوى طيور الزقزاق والكروان إلى أن تصل إلى طريق شيسترفيلد السريع، حيث تجد كنيسة، كما ترى، وعددًا قليلًا من الأكواخ والنُّزُل. وخلفها تصبح التلال شديدة الانحدار. لا شك أن علينا البحث هنا، في الشمال.

اعترضت قائلًا: ولكن الدراجة؟

فأجاب هولمز بنفاد صبر: حسنًا، حسنًا! راكب الدراجة الماهر ليس بحاجة إلى طريق سريع ليقودها عليه. فالدروب الرابية تتخللها ممرات، إضافةً إلى أن القمر كان بدرًا. يا إلهي! ما هذا؟

سمعنا طرقًا عنيفًا على الباب، وبعد لحظة كان الدكتور هكستابل في الغرفة حاملًا في يده قبعة كريكت زرقاء على طرفها شارة بيضاء.

وصاح قائلًا: أخيرًا وجدنا دليلًا! الحمد لله! أخيرًا صرنا على المسار الصحيح نحو فتانا العزيز! هذه قبعته.

– أين عُثر عليها؟

– في عربة الغجر الذين كانوا يخيمون على الرابية. لقد رحلوا يوم الثلاثاء. واليوم تعقبهم رجال الشرطة وفحصوا قافلتهم فوجدوا هذه.

– وكيف فسروا وجودها؟

– راوغوا وكذبوا –قالوا إنهم وجدوها على الرابية صباح الثلاثاء. إنهم يعرفون مكانه، أولئك الأوغاد! كلهم رهن الاعتقال الآن حمدًا لله. وسوف يعترفون بما يعرفونه إما خوفًا من القانون أو من نفوذ الدوق.

قال هولمز عندما انصرف الدكتور أخيرًا: الوضع لا بأس به حتى الآن. على الأقل صرنا متأكدين من نظرية أن النتائج تكمن في هذا الجانب من رابية لوور جيل. لم تفعل الشرطة شيئًا ذا بال على الصعيد المحلي سوى القبض على هؤلاء الغجر. انظر هنا يا واتسون! ثمة مجرى مائي يعبر الربوة، ومحدد بعلامة هنا على الخريطة كما ترى. إنه يتسع في بعض أجزائه ليشكل مستنقعًا، وهذا هو حاله تحديدًا في المنطقة الواقعة بين قلعة هولدرنيس والمدرسة. لا جدوى من البحث عن الآثار في مكانٍ آخر في هذا الطقس الجاف؛ ولكن حتمًا ثمة فرصة للعثور على دليل في تلك النقطة. سأتصل بك غدًا في الصباح الباكر، ونحاول ما أمكننا أن نلقي بعض الضوء على هذا اللغز.

كان النهار قد انبلج لتوه عندما استيقظت لأجد هولمز بظله الطويل النحيل واقفًا إلى جانب فراشي، مرتديًا ثيابه بالكامل وبدا أنه قد خرج بالفعل.

قال: لقد انتهيت من المرج وسقيفة الدراجات، وجلتُ أيضًا في أيكة راجيد شو. والآن يا واتسون، يوجد مشروب شوكولاتة جاهز في الغرفة المجاورة. وأتوسل إليك أن تسرع، لأن في انتظارنا يومًا حافلًا.

لمعت عيناه وتوردت وجنتاه ببهجة العامل المحترف الذي يرى عمله مجهزًا أمامه. بدا هولمز هذا، الرجل النشط اليقظ، مختلفًا تمامًا عن هولمز الحالم الشاحب المفكر الذي عهدته في شارع بيكر. وبينما

نظرت إلى ذاك الجسد المرن الذي يفيض بطاقة محتدمة داهمني شعورٌ بأن في انتظارنا يومًا شاقًّا بالفعل.

ومع ذلك بدأ اليوم بخيبة أمل شديدة. بآمالٍ عريضة قطعنا طريقنا عبر الهشيم، الذي يتخلله ألف درب من دروب الغنم. حتى وصلنا إلى الحزام الأخضر الفاتح الواسع الذي حدّ المستنقع بيننا وبين هولدرنيس. من المؤكد دون شك أن الفتى قد اجتازه إن كان قد عاد إلى المنزل، ولا يمكنه اجتيازه دون أن يترك أثرًا. لكن لم تُر أي علامة له أو للألماني. سار صديقي بطول الحافة مكفهرَّ الوجه، وقد أخذ يعاين بحرص كل بقعة موحلة على السطح المغطى بالطحالب.

ثم قال وهو ينظر بحزن إلى الامتداد المنحدِر للرابية: الملاحظة الأولى: ثمة مستنقع آخر هناك وعنقٌ ضيقٌ بين المستنقعين. مهلًا! مهلًا! مهلًا! ماذا لدينا هنا؟

كنا قد وصلنا إلى ممرٍّ أسود صغير. في منتصفه أثر واضح على التربة الرطبة. كانت آثار دراجة.

صحت قائلًا: مرحى! لقد نلنا منه.

أخذ هولمز يهز رأسه، ولاحت على وجهه الحيرة والترقب بدلًا من الابتهاج.

قال: إنها دراجة دون ريب، لكنها ليست الدراجة التي نبحث عنها. إنني على دراية باثنين وأربعين أثرًا مختلفًا للإطارات. هذا الأثر، كما ترى، يعود لإطار من نوع دنلوب، الموسوم بشارة على غطائه الخارجي. أما إطارات دراجة هايديجر، فهي من نوع بالمر، التي تترك خطوطًا طولية. كان أفيلينج، معلم الرياضيات، متأكدًا من هذه النقطة؛ لذا فهذا ليس أثر دراجة هايديجر.

– هل هو أثر دراجة الصبي إذن؟

– ربما، لو كنا استطعنا إثبات أن بحوزته دراجة. بيد أنَّا فشلنا تمامًا في هذا. إن هذا الأثر، كما تُلاحظ، تركه راكب درَّاجة آتيًا من اتجاه المدرسة.

– أو متجهًا إليها.

– كلا، كلا يا عزيزي واتسون. إن الانطباع الأكثر عمقًا هو بالطبع للعجلة الخلفية، التي يرتكز عليها الوزن. كما ترى فقد مر هذا الأثر في عدة أماكن وطمس الأثر السطحي للعجلة الأمامية. لقد كان بلا شك متجهًا بعيدًا عن المدرسة. وسواء ارتبط هذا الأثر بتحقيقنا أو لا، سنتبعه قبل أن نمضي قدمًا.

وهذا ما فعلناه، وبعد بضع مئات من الياردات فقدنا الآثار عندما خرجنا من الجزء الموحل من الرابية. وبتتبع الدرب وجدنا بقعة أخرى يمر خلالها أحد الينابيع. وهنا وجدنا مرة أخرى أثر الدراجة، الذي كادت تمحوه حوافر الأبقار. وبعدها اختفى الأثر ثانيةً، بيد أن الدرب كان يتجه مباشرة داخل راجيد شو، الأيكة التي تقع خلف المدرسة. لا بد أن الدراجة خرجت من هذه الغابة. جلس هولمز على صخرة ووضع ذقنه بين يديه. فيما دخنتُ أنا سيجارتين قبل أن يتحرك.

وأخيرًا قال: حسنٌ إذن، واردٌ بالطبع أن يغير رجلٌ ماكر إطارات دراجته حتى يترك آثارًا غير مألوفة. إن المجرم القادر على التفكير في مثل هذا لهو رجل أفخر بالعمل معه. سنترك هذا السؤال دونما حسم ونعود أدراجنا إلى المستنقع مرة أخرى، فقد تركنا الكثير دون استكشاف.

واصلنا مسحنا المنظم لحافة الجزء الموحل من الرابية، وسرعان ما كوفئنا على مثابرتنا بسخاء. فعلى الجانب المقابل للجزء الضيق من المستنقع مباشرة وجدنا دربًا موحلًا. أطلق هولمز صيحة فرح وهو يقترب منه حين رأى في وسطه أثرًا ممتدًّا يشبه حزمة رفيعة من أسلاك التلغراف. كانت تلك إطارات بالمر.

صاح هولمز مبتهجًا: ها هو السيد هايديجر بكل تأكيد! يبدو أن استنتاجي كان سليمًا جدًّا يا واتسون.

– أهنئك على هذا.

– ولكن ما زال أمامنا طريق طويل لنقطعه. سر بعيدًا عن الدرب رجاءً. والآن لنتبع الأثر. أخشى أنه لن يقودنا بعيدًا.

ومع ذلك وجدنا بينما نتقدم أن هذا الجزء من الرابية يعترضه مساحات رخوة، ورغم أننا فقدنا الأثر مرارًا فإننا كنا ننجح دومًا في العثور عليه مرة أخرى.

قال هولمز: ألا تلاحظ أن راكب الدرَّاجة زاد من سرعته هنا؟ لا مجال للشك في ذلك. انظر لهذا الأثر، حيث يظهر كلا الإطارين بوضوح. وكلاهما بنفس العمق. هذا لا يعني إلا أن الدرّاج يلقي بوزنه على المقبض، كما يفعل المرء عندما يعدو. يا للهول! لقد سقط.

كانت ثمة بقعة واسعة غير منتظمة تغطي عدة ياردات من الطريق. ثم ظهرت آثار أقدام قليلة، وبعدها عاد الإطار إلى الظهور مرة أخرى.

قلتُ مقترحًا: انزلاق جانبي.

رفع هولمز غصنًا متغضنًا لنبات الجولق المزهر. واعتراني الرعب حينما لاحظت أن الأزهار الصفراء كانت مخضَّلة تمامًا بالقرمزي. ثم رأينا بقعًا داكنة من الدم المتخثر على الدرب كذلك وبين نباتات الخلنج.

قال هولمز: هذا سيئ! هذا سيئ! قف بعيدًا يا واتسون! لا تخطُ خطوة واحدة غير ضرورية! ماذا أرى هنا؟ لقد سقط جريحًا، ثم نهض وركب الدراجة مرة أخرى وتابع السير. ولكن لا توجد آثار أخرى. توجد آثار لماشية على هذا الدرب الجانبي. مؤكَّد لم ينطحه ثور. مستحيل! لكني لا أرى أثرًا لأي شخص آخر. لا بد أن نمضي قدمًا يا واتسون. فما دامت لدينا بقع وآثار لتُرشدنا لن يستطيع الهرب منا الآن.

لم يطُل بنا البحث كثيرًا، فقد بدأت آثار الإطارات تنحرف بشدة على الدرب الرطب اللامع. وفجأة، لفت نظري بريق المعدن من وسط أجمة الجولق الكثيفة، وسحبنا منها دراجة ذات إطارات بالمر، تقوَّست إحدى دواستيها، بينما تلطخت مقدمتها بالكامل بالدماء وسالت منها. وبرز حذاء على الجانب الآخر من الأجمة. درنا حولها بسرعة، فوجدنا راكب الدراجة البائس صريعًا. كان رجلًا طويلَ القامة ذا لحية يرتدي نظارة سقطت إحدى عدستيها. كان السبب في وفاته ضربة مروعة على الرأس، هشمت جمجمته في أحد المواضع. لكن قدرته على المضي قدمًا بعد تعرضه لمثل هذه الإصابة أخبرتنا بالكثير عن نشاط هذا الرجل وشجاعته. كان يرتدي حذاءً من دون جوارب، وكشف معطفه المفتوح عن منامة تحته. كان بلا شك المعلم الألماني.

أدار هولمز الجسد بتوقير، وفحصه باهتمام كبير، ثم جلس يفكر بعمق لبعض الوقت، واستطعت أن أرى من جبينه المتغضن أن هذا الاكتشاف المروِّع لم يقدم لنا كثير العون في تحقيقنا.

ثم قال أخيرًا: يصعب عليَّ بعض الشيء أن أعرف ما ينبغي لنا فعله يا واتسون. إن ما أميل إليه هو المضي قدمًا في مسارنا هذا، فقد أهدرنا بالفعل كثيرًا من الوقت ولا يسعنا تحمُّل إهدار ساعة أخرى. ومن الناحية الأخرى، نحن ملزمون بإبلاغ الشرطة باكتشافنا، وضمان أن ينال هذا الرجل المسكين العناية الواجبة.

– يمكنني أن أعود أنا وأُبلغهم.

– بيد أنِّي بحاجة إلى رفقتك ومساعدتك. مهلًا لحظة! أرى رجلًا يقطع الهشيم هناك. استدعه إلى هنا وسيرشد الشرطة نيابةً عنا.

أحضرت القروي الذي ذُعر مما رأى، فأوفده هولمز بمذكرة إلى الدكتور هكستابل.

ثم قال: والآن يا واتسون، لقد حصلنا على دليلين هذا الصباح. أحدهما هو الدراجة ذات الإطارات من نوع بالمر، وقد رأينا ما أفضى إليه هذا الدليل. والآخر هو الدراجة ذات الإطارات من نوع دنلوب. وقبل أن نبدأ في اقتفاء أثرها، لنحاول غربلة ما نعرفه كيما نخرج بأقصى استفادة منه، ولفصل الغث منه عن السمين.

أولًا أودُّ أن أؤكد لك أن هذا الصبي قد غادر بمحض إرادته لا محالة. لقد هبط من نافذته وخرج إما بمفرده أو مع شخص آخر. هذا مؤكد.

وافقته فيما قاله.

– حسنًا، والآن لنلتفت إلى ذاك المعلم الألماني البائس. كان الصبي في كامل ملبسه عندما فر. ومن ثم فقد كان يدري ما هو مقدم عليه. أما الألماني فقد ذهب دون جواربه. لقد ارتدى ثيابه في مدة زمنية قصيرة جدًّا.

– لا شك في هذا.

– لماذا ذهب؟ لأنه رأى الصبي يهرب من نافذة غرفته. لأنه أراد اللحاق به وإعادته. لذا أخذ دراجته وطارد الفتى، وأثناء مطاردته لاقى حتفه.

– هذا ما يبدو.

– والآن يأتي الجزء الحرج من فرضيتي. إن التصرف الطبيعي لرجلٍ يطارد صبي صغير هو أن يركض وراءه. فهو يعلم أن بإمكانه اللحاق به. لكن الألماني لم يفعل ذلك. لقد اتجه إلى دراجته. وقد قيل لي إنه كان درَّاجًا ماهرًا. لم يكن ليفعل لو لم ير أن لدى الصبي وسيلة هروب سريعة.

– الدراجة الأخرى.

– لنستكمل إعادة بناء الأحداث. لقد لاقى حتفه على بعد خمسة أميال من المدرسة –وليس جرَّاء رصاصة، ضع هذا في اعتبارك، والتي يمكن حتى لفتى صغير أن يُطلقها، وإنما بضربة وحشية سددتها ذراعٌ قوية. إذن كان للفتى رفيقٌ في هروبه. وقد كان هروبهما سريعًا، فقد تطلب الأمر خمسة أميال قبل

أن يلحق بهما درَّاج متمرس. ومع ذلك، ها نحن قد مسحنا الأرض حول مسرح المأساة، فماذا وجدنا؟ بضعة آثار لماشية، ولا شيء آخر. وقد أخذت جولة واسعة، وما من درب آخر على بعد خمسين ياردة. لا يمكن لراكب الدراجة الآخر أن يكون له علاقة بجريمة القتل. وكذلك لم أجد أي آثار أقدام لبشر.

هنا صحت قائلًا: هولمز! هذا مستحيل.

قال: رائع! هذه ملحوظة مفيدة جدًّا. إنه مستحيل كما طرحته؛ ومن ثم لا بد أنني أخطأت في نقطة أو أخرى. لكنك رأيت بنفسك. فهل تستطيع رصد أي مغالطات؟

– أليس ممكنًا أن يكون قد هشَّم جمجمته جراء سقوطه؟

– في مستنقع يا واتسون؟

– لقد نفدت مني الحيل.

– كلا، لقد حللنا قضايا أسوأ من هذه. على الأقل بحوزتنا الكثير من الأدلة، لو أمكننا فقط استخدامها. هلم نرى ما لدى إطار دنلوب ذي الغطاء الموسوم ليقدمه لنا، فقد استنفدنا البحث بشأن إطارات بالمر.

وجدنا الأثر وتتبعناه إلى الأمام لمسافة ما؛ ولكن سرعان ما ارتفعت الرابية في منحنًى ممتد تغطيه نباتات الخلنج المزهرة، فيما صار المجرى المائي وراءنا. وانقطع الرجاء في رؤية آثارٍ أخرى تساعدنا. أما المكان الذي رأينا فيه آخر أثر لإطار الدنلوب، فقد كان يؤدي إما إلى قلعة هولدرنيس، التي ارتفعت أبراجها الجليلة على بعد أميال إلى يسارنا، أو إلى قرية رمادية منخفضة تقع أمامنا على حدود طريق شيسترفيلد السريع.

ما إن وصلنا إلى النُّزُل البغيض القذر، الذي وُضعت على بابه علامة مصارعة الديوك حتى أطلق هولمز أنينًا مفاجئًا وتشبث بكتفي ليمنع نفسه من السقوط. فقد أصيب بشدٍّ عضلي حاد من النوع الذي يجعل المرء عاجزًا عن الحركة. صعد إلى الباب بصعوبة وهو يعرج، وهناك رأينا رجلًا مسنًّا داكنًا قصير القامة سمينًا يدخن غليونًا من الصلصال الأسود.

قال هولمز: كيف حالك يا سيد روبن هايز؟

أجاب القروي وفي عينيه الماكرتين وميض ارتياب: من أنت؟ وكيف عرفت اسمي بهذه البساطة؟

– حسنًا، إنه مكتوب على اللوح المعلق فوق رأسك. من السهل معرفة أنك مالك المكان. هل لديك عربة أو ما شابه في إسطبلاتك؟

– لا، ليس لدي.

– إنني بالكاد أستطيع وضع قدمي على الأرض.

– لا تضعها على الأرض إذن.

– لكنني لا أستطيع السير.

– حسنًا، فلتقفز إذن.

كان أسلوب السيد روبن هايز بعيدًا كل البعد عن الكياسة، بيد أن هولمز تقبله بروحٍ طيبة جديرة بالإعجاب.

قال: انظر إليَّ يا صاحبي، إن مشكلتي حقيقية. ولا تهمني الطريقة التي سأمضي بها.

قال مالك المكان العابس: ولا أنا.

– المسألة في غاية الأهمية. سأعطيك جنيهًا ذهبيًّا مقابل دراجة.

أصاخ المالك سمعه.

– إلى أين تريد أن تذهب؟

– إلى قلعة هولدرنيس.

قال المالك وهو يتفحص ملابسنا الملطخة بالطين بعينين ساخرتين: هل أنتما أصدقاء الدوق؟

ضحك هولمز بلطف.

– سيسعد برؤيتنا على أية حال.

– لماذا؟

– لأننا نحمل له أخبارًا عن ابنه المفقود.

انتفض المالك انتفاضة جلية جدًّا.

– ماذا؟ أأنت في أثره؟

– لقد سمعنا أنه في ليفربول. إنهم يتوقعون الوصول إليه في أية لحظة.

مرة أخرى حدثَ تغيُّر سريع على ذاك الوجه السمين غير الحليق، ثم أصبح سلوكه لطيفًا فجأة.

قال: إن دوافعي لتمنِّي الخير للدوق أقلُّ مما هي عند معظم الناس، فقد كنت كبير الحوذيين لديه ذات يوم، وكان يعاملني أسوأ معاملة وأقساها. كان هو من طردني دون سابق إنذار بناءً على أكاذيب أحد تجار الحنطة. لكنني سعيد لسماعي أن ثمة أخبارًا عن اللورد الصغير في ليفربول، وسأساعدكما في نقل الأخبار إلى قلعة هولدرنيس.

قال هولمز: أشكرك. سنتناول بعض الطعام أولًا. ثم يمكنك إحضار الدراجة.

– ليس لدي دراجة.

رفع هولمز عملته الذهبية.

– صدِّقني يا رجل ليس لدي واحدة. سأسمح لكما بأخذ حصانين حتى قلعة هولدرنيس.

قال هولمز: حسنٌ إذن، سنتحدث حول هذا عندما نحصل على ما نأكله.

عندما تُركنا بمفردنا في المطبخ ذي الأعلام الحجرية، ذُهلت من سرعة تعافي هذا الكاحل الملتوي. كان الليل قد اقترب، ولم نكن قد أكلنا شيئًا منذ الصباح الباكر، فقضينا بعض الوقت في تناول الطعام. شرد هولمز في أفكاره، وسار مرة أو مرتين إلى النافذة محدقًا خارجها بتركيز. كانت تطل على فناءٍ قذر، وفي

الزاوية البعيدة كان ثمة دكان حدادة يعمل به فتى متسخ. أما الجانب الآخر فقد احتوى الإسطبلات. لم يكد يجلس هولمز بعد إحدى تلك الرحلات، حتى هبَّ فجأة من مقعده مطلقًا صيحة عالية.

صاح قائلًا: بحق السماء يا واتسون، أعتقد أنِّي قد عرفتُ الحل! نعم، نعم، مؤكَّد أنه كذلك. واتسون، أتذكر رؤية أي آثار لأبقار اليوم؟

– نعم، عدة مرات.

– أين؟

– حسنًا، في كل مكان. كانت في المستنقع، ثم مرة أخرى على الدرب، ثم مرة أخرى قرب الموضع الذي لاقى فيه المسكين هايديجر حتفه.

– بالضبط. والآن يا واتسون، كم عدد الأبقار التي رأيتها على الرابية؟

– لا أذكر أني رأيت أيًّا منها.

– من الغريب يا واتسون أن نرى الآثار على امتداد طريقنا دون أن نرى بقرة واحدة في أي مكانٍ على الرابية؛ إنه لأمر غريب جدًّا يا واتسون، أليس كذلك؟

– بلى، إنه غريب.

– والآن يا واتسون، ابذل بعض الجهد وعُد بذهنك إلى الماضي! هل يمكنك رؤية تلك الآثار كما كانت على الدرب؟

– نعم، يمكنني ذلك.

– هل تذكُر أن الآثار كانت تبدو هكذا في بعض الأحيان يا واتسون؟ – قالها ورتب بعضًا من فتات الخبز على هذا النحو —: : : : :— فيما بدت في أحيانٍ أخرى على هذا النحو —: . : . : . : .— ثم بين الحين والآخر كانت تبدو هكذا —. . . . . . . هل يمكنك تذكُّر ذلك؟

– كلا، لا يمكنني.

– أما أنا فيمكنني. بل إنني لأقسم عليه. سنعود في وقت فراغنا ونتحقق منه على أية حال. كم كنتُ خُنفسًا أعمى لعدم وصولي لهذا الاستنتاج!

– وما استنتاجك؟

– إنها لبقرة رائعة تلك التي تسير وتخب وتركض. يا إلهي، لا يمكن أن يكون مبتدع هذه الخدعة مجرد صاحب حانة قروي يا واتسون! يبدو التل خاليًا إلا من ذاك الفتى في دكان الحدادة. دعنا نتسلل إلى الخارج ونرى ما يمكننا رؤيته.

كان ثمة فرسان ذوا شعرٍ أشعث خشن في الإسطبل المتهدم. رفع هولمز ساق أحدهما الخلفية وضحك بصوت عالٍ.

– حدواتٌ قديمة لكنها رُكِّبت حديثًا، الحدوات قديمة لكن المسامير جديدة. هذه القضية تستحق الدراسة. لنذهب إلى دكان الحدادة.

واصل الفتى عمله دون أن يأبه لنا. رأيت عيني هولمز تحدقان ذات اليمين وذات الشمال بين ركام الحديد والخشب الذي تناثر على الأرض. ثم سمعنا فجأة وقع خطوات خلفنا، كان مالك المكان وقد قطَّب حاجبيه الكثين فوق عينيه الوحشيتين، وتشنجت ملامحه الداكنة في انفعال. كان يحمل في يده عصا قصيرة ذات رأس معدني واقترب منا متوعدًا حتى إنني سعدت لإحساسي بالمسدس في جيبي.

صاح الرجل: أيها الجاسوسان الملعونان! ماذا تفعلان هنا؟

قال هولمز ببرود: على رسلك يا سيد روبن هايز. فقد يظن المرء أنك تخشى اكتشافنا شيئًا ما.

سيطر الرجل على نفسه بجهد جهيد، وارتخى فمه الشرس في ضحكة مفتعلة، كانت أكثر تهديدًا من عبوسه.

قال: مرحبًا بك لاكتشاف كل ما يمكن اكتشافه في دكان حدادتي. لكن أنصت يا سيد، أنا لا أدلل أولئك الذين ينقبون في ملكي دون إذني؛ لذا كلما أسرعت بدفع حسابك وخرجت من هنا سأكون أكثر سعادة.

قال هولمز: لا بأس يا سيد هايز، لم نقصد أي ضرر. لقد كنا نلقي نظرة على خيولك، لكنني أظن أني سأسير بعد كل شيء. فالمكان ليس ببعيد.

– ليس أكثر من ميلين حتى بوابات قلعة هولدرنيس. إنه هذا الطريق إلى اليسار. وراقبنا بعينين متجهمتين حتى غادرنا أملاكه.

لم نبتعد كثيرًا جدًّا على الطريق، فقد توقف هولمز في اللحظة التي أخفانا المنحنى فيها عن أنظار مالك النُّزُل.

قال: لقد اقتربنا كثيرًا من هدفنا في ذلك النُّزُل، أشعر أنني أبتعد في كل خطوة أخطوها. كلا، لا يمكنني المغادرة بحال.

قلت: إنني واثق من أن روبن هايز هذا يعرف كل شيء عن المسألة. فلم أرَ وغدًا أكثر وضوحًا منه قط.

– أوه! هل ترك فيك هذا الانطباع إذن؟ هناك الخيول، وهناك دكان الحدادة. نعم، إنه لمكان مثير للاهتمام نُزُل فايتينج كوك هذا. أعتقد أننا سنلقي نظرة أخرى عليه في الخفاء.

امتد خلفنا منحدرٌ مائل انتثرت فيه الأحجار الجيرية الرمادية. كنا قد انعطفنا وأخذنا نشق طريقنا إلى أعلى التل. وحينما نظرت في اتجاه قلعة هولدرنيس رأيت راكبَ دراجة يقترب سريعًا.

صاح هولمز وهو يضع يده بثقلٍ على كتفي: انخفض يا واتسون! ولم نكد نتوارى عن الأنظار حتى تجاوزنا الرجل مسرعًا على الطريق. ووسط سحابة كثيفة من الغبار لمحت وجهًا ممتقعًا ومرتبكًا – وجهًا تمتلئ كل قسمة من قسماته رعبًا، كان فمه مفتوحًا وعيناه متسعتين تحدقان إلى الأمام. كان أشبه برسمٍ كاريكاتوريٍ غريب لجيمس وايلدر المهندم الذي رأيناه في الليلة السابقة.

صاح هولمز: سكرتير الدوق! تعال يا واتسون، لنرى ما يفعل.

تسلقنا من صخرة إلى أخرى حتى وصلنا بعد بضع لحظات إلى نقطة يمكن منها رؤية الباب الأمامي للنُّزُل. رأينا دراجة وايلدر مستندة إلى الجدار المجاور له. ولم نُحِسَّ بأحدٍ يتحرك في المنطقة، ولا أمكننا

أن نلمح أي وجوه عند النوافذ. انسلَّ الغسق ببطء، بينما غرقت الشمس خلف الأبراج العالية لقلعة هولدرنيس. ثم رأينا في الظلام عربة يضيء مصباحاها الجانبيان في ساحة إسطبل النُّزُل، تلاها وقع حوافر، ثم خرجت العربة إلى الطريق وشقت طريقها بسرعة هائجة في اتجاه شيسترفيلد.

همس هولمز: ما رأيك فيما يحدث يا واتسون؟

– يبدو أشبه بهروب.

– حسبما رأيت فقد كانت عربة صغيرة بداخلها رجل وحيد. حسنًا، لم يكن السيد جيمس وايلدر بكل تأكيد، فهو واقفٌ هناك عند الباب.

انبثق مربعٌ أحمر من الضوء في الظلام. وظهر في وسطه الظل الداكن للسكرتير، رأسه مرتفع، يحدق في الظلام. بدا كأنما ينتظر شخصًا ما. ثم سمعنا أخيرًا وقع خطوات على الطريق، تلاها ظهور ظلٍّ آخر للحظة أمام الضوء، ثم انغلق الباب وساد الظلام مجددًا. وبعد خمس دقائق أضيء مصباح في غرفة في الطابق الأول.

قال هولمز يبدو أن فئة غريبة من الزبائن تزور فايتينج كوك.

– إن الحانة على الجانب الآخر.

– صحيح. هؤلاء هم من يمكن تسميتهم بالضيوف المتميزين. والآن، ماذا يفعل السيد جيمس وايلدر في هذا الوكر وفي هذه الساعة من الليل؟ ومن ذا الذي يأتي ليقابله هنا؟ تعالَ يا واتسون، لا بد أن نغامر ونحاول التحقق مما يحدث من كثب.

نزلنا معًا إلى الطريق وتسللنا إلى باب النُّزُل. كانت الدراجة ما زالت مستندة إلى الجدار. أشعل هولمز عودًا من الثقاب وقربه من العجلة الخلفية، وسمعته يضحك ضحكة مكتومة عندما سقط الضوء على إطار دنلوب الموسوم. وفوقنا كانت النافذة المضيئة.

– عليَّ أن ألقي نظرة خاطفة عبرها يا واتسون. إذا ثنيت ظهرك واستندت إلى الجدار، أظنني سأتمكن من ذلك.

بعد لحظة كانت قدما هولمز على كتفي. لكنه لم يكد يصعد حتى نزل مجددًا.

قال: تعال يا صديقي، لقد مررنا بما فيه الكفاية اليوم، وأعتقد أننا جمعنا كل ما بوسعنا جمعه. إن المسيرة طويلة إلى المدرسة، وكلما عجَّلنا بالذهاب إليها كان أفضل.

لم ينبس هولمز بكلمة خلال تلك الرحلة المرهقة عبر الرابية، ولم يدخل المدرسة عندما بلغناها، بل اتجه إلى محطة ماكلتون حيث أرسل بعض البرقيات. وفي وقتٍ متأخر من الليل سمعته يواسي الدكتور هكستابل، الذي جثا أرضًا حزنًا عندما سمع بوفاة المعلم، ثم دخل غرفتي في حالة تأهب ونشاط تشبه تلك التي انطلق بها في الصباح. قال: كل شيء على ما يرام يا صديقي. أعدك أننا سنتوصل إلى حل اللغز قبل مساء الغد.

وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كنا نسير أنا وصديقي في جادة أشجار الطقسوس الشهيرة بقلعة هولدرنيس. حيث عبرنا من المدخل العظيم المصمم على الطراز الإليزابيثي إلى مكتب سموه.

وهناك وجدنا السيد جيمس وايلدر، رزينًا لطيفًا، فيما عدا بعضًا من آثار الرعب الجامح الذي لاقاه في الليلة الماضية لم يزل كامنًا في عينيه الماكرتين وملامحه المختلجة.

– هل أتيتما لرؤية سموه؟ أعتذر لكما؛ فالدوق ليس على ما يرام. لقد انزعج كثيرًا من الأخبار المأساوية. فقد تلقينا برقية من الدكتور هكستابل بعد ظهر أمس، يخبرنا فيها عن اكتشافك.

– يجب أن أرى الدوق يا سيد وايلدر.

– لكنه في غرفته.

– إذن عليَّ أن أذهب إلى غرفته.

– أعتقد أنه في الفراش.

– سأراه هناك.

علم السكرتير من أسلوب هولمز الفاتر العنيد أن الجدال معه بلا جدوى.

– لا بأس يا سيد هولمز؛ سأخبره بأنك هنا.

بعد نصف الساعة من التأخير ظهر الرجل النبيل المبجل. كان وجهه أكثر شحوبًا من أي وقت مضى، وكتفاه متهدلان، وبدا لي أكبر سنًّا عما كان عليه في الصباح السابق. رحب بنا بلطفٍ جليل ثم جلس إلى مكتبه بينما تدلَّت لحيته الحمراء على الطاولة.

قال: حسنًا يا سيد هولمز؟

لكن عيني صديقي كانتا مثبتتين على السكرتير الواقف بجانب مقعد سيده.

– أعتقد سموك أنني سأتحدث بحرية أكبر في غياب السيد وايلدر.

ازداد الرجل شحوبًا ورمى شيرلوك بنظرة خبيثة.

– إذا أردت سموك...

– نعم، نعم؛ يُستحسن أن تذهب. والآن يا سيد هولمز، ماذا لديك لتقوله؟

انتظر صديقي حتى انغلق الباب خلف السكرتير المنسحب.

قال: الحقيقة سموك أنِّي أنا وزميلي الدكتور واتسون تلقينا تأكيدًا من الدكتور هكستابل بأنك قد نذرت مكافأة لحل هذه القضية. أود أن أسمع تأكيدًا على هذا من بين شفتيك.

– هذا مؤكد يا سيد هولمز.

– إذا كان ما بلغني صحيحًا فإن قيمتها تبلغ خمسة آلاف جنيه لمن يخبرك بمكان ابنك.

– بالضبط.

– وألف أخرى لمن يخبرك بالشخص أو الأشخاص الذين يحتفظون به قيد الاحتجاز.

– بالضبط.

– وتحت البند الأخير لا يندرج من أخذوه وحسب دون شك، بل أيضًا أولئك الذين تآمروا لإبقائه في وضعه الحالي.

صاح الدوق بنفاد صبر: نعم، نعم، إذا أبليت حسنًا يا سيد هولمز فلن تجد سببًا للشكوى من المعاملة الشحيحة.

فرك صديقي يديه النحيلتين معًا بجشعٍ فاجأني، أنا الذي طالما عهدته زاهدًا.

قال: كأني أرى دفتر شيكات سموك على الطاولة، وإنه لمن دواعي سروري إن حررت لي شيكًا بستة آلاف جنيه. وربما يكون من الأفضل لك أن تسطره، فأنا أتعامل مع بنك كابيتال آند كاونتيز فرع شارع أوكسفورد.

انتصب الدوق في مقعده وحدق إلى صديقي بتجهمٍ وحزم.

– أهذه دعابة يا سيد هولمز؟ هذه المسألة لا تحتمل المزاح.

– كلا، على الإطلاق يا سمو الدوق. فلم أكن يومًا أكثر جدية في حياتي.

– ماذا تقصد إذًا؟

– أقصد أنني ربحت المكافأة. فأنا أعرف مكان ابنك، وأعرف بعضًا –على الأقل– ممن يحتجزونه.

استحالت لحية الدوق إلى لونٍ أشد حمرة من أي وقت مضى مع شحوب وجهه الأبيض.

قال لاهثًا: أين هو؟

– إنه في نُزُل فايتينج كوك، الواقع على مسافة ميلين من بوابة حديقتك، أو كان هناك في ليلة أمس.

غاص الدوق في مقعده.

– ومن تتهم؟

كانت إجابة شيرلوك هولمز صاعقة. فقد خطا للأمام بسرعة ومسَّ كتف الدوق، ثم قال:

– أتهمك أنت، والآن سموك، سأثقل عليك بطلب الشيك.

لن أنسى أبدًا مظهر الدوق وهو يهب واقفًا ويلوح بيديه كمن يسقط في هاوية. ثم جلس وهو يبذل جهدًا جهيدًا ليضبط نفسه كما يفعل الأرستقراطيون، ثم دفن وجهه بين يديه. ومضت بضع دقائق قبل أن يتحدث.

ثم سأل أخيرًا دون أن يرفع رأسه: ما مقدار ما تعرف؟

– لقد رأيتكما معًا ليلة أمس.

– هل ثمة من يعرف بخلاف صديقك؟

– لم أتفوه بكلمة لأحد.

تناول الدوق قلمًا بأصابع مرتعشة وفتح دفتر شيكاته.

– سأفي بوعدي يا سيد هولمز. سأحرر لك شيكًا، رغم عدم ترحيبي بالمعلومات التي عرفتها. عندما قدمت هذا العرض في بادئ الأمر لم أطل التفكير في المنحى الذي قد تتخذه الأحداث. ولكن أنت وصديقك ستلتزمان بالسرية يا سيد هولمز، أليس كذلك؟

– يصعب عليّ فهم سموك.

– يجب إذن أن أوضح الأمر لك يا سيد هولمز. إن كنتما الوحيدين اللذين يعلمان بالواقعة، فما من سبب ليعلم غيركما بها. أعتقد أن اثني عشر ألف جنيه هو المبلغ الذي أدين لك به، أليس كذلك؟

لكن هولمز ابتسم وهز رأسه.

– أخشى سموك أنه لا يمكن تسوية الأمور بهذه السهولة. فما زال عليَّ معرفة سبب وفاة هذا المعلم.

– لكن جيمس لم يعلم شيئًا عن هذا الأمر. لا يمكنك أن تحمله المسؤولية عنه. كان هذا من فعل ذاك الهمجي المتوحش الذي استعان به لسوء حظه.

– أعتقد سموك أنه حينما يشرع رجل ما في جريمة فهو مسؤول أخلاقيًّا عن أي جريمة أخرى تنجم عنها.

– من الناحية الأخلاقية يا سيد هولمز، لا شك أنك محق. أما في نظر القانون، فلا يمكن إدانة رجل بجريمة قتل لم يحضرها، بل يمقتها ويشمئز منها بقدر ما تفعل أنت. فلحظة أن سمع بها قدم لي اعترافًا كاملًا فاض بالرعب والندم. ولم يُضِع وقتًا حتى قطع علاقته تمامًا بالقاتل. أوه، عليك أن تنقذه يا سيد هولمز – عليك أن تنقذه! صدقني عليك أن تنقذه! كان الدوق قد تخلَّى عن آخر محاولاته لضبط النفس، وأخذ يقطع الغرفة بوجهٍ متشنج ويديه المضمومتين تلوحان في الهواء. وأخيرًا سيطر على نفسه وجلس مرة أخرى إلى مكتبه وقال: أقدر حسن تصرفك بالقدوم إلى هنا قبل أن تحادث أي شخص آخر. على الأقل يمكننا التشاور حول المدى الذي يمكننا تقليص هذه الفضيحة البشعة إليه.

قال هولمز: بالضبط، أعتقد سموك أن لا سبيل لذلك إلا بالصراحة المطلقة والكاملة بيننا. إنني على أتم استعداد لمساعدة سموك ما أمكنني؛ ولكن في سبيل ذلك، عليَّ أن أفهم الأمر بأدق تفاصيله. أعلم أنك قصدت السيد جيمس وايلد بكلامك، وأنه ليس القاتل.

– لا؛ لقد هرب القاتل.

ابتسم شيرلوك هولمز برزانة.

– لا شك أن سموك لم تسمع بشهرتي المتواضعة، وإلا ما كنت لتتصور أن الفرار مني ممكن. لقد أُلقي القبض على السيد روبن هايز في شيسترفيلد بناء على معلوماتي في الحادية عشرة من مساء أمس. فقد تلقيت برقية من رئيس الشرطة المحلية قبل أن أغادر المدرسة هذا الصباح.

اتكأ الدوق إلى ظهر مقعده وحدق إلى صديقي بانبهار.

قال: يبدو أنك تملك قدرات تكاد تكون خارقة، إذن فقد أُلقي القبض على روبن هايز. يسرني حقًّا سماع ذلك، ما دام لا يتعارض مع سلامة جيمس.

– سكرتيرك؟

– لا يا سيدي؛ ابني.

وهنا جاء دور هولمز ليبدو مذهولًا.

– أعترف أن هذه المعلومة جديدة عليَّ تمامًا سموك. أرجو أن تكون أكثر وضوحًا.

– لن أخفي عنك شيئًا. أتفق معك في أن الصراحة التامة، مهما كانت مؤلمة لي، هي أفضل سياسة في هذا الموقف اليائس الذي وضعتنا فيه حماقة جيمس وغيرته. عندما كنت شابًّا يافعًا يا سيد هولمز، وقعتُ في هذا الحب الذي لا يأتي إلا مرة واحدة في العمر. عرضتُ على السيدة الزواج، لكنها رفضت بحجة أن هذا الزواج قد يفسد مسيرتي المهنية. لو ظلت حية لما كنت تزوجت أي امرأة أخرى. لكنها ماتت، وتركت هذا الطفل الوحيد الذي كنت أرعاه وأعتني به من أجلها. لم أستطع الاعتراف بأبوتي له أمام العالم؛ لكنني منحته أفضل تعليم، وأبقيته قربي منذ أصبح رجلًا. لكنه اكتشف سري، واعتمد منذئذ على أحقيته عندي وقدرته على إثارة فضيحة، وهذا شيء أمقته. كان لوجوده علاقة بالتعاسة التي دمرت زواجي. وفوق كل ذلك، كره وريثي الشرعي الصغير منذ البداية كراهية لا تني تشتد. قد تسألني لماذا أبقيت جيمس تحت سقفي في ظل هذه الظروف. وأجيبك بأن السبب هو أن بإمكاني أن أرى وجه أمه في وجهه، وأنني كنت مستعدًّا لخوض معاناة أبدية لأجلها. كنت أرى فيه كل طباعها الجميلة أيضًا –لم يكن يعجز عن استحضار أي منها وإعادتها إلى ذاكرتي. لم أستطع إبعاده. لكنني خشيت أيما خشية أن يُلحق أذًى بآرثر– أو اللورد سالتير – لدرجة أنني أرسلته إلى مدرسة الدكتور هكستابل لأضمن سلامته.

كان جيمس على تواصل مع هذا الرجل المدعو هايز عندما كان مستأجرًا لدي، وكان جيمس يعمل وسيطًا بيننا. ولطالما عهدتُ هذا الرجل وغدًا؛ لكنه بطريقة ما أصبح صديقًا لجيمس، الذي كان يميل دومًا للصحبة الوضيعة. وعندما اعتزم جيمس اختطاف اللورد سالتير، استعان بخدمات هذا الرجل. أتذكر حينما كتبتُ لآرثر في ذاك اليوم الأخير. حسنًا، فتح جيمس الرسالة وأضاف ملاحظة يطلب فيها من آرثر أن يلقاه في غابة صغيرة تدعى راجيد شو، والتي تقع بالقرب من المدرسة. وقد استخدم اسم الدوقة وضمن بهذه الطريقة مجيء الصبي. وفي ذلك المساء ركب جيمس دراجته –وهو ما اعترف لي به بنفسه– وأخبر آرثر الذي قابله في الغابة أن أمه تتوق لرؤيته وأنها تنتظره على الرابية، وأنه إذا عاد إلى الغابة في منتصف الليل سيجد رجلًا معه حصان سيأخذه إليها. وقد وقع آرثر المسكين في الفخ. فجاء في الموعد ووجد هذا الرجل المدعو هايز معه مهر يسحبه. امتطاه آرثر وانطلقا معًا. يبدو أنهما كانا مطاردان –الأمر الذي لم يسمع به جيمس إلا أمس– وأن هايز ضرب المطارِد بعصاه، وأن الرجل مات متأثرًا بجراحه. أحضر هايز آرثر إلى نُزُله، فايتينج كوك، حيث احتجزه في غرفة علوية تحت رعاية السيدة هايز، وهي امرأة طيبة، بيد أنها خاضعة تمامًا لسيطرة زوجها الهمجي.

حسنًا يا سيد هولمز، كانت الحال هكذا عندما رأيتك أول مرة قبل يومين. لم تكن لدي فكرة عن الحقيقة أكثر مما لديك. وإن سألتني عن دافع جيمس لارتكاب مثل هذا الفعل، سأجيبك بأن كمًّا كبيرًا من كراهيته لوريثي غلب عليه التطرف والجور. فهو يرى أنه هو الوريث الفعلي لجميع ممتلكاتي، وقد استاء أيما استياء من تلك القوانين الاجتماعية التي جعلت هذا مستحيلًا. وفي الوقت نفسه كان لديه دافع محدد كذلك. فقد كان يريدني أن أخالف الميراث، ورأى أن من سلطتي أن أفعل ذلك. كان ينوي مساومتي –بأن يعيد آرثر مقابل مخالفتي الميراث، وهكذا يجعل جميع ممتلكاتي تؤول إليه هو من خلال الوصية. وكان يعلم جيدًا أنني لن ألجأ أبدًا للشرطة ضده بمحض إرادتي. كان ينوي أن يعرض

عليَّ مساومته تلك كما قلتُ، لكنه لم يفعل في الواقع، لأن الأحداث تطورت أسرع مما تصوَّر، ولم يسعفه الوقت كي يضع خططه موضع التنفيذ.

لقد دمَّر اكتشافك لجثة ذلك الرجل المدعو هايديجر كل مخططات جيمس الشريرة، فقد استولى عليه الرعب عند سماع الخبر، الذي أبلغنا به الدكتور هكستابل أمس ببرقية بينما كنا جالسين معًا في المكتب. فغرق جيمس في حزنٍ وانفعالٍ شديدين لدرجة تزايدت معها شكوكي –التي لم تغب تمامًا قط– حتى بلغت حد اليقين، فاتهمته بارتكاب الجريمة، فقدم اعترافًا طوعيًّا كاملًا. ثم ناشدني أن أحفظ سره لثلاثة أيام أخرى، حتى يعطي لشريكه الحقير الفرصة لينقذ روحه الآثمة. وقد رضخت لتوسلاته، كما هو حالي دومًا، وهرع جيمس على الفور إلى فايتينج كوك ليُحذِّر هايز ويمنحه ما يعينه على الهرب. أما أنا فلم أستطع الذهاب إلى هناك في وضح النهار دون إثارة القيل والقال، ولكن ما إن حلَّ الليل حتى أسرعت لرؤية عزيزي آرثر. وقد وجدته سالمًا معافى، لكنه كان مذعورًا إلى أبعد الحدود مما شهده من أفعال مروِّعة. واحترامًا لوعدي، وضد إرادتي، وافقتُ على تركه هناك لثلاثة أيام تحت رعاية السيدة هايز، حيث اتضح لي أن من المستحيل إبلاغ الشرطة بمكانه دون أن أخبرهم أيضًا بهوية القاتل، ولم أستطع تصور طريقة يمكن بها معاقبة ذاك القاتل من دون أن يهلك عزيزي البائس جيمس. لقد طلبت الصراحة يا سيد هولمز، وأنا أثق في كلمتك، وها أنا ذا قد أخبرتك بكل شيء دون مراوغة أو كتمان. هلا كنت صريحًا معي في المقابل؟

قال هولمز: سأفعل. لكنني ملزم في البداية أن أخبر سموك بأنك وضعت نفسك في موقف شديد الخطورة في نظر القانون. فقد تغاضيت عن جريمة وساعدت على فرار القاتل؛ وما من شكٍ لديَّ أن كل الأموال التي أخذها جيمس وايلدر لمساعدة شريكه في الهروب قد جاءت من محفظة سموك.

أومأ الدوق برأسه موافقًا.

– هذه المسألة شديدة الخطورة بحق. وما يستحق اللوم أكثر في رأيي هو موقف سموك تجاه ابنك الأصغر، وتركك له في هذا الوكر لثلاثة أيام.

– بموجب وعود مقدسة.

– أي وعودٍ لمثل هؤلاء القوم؟ ليس لديك ما يضمن ألا يؤخذ بعيدًا مرة أخرى. لقد عرَّضت ابنك الصغير البريء لخطرٍ وشيك وغير ضروري، لأجل مسايرة ابنك الأكبر المذنب. لقد كان تصرفًا غير مبرر بحال.

لم يعتد لورد هولدرنيس الأبي أن يُؤنَّب في مقر دوقيته. فاحتقنت الدماء في جبهته العالية، غير أن ضميره أخرسه.

– سأساعدك، شريطة أن تستدعي الخادم وتدعني أعطي له الأوامر التي أريد.

من دون كلمة ضغط الدوق على زر الجرس الكهربي، فدخل خادم.

قال هولمز: سيسرك أن تسمع بخبر العثور على سيدك الصغير. يرغب الدوق في أن تذهب عربة على الفور إلى نُزُل فايتينج كوك لإحضار اللورد سالتير إلى منزله.

وعندما اختفى الخادم المبتهج قال هولمز: والآن وبعد أن أمَّنا المستقبل، يمكننا أن نكون أكثر تسامحًا مع الماضي. إنني لا أحتل منصبًا رسميًّا، ولا سبب يدفعني لكشف كل ما أعرفه طالما تحققت غايات العدالة. لن أقول شيئًا بشأن هايز، فالمشنقة تنتظره، ولن أفعل شيئًا لإنقاذه منها. ورغم أني لا أستطيع أن أعرف ما قد يبوح به، فلا يساورني شك في أن سموك تستطيع أن تبيِّن له أن من مصلحته أن يصمت. ومن وجهة نظر الشرطة سيكون اختطاف الصبي قد تم بغرض الحصول على فدية. وإن لم يكتشفوا الحقيقة بأنفسهم فما من سبب لديَّ يدعوني إلى حثهم على تبني وجهة نظر أوسع. ولكن لا بد أن أحذر سموك من أن استمرار وجود السيد جيمس وايلدر في منزلك لن يُفضي إلا إلى كارثة.

– أدرك ذلك يا سيد هولمز، وقد اتفقتُ معه على أن يتركني في سلام ويرحل ليبحث عن حظه في أستراليا.

– في هذه الحالة، ونظرًا إلى أن سموك قد أشرتَ بنفسك إلى أن تعاسة زواجك كان سببها وجوده، أودُّ أن أقترح عليك أن تعوض الدوقة قدر المستطاع، وأن تحاول استعادة أواصر الصلة التي انقطعت على نحو مؤسف.

– لقد رتبت لهذا أيضًا يا سيد هولمز، وكتبتُ رسالة للدوقة هذا الصباح.

قال هولمز ناهضًا: في هذه الحالة أعتقد أنني وصديقي يمكننا تهنئة أنفسنا على النتائج السعيدة العديدة التي نجمت عن زيارتنا الصغيرة إلى الشمال. لكن هناك نقطة صغيرة أخرى أود استيضاحها. هذا الرجل المدعو هايز قد ركَّب لخيوله حدوات لتزييف آثار الأبقار. فهل تعلم هذه الحيلة الاستثنائية من السيد وايلدر؟

وقف الدوق يفكر لحظة وقد لاح على وجهه دهشة بالغة. ثم فتح بابًا وأطلعنا على غرفة كبيرة مؤثثة كمتحف. وقاد الطريق إلى علبة زجاجية في إحدى الزوايا، وأشار إلى الكتابة المنقوشة عليها، والتي تقول: استُخرجت هذه الحدوات من خندق قلعة هولدرنيس المائي. إنها تخص الخيول؛ لكنها شُكلت بقدم مشقوقة من الحديد لتضليل المطاردين. يُفترض أنها تعود لبعض بارونات هولدرنيس الغزاة في العصور الوسطى.

فتح هولمز العلبة، وبلل إصبعه ثم مرره على طول الحدوة فتركت طبقة رقيقة من الوحل الحديث على جلده.

قال وهو يعيد غلق الزجاج: شكرًا لك، هذا ثاني أكثر الأشياء التي رأيناها في الشمال إثارة للاهتمام.

– وما الأول؟

طوى هولمز الشيك ووضعه بعناية في دفتر ملاحظاته، ثم قال وهو يربت عليه بحنان ويدسه في أعماق جيبه الداخلي: إنني رجلٌ فقير.

مغامرة بيتر الأسود

لم أرَ صديقي يومًا في حالة أفضل نفسيًّا وجسديًّا مما كان عليه في العام 1895. لقد جلبت شهرته المتزايدة كمًّا هائلًا من العملاء، وحماقة مني أن أشير -ولو من بعيد- إلى هُوية بعض من عملائنا المرموقين الذين زاروا منزلنا المتواضع الماثل في شارع بيكر. أما هولمز –مثله مثل كل الفنانين العظماء– فكان يعمل من أجل فنه، وفيما عدا قضية دوق هولدرنيس، نادرًا ما رأيته يطالب بأي مكافأة كبيرة مقابل خدماته التي لا تقدر بثمن. كان زاهدًا –أو متقلبًا– لدرجة أنه كثيرًا ما رفض مساعدة عملاء ذوي ثروة ونفوذ؛ لأن مشكلاتهم لم تحظ بتعاطفه، بينما كان يكرس أسابيع من العمل الشاق لمساعدة عميل بسيط حملت قضيته الصفات المأساوية الغريبة التي تثير مخيلة هولمز وتتحدى عبقريَّته.

في العام المشهود 1895، استرعى انتباه هولمز سلسلة من القضايا المتناقضة والغريبة، والتي بدأت بتحقيقه الشهير في الموت المفاجئ لكاردينال توسكا –التحقيق الذي خاضه نزولًا عند رغبة صريحة من قداسة البابا– ثم إلقائه القبض على ويلسون، مدرب الكناري سيئ السمعة، فساعد بذلك على تطهير بقعة موبوءة في الطرف الشرقي من لندن. ثم في أعقاب هاتين القضيتين الشهيرتين جاءت مأساة منزل وودمانز لي، والظروف الغامضة جدًّا التي اكتنفت موت القبطان بيتر كاري. إن أي سرد لمغامرات شيرلوك هولمز لن يكون مكتملًا ما لم يحتوِ على بعض التفاصيل لهذه القضية غير الاعتيادية.

في الأسبوع الأول من يوليو كان صديقي يتغيب كثيرًا ولفترات طويلة عن منزلنا فعلمت أنه منشغل بقضية ما. وحينما أتى عدة رجال لهم هيئة رثّة، يسألون عن القبطان بازل فهمتُ أن هولمز كان يعمل متنكرًا خلف أحد الأسماء والشخصيات التي كان يخفي بها هُويته المهيبة. كان يملك على الأقل خمسة مخابئ صغيرة في أنحاء متفرقة من لندن يمكنه فيها تغيير شخصيته. لم يخبرني بشيء عن مهمته، ولم أعتد دفعه إلى الكلام. أول علامة إيجابية وصلتني منه عن الاتجاه الذي يسلكه التحقيق كانت علامة غريبة. كان قد خرج قبل الإفطار، وجلست أتناول فطوري، عندما دخل مسرعًا إلى الغرفة معتمرًا قبعته، وواضعًا حربة ضخمة مدببة الرأس كالمظلة تحت ذراعه.

صحت قائلًا: ما خطبك يا هولمز! لا تخبرني أنك كنت تسير في أنحاء لندن حاملًا هذا الشيء!

– لقد استقللت العربة إلى الجزار ذهابًا وإيابًا.

– الجزار؟

– وقد عُدت بشهية ممتازة. لا يمكنك التشكيك يا عزيزي واتسون في أهمية التمرين قبل الإفطار. وإن كنت أراهن أنك لن تستطيع تخمين نوع التمرين الذي مارسته.

– لن أحاول.

ضحك هولمز وهو يصب القهوة ثم قال:

– لو كنت نظرت إلى الساحة الخلفية لمتجر آلارديس لرأيت خنزيرًا ميتًا يتدلى من خطاف معلق بالسقف، ورجلًا نبيلًا يرتدي قميصه دون سترة ويطعن الخنزير بغيظ مستخدمًا هذا السلاح. كنتُ أنا هذا الشخص المُفعم بالحيوية، وراهنت نفسي أني أستطيع دون جهد طعن الخنزير بتسديدة واحدة. هل تودّ أن تجرب؟

– قطعًا لا. لكن لمَ كنت تفعل ذلك؟

– لأنه بدا لي ذا صلة غير مباشرة بلغز منزل وودمانز لي. أهلًا بك يا هوبكنز، وصلتني برقيتك البارحة وتوقعت مجيئك. تعالَ وانضم إلينا.

كان ضيفنا رجلًا شديد التحفظ، يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، ويرتدي حلة بسيطة من الصوف، لكنه يقف بانتصاب كمن اعتاد ارتداء الثياب الرسمية. علمتُ فورًا أنه ستانلي هوبكنز، أحد مفتشي الشرطة الشبان الذي علّق هولمز آمالًا كبيرة على مستقبله، والذي أظهر في المقابل إعجاب التلامذة واحترامهم تجاه الأساليب العلمية التي يسلكها هذا الهاوي الشهير. عقد هوبكنز حاجبيه، وجلس ظاهرًا عليه الاغتمام العميق.

– كلا، أشكرك يا سيدي. فقد تناولت فطوري قبل أن آتي. لقد جئت البارحة لتقديم إفادتي وقضيت الليلة في المدينة.

– وما الذي أفدت به؟

– الفشل يا سيدي؛ الفشل الذريع.

– ألم تحرز أي تقدم؟

– نعم.

– رباه! لا بد أن أنظر بنفسي في المسألة.

– أرجو أن تفعل يا سيد هولمز. إنها أول فرصة كبيرة أحظى بها، وقد استنفدت كل حيلي. حبًّا بالرب تعالَ ومُد لي يد العون.

– حسنٌ حسن، فقد صادف أني قرأتُ بالفعل وبشيء من الإمعان جميع الأدلة المتاحة، بما فيها تقرير التحقيق. بالمناسبة، ما رأيك في حافظة التبغ التي وُجدت في مسرح الجريمة؟ ألا تدلنا على شيء؟

بدا هوبكنز متفاجئًا.

– كانت الحافظة مِلكًا للقتيل يا سيدي. بداخلها أحرف اسمه الأولى. بل مصنوعة من جلد الفقمة؛ والرجل كان صياد فقم هرِمًا.

– ولكن لم تعثروا معه على غليون.

– كلا يا سيدي، لم نعثر على أي غليون؛ الحقيقة أنه لم يكن يدخن كثيرًا. ولكن ربما كان يحتفظ ببعض التبغ لأصدقائه.

– لا شك في ذلك. ما ذكرت الحافظة إلا لأنني كنت لأجعل منها نقطة بداية التحقيق لو كنت أنا من يتولى القضية. على أية حال، صديقي واتسون لا يعرف شيئًا عن المسألة، ولن يضيرني إن سمعت تسلسل الأحداث مرة أخرى. أعطنا وصفًا مختصرًا للأحداث الأساسية وحسب.

أخرج ستانلي هوبكنز قصاصة ورق من جيبه.

– لدي هنا بعض التواريخ التي ستقدم لكم نبذة عن حياة القتيل، القبطان بيتر كاري. وُلد القبطان في العام 1845، أي منذ خمسين عامًا. صائد حيتان وفقم شديد الجرأة والنجاح. وفي العام 1883 قاد سفينة صيد الفقم سي يونيكورن التابعة لمدينة دندي، وخرج في سلسلة من الرحلات البحرية الناجحة،

ثم تقاعد في العام التالي الموافق 1884. وبعدها سافر لعدة سنوات، وفي النهاية ابتاع منزلًا صغيرًا يُدعى وودمانز لي، بالقرب من قرية فوريست رو في مقاطعة ساسكس. وهناك عاش لستة أعوام، وهناك قُتل منذ أسبوعٍ واحد أيضًا.

يكتنف هذا الرجل بضعة أمور شديدة الغرابة. ففي حياته اليومية كان رجلًا بروتستانتيًّا متشددًا، يميل إلى الهدوء والكآبة. أفراد منزله هم زوجته وابنته ذات العشرين عامًا وخادمتين. الخادمتان تتغيران باستمرار؛ فلم تكن الخدمة في هذا المنزل مبهجة على الدوام، بل كانت تفوق الاحتمال في بعض الأحيان. كان الرجل يثمل بين حينٍ وآخر، وحينما ينتابه الغضب يتحول إلى شيطان خبيث. اشتُهر بأنه كان يجرجر زوجته وابنته إلى خارج المنزل في منتصف الليل، ويجلدهما في الفناء موقظًا القرية بأكملها من وراء البوابات على صوت صراخهما.

لقد استُدعي ذات مرة بتهمة اعتداءٍ وحشي على قسٍّ هَرِم كان قد دعاه ليُعاتبه على سلوكه. باختصار يا سيد هولمز، ربما لا تصادف في حياتك أبدًا رجلًا أخطر من بيتر كاري، وقد سمعت أنه كان يحمل تلك الطباع نفسها عندما كان يقود سفينته. فقد عُرف وسط البحارة باسم بيتر الأسود، وهذا اللقب لم يكُن بسبب بشرته الداكنة ولون لحيته الضخمة وحسب، بل بسبب تقلباته المزاجية التي أثارت الذعر في نفوس جميع من حوله. لست بحاجة لأن أقول إنه كان مكروهًا ومنبوذًا من جميع جيرانه، وإنني لم أسمع عبارة واحدة من الأسف على نهايته الشنيعة.

لا بد أنك قرأت ما ورد في التحقيق عن كابينة هذا الرجل يا سيد هولمز؛ ولكن ربما لم يسمع بها صديقك. لقد بنى لنفسه كوخًا خشبيًا –كان يطلق عليه دومًا لقب الكابينة– على بعد مائة ياردة من منزله، وكان ينام فيه كل ليلة. كانت الكابينة صغيرة تتألف من غرفة واحدة تبلغ مساحتها ست عشرة قدمًا في عشر أقدام. وكان يحتفظ بمفتاحها في جيبه، ويرتب فراشه بنفسه، وينظف كابينته بنفسه، ولم يكن يسمح لمخلوق بأن يعبر عتبتها. وعلى كل جانب من جوانب الكابينة كانت هناك نوافذ صغيرة مغطاة دومًا بالستائر التي لم تُفتح قط. إحدى تلك النوافذ كانت تطل على الطريق السريع، وعندما تكون الكابينة مضاءة في الليل يتهامس الناس ويتساءلون فيما بينهم عما يفعله بيتر الأسود بالداخل. تلك النافذة يا سيد هولمز هي التي منحتنا بعضًا من الأدلة الدامغة التي ظهرت خلال التحقيق.

أتذكُر سلاتر الحجّار الذي كان عائدًا من قرية فورست سو في الواحدة صباحًا تقريبًا –قبل الجريمة بيومين– ثم توقف عند المنزل ونظر إلى النافذة المربعة المضاءة بين الأشجار؟ لقد أقسم أن ظل رأس الرجل الملتفت إلى الجانب كان واضحًا للعيان من خلف الستار، وأن هذا الظل لم يكن قطعًا ظل بيتر كاري الذي يعرفه جيدًا. كان الظل لرجلٍ ذي لحية، لكن لحيته قصيرة ومدببة ومختلفة تمامًا عن لحية القبطان. هكذا يقول الحجَّار، لكنه كان قد مكث في الحانة لساعتين، كما أن المسافة بين الطريق والنافذة ليست بقصيرة. أيضًا فإن شهادته تعود إلى يوم الاثنين، والجريمة وقعت يوم الأربعاء.

في يوم الثلاثاء، اعترت بيتر كاري أكثر حالاته المزاجية سوادًا، فأصبح ثملًا حتى النخاع وشرسًا كحيوان برّي مخيف. هام في أرجاء المنزل فهربت النساء عندما سمعنه قادمًا. ولم يذهب إلى كابينته حتى وقتٍ متأخرٍ من المساء. في الثانية من صباح اليوم التالي، سمعت ابنته، التي اعتادت أن تفتح

نافذتها عند النوم، صيحة مخيفة جدًّا قادمة من ذلك الاتجاه، ولم يكن غريبًا على القبطان أن يصرخ ويصيح كلما ثمل، لذلك لم تكترث. وفي السابعة صباحًا لاحظت الخادمتان أن باب الكابينة كان مفتوحًا، لكن خوفهما الشديد منه منعهما من المجازفة بالذهاب إلى هناك ورؤية ما جرى للقبطان حتى منتصف النهار. اختلستا النظر إلى داخل الباب المفتوح، فرأتا مشهدًا جعلهما تطلقان ساقيهما للريح بوجهين ممتقعين باتجاه القرية. وبعد ساعة كنت قد وصلتُ إلى مسرح الجريمة وتوليت القضية.

حسنًا، إن أعصابي قوية إلى حدٍّ ما كما تعلم يا سيد هولمز، ولكن أقسم لك إنني بمجرد دخولي هذه الكابينة الصغيرة انتابتني القشعريرة. كان المكان يطن كآلة الأرغن ممتلئًا بالذباب، الأرضية والجدران أشبه بمسلخ. كان يلقبها بالكابينة، وقد كانت فعلًا كذلك، فبمجرد أن تدخلها تشعر كأنك على متن سفينة. احتوت الكابينة على سرير في أحد جوانبها، وصندوق بحارة، وخرائط ومخططات، وصورة لسفينته سي يونيكورن، وصفٍّ من الدفاتر موضوع على أحد الرفوف، جميعها كانت مثلما تتوقع العثور عليها في غرفة أي قبطان. وفي منتصف الكابينة رأيتُ الرجل؛ كان وجهه ملتويًا مثل روحٍ شردت في الجحيم، ولحيته الكثيفة الرمادية متجهة لأعلى من ألم الاحتضار، وقد اخترقت صدره العريض حربة حديدية حتى انغرست عميقًا في الجدار الخشبي خلفه. كان معلقًا كالخنفساء على بطاقة. وكان بالطبع ميتًا، وثابتًا على هذا الوضع منذ اللحظة التي أطلق فيها صيحة ألمه الأخيرة.

ولما كنتُ على دراية بأساليبك يا سيدي، فقد طبقتها. قبل أن أسمح بنقل أي شيء فحصت بعناية الأرض المحيطة بالكوخ وكذا أرضية الغرفة. لكن لم يكن ثمَّة آثار أقدام.

– أتقصد أنك لم ترَ آثارًا؟

– أؤكد لك يا سيدي أنه لم يكن هناك أي آثار البتة.

– يا عزيزي هوبكنز، لقد حققت في جرائم كثيرة ولم أشهد يومًا واحدة ارتكبها مخلوقٌ طائر. ما دام الجاني يسير على قدمين، فلا بد أن يترك نتوءًا أو كشطًا طفيفًا أو زحزحة خفيفة يمكن للباحث المعتمد على الأساليب العلمية أن يكتشفها. عجيب أن هذه الغرفة الملطخة بالدماء لا تحوي أي أثر يمكنه أن يساعدنا. لكنني فهمت من قراءتي للتحقيق أنك عجزت عن إغفال بعض الأشياء، أليس كذلك؟

أجفل المفتش الشاب لدى سماعه حديث رفيقي الساخر.

– كانت حماقة مني ألا أستدعيك في وقتها يا سيد هولمز. ولكن لا جدوى من الندم الآن. بلى، عثرت في الغرفة على بعض الأشياء التي تسترعي الانتباه. أحدها كانت حربة الصيد التي ارتُكبت بها الجريمة. إذ وجدت أن هذه الحربة انتُزعت من الحامل المعلق على الجدار تاركة مكانها شاغرًا، وبقيَت حربتان أخريان في مكانهما هناك. نُقِش على مقبض الحربة العبارة: س. س. السفينة سي يونيكورن، مدينة دندي. هذا يثبت أن الجريمة ارتُكبت في فورة غضب، وأن القاتل قد قبض على أول سلاح وقعت عليه عيناه. لقد وقعت الجريمة في الثانية صباحًا، ومع ذلك كان بيتر كاري بكامل ملابسه، مما يرجح أنه كان على موعد مع القاتل، وهذا ما أكدته زجاجة الروم والكأسان المتسختان على الطاولة.

قال هولمز: نعم، أظن أن كلا الاستنتاجين جائز. هل كان في الغرفة أي نوع خمر بخلاف الروم؟

– نعم، احتوت خزانة المشروبات الموضوعة فوق صندوق البحارة على زجاجات الكونياك والويسكي. لكنها ليست مهمة في تحقيقنا، فالزجاجات كانت ملأى، ومن ثم فهي لم تُستخدم.

قال هولمز: بيد أن وجودها له دلالة خاصة. على أية حال، لنسمع المزيد عن الأشياء التي رأيت أنها تمس قضيتنا.

– كانت حافظة التبغ هذه موضوعة على الطاولة.

– على أي جزء من الطاولة؟

– في المنتصف. كانت مصنوعة من جلد الفقمة الخشن الوبري، ومربوطة بحزام من الجلد. وعلى الحافة الداخلية نقشت الأحرف الأولى ب. ك.، وبداخلها وجدنا نصف أوقية من تبغ السفن العالي.

– عظيم! وماذا أيضًا؟

أخرج ستانلي هوبكنز من جيبه دفترًا باهتًا. كان مهترئًا وخشنًا من الخارج وأوراقه مصفرّة من الداخل. على الصفحة الأولى كتبت الأحرف الأولى ج. ه. ن.، والتاريخ 1883. وضع هولمز الدفتر على الطاولة وفحصه بأسلوبه الدقيق، بينما وقفنا نحدق إليه أنا وهوبكنز من وراء كتفيه. في الصفحة الثانية طُبعت الأحرف س. ح. ب. ك. تلاها عدة صفحات مليئة بالأرقام. تغيرت عناوين الصفحات بين الأرجنتين وكوستا ريكا وسان باولو، وكل عنوان يتلوه عدة صفحات مليئة بالعلامات والأرقام.

سأل هولمز: ما الذي فهمته من هذا؟

– يبدو أنها قوائم لسندات تخص سوق الأوراق المالية. أعتقد أن ج. ه. ن. هي الأحرف الأولى لأحد السماسرة، وربما س. ح. ب. ك. كان أحد عملائه.

قال هولمز: جرّب محطة السكك الحديدية الباسيفيكة الكندية.

أطلق ستانلي هوبكنز بعض الشتائم وضرب بقبضته على فخذه.

وصاح: يا لي من أحمق. بالطبع إنها كما تقول. إذًا ليس علينا إلا أن نعرف إلامَ تعود الأحرف الأولى ج. ه. ن.. لقد فحصت بالفعل قوائم سوق الأوراق المالية القديمة، ولم أعثر على أحد في العام 1883 تتماشى أحرف اسمه الأولى مع هذه الأحرف، سواء في السوق المحلية أو بين السماسرة الخارجيين. إلا أنني أشعر أن هذا الدليل هو الأهم لديّ. أظنك تتفق معي يا سيد هولمز أن هذه الأحرف الأولى يمكن أن تكون عائدة لاسم الرجل الآخر الذي كان موجودًا وقت وقوع الجريمة؛ أو القاتل بعبارة أخرى. كذلك فإني أصر على أن ظهور مستند في القضية يضم كمًّا هائلًا من السندات القيّمة يمنحنا لأول مرة دليلًا على الدافع وراء ارتكاب الجريمة.

بدا على وجه شيرلوك هولمز دهشة عميقة من هذا التطور الجديد.

قال: لا بد أن أقرّ بصحة وجهة نظرك. أعترف أن هذا الدفتر الذي لم يظهر في التحقيق قد غيّر نظرتي تمامًا. فالنظرية التي استنتجتها للجريمة لا تضم هذا الدفتر. هل حاولت تتبع أي من السندات المذكورة هنا؟

– تُجرى التحريات الآن في المكاتب، ولكن أخشى أن السجل الكامل لحملة أسهم أسواق أمريكا الجنوبية موجود في أمريكا الجنوبية، وسوف تنقضي أسابيع قبل أن نستطيع تعقب تلك الأسهم.

انهمك هولمز في معاينة غلاف الدفتر بعدساته المكبرة.

قال: أكاد أجزِم أني أرى بقعة هنا.

– نعم يا سيدي إنها بقعة دمٍ. فقد أخبرتك بأنني التقطت الدفتر من الأرض.

أكانت بقعة الدماء على أعلى الدفتر أم أسفله؟

– على الجانب المجاور للألواح.

– وهذا يثبت بالتأكيد أن الدفتر سقط بعد ارتكاب الجريمة.

– بالضبط يا سيد هولمز. لقد انتبهت إلى هذه النقطة، وحدست أن القاتل أسقط الدفتر خلال هروبه المتعجل، فسقط بالقرب من الباب.

– أفترض إذن أنك لم تعثر على أي من هذه السندات بين ممتلكات القتيل، صحيح؟

– نعم يا سيدي.

– هل لديك أي سبب للاشتباه في وقوع سرقة؟

– كلا يا سيدي، لم يبدُ أن شيئًا قد لُمس.

– رباه، تلك القضية مثيرة للاهتمام دون شك. كان هناك سكين إذن، صحيح؟

– عثرتُ على سكين في غمده ملقًى عند قدم القتيل. وقد تعرفت عليه السيدة كاري قائلة إنه يخص زوجها.

شرد هولمز لبعض الوقت، ثم قال أخيرًا: حسنًا، أعتقد أن عليّ أن أذهب وألقي نظرة على مسرح الجريمة.

أطلق ستانلي هوبكنز صيحة سعادة.

– أشكرك يا سيدي. لقد أزحت عن كاهلي همًّا ثقيلًا.

أشار هولمز بإصبعه للمفتش قائلًا: كانت لتصبح المهمة أسهل قبل أسبوع. إلا أن زيارتي الآن لن تكون عديمة الجدوى تمامًا. سأسر بصحبتك يا واتسون إن كنت تملك وقتًا. وأنت يا هوبكنز، إن تكرمت واستدعيت عربة، سنصبح جاهزين للذهاب إلى قرية فوريست رو في غضون ربع ساعة.

ترجلنا عند محطة صغيرة على قارعة الطريق، وسرنا لبضعة أميال عبر أطلال مروج فسيحة، كانت يومًا جزءًا من غابة ويلد، تلك الغابة الحصينة التي منعت الغزاة السكسونيين من الدخول لستين عامًا، فكانت بمنزلة الدرع الحامية لبريطانيا. أزيلت مساحات شاسعة من تلك الغابة، وصارت مقرًّا لمصانع الحدادة الأولى للقرية، ثم قُطعت الأشجار واستُخدمت وقودًا لإذابة المعادن. أما حاليًّا فقد استولت الحقول الشمالية الأكثر ثراءً على هذه الحرفة، ولم يبقَ أثر لعمل الماضي سوى البساتين الخربة والأخاديد العميقة في الأرض. وفي باحة خالية من الأشجار عند منحدرٍ أخضر وقف منزل حجري عريض منخفض، يجاوره طريق منحنٍ يمر عبر الحقول. وفي بقعة أقرب إلى الطريق، رأينا كوخًا

صغيرًا محاطًا بالشجيرات من ثلاثة جوانب، بنافذة واحدة وباب واحد في مواجهتنا. كان هذا الكوخ هو مسرح الجريمة.

تقدمنا إلى المنزل الكبير أولًا وراء ستانلي هوبكنز، الذي عرفنا بأرملة القتيل المنهكة ذات الشعر الرمادي، والتي كشف وجهها الهزيل بتجاعيده العميقة ونظرة الرعب الخفية في أعماق عينيها الحمراوين عن العذاب والمعاملة القاسية التي عانتها على مر السنين. كانت ابنتها بصحبتها، وهي فتاة شاحبة شقراء الشعر، لمعت عيناها في تحدٍّ وهي تُخبرنا عن مدى سعادتها لموت أبيها، وأنها تبارك اليد التي أردته قتيلًا. كانت أسرة مريعة تلك التي اصطنعها بيتر كاري الأسود لنفسه، فما إن غمرنا ضوء الشمس ثانيةً حتى شعرنا بارتياح غامر، ثم انطلقنا نشق طريقنا عبر ممر وسط الحقول أبلته قدما القتيل.

أما الكوخ فكان شديد البساطة، ذا جدران وسقفٍ من الخشب، له نافذة بجوار الباب وأخرى في الجانب المقابل. أخرج ستانلي هوبكنز المفتاح من جيبه، وانحنى ليفتح القفل، ثم توقف فجأة وقد علت وجهه نظرة انتباه ودهشة.

قال: لقد عبث أحدهم بالقفل.

لم يكن فيما قاله شك. فالخشب كان مشقوقًا وكشفت الخدوش عن اللون الأبيض تحت الطلاء، كما لو أنها خُدشت منذ لحظات. عاين هولمز النافذة، ثم قال:

– لقد حاول أحدهم اقتحام تلك النافذة أيضًا. كائنًا من كان فقد عجز عن الدخول. لا بد أنه لصٌّ فاشل.

قال المفتش: هذا غريب جدًّا. أقسم أن هذه العلامات لم تكن هنا مساء البارحة.

قلتُ مقترحًا: قد يكون الفاعل مجرد شخص فضولي من القرية.

– هذا مستبعد جدًّا. فما من أحدٍ منهم يجرؤ على أن تطأ قدماه هذا المكان، ناهيك بمحاولة اقتحام الكابينة. ما رأيك يا سيد هولمز؟

– رأيي أن الحظ قد ابتسم لنا.

– أتقصد أن هذا الشخص سيأتي مجددًا؟

– هذا وارد جدًّا. لقد أتى معتقدًا أن الباب سيكون مفتوحًا. ثم حاول الدخول بنصل مدية صغيرة جدًّا ولم يستطع. فما عساه يفعل عندئذ؟

– سيأتي مجددًا في الليلة التالية بأداة أكثر نفعًا.

– أؤيدك بشدة. ومن الحماقة ألا نكون هنا لاستقباله. في تلك الأثناء، دعني أرى ما بداخل الكابينة.

كانت آثار المأساة قد أزيلت لكن الأثاث ظل في موضعه في الغرفة الصغيرة كما كان ليلة وقوع الجريمة. أخذ هولمز لمدة ساعتين يتفقد كل شيء على حدة بإمعان شديد جدًّا، لكن بدا على وجهه أن سعيه لم يكلل بالنجاح. ثم أوقف تحرِّيه المتأني لأول مرة وقال:

– هل أخذت شيئًا من هذا الرف يا هوبكنز؟

– كلا، لم ألمس شيئًا.

– ثمة شيء مفقود. فالغبار عند هذه الزاوية أقل مقارنةً ببقية الرف. ربما كان كتابًا موضوعًا على جانبه. أو ربما كان صندوقًا. حسنٌ حسن، ما عاد لدي شيء أفعله. هلم يا واتسون نسير في هذه الغابة الجميلة ونتأمل الطيور والزهور قليلًا. سنلتقي بك هنا لاحقًا يا هوبكنز، ونحاول الإمساك بهذا السيد النبيل الذي عرّج على الكابينة ليلة أمس.

كانت الساعة قد تخطَّت الحادية عشرة حين نصبنا فخَّنا الصغير. اقترح هوبكنز أن نترك باب الكوخ مفتوحًا، لكن هولمز رأى أن هذا سيثير الشكوك لدى الغريب. فالقفل كان من النوع البسيط جدًّا، ولا يحتاج إلا إلى نصلٍ أقوى قليلًا حتى ينفتح. اقترح هولمز أيضًا أن ننتظر، لا داخل الكوخ، بل خارجه وسط الشجيرات النامية حول النافذة التي في الجانب المقابل للباب. بهذه الطريقة سنتمكن من مراقبة الرجل إذا أشعل النور، ونعرف غايته من هذه الزيارة الليلية المختلسة.

كانت نوبة الحراسة طويلة ومضجرة، ومع هذا جلبت معها الإثارة التي يشعر بها الصياد عندما يتوارى بجانب بركة المياه منتظرًا مجيء فريسته الضارية الظمأى. أي وحشٍ كاسر سينقض علينا من العتمة؟ هل سيكون مجرمًا كالنمر الجامح الذي لا يمكن قهره إلا بعد عراكٍ عنيف مع أنيابه ومخالبه اللامعة، أم سيكون ثعلبًا جبانًا لا يشكل خطرًا إلا على الضعفاء المكشوفين؟

جثونا بين الشجيرات ملتزمين الصمت، ومنتظرين كل ما قد يأتي. في البداية كانت خطوات أهل القرية المتأخرين في عودتهم والأصوات الآتية من القرية تخفف من وطأة نوبة الحراسة؛ ولكن مع الوقت خمدت الأصوات وخيم علينا سكون مطبق تخلله رنين أجراس كنيسة بعيدة بيّن لنا ما انقضى من الليل، وحفيف رذاذ المطر الساقط على أوراق الأشجار التي ظللتنا.

رن الجرس معلنًا عن الثانية والنصف صباحًا، وهي أحلك الساعات التي تسبق الفجر، عندما أجفل ثلاثتنا لدى سماع تكة خافتة حادة قادمة من ناحية البوابة. لقد دخل أحدهم الممر. ثم تلا ذلك صمت آخر طويل، وبدأت أخشى أن يكون ما حدث مجرد إنذارٍ كاذب، عندما سمعنا خطوة متسللة عند الجانب المقابل من الكوخ، تبعها صوت صليل واحتكاك معدني. كان الرجل يحاول فتح القفل! بدا أنه قد ازداد مهارة هذه المرة أو أن أداته صارت أفضل، إذ سرعان ما سمعنا طقطقة مفاجئة وصرير مفصلات الباب. ثم اشتعل عود ثقاب، وما لبث أن أُضيء الكوخ بضوء الشموع الثابت. ومن خلال الستائر الشفافة تابعت أعيننا بانتباه المشهد الجاري بالداخل.

كان الضيف الليلي شابًّا ضعيفًا ونحيلًا، ذا شارب أسود زاد من حدة شحوب وجهه الخائف. لا يمكن أن يتجاوز عمره العشرين عامًا. لم أرَ قط إنسانًا يبدو مرتاعًا إلى هذا الحد المثير للشفقة، فقد كانت أسنانه تصطك ببعضها بوضوح، وكان يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. كان يشبه النبلاء في ملبسهم؛ فقد كان يرتدي سترة نورفولك وسروالًا قصيرًا، ويعتمر قبعة من القماش. راقبناه وهو يحدق فيما حوله بعينين مذعورتين. وضع عقب الشمعة على الطاولة واختفى عن أبصارنا في إحدى زوايا الكوخ. ثم عاد بدفتر كبير، وهو أحد سجلات أحوال السفن المصفوفة على الرفوف. انكبَّ على الطاولة وأخذ يقلب أوراق الدفتر حثيثًا حتى وصل إلى البند المنشود. ثم أغلق الدفتر بقبضة يده في غضب وأعاده

إلى مكانه على الرف وأطفأ الشمع. ولم يكد يغادر الكوخ حتى قبضت يد هوبكنز على تلابيبه، وسمعتُ شهقة الفزع العالية حينما أدرك الرجل أنه قد قُبِضَ عليه. أُشْعِلَت الشمعة ثانيةً ورأينا أسيرنا التعِس وهو يرتعد ويرتجف بين يدي المحقق. جلس على صندوق البحارة منكمشًا وأخذ ينظر إلينا واحدًا تلو الآخر بيأس.

قال ستانلي هوبكنز: والآن يا رفيقي العزيز، من أنت؟ وما الذي تنشده هنا؟

استجمع الرجل شجاعته ونظر إلينا محاولًا أن يبدو رابط الجأش، ثم قال:

أنتم محققون، أليس كذلك؟ وتظنون أن لي علاقة بمقتل القبطان بيتر كاري. لكنني أؤكد لكم أنّي بريء.

أجابه هوبكنز: سوف نتأكد من ذلك بأنفسنا، ولكن أولًا ما اسمك؟

– أُدعى جون هوبلي نيليجان.

فرأيتُ هولمز وهوبكنز يتبادلان نظرة سريعة.

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟

– هل لي أن أحدِّثك على انفراد؟

– كلا. بالطبع لا.

– لماذا إذن عليَّ إخبارك بأي شيء؟

– إن لم يكن لديك إجابة قد يصبح موقفك سيئًا في المحاكمة.

أجفل الشاب.

ثم قال: حسنًا سأخبرك. ولم لا؟ رغم أنّي أكره فكرة إحياء تلك الفضيحة القديمة. هل سبق وسمعت عن دوسون ونيليجان؟

كان واضحًا أن هوبكنز لم يسمع بهما من قبل؛ بينما أبدى هولمز اهتمامًا شديدًا وقال:

– هل تقصد مديرَي مصرف غرب إنجلترا؟ لقد أعلنا إفلاسهما مدينين بمليون جنيه إسترليني، ودمرا حينها نصف عائلات بلدة كورنوال، وبعدها اختفى نيليجان.

– بالضبط. نيليجان هذا هو والدي.

لقد أوشكنا أخيرًا على الإمساك بدليل مهم، لكن ما زالت الفجوة كبيرة بين هروب مدير المصرف وبين القبطان بيتر كاري الذي ثُبِّت على الحائط مطعونًا بإحدى حرباته. أنصتنا جميعًا بانتباه إلى كلمات الشاب.

– كان والدي هو المسؤول عن واقعة الإفلاس. فقد حدثت بعد تقاعُد دوسون. كنت أناهز العاشرة من عمري في ذاك الوقت، لكنني كنت كبيرًا بما يكفي لأشعر بالخزي والذعر من الحدث برمته. كان الناس يرددون دومًا أن أبي سرق جميع السندات المالية وهرب. ولكن هذا ليس صحيحًا. فقد اعتقد أبي أنه لو أتيح له بعض الوقت لتمكن من جمع نقود الناس، ولسار كل شيء على ما يرام، ولحصَّل كل دائنٍ ماله كاملًا. فبدأ رحلته إلى النرويج بيخته الصغير قُبيل إصدار الأمر بالقبض عليه. يمكنني تذكر تلك الليلة

الأخيرة التي ودَّع فيها أمي. ترك لنا يومها قائمة بالسندات التي نوى أخذها معه، وأقسم أنه سيعود وقد برَّأ ساحته، ولن يعرِّض من وثقوا به للشقاء. لكننا لم نسمع عنه ثانيةً أبدًا. لقد اختفى والدي واليخت اختفاءً تامًا. ظننتُ أنا وأمي أن اليخت قد غرق في قاع البحر وأخذ معه والدي والسندات التي كانت بحوزته، لولا أن صديقًا لنا وفيًّا يعمل في التجارة اكتشف أن السندات التي كانت مع أبي قد عاودت الظهور منذ فترة في سوق الأوراق المالية بلندن. لك أن تتخيل دهشتنا. قضيت شهورًا أحاول تعقُّب السندات، وأخيرًا، وبعد كثير من الصعوبات والإخفاقات، اكتشفت أن البائع الأصلي لها هو القبطان بيتر كاري، صاحب هذا الكوخ.

تحرَّيت عن هذا الرجل بطبيعة الحال، واكتشفت أنه كان قائد سفينة صيد للحيتان مقرر أن تعود من البحار القطبية في الوقت نفسه الذي كان أبي يشق فيه طريقه بحرًا إلى النرويج. كان خريف ذلك العام عاصفًا وتوالت فيه هبات الرياح الجنوبية العاتية. ومن الجائز جدًّا أن يكون يخت والدي قد انجرف شمالًا والتقى بسفينة القبطان بيتر كاري. إذا كان هذا ما حدث، فما الذي حلَّ بوالدي؟ على أية حال، إذا استطعت أن أُثبت من دفاتر بيتر كاري كيف ظهرت تلك السندات في سوق الأوراق المالية، سيكون هذا دليلًا على أن والدي لم يبِعها، ولم يهدف إلى تحقيق ربح شخصي حين أخذها معه.

وهكذا جئت إلى ساسكس بنية مقابلة القبطان، ولكن تزامن مجيئي مع حادثة قتله الشنيعة. ثم قرأت في التحقيق وصفًا لكابينته، وذُكِر فيه أن القبطان كان يحتفظ فيها بالدفاتر القديمة لسفينته. خطر لي أنه إذا استطعت الاطلاع على ما حدث في أغسطس عام 1883، على متن سفينة سي يونيكورن، فقد أحل لغز مصير أبي. لذلك حاولت ليلة أمس الوصول إلى تلك الدفاتر لكنني لم أستطع فتح الباب. والليلة حاولت مجددًا ونجحت، لكنني وجدت الصفحات التي تخص ذلك الشهر منزوعة من الدفتر. وتلك كانت اللحظة التي وجدت نفسي فيها أسيرًا بين أيديكم.

سأله هوبكنز: هل هذا كل شيء؟

أشاح بنظره قائلًا: نعم هذا كل شيء.

– ما من شيء آخر لتخبرنا به؟

تردد هنيهة ثم قال: نعم، ما من شيء آخر.

– هل زرت هذا الكوخ قبل ليلة أمس؟

– لا.

صاح هوبكنز: إذًا ما تفسيرك لهذا؟ ورفع دفتر الدليل الدامغ الذي يحوي الأحرف الأولية لأسيرنا في الصفحة الأولى وبقعة الدم على الغلاف.

انهار الرجل البائس ودفن وجهه بين يديه منتفضًا.

تأوَّه قائلًا: كيف وصل إليك؟ لم أكن أعلم. ظننت أنه ضاع مني في الفندق.

قال هوبكنز بحزم: هذا يكفي. إذا أردت أن تقول المزيد عليك أن تقوله في المحكمة. ستُرافقني الآن إلى قسم الشرطة. حسنًا يا سيد هولمز، إنني ممتن جدًّا لك ولصديقك لمجيئكما لمساعدتي. تبيَّن أن

حضوركما لم يكن ضروريًّا، وكان بوسعي حل هذه القضية دونكما، لكنني على كل الأحوال شاكر جدًّا. لقد حجزت لكما غرفتين بفندق برامبلتاي، لذا يمكننا السير إلى القرية معًا.

في رحلة عودتنا في الصباح التالي سألني هولمز: حسنًا، ما رأيك فيما حدث يا واتسون؟

– أرى أنك لست راضيًا عنه.

بلى يا عزيزي واتسون، إنني راضٍ كل الرضا. ولكن في الوقت نفسه لا يروق لي الأسلوب الذي اتبعه ستانلي هوبكنز. لقد خاب فيه ظني. كنت أتوقع منه ما هو أفضل. فعلى المرء دومًا أن يبحث عن البديل المحتمل وأن يستعد له. إنها القاعدة الأولى في التحقيق الجنائي.

– ما البديل إذن؟

– مسار التحقيق الذي أتبعه بنفسي. وقد لا يؤدي بنا إلى أي شيء ولا يسعني معرفة نتيجته، لكن عليَّ أن أتبعه حتى النهاية على الأقل.

وجد هولمز عدة خطابات بانتظاره في شارع بيكر. انتزع أحدها وفتحه، ثم طفق يضحك ضحكة انتصار.

– خبر عظيم يا واتسون. لقد تكشَّف البديل. هل لديك استمارات تلغرافية؟ أريدك أن تكتب برقيتين من أجلي: المُرسَل إليه: سامنر، وكيل الشحن، شارع راتكليف. أرسِل ثلاثة رجال ليصلوا في العاشرة من صباح الغد. المرسِل: بازل. هذا هو اسمي في تلك الأنحاء. والبرقية الأخرى كالتالي: المُرسَل إليه: المفتش ستانلي هوبكنز، 46 شارع لورد، بريكستون. تعالَ لتناول الفطور في التاسعة والنصف من صباح الغد. مهم. وأبرِق إليَّ إن لم تستطع الحضور. المرسِل: شيرلوك هولمز. يكفي يا واتسون، لقد طاردتني تلك القضية الشيطانية لعشرة أيام. وها أنا أصرفها عني بكليتها. أعتقد أننا سنسمع غدًا النهاية الأبدية لهذه القصة.

وصل المفتش ستانلي هوبكنز في تمام موعده، وجلسنا معًا نتناول الفطور الذي أعدته لنا السيدة هدسون. كان المحقق الشاب في غمرة سعادته لنجاحه.

سأله هولمز: أحقًّا تعتقد أن الحل الذي توصلت إليه هو الصحيح؟

– لا يسعني تصور قضية كاملة الأركان كهذه.

– لكنها لم تبدُ لي حاسمة.

– عجيبٌ أمرك يا سيد هولمز. ألم يكن ما حدث كافيًا؟

– هل يغطي تفسيرك كل النقاط؟

– دونما شك. فقد علمتُ أن نيليجان الصغير قد وصل إلى فندق برامبلتاي في يوم الجريمة نفسه. وزعم أنه جاء ليلعب الجولف. كانت غرفته في الدور الأرضي وكان بإمكانه الخروج متى شاء. وفي تلك الليلة ذهب إلى منزل وودمانز لي وقابل بيتر كاري في الكوخ، ثم تشاجر معه وقتله بالحربة. وحينما روَّعه ما فعل، فرَّ هاربًا من الكوخ، وهكذا أسقط الدفتر الذي أحضره معه لاستجواب بيتر كاري عن تلك السندات المختلفة. لعلك لاحظت أن بعض السندات كان موسومًا بعلامة صح، على عكس البقية الغالبية

منها. اتضح أن تلك السندات الموسومة كانت في سوق الأوراق المالية بلندن، بينما ظلت البقية بحوزة كاري، وكان نيليجان الصغير –وفقًا لأقواله– توَّاقًا لاستعادتها كي يرد لدائني أبيه أموالهم. وبعد هروبه لم يجرؤ على الاقتراب من الكوخ ثانيةً لفترة؛ لكنه أرغم نفسه في النهاية على ذلك لكي يحصل على المعلومات التي يحتاج إليها. ألا ترى أن ما قلته يعد بدهيًّا وبسيطًا جدًّا؟

ابتسم هولمز وهز رأسه.

– يبدو لي أن به عيبًا واحدًا فقط يا هوبكنز، وهو أنه مستحيلٌ في حد ذاته. هل حاولت يومًا أن تغرز حربة في جسم أحدهم؟ لا؟ ويحك يا سيدي العزيز، عليك حقًّا أن تعير انتباهًا لمثل هذه التفاصيل. يمكن لصديقي واتسون أن يخبرك بأني قضيت صباحًا كاملًا أتمرَّن على هذا. إنه ليس بالأمر السهل، ويتطلب ذراعًا قوية ومتمرسة. أما الضربة التي تلقاها القتيل فقد تمت بعنف شديد لدرجة أن رأس الحربة قد غرز عميقًا في الجدار. هل تتصور أن هذا الشاب الهزيل قادر على ارتكاب مثل هذا الاعتداء المروع؟ هل كان هو الرجل الذي شرب الروم مع بيتر الأسود في جوف الليل؟ هل كان وجهه هو الذي شوهد من وراء الستار قبل الحادث بيومين؟ لا، لا يا هوبكنز؛ إن من نبحث عنه هو شخصٌ آخر، شخص أشد قسوة.

عبس وجه المحقق أكثر فأكثر طيلة حديث هولمز. فقد انهارت آماله وطموحاته جميعًا فوق رأسه. لكنه لم يكن ليتخلى عن موقفه دون مقاومة.

– لا يمكنك أن تنكر أن نيليجان كان حاضرًا تلك الليلة يا سيد هولمز. فالدفتر يثبت ذلك. أظن أن لديّ أدلة كافية لإقناع هيئة المحلفين، حتى وإن استطعت أن تجد فيها ثغرة. ثم إني يا سيد هولمز قد قبضت على الجاني الخاص بي، أما المجرم الشنيع الذي تتحدث أنت عنه، فأين هو؟

قال هولمز بهدوء: كأني أسمعه على الدرج. أعتقد يا واتسون أن عليك أن تضع هذا المسدس في مكان يسهل عليك الوصول إليه. نهض ووضع ورقة مكتوبة على الطاولة الجانبية، ثم استأنف قائلًا: إننا مستعدون الآن.

سمعنا بعضهم يتحدث بصوتٍ غليظ بالخارج، ثم فتحت السيدة هدسون الباب لتقول إن بالخارج ثلاثة رجال يسألون عن القبطان بازل.

قال هولمز: أدخليهم واحدًا تلو الآخر.

أول من دخل كان رجلًا قصيرًا مكتنزًا ذا وجنتين حمراوين وسوالف بيضاء منتفشة. أخرج هولمز خطابًا من جيبه، وسأله:

– ما اسمك؟

– جايمس لانكستر.

– اعذرني يا لانكستر، لكن المنصب قد شغر. إليك نصف سوفرن[2] تعويضًا عن إزعاجك. رجاءً ادخل هذه الغرفة وانتظرني قليلًا.

الرجل الثاني كان طويلًا ذابلًا، ذا شعرٍ مسترسل ويكسو وجنتيه الشحوب. كان يُدعى هيو باتنز. وقد صرفه هولمز هو أيضًا مانحًا إياه نصف السوفرن، وطلب منه الانتظار.

أما المتقدم الثالث فكان رجلًا ذا مظهر مميز. يملك وجهًا شرسًا يشبه وجه كلب البولدوج محاطًا بغابةٍ متشابكة من الشعر واللحية، له عينان داكنتان يلوح فيهما التحدي ويظللهما حاجبان كثيفان وأشعثان وناتئان. وجه إلينا التحية ووقف كالبحارة مقلبًا قبعته بين يديه.

سأله هولمز: ما اسمك؟

– باتريك كارنز.

– أصائد حيتان أنت؟

– نعم يا سيدي. ذهبتُ في ستٍ وعشرين رحلة.

– من دندي على ما أظن؟

– نعم يا سيدي.

– وهل أنت مستعد للإبحار في رحلة استكشافية؟

– نعم يا سيدي.

– ما أجرك؟

– ثمانية جنيهات في الشهر.

– هل يمكنك الانطلاق فورًا؟

– بمجرد أن أجلب عُدَّتي.

– هل معك أوراقك؟

– نعم يا سيدي. أخرج حزمة من الاستمارات البالية الزفرة. ألقى هولمز نظرة عليها وأعادها له، ثم قال:

– أنت الرجل الذي أطلبه. ها هو العقد على الطاولة الجانبية. وقِّع عليه لنسوي المسألة برمتها.

هرول البحار مترنحًا عبر الغرفة والتقط القلم.

انحنى على الطاولة وسأل: هل عليّ التوقيع هنا؟

مال هولمز على كتف البحار وقبض بكلتا يديه على رقبته.

وقال: سيفي هذا بالغرض.

سمعتُ قرقعة سلاسل وخوارًا يشبه خوار الثور الهائج. وفي اللحظة التالية كان هولمز والبحار يتدحرجان على الأرض معًا. كان البحار رجلًا ذا قوة جبارة لدرجة أنه –حتى بعد أن قيد هولمز رسغيه بالأصفاد بمهارة– كان ليغلب صديقي سريعًا لولا أن هرعت أنا وهوبكنز لنجدته. وعندما ضغطت بفوهة المسدس الباردة على صدغ البحار، أدرك أخيرًا أن مقاومته صارت بلا جدوى. فأوثقنا كاحليه بالحبال ونهضنا لاهثين من العراك.

قال شيرلوك هولمز: عليّ الاعتذار منك يا هوبكنز. أخشى أن البيض المخفوق صار باردًا. لكنك ستستمتع بفطورك على نحوٍ أفضل، أليس كذلك؟ فقد استطعت أخيرًا أن تضع نهاية ظافرة لقضيتك.

عجز ستانلي هوبكنز عن الكلام من فرط الذهول.

ثم قال أخيرًا وقد غزت الحُمرة وجهه: لا أعلم ماذا أقول يا سيد هولمز. يبدو لي أنني كنت أحمق منذ البداية. لقد أدركت الآن ما لم يكن ينبغي لي نسيانه؛ وهو أنك أنت المعلم وأنا التلميذ. فحتى الآن ورغم أني رأيتُ ما فعلته، فلم أفهم بعد كيف فعلته، أو ما دلالته.

قال هولمز بمزاج رائق: حسنٌ حسن. كلنا نتعلم بالتجربة، ودرسك هذه المرة هو ألا تغفل عن البديل أبدًا. لقد كنت منهمكًا مع نيليجان الصغير لدرجة لم تستطع معها التفكير في باتريك كارنز، القاتل الحقيقي لبيتر كاري.

قطع حديثنا صوت البحار الأجش قائلًا: مهلًا يا سيد. لا أشكو اعتداءك عليّ بهذه الطريقة، لكنني أرجو أن تسمي الأمور بمسمياتها الصحيحة. فأنت تقول إنني قتلت بيتر كاري؛ وأنا أقول إنني أوديت بحياته، وبين هاتين الكلمتين فارق كبير. ربما لا تصدق ما أقول. ربما تظنني أتفوه بالأكاذيب فحسب.

قال هولمز: كلا، على الإطلاق. لنسمع ما تريد قوله.

– سأخبرك ما حدث، وأقسم أن كل كلمة أقولها هي الحقيقة. فقد كنت أعرف بيتر الأسود، وما غرزت الحربة فيه بقوة إلا بعدما رفع سكينه عليَّ، لأنني أدركت حينها أنه إما حياتي أو حياته. وهكذا مات. يمكنك أن تُسميها قتلًا متعمدًا. فسوف أموت قريبًا على أية حال، سواء بحبل المشنقة حول رقبتي أو بسكين بيتر الأسود مغروزًا في قلبي.

سأله هولمز: ما سبب ذهابك إليه؟

– سأقصَّ عليك الحكاية من البداية. ساعدني فقط على الجلوس معتدلًا حتى يسعني التحدث بسهولة. البداية كانت في شهر أغسطس من عام 1883. كان بيتر كاري هو قبطان سفينة سي يونيكورن، وكنتُ أنا صائد حيتان احتياطيًّا. كنا نبحر عائدين من الكتل الجليدية إلى وطننا بعد أن قضينا أسبوعًا نصارع الرياح المعاكسة والعواصف الجنوبية، عندما عثرنا على زورق صغير عصفت به الريح باتجاه الشمال. كان عليه رجل وحيد ريفي. ظن طاقمه أن الزورق سيغرق، فحاولوا بلوغ الشاطئ النرويجي بقارب نجاة. أعتقد أن جميعهم قد غرقوا. حسنًا، أخذنا هذا الرجل على متن سفينتنا، ودار بينه وبين القبطان أحاديث طويلة في القمرة. لم يكن بحوزته سوى صندوق من الصفيح. وعلى حد علمي، لم يُذكر اسم الرجل قط، وفي الليلة التالية كان قد اختفى كأن لم يكن. وقيل إنه إما ألقى بنفسه في البحر، أو سقط بسبب الطقس الهائج الذي كنا نعانيه. لم يعلم حقيقة ما حدث له إلا رجل واحد، وهذا الرجل هو أنا، فقد رأيت القبطان بأم عيني وهو يمسك به ويلقيه من فوق سور السفينة خلال نوبة مراقبة في جنح الليل، قبل أن نبصر أضواء جزر شتلاند بيومين.

وهكذا احتفظت بما رأيت لنفسي انتظارًا لما قد أجنيه منه. وعندما عدنا إلى سكوتلاند تستر الجميع على ما حدث بسهولة، ولم يطرح أحد أية أسئلة. فقد مات شخص غريب في حادث، ولم يكن من شأن أحد التدخل. بعد الواقعة بفترة قصيرة، اعتزل بيتر كاري البحر، ومضت أعوام طوال قبل أن أعرف مكانه. خمنت أنه ارتكب تلك الجريمة بدافع الحصول على ما في الصندوق الصفيح، وأن بإمكانه الآن أن يدفع لي مبلغًا جيدًا مقابل سكوتي.

أخبرني بمكانه بحَّار كان قد التقى به في لندن، وهكذا ذهبت إلى هناك لأبتزه. كان في الليلة الأولى متعقلًا بما يكفي، ومستعدًّا لمنحي ما يمكن أن يحررني من عملي في البحر للأبد. كان يفترض بنا أن نسوي الاتفاق بعد يومين. وعندما وصلت وجدته قد شرب حتى الثمالة وصار مزاجه فاحشًا. جلسنا وشربنا معًا واستعدنا الذكريات، لكنه كلما شرب زاد مقتي للنظرة التي علت وجهه. لمحت الحربة المعلقة على الحائط، وخطر لي أنني ربما أحتاج إليها قبل أن تنقضي الليلة. وفجأة انفجر في وجهي وأخذ يبصق ويسبّ، ورأيت معنى القتل في عينيه ومدية كبيرة في يده. لم يكد يخرجها من غمدها حتى كنت قد غرزت الحربة فيه. ويا لها من صيحة تلك التي أطلقها! لقد صار وجهه يطاردني في منامي! وقفت هناك وقد لطخت دماؤه الكابينة من حولي، فانتظرت قليلًا؛ لكن السكون كان مطبقًا، فاستجمعت شجاعتي مرة أخرى. نظرت حولي ورأيت الصندوق الصفيح على الرف. إن لي حقًّا فيه تمامًا مثل الذي لبيتر كاري على أية حال، لذلك أخذته وغادرت الكوخ. لكنني تركت حافظة التبغ الخاصة بي على الطاولة مثل الأحمق.

والآن سأقص عليك الجزء الأكثر غرابة في القصة كلها. لم أكد أبتعد عن الكوخ حتى سمعت أحدهم يأتي، فاختبأت بين الشجيرات. ورأيت رجلًا يتسلل داخلًا الكوخ، وأطلق صيحة فزع كمن رأى شبحًا، ثم أطلق ساقيه للريح حتى اختفى عن الأنظار. لا أعلم هويته أو ماذا أراد. أما أنا فقد سرت عشرة أميال، وركبت قطارًا من محطة تونبرج ويلز، وهكذا وصلت إلى لندن دون أن يلحظني أحد.

عندما فتحت الصندوق لم أجد مالًا فيه، ولا شيء سوى أوراق لا أجرؤ على بيعها. لم أعد أستطيع ابتزاز بيتر الأسود، وصرت عالقًا في لندن لا أملك شلنًا واحدًا. هكذا لم يتبق لي سوى عملي. رأيت تلك الإعلانات التي تبحث عن صائدي حيتان بأجور عالية، فذهبت إلى وكلاء الشحن الذين أرسلوني بدورهم إلى هنا. هذا هو كل ما أعرف، وأكرر قولي بأن قتلي لبيتر الأسود يستحق شكرًا من القانون، فقد وفَّرت عليهم ثمن حبل المشنقة.

نهض هولمز وأشعل غليونه قائلًا: هذا تصريح بالغ الوضوح. حريٌّ بك يا هوبكنز ألا تتأخر في نقل سجينك إلى مكانٍ آمن. فهذه الغرفة ليست مناسبة لتكون زنزانة، والسيد باتريك كارنز يحتل مساحة أكبر من اللازم من سجادتنا.

قال هوبكنز: لا يسعني أن أعبر لك عن امتناني يا سيد هولمز. فحتى هذه اللحظة لا أفهم كيف توصلت إلى هذه النتيجة.

– لقد حالفني الحظ ببساطة حينما حصلت على الدليل الصحيح من البداية. فلو كنت علمت بوجود الدفتر، لتشتتت أفكاري على الأرجح مثلما حدث معك. ولكن كل ما سمعته كان يشير إلى اتجاه واحد. القوة الجبارة، المهارة في استخدام الحربة، شراب الروم، حافظة التبغ المصنوعة من جلد الفقمة، والتبغ الخشن بداخلها – جميعها كانت تشير إلى بحَّار، بحَّارٍ ذي خبرة في صيد الحيتان. كنت متأكدًا أن الأحرف الأولى ب. ك. المحفورة على الحافظة كانت صدفة، ولا تشير إلى بيتر كاري الذي لم يكن يدخن إلا لمامًا، ولم يكن يحتفظ بغليون في كابينته. أتتذكُر حين سألتك إذا كنت قد عثرت على ويسكي أو براندي

في الكابينة؟ حينها أجبت بنعم. أي رجل ريفي هذا الذي يختار أن يشرب الروم بينما يمكنه احتساء تلك الخمور الأخرى؟ من هنا تأكدت أن القاتل بحَّار.

– وكيف عثرت عليه؟

– لقد صارت المشكلة حينها شديدة البساطة يا سيدي العزيز. فإذا كان القاتل بحارًا، فلا بد أنه قد عمل مع القبطان على السفينة سي يونيكورن. فعلى حد علمي، لم يبحر بيتر كاري في سفينة أخرى. ظللت ثلاثة أيام أرسل البرقيات إلى دندي، وبنهاية هذه المدة عرفت أسماء طاقم السفينة سي يونيكورن في العام 1883. عندما وجدت اسم باتريك كارنز بين صائدي الحيتان كاد بحثي أن ينتهي. خطر لي أن الرجل ربما يكون في لندن، وأنه ربما يود مغادرة البلد لبعض الوقت. ولذلك قضيت بضعة أيام في الطرف الشرقي من لندن، واختلقت رحلة استكشافية للقطب الشمالي، وعرضت أجورًا مغرية لصائدي الحيتان الذين يودون العمل تحت إمرة القبطان بازل، وها هي النتيجة!

صاح هوبكنز: مذهل! مذهل!

قال هولمز: عليك أن تطلق سراح نيلجيان الصغير بأقصى سرعة. أعتقد أنك مدين له باعتذار. وعلينا أن نعيد إليه الصندوق الصفيح، بيد أن السندات التي باعها بيتر كاري قد ضاعت للأبد دون شك. ها قد وصلت العربة يا هوبكنز، بإمكانك أن تأخذ سجينك. وإذا احتجت إليَّ في المحاكمة، سيكون عنواني أنا وواتسون في مكانٍ ما بالنرويج. سأرسل التفاصيل لاحقًا.

عملة بريطانية قديمة

مغامرة تشارلز أوجستس ميلفيرتون

مرت أعوام على وقوع الأحداث التي سأتكلم عنها، ومع ذلك ينتابني الوجل كلما هممت بالتلميح إليها. لزمنٍ طويل كان إعلان تلك الوقائع مستحيلًا، حتى مع توخي أقصى درجات الحذر والحيطة؛ أما الآن وقد صار الشخص الرئيس المعنيّ بها بعيدًا عن طائلة القانون البشري، فيمكن للحكاية أن تُروى مع طمس بعض التفاصيل بحيث لا تضير أحدًا. إن هذه الرواية توثق تجربة شديدة التفرُّد في مسيرة كل منا؛ أنا والسيد شيرلوك هولمز. وسوف يعذرني القارئ إن أخفيت التاريخ أو أي معلومة أخرى تُمكِّنه من تتبع الواقعة الفعلية.

كانت الساعة تشير إلى السادسة من مساءٍ شتوي باردٍ يكسوه الصقيع، عندما عدتُ أنا وهولمز من إحدى جولاتنا المسائية. أضاء هولمز المصباح فوقع الضوء على بطاقة موضوعة على الطاولة. ألقى نظرة سريعة عليها، ثم هتف باشمئزاز ورماها على الأرض. فالتقطتُها وقرأتُ ما بها:

تشارلز أوجستس ميلفيرتون،

أبلدور تاورز،

هامبستيد.

عميل.

سألته: من هذا؟

أجابني هولمز بينما يجلس ويمد ساقيه أمام المدفأة: أسوأ رجل في لندن، هل من شيء على ظهر البطاقة؟

قلبتها وقرأت: سآتي لزيارتك في السادسة والنصف مساءً — ت. أ. م.

– همم! إنه على وشك الوصول. هل تُحس بالاختناق والوخز يا واتسون عندما تقف أمام قفص الأفاعي في حديقة الحيوان، وتراقب تلك المخلوقات اللزجة الزاحفة السامة بأعينها المميتة ووجوهها المسطحة الشريرة؟ حسنًا، هذا هو الإحساس الذي يثيره فيّ ميلفيرتون. لقد اضطررت إلى التعامل مع خمسين قاتلًا في مسيرتي المهنية، ولم يثِر فيّ حتى الأسوأ بينهم نفورًا مثلما يفعل هذا الرجل. وبرغم ذلك لا يسعني التملص من التعامل معه. الواقع أنه هنا بناءً على دعوتي.

– لكن من هو؟

– اسمع مني يا واتسون. إنه ملك المبتزّين كلهم. ليكن الرب في عون الرجل، بل المرأة المسكينة، التي تقع أسرارها وسمعتها تحت سطوة ميلفيرتون. حينئذ يعتصر ويعتصر، يضيق عليها خناقه، بوجهٍ مبتسم وقلبٍ من حجر، حتى يستنزفها تمامًا. إن هذا الرجل عبقري فيما يفعله، وكان ليترك بصمته في مهنة أكثر احترامًا. وأسلوبه كالتالي: يعلن أنه مستعد لدفع مبالغ طائلة مقابل رسائل تفضح ذوي الثروة والنفوذ، وعندها لا يحصل على الرسائل التي يُريد من خدم أو وصيفاتٍ خونة فحسب، بل كثيرًا ما تأتيه أيضًا من أشرار مرموقين استطاعوا كسب ثقة وحب نساء وثقن بهم. ولا يبخل في سبيل الحصول عليها بشيء. فقد علمتُ أنه دفع سبعمئة جنيه لخادم مقابل رسالة من سطرين، وكانت نتيجتها دمار أسرة نبيلة. ما من سر يخفى على ميلفيرتون، وهناك المئات في هذه المدينة العظيمة ممن

تمتقع وجوههم لدى سماعهم اسمه. لا أحد يعلم أين قد تقع ضربته التالية، فهو أكثر ثراءً ومكرًا من أن يكتفي بسد نهمه. قد يحتفظ ميلفيرتون ببطاقة لسنوات ولا يُظهرها إلا في اللحظة التي يكون الرهان فيها على الفوز مؤكدًا. أقول لك إنه أسوأ رجل في لندن، وإني أتساءل كيف يمكن للمرء مقارنة ذاك الهمجي الذي ضرب رفيقه بهراوة في فورة غضب بهذا الرجل، الذي يعذب الأرواح ويعتصر الأعصاب بمنهجية وتلذذ من أجل إضافة المزيد لحقائب نقوده المنتفخة بالفعل؟

نادرًا ما سمعت صديقي يتحدث بهذا القدر من الانفعال.

قلت: ولكن لا بد أن هذا الرجل قد صار قريبًا من قبضة القانون، أليس كذلك؟

– لا ريب في ذلك من الناحية النظرية، لكنه عمليًّا غير ممكن. فما الذي ستجنيه امرأة إذا زجت به في السجن بضعة أشهر وهي تعلم أن النتيجة الفورية هي دمارها؟ إن ضحاياه لا يجرؤون على رد الضربة. فإن حدث وابتز ميلفيرتون رجلًا بريئًا، عندها فعلًا سنقبض عليه؛ لكنه يضاهي الشيطان في مكره. لا، لا؛ علينا أن نجد طرقًا أخرى لمحاربته.

– ولِمَ هو هنا؟

– لأن عميلةً شهيرة قد وضعت قضيتها المثيرة للشفقة بين يديّ. إنها الليدي إيفا براكويل، أجمل فتاة مبتدئة[3] في الموسم الفائت. ومن المقرر أن تتزوج من إيرل دوفركورت بعد أسبوعين. لكن هذا الشيطان ميلفيرتون لديه عدد من الرسائل الطائشة –طائشة يا واتسون بمعنى الكلمة– التي كتبتها الفتاة إلى شاب مُعدم يملك ضيعة في الريف. تلك الرسائل كفيلة بفسخ الخطوبة. وسوف يرسل ميلفيرتون الرسائل إلى الإيرل ما لم يحصل على مبلغ كبير من المال. وها أنا ذا قد كُلفت بمقابلته والوصول معه إلى أفضل اتفاقٍ ممكن.

وفي تلك اللحظة سمعتُ جلبة في الشارع. نظرتُ إلى أسفل، فرأيتُ عربة فخمة يجرها فَرَسان نبيلان، وتعكس المصابيح البراقة ضوءها على ظهريهما اللامعين ذوي اللون الكستنائي. فتح الخادم باب العربة، فترجل منها رجلٌ قصير وبدين يلبس معطفًا خشنًا. وبعد دقيقة كان هذا الرجل في الغرفة.

كان تشارلز أوجستس ميلفيرتون رجلًا في الخمسين من عمره، ذا رأس كبير أريب، ووجهٍ مستدير ممتلئ وحليق، وابتسامة صفراء ثابتة، وعينين ثاقبتين رماديتين تومضان من وراء نظارة عريضة ذات إطارٍ ذهبي. كان في مظهره شيء من لطافة السيد بيكويك، لا يشوبه سوى زيف ابتسامته الثابتة والبريق القاسي لعينيه الثاقبتين. تقدم مادًّا يدًا ممتلئة صغيرة، وغمغم بصوتٍ ناعم ولبق مثل طلعته مُعربًا عن أسفه لأنه لم يلحق بنا في زيارته السابقة. تجاهل هولمز يده الممدودة ونظر إليه بوجه جامد. اتسعت ابتسامة ميلفيرتون، وهز كتفيه، ثم خلع معطفه ووضعه بتروٍّ شديد على ظهر كرسي، ثم جلس.

أشار إليَّ قائلًا: من هذا السيد؟ هل يجوز حضوره؟ هل سيتكتم على موضوعنا؟

– دكتور واتسون صديقي وشريكي.

– لا بأس يا سيد هولمز. ما اعترضتُ إلا لمصلحة موكلتك. فالمسألة حساسة جدًّا.

– قد سمع بها الدكتور واتسون بالفعل.

– إذن لنباشر العمل. تقول إنك تنوب عن الليدي إيفا. هل فوضتك للقبول بشروطي؟

– وما شروطك؟

– سبعة آلاف جنيه.

– والبديل؟

– يؤلمني قول ذلك يا سيدي العزيز؛ لكن إن لم يُدفع المبلغ في اليوم الرابع عشر من الشهر الجاري، فقطعًا لن يحدث الزفاف في الثامن عشر. وقد فاضت ابتسامته البغيضة بالرضا أكثر من أي وقتٍ مضى.

فكر هولمز لبرهة. ثم قال أخيرًا: يبدو لي أنك تعطي المسألة أكبر من حجمها. فأنا بالطبع أعلم ما تحويه تلك الرسائل. ولا ريب أن موكلتي ستنفذ ما أنصحها به. وقد قررت أن أنصحها بأن تخبر زوجها المستقبلي بالقصة كاملة وتثق في دماثة خلقه.

ضحك ميلفيرتون ضحكة خافتة.

ثم قال: واضح أنك لا تعرف الإيرل.

بدا لي واضحًا من النظرة الحائرة على وجه هولمز أنه كان لا يعرفه.

سأله هولمز: ما الضير الذي تحويه تلك الرسائل؟

أجاب ميلفيرتون: إنها متقدة بالحماس، متقدة جدًّا. فالليدي مراسلة فاتنة. لكنني أؤكد لك أن إيرل دوفكروفت سيعجز عن تفهّم تلك الرسائل. ولكن ما دمت تعتقد العكس، لنغلق الموضوع. إنها مسألة عمل بحتة. إذا كنت تعتقد أن من مصلحة موكلتك وصول تلك الرسائل إلى يد الإيرل، فحماقة أن تدفع مبلغًا كبيرًا كهذا لاستعادتها. ثم نهض والتقط معطفه.

امتقع وجه هولمز من الغضب والخزي.

وقال: انتظر قليلًا. لم التسرع؟ سنبذل بالتأكيد قصارى جهدنا لتجنب الفضيحة في مسألة حساسة كهذه.

عاد ميلفيرتون إلى جلسته.

ثم قال برفق: كنت متأكدًا أنك سترى الأمر بهذه الطريقة.

استأنف هولمز: لكن في الوقت نفسه، الليدي إيفا ليست بالفتاة الثرية. أؤكد لك أن ألفي جنيه قادرة على استنزاف مواردها، وأن المبلغ الذي طلبته يفوق مقدرتها تمامًا. لذا أرجو منك أن تعتدل في طلباتك، وأن تعيد الرسائل بالسعر الذي أحدده، وأؤكد لك أنه أعلى ما يمكنك الحصول عليه.

اتسعت ابتسامة ميلفيرتون ولمعت عيناه بسخرية.

قال: أعلم أن ما تقوله بشأن موارد الليدي صحيحًا. ولكن عليك في الوقت نفسه الاعتراف بأن زواج أي ليدي هو أنسب وقت ليبذل أصدقاؤها وأقرباؤها بعض الجهد من أجلها. ربما يترددون في اختيار هدية زواج مقبولة. دعني أؤكد لك أن هذه الحفنة من الرسائل ستدخل عليها السعادة أكثر من كل الشمعدانات وصحون الزبد الموجودة في لندن.

قال هولمز: هذا مستحيل.

صاح ميلفيرتون بينما يخرج مفكرة جيب ضخمة: ويلاه، ويلاه، يا له من أمرٍ مؤسف! لا يسعني إلا التفكير بأن السيدات يفتقرن إلى الحكمة عندما يرفضن بذل الجهد. انظر إلى هذا! ثم رفع رسالة صغيرة تحمل شعار نبالة على الظرف. إنها تخص... حسنًا، ربما ليس من العدل أن أقول الاسم حتى صباح الغد. لكنها ستكون حينئذٍ بين يدي زوج الليدي. وكل ذلك لأنها تعجز عن دفع مبلغ زهيد يمكنها الحصول عليه باستبدال ألماساتها بأخرى مزيفة. يا له من أمرٍ مؤسف. هل تتذكر النهاية المفاجئة لخطوبة الآنسة مايلز المبجلة والكولونيل دوركينج؟ فقبل يومين فقط من الزفاف نُشرت فقرة في صحيفة مورنينج بوست تعلن عن فسخ الخطوبة. ولمَ؟ يكاد يستحيل تصديق السبب، فمبلغ زهيد من ألفٍ ومئتي جنيه كان ليسوى المسألة برمتها. أليس هذا مثيرًا للشفقة؟ وها أنا أراك رجلًا حكيمًا ومع ذلك تتردد في تنفيذ الشروط، في حين أن مستقبل موكلتك وشرفها على المحك. إنك تُدهشني يا سيد هولمز.

أجابه هولمز: ما أقوله لك حقيقي. فالمال ليس موجودًا. مؤكد أن أخذ المبلغ المعقول الذي أعرضه عليك أفضل بالنسبة لك من تدمير حياة هذه السيدة، والذي لن يعود عليك بأي شيء، صحيح؟

– حساباتك خاطئة يا سيد هولمز. سوف أربح من الفضيحة الكثير. لدي ثماني أو عشر حالات مشابهة في طور النضوج. فإذا شاع بينهم أنني جعلت من الليدي إيفا عبرة لمن يعتبر سأجدهم جميعًا أكثر استعدادًا للتفاوض. هل تفهم ما أعنيه؟

وثب هولمز من مقعده.

– قف خلفه يا واتسون! لا تدعه يخرج! والآن يا سيدي، دعنا نرى ما تحويه تلك المفكرة.

انسلَّ ميلفيرتون بسرعة كالفأر إلى جانب الغرفة، ووقف لاصقًا ظهره بالحائط.

قال وهو يثني معطفه لتظهر مؤخرة مسدس كبير يبرز من الجيب الداخلي: –سيد هولمز، سيد هولمز، كنت أتوقع منك شيئًا مبتكرًا. لقد استُخدمت هذه الطريقة كثيرًا، وما الخير الذي عادت به يومًا؟ أؤكد لك أنني مدجج بالأسلحة، وعلى أتم الاستعداد لاستخدامها، عالمًا بأن القانون سيدعمني. كذلك فإن افتراضك بأني سأجلب الرسائل في هذه المفكرة خاطئ كليًّا. ما كنت لأرتكب مثل هذه الحماقة. والآن يا سادة، لدي مقابلة صغيرة أو اثنتان هذا المساء، والطريق طويل إلى هامبستيد. خطا إلى الأمام والتقط معطفه واضعًا يده على مسدسه، ثم اتجه نحو الباب. رفعتُ أحد الكراسي لكن هولمز هز رأسه فأنزلته مجددًا. غادر ميلفيرتون الغرفة بانحناءة وابتسامة ولمعة في عينيه، وبعد لحظات سمعنا صوت باب العربة يُصفق وقعقعة عجلاتها وهي تغادر مبتعدة.

جلس هولمز بلا حراك أمام المدفأة، داسًّا يديه في جيبي سرواله، ساندًا ذقنه إلى صدره، ومثبتًا عينيه على الجمر المتوهج. ظل صامتًا وساكنًا لنصف ساعة. ثم هب واقفًا كمن حسم أمره ودخل غرفة نومه. بعد قليل خرج متنكرًا في هيئة عامل شاب خليع بلحية صغيرة وخيلاء، وأشعل غليونه الفخاري بالقرب من المصباح قبل أن يهبط إلى الشارع. قال: سأعود لاحقًا يا واتسون، ثم اختفى في ظلمة الليل. فهمت

أنه قد افتتح حملته ضد تشارلز أوجستس ميلفيرتون، لكنني لم أقدر بعد على تخيل المسار الغريب الذي قُدِّر لهذه الحملة أن تتخذه.

مرت بضعة أيام وهولمز يأتي ويذهب ليلًا ونهارًا بهذه الهيئة، ولكن فيما عدا أن وقته كان يقضيه في هامبستيد، ولم يكن يضيعه هباءً، لم أكن أدري شيئًا مما يفعله. لكنه عاد أخيرًا ذات مساء عاصف وجامح هبت فيه الرياح وصفرت عبر النوافذ من رحلته الاستكشافية الأخيرة، وبعد أن خلع تنكره جلس أمام المدفأة وانهمك في الضحك بأسلوبه الصامت الكتوم.

– هل تراني رجلًا أهلًا للزواج يا واتسون؟

– بالطبع لا!

– سيهمُّك إذًا أن تعرف أنني قد خطبت إحداهن.

– صديقي العزيز! تهانيّ لـ...

– إنها خادمة منزل ميلفيرتون.

– ما خطبك يا هولمز!

– أردت بعض المعلومات يا واتسون.

– ألا ترى أنك تماديت كثيرًا؟

– كانت خطوة لا بد منها. فأنا بالنسبة لها سباكٌ ذو عمل مزدهر يُدعى سكوت. كنتُ أتمشى معها كل مساء ونتحدث. يا لهول هذه المحادثات! على أية حال حصلت على كل ما أردته. فقد بتُّ أعرف منزل ميلفيرتون مثلما أعرف راحة يدي.

– والفتاة يا هولمز؟

هز كتفيه.

– لم يكن بيدي حيلة يا عزيزي واتسون. عليك أن تلعب بأفضل بطاقاتك عندما يكون رهانًا كهذا على الطاولة. على أية حال، يسعدني القول بأن لدي خصمًا بغيضًا على أتمِّ استعدادٍ لأن يقضي عليَّ بمجرد أن أدير له ظهري. يا لها من ليلة بديعة!

– أيعجبك هذا الطقس؟

– إنه يناسب خطتي. فقد نويت السطو على منزل ميلفيرتون الليلة يا واتسون.

انقطعت أنفاسي لوهلة وتجمدت أوصالي لدى سماع الكلمات، تلك التي قالها ببطء وبنغمة تنم عن عزمٍ لن ينثني. ومثلما تُظهِر ومضة البرق ليلًا في لحظة واحدة كل تفاصيل المشهد الواسع، رأيت في لمحة واحدة كل النتائج المحتملة لهذا التصرف – التحريات والقبض على هولمز وانتهاء مسيرتنا المهنية المشرفة بفشلٍ وخزيٍ لا سبيل إلى إصلاحهما، ووقوع صديقي نفسه تحت رحمة ميلفيرتون البغيض.

صحت به: حبًّا بالرب يا هولمز، فكِّر فيما تنوي فعله.

– فكرت فيه مليًّا يا رفيقي العزيز. لم تكن تصرفاتي يومًا متسرعة، ولم أكن لأتخذ هذا الطريق الشاق بل الخطر إن كان غيره ممكنًا. لننظر إلى المسألة نظرة واضحة ومنصفة. أظنك تعترف أن هذا

التصرف مسوغ أخلاقيًّا، حتى وإن كان إجراميًّا من الناحية النظرية. فأنا لن أسطو على منزله إلا لآخذ مفكرته عنوة – الأمر الذي كنت أنت متأهبًا لمساعدتي فيه.

قلَّبت كلامه في رأسي.

ثم قلتُ: نعم، إنه مبرَّر أخلاقيًّا ما دام هدفنا ألا نأخذ إلا الأغراض التي تُستخدم لمقاصد غير مشروعة.

– بالضبط. ولَمَّا كان مبررًا أخلاقيًّا، فلا يبقى سوى التفكير في مسألة الخطر الواقع عليَّ. ولكن مؤكَّد أنه ليس لرجلٍ نبيل أن يلقي بالًا للأخطار حينما تكون إحدى السيدات في أمس الحاجة لمساعدته، صحيح؟

– لكنك بهذا تخالف مبادئك.

– نعم، وهذا جزءٌ من المخاطرة. ليس ثمة طريقة أخرى لاسترداد تلك الرسائل. فالليدي البائسة لا تملك المال، وليس من معارفها من تثق به. وغدًا هو آخر يوم في المهلة، وما لم نحصل على الرسائل الليلة، سينفذ هذا الشرير تهديده ويُنزل بحياتها الخراب. لذلك إما أن أترك موكلتي لمصيرها المحتوم أو ألقي بهذه الورقة الأخيرة. أحدثك صراحةً يا واتسون، لقد صار الأمر أشبه بمبارزة بيني وبين هذا الرجل المدعو ميلفيرتون. وقد فاز بالجولة الأولى كما رأيت، لكن احترامي لذاتي وسمعتي يُحتمان عليّ أن أقاتل حتى النهاية.

قلت: حسنًا، الأمر لا يروق لي، لكنه شرٌّ لا بد منه. متى ننطلق؟

– لن آخذك معي.

– إذًا لن أدعك تذهب. أقسم لك بشرفي –والذي لم أحنث به يومًا في حياتي– أنني سأستقل عربة أجرة إلى قسم الشرطة مباشرةً وأشي بك ما لم تدعني أشاركك هذه المغامرة.

– لا يسعك مساعدتي.

– أنّى لك أن تعرف هذا؟ ليس بإمكانك أن تعرف ما قد يحدث. لقد حسمت أمري على أية حال. لست وحدك من يملك احترامًا لذاته، بل سمعته أيضًا.

بدا هولمز متضايقًا في البداية ثم سرعان ما ابتسم وربت على كتفي.

– حسنٌ حسن يا رفيقي العزيز، ليكن ذلك. لقد تشاركنا الغرفة نفسها لسنوات، وسيكون مسليًا أن نتشارك في النهاية الزنزانة نفسها أيضًا. أتعلم يا واتسون، لا أمانع أن أعترف لك بأنني كثيرًا ما راودتني فكرة أن بإمكاني أن أكون مجرمًا عالي الكفاءة. تلك هي فرصة عمري في هذا المنحى. انظر! ثم أخرج حقيبة جلدية صغيرة أنيقة من أحد الأدراج، وفتحها ليظهر عدد من الأدوات اللامعة. هذه عدة سطو حديثة من الطراز الأول، تضم عتلة صغيرة مطلية بالنيكل، وقاطع زجاجي ماسي الرأس، ومفاتيح قابلة للتكيف، وكل ما يتطلبه ركب الحضارة من تحسينات حديثة. وها هو مصباحي الذي يمكن طمس ضوئه[4]. كل شيء جاهز. هل لديك حذاء كاتم للصوت؟

لدي حذاء تنس مطاطي.

ممتاز. وقناع؟

– يمكنني أن أصنع زوجين من الحرير الأسود.

– أرى أن لديك نزعة قوية لهذا النوع من الأمور. ممتاز؛ لتصنع أنتَ الأقنعة. سنتناول عشاءً باردًا قبل أن نبدأ. الساعة الآن التاسعة والنصف. في الحادية عشرة سنستقل عربة إلى شارع تشيرش رو. ثم يكون أمامنا مسيرة ربع ساعة من هناك وحتى أبلدور تاورز. سنبدأ العمل قبل منتصف الليل. ميلفيرتون نومه ثقيل وهو يذهب إلى فراشه في تمام العاشرة والنصف. إذا حالفنا الحظ سنعود إلى البيت بحلول الثانية فجرًا وفي جيبي رسائل الليدي إيفا.

ارتديتُ أنا وهولمز ملابس أنيقة، كي نبدو كفردين من رواد المسارح العائدين إلى منازلهم. وفي شارع أوكسفورد استقللنا عربة يجرها حصان حتى وصلنا إلى مكانٍ ما في هامبستيد. عندها دفعنا للحوذي أُجرته، ثم مشينا على طول حافة المرج بعد أن زررنا معطفينا الكبيرين؛ فقد كان البرد قارسًا وكادت الرياح تعصف بنا.

قال هولمز: هذه المهمة تحتاج إلى حرصٍ شديد. فالرسائل محفوظة في خزينة في غرفة مكتب ميلفيرتون، وغرفة المكتب هي غرفة الانتظار التي تقع في مدخل غرفة نومه. ولكن مثله مثل جميع أولئك الرجال البُدُن قصيري القامة الأثرياء، فإنه ينام نومًا ثقيلًا. تقول أجاثا –خطيبتي– إن الخدم يتمازحون فيما بينهم بأن سيدهم يستحيل إيقاظه. ولديه مساعد مكرس لخدمته ولا يتزحزح من غرفة المكتب طوال اليوم. ولهذا السبب اخترتُ الذهاب ليلًا. كذلك فإنه يملِك كلبًا ضاريًا يتجول في حديقة المنزل. حتى إنَّ أجاثا كانت تضطر إلى حبس ذلك الوحش كي تؤمن الطريق حين التقيت بها متأخرًا في الأمسيتين الفائتتين. ها هو ذا المنزل الكبير المحاط بالأراضي التابعة له. لندخل من البوابة. والآن لنتجه يمينًا وسط أكاليل الغار تلك. علينا أن نضع أقنعتنا هنا. كما ترى، لا يظهر أي بصيصٍ من ضوءٍ في أي من النوافذ، وكل شيء يسير على أحسن ما يرام.

تسللنا إلى المنزل المظلم الصامت، بأغطية الوجه الحريرية السوداء التي جعلتنا نبدو مثل لصّين من أكثر الشخصيات إجرامًا في لندن. امتدت شُرفة مكسوة بالقرميد على أحد جانبي المنزل، وقد اصطفت فيها عدة نوافذ وبابان.

همس هولمز: تلك هي غرفة نومه. وهذا الباب يؤدي مباشرةً إلى غرفة المكتب. إنه الأنسب للدخول، لكنه موصد بالأقفال والمزاليج، وسنُحدث جلبة كبيرة إذا حاولنا فتحه. تعالَ من هنا. فهناك دفيئة زجاجية تؤدي إلى غرفة الرسم.

كانت الدفيئة مغلقة، لكن هولمز أزال بالقاطع الماسيّ دائرةً من الباب الزجاجي ثم أدار المفتاح من الداخل. وبعدها بلحظة كان يغلق الباب من خلفنا. ها قد أصبحنا مجرمين في نظر القانون. اختنقنا بهواء المشتل الثقيل الدافئ وعَبير النباتات الغريبة الخانق الكثيف. قبض هولمز على يدي في الظلام وقادني بسرعة عبر صفوف من الشجيرات التي ظلت تصطدم بوجوهنا. كان هولمز يتمتع بقدرات فريدة على الرؤية في الظلام. ظل قابضًا على يدي بإحدى يديه ثم فتح بابًا، وأدركت على نحو مبهم أننا دخلنا غرفة كبيرة كان يدخن فيها أحدهم سيجارًا قبل فترة ليست طويلة. تَلَمّسَ هولمز طريقه عبر الأثاث، وفتح بابًا آخر، ثم أغلقه وراءنا. مددت يدي وتحسست عدة معاطف معلقة على الجدار، وفهمت

أننا في ممر. مضينا عبره، ثم فتح هولمز أحد الأبواب على اليمين برفقٍ شديد فاندفع شيء ما باتجاهنا وقفز قلبي فزعًا، لكنني كدت أضحك عندما أدركت أنها قطة. كانت المدفأة موقدة في هذه الغرفة الجديدة، وللمرة الثانية شعرنا بالهواء مثقلًا بدخان التبغ. دخل هولمز على رؤوس أصابعه، وانتظرني لأتبعه، ثم برفقٍ شديد أغلق الباب. هكذا صرنا في مكتب ميلفيرتون، ورأينا الستار المؤدي إلى غرفة نومه على الجانب الآخر.

كانت نيران المدفأة المشتعلة تضيء الغرفة. وبالقرب من الباب رأيت وميض مفتاح كهرباء، لكننا لم نكن بحاجة إليه، حتى وإن كان فتحه آمنًا. وعلى أحد جانبي المدفأة انسدل ستارٌ ثقيل يغطي النافذة البارزة التي رأيتُها من الخارج. وعلى الجانب الآخر كان الباب المؤدي إلى الشُّرفة. وفي المنتصف وُضع مكتب بمقعد دوار من الجلد الأحمر اللامع. وفي مواجهته مكتبة كبيرة وُضع أعلاها تمثال نصفي رُخامي لأثينا. ثم رأيت خزينة طويلة خضراء في الزاوية بين المكتبة والجدار وقد عكست مقابضها النحاسية اللامعة ضوء النيران على واجهتها. تسلل هولمز إليها ووقف يتأملها. ثم سار بخفة إلى باب غرفة النوم، ووقف عنده وأسند رأسه إليه منصتًا بانتباه، لكن لم يصدر منه صوت. ثم أدركت في اللحظة نفسها أن من الحكمة تأمين طريق رجوعنا عبر الباب الخارجي فذهبت لأعاينه. ولدهشتي لم يكن موصدًا بأي قفل أو مزلاج! خبطت على ذراع هولمز، فأدار وجهه المقنّع إلى ذاك الاتجاه. رأيته يجفل، وأدركت أنه قد فوجئ بالباب غير الموصد مثلي.

اقترب هولمز بشفتيه من أذني وهمس قائلًا: لا يعجبني هذا. لا يمكنني تفسيره. لكن ليس لدينا وقتٌ لنضيعه.

– هل هناك ما يسعني فعله؟

– نعم، قف عند الباب. إذا سمعت أحدًا يقترب، أوصده من الداخل، ويمكننا الخروج مثلما دخلنا. أما إذا جاء أحدهم من الناحية الأخرى، فيمكننا الهرب من هذا الباب إن كنا قد أنجزنا مهمتنا، أو الاختباء خلف هذه الستائر إن لم نكن قد أنجزناها. فهمت؟

أومأت برأسي ووقفت عند الباب. تلاشى شعوري الأول بالخوف وانتابني حماس أقوى مما شعرت به يومًا حينما كنا حماة القانون لا منتهكيه. لقد تضاعفت شجاعتنا على المجازفة في مهمتنا بفضل هدفها السامي، ووعينا بطابعها الإيثاري النبيل، وشخصية خصمنا الشريرة. استمتعت بالخطر المحدق بنا واغتبطت به دون أي شعور بالذنب. راقبت هولمز بإعجاب وهو يبسط حقيبة أدواته وينتقي منها بدقَّةِ جراح يُجري عملية صعبة وحساسة. كنت أعلم أن فتح الخزائن كان إحدى هواياته المفضلة، وتفهمت السعادة التي منحته إياها مواجهة هذا الوحش ذي اللونين الذهبي والأخضر، التنين الذي كان يحمل في أحشائه سُمعة كثير من السيدات الجميلات. شمَّر هولمز كُمَّي سترته –بعدما وضع معطفه الثقيل على أحد المقاعد– وأخرج مثقابين وعتلة صغيرة وعدة مفاتيح هيكلية. وقفت عند الباب الأوسط أراقب بعيني الأبواب الأخرى، متأهبًا لأي طارئ؛ رغم أن خططي في الواقع كانت مبهمة فيما يتعلق بما ينبغي فعله إن قاطعنا أحدهم. ظل هولمز يعمل لنصف الساعة بتركيز شديد، يضع أداة ليلتقط أخرى، مستخدمًا كلًّا منها بقوة وعناية ميكانيكي مخضرم. وأخيرًا سمعت تكَّة، ثم تأرجح الباب الأخضر

العريض منفتحًا، ولمحت بداخله عددًا من الحزم الورقية، كل منها مربوط ومختوم وعليه كتابة. أخرج هولمز إحدى الحزم، لكن القراءة كانت صعبة على ضوء النيران المتذبذب، فاستل مصباحه الصغير الذي يمكن طمس ضوئه، حيث كان من الخطورة أن نشغل الضوء الكهربائي مع وجود ميلفيرتون في الغرفة المجاورة. فجأة رأيته يتوقف وينصت بانتباه، ثم في لحظة كان قد أغلق باب الخزانة والتقط معطفه وحشر أدواته في جيوبه وهرع خلف ستار النافذة، مشيرًا إلي كي أتبعه.

لم أكد أنضم إليه حتى سمعت الصوت الذي نبَّه حواسه الأشد إرهافًا. كانت هناك جلبة في مكان ما بالمنزل. ثم سمعتُ بابًا يُصفق من بعيد، وهمهمة خافتة حائرة تزامنت مع وقعٍ منتظم لخطوات متثاقلة كانت تقترب سريعًا. كانت الخطوات آتية من الممر خارج الغرفة. ثم توقفت عند الباب الذي انفتح بعدها. تلا ذلك صوت تكَّة تشغيل المصباح الكهربائي، وانغلق الباب مرة أخرى. ثم حمل الهواء إلينا رائحة السيجار القوية الحادة. استمرت الخطوات ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا، على بعد بضع ياردات منا. وأخيرًا صدر صرير من أحد المقاعد توقفت معه الخطوات. ثم سمعت تكّة مفتاح في قفل وحفيف أوراق.

لم أجرؤ حتى تلك اللحظة على النظر من خلف الستار، لكنني أزحت مفترق الستار أمامي برفق واختلست النظر، عالمًا من مزاحمة كتف هولمز لكتفي أنه يشاركني المراقبة. وأمامنا مباشرةً رأينا ظهر ميلفيرتون المستدير العريض، نكاد نستطيع لمسه. اتضح أننا قد أخطأنا كليًّا في حساب تحركاته، وأنه لم يكن في غرفة نومه البتة، بل كان يجلس في غرفة التدخين أو البلياردو في الجناح الأقصى من المنزل الذي لم نرَ نوافذه. كان رأسه العريض الأشيب، بصلعته اللامعة، أمام بصرنا مباشرةً، مستلقيًا على مقعد المكتب الجلدي الأحمر، مادًّا ساقيه، وقد برز سيجار أسود طويل من زاوية فمه. كان يضع سترة تدخين شبه عسكرية لونها أحمر داكن بياقة من المخمل الأسود، ويمسك بين يديه وثيقة قانونية طويلة يقرؤها بخمول، بينما ينفث من بين شفتيه حلقات من دخان التبغ. لم يبشر سلوكه المتراخي وجلسته الهادئة بأنه سيغادر سريعًا.

شعرتُ بيد هولمز تتسلل إلى يدي وتهزها لبثِّ الطمأنينة في نفسي، كما لو أنه يخبرني بأن الموقف تحت سيطرته وأنه ليس قلقًا. لم أكن متأكدًا إن كان قد رأى ما بدا واضحًا جدًّا من موقعي، وهو أن باب الخزينة لم يُغلق تمامًا، وأن ميلفيرتون قد يلاحظ ذلك في أي لحظة. نويتُ في قرارة نفسي أنني متى رأيتُ نظراته تتجمد وتيقنت من رؤيته باب الخزينة، سأثب خارجًا في الحال وألقي بمعطفي الكبير على رأسه وأقيده، ثم سأترك البقية لهولمز. لكن ميلفيرتون لم يرفع عينيه قط. بل أبدى اهتمامًا فاترًا بالأوراق التي في يده، ومضى يقلب صفحة بعد صفحة بينما يتابع الحُجَّة القانونية. ظننت أنه سيرجع إلى غرفته على الأقل حينما يُنهي الوثيقة والسيجار؛ لكن قبل أن يبلغ نهاية أي منهما حدث تطور مفاجئ حوّل أفكارنا إلى منحى مختلف تمامًا.

كنت قد ضبطت ميلفيرتون أكثر من مرة ينظر في ساعته، ونهض ذات مرة ثم جلس مجددًا بحركة تنم عن نفاد صبره. أما فكرة أنه كان على موعد مع أحدهم في هذا الوقت الغريب فلم تخطر ببالي حتى

بلغ مسامعي صوت خافت آتٍ من الشُرفة بالخارج. أسقط ميلفيرتون أوراقه وجلس منتصبًا في مقعده. تكرر الصوت، ثم سمعت طرقة خفيفة على الباب. نهض ميلفيرتون وفتحه.

قال باقتضاب: حسنًا، لقد تأخرتِ نصف ساعة تقريبًا.

كان هذا إذًا تفسير الباب غير الموصد ويقظة ميلفيرتون الليلية. سمعتُ حفيف ثوب امرأة. كنت قد أغلقت فتحة الستار حين نظر مليفرتون باتجاهنا، لكنني غامرت بحرص شديد لأفتحها ثانيةً. عاد ميلفيرتون إلى مقعده، وما زال السيجار بارزًا بغطرسة من زاوية فمه. وأمامه، وتحت وهج المصباح الكهربائي، وقفت سيدة سمراء نحيفة وطويلة، تغطي وجهها بوشاحها وتتدثر بعباءتها حول ذقنها. كانت أنفاسها سريعة ومتلاحقة، وكل بوصة من جسدها الغض تنتفض بانفعال قوي.

قال ميلفيرتون: حسنًا، لقد ضيَّعتِ عليَّ راحتي الليلة يا عزيزتي. آمل أن تثبتي لي استحقاقك. ألم يكن باستطاعتك المجيء في وقتٍ آخر؟

هزت السيدة رأسها بالنفي.

– حسنًا، لا عليك. إذا كانت الكونتيسة سيدة صعبة المراس فلديكِ الآن فرصة لتردي لها الضربة. هدِّئي من روعك يا فتاة، لمَ ترتجفين هكذا؟ نعم! تماسكي! والآن، لنبدأ العمل. ثم التقط ميلفيرتون ورقة من درج مكتبه. تقولين إن لديكِ خمس رسائل تفضح كونتيسة ألبرت وتريدين بيعها، وأنا أريد شراءها. لا بأس حتى الآن. لم يبقَ أمامنا إلا الاتفاق على سعر. لكنني أودّ أن أعاين الرسائل بالطبع، وإن كانت العينات جيدة حقًّا... ربَّاه، أهذا أنتِ؟

رفعت المرأة وشاحها وأنزلت عباءتها عن ذقنها من دون أن تنبس ببنت شفة. ورأى ميلفيرتون وجهًا أسمر جذاب محدد القسمات، وجهًا ذا أنفٍ معقوف وحاجبين داكنين كثيفين يظللان عينين قويتين لامعتين، وفمٍ مستوٍ رفيع الشفتين يكشف عن ابتسامة خطيرة.

قالت السيدة: إنه أنا، المرأة التي دمرتَ أنتَ حياتها.

ضحك ميلفيرتون ولكن الخوف هزَّ صوته. قال: لقد تصرفتِ بعنادٍ شديد. لمَ دفعتِني لارتكاب تلك التصرفات البشعة؟ أؤكد لك أنني لا أقدر على إيذاء ذبابة بإرادتي، لكن لكل رجلٍ عمله، فما الذي كان يسعني فعله؟ لقد حددت سعرًا يناسب قدراتك المادية لكنكِ أبيتِ الدفع.

فأرسلتَ تلك الرسائل إلى زوجي، أنبل رجلٍ عاش على وجه الأرض، الرجل الذي لم أستحق حتى ربط حذائه، فانفطر قلبه النبيل ومات. أتذكُر تلك الليلة التي جئتُ فيها من هذا الباب لأتوسل إليك وأسترحمك، وضحكت عليّ مثلما تحاول أن تضحك الآن، لكنَّ قلبك الجبان يعجز عن منع شفتيك من الارتعاش؟ نعم، لم تظن ولو للحظة أنك ستراني هنا مجددًا، ولكن تلك الليلة علَّمتني كيف أستطيع الاجتماع بك وجهًا لوجه بمفردك. حسنًا يا تشارلز ميلفيرتون، ماذا لديك لتقوله؟

نهض قائلًا: لا تتصوري أن باستطاعتك إخافتي. فليس عليَّ سوى أن أرفع صوتي وأستدعي الخدم ليلقوا القبض عليكِ. لكنني سأعذرك لغضبك المنطقي. فتفضلي وغادري الغرفة فورًا كما دخلتِها، ولن أزِيد كلمة واحدة.

وقفت المرأة وقد دست يدها في صدر ثوبها، وعلى شفتيها الرفيعتين الابتسامة المخيفة نفسها.

– لن تستطيع تدمير حياة أناسٍ آخرين كما دمرت حياتي. ولن تُدمي قلوب أناسٍ آخرين كما أدميت قلبي. سأخلص العالم من سُمّك. إليك هذه أيها الوغد، وهذه! – وهذه! – وهذه!

كانت قد أخرجت مسدسًا صغيرًا لامعًا، وراحت تفرغ رصاصاته الواحدة تلو الأخرى في جسد ميلفيرتون، الذي كان قميصه على مسافة قدمين من فوهة المسدس. تراجع ميلفيرتون خوفًا ثم سقط للأمام فوق الطاولة، وهو يئن بعنف وينبش الأوراق. ثم وقف مترنحًا فتلقى رصاصة أخرى وتدحرج على الأرض. صرخ قائلًا: لقد قتلتِني. ثم همد جسده. نظرت المرأة إليه مليًّا وداست بكعبها على وجهه المقلوب. ثم تأملته ثانيةً، ولكن لم يصدر منه أي صوت أو حركة. ثم سمعتُ حفيفًا حادًّا، واندفع هواء الليل إلى الغرفة الدافئة بينما انصرفت الفتاة المنتقمة.

لم يكن لأي تدخل من جانبنا أن ينقذ الرجل من مصيره؛ ولكن بينما كانت المرأة تفرغ رصاصات مسدسها الواحدة تلو الأخرى في جسد ميلفيرتون المنكمش كدت أن أثب خارجًا من مكاني، عندما أحسست بقبضة هولمز الباردة القوية على رسغي. فهمت الغرض من تلك القبضة الحازمة المحكمة – وهي أنَّ لا شأن لنا فيما يحدث؛ أنَّ العدالة قد نالت من أحد الأشرار؛ وأنَّ لدينا واجبات وأهدافًا لا ينبغي أن نغفل عنها. ولكن بمجرد أن اندفعت المرأة خارجًا، انطلق هولمز بخطوات مكتومة وخفيفة إلى الباب الآخر. أدار المفتاح في القفل. ثم في اللحظة ذاتها سمعنا أصواتًا في الأرجاء ووقع خطوات مسرعة. لقد أيقظت طلقات المسدس ساكني المنزل. هرع هولمز بهدوء تام إلى الخزانة، وأخذ ملء ذراعيه رزمًا من الخطابات، وألقى بها في نيران المدفأة. فعل ذلك مرة تلو أخرى، حتى فرغت الخزانة. أدار أحدهم مقبض الباب وأخذ يطرقه. جال هولمز ببصره في الغرفة بسرعة. الخطاب الذي كان نذير الموت لميلفيرتون كان موضوعًا على الطاولة وملطخًا كليًّا بدمائه. قذف به هولمز وسط الأوراق المحترقة. ثم سحب مفتاح الباب الخارجي، وخرج ورائي موصدًا الباب من الخارج. وقال: من هنا يا واتسون. يمكننا تسلق سور الحديقة من هذا الاتجاه.

لم أصدق أن الذعر يمكن أن ينتشر بهذه السرعة. فعندما نظرت ورائي، رأيت المنزل وقد أصبح كله شعلة واحدة متوهجة. انفتح الباب الأمامي واندفع عدد من الأشخاص إلى الرصيف، وامتلأت الحديقة بالناس. أطلق أحدهم صيحة تنبيه عند خروجنا من الشُرفة ثم انطلق يعدو وراءنا فورًا. بدا أن هولمز على دراية جيدة بجغرافية المكان، فشق طريقه بسرعة بين مجموعة من الشجيرات، ومضيتُ أنا في عقبه، بينما يركض مطاردنا لاهثًا خلفنا. بلغ ارتفاع سور الحديقة أمامنا ستة أقدام. وثب هولمز إلى أعلاه ثم هبط إلى الجانب الآخر. لكنني ما كدت أتبعه حتى شعرت بيد المطارد تقبض على كاحلي، فركلته محررًا نفسي وزحفت فوق إفريز مغطى بالزجاج. سقطت على وجهي بين بعض الشجيرات؛ فأعانني هولمز على الوقوف بسرعة، وانطلقنا مبتعدين عبر مرج هامبستيد الواسع. أظن أننا ركضنا مسافة ميلين قبل أن يقف هولمز أخيرًا ويرهف السمع. لم يحِط بنا إلا الصمتُ المُطبق. لقد انفلتنا من مطاردينا وأصبحنا في أمان.

في الصباح الذي تلا تلك المغامرة الفريدة، تناولنا الفطور وكنا ندخن غليوننا الصباحي، عندما دخل السيد ليستراد –المحقق من شرطة سكوتلاند يارد– بهيبة ووقارٍ كبيرين إلى حجرة جلوسنا المتواضعة.

قال: طاب صباحك يا سيد هولمز. طاب صباحك. هل لي أن أسألك إن كنت مشغولًا الآن؟

– لستُ مشغولًا إلى الحد الذي يمنعني من سماعك.

– خطر لي أنه إن لم تكن منشغلًا بقضية بعينها، فربما قد تهتم بمساعدتنا في الواقعة الغريبة التي حدثت ليلة أمس في هامبستد.

قال هولمز: يا إلهي! ماذا حدث؟

– جريمة قتل – جريمة القتل الأكثر مأساوية وغرابة. أعلم مدى ولعك بهذه الأشياء، وسأكون ممتنًّا جدًّا إذا ذهبت معي إلى أبلدور تاورز وأفدتنا بمشورتك. إنها ليست جريمة عادية. فقد كنا نراقب السيد مليفيرتون هذا منذ فترة، ونعلم في قرارة أنفسنا أنه كان شريرًا. فقد اشتُهر باحتفاظه بأوراق ليستخدمها في أغراض ابتزازية. وقد أحرق القتلة كل تلك الأوراق. لم تُسرق أي مقتنيات، لذلك فإن المجرمين على الأرجح رجال ذوو نفوذٍ قوي، غرضهم الوحيد هو منع الفضيحة الاجتماعية.

قال هولمز: مجرمين! لا مجرم واحدا!

– نعم، فقد كانا اثنين. لقد كادا يُضبطان متلبسَين بالجريمة. ولدينا آثار أقدامهما وأوصافهما؛ لذلك يسهل جدًّا تتبعهما. كان الشخص الأول شديد النشاط نوعًا، أما الثاني فقد كاد البُستاني أن يمسكه لكنه أفلت منه بعد عراك. كان رجلًا متوسط الحجم قوي البنية بفك مربع وعنق عريض وشارب، وكان يضع قناعًا على عينيه.

قال شيرلوك هولمز: هذه الأوصاف مُبهمة قليلًا. فكأنما تصف واتسون!

قال المفتش ضاحكًا: هذا صحيح. كأنما أصفُ واتسون!

– حسنًا، أخشى أني لا أستطيع مساعدتك يا ليستراد. الحقيقة هي أنني كنت أعرف هذا الرجل المدعو ميلفيرتون، وكنت أعده واحدًا من أخطر الرجال في لندن، وأؤمن أن هناك جرائم معينة لا يطالها القانون؛ ومن ثم فإنها تسوّغ إلى حدٍّ ما الانتقام الشخصي. كلا، لا فائدة من الجدال. لقد حسمتُ أمري. إن تعاطفي هنا مع المجرمين وليس مع الضحية، ولن أتولى هذه القضية.

لم يقل لي هولمز كلمة واحدة عن المأساة التي شهدناها، لكنني لاحظت غرقه في التفكير طوال الصباح، وقد أحسست من عينيه الخاويتين وسلوكه الذاهل أنه يحاول جاهدًا استدعاء شيءٍ ما من ذاكرته. كنا نتناول غداءنا عندما هب واقفًا فجأة. وصاح قائلًا: يا الله؛ لقد تذكرت يا واتسون! اجلب قبعتك! تعالَ معي! هرع بأقصى سرعة عابرًا شارع بيكر وشارع أوكسفورد، حتى كدنا نصل إلى ميدان ريجنت. وهناك كان على يسارنا واجهة متجر ممتلئة بصور لمشاهير العصر وجميلاته. ثبَّت هولمز عينيه على إحداها، وبتتبع نظرته رأيت صورة لسيدة مهيبة وفخمة في زيٍّ من أزياء البلاط، وعلى رأسها التمع تاجٌ من الألماس. نظرت إلى الأنف المعقوف قليلًا والحاجبين المحددين والفم المستقيم والذقن الصغيرة القوية من تحته. ثم حبست أنفاسي وأنا أقرأ الاسم العريق لأحد نبلاء ورجال الدولة العظماء الذي كانت هذه السيدة زوجته. التقت عيناي بعيني هولمز، فوضع إصبعه على شفتيه بينما استدرنا مبتعدين عن الواجهة.

أو debudante **وهي كلمة** فرنسية تعني الفتاة المبتدئة، وتطلق على الفتيات الأرستقراطيات اللاتي يظهرن لأول مرة في الحفلات الاجتماعية بمجرد بلوغهن سن الرشد. في الماضي كان الهدف من تلك الحفلات هو إظهار الفتاة للعزاب المؤهلين للزواج ضمن دائرة مختارة، أما اليوم فقد صار الهدف هو إتاحة الفرصة للشابات للاطلاع على الآداب وحسن السلوك في المجتمع.

المصباح الذي يمكن طمس ضوئه هو مصباح مزود بمصراع ينزلق ليطمس الضوء دون الحاجة إلى إطفاء الشمعة الموجودة بداخله.

مغامرة تماثيل نابليون الستة

اعتاد السيد ليستراد –المحقق في شرطة سكوتلاند يارد– أن يأتينا في زيارات مسائية من حينٍ لآخر، وكانت زياراته تلقى ترحيبًا من شيرلوك هولمز، الذي تمكَّن بفضلها من الاطِّلاع على كل ما يجري في مقر الشرطة الرئيس. وفي مقابل الأخبار التي يجلبها ليستراد معه، كان هولمز دومًا على أتم استعداد للاستماع إلى تفاصيل أي قضية ينشغل بها المحقق بانتباه، ولمنحِه من آنٍ لآخر، ومن دون تدخُّل مباشر، تلميحات أو اقتراحات مستمدَّة من معارفه وخبراته الواسعة.

وفي تلك الأمسية بالتحديد تحدث ليستراد عن الطقس وأخبار الصحف. ثم سكت قليلًا وأخذ ينفث دخان سيجاره مفكِّرًا، فنظر هولمز إليه بانتباه.

ثم سأله: أهناك ما يشغل ذهنك؟

– أوه، كلا يا سيد هولمز، إنه ليس بالأمر المهم.

– فلتخبرني به إذن.

ضحك ليستراد.

– حسنًا يا سيد هولمز، لا فائدة من إنكار أن ذهني منشغلٌ حقًّا. إنها مسألة سخيفة حتى إني كنتُ مترددًا في إزعاجك بها. ولكنها رغم تفاهتها تنطوي على غرابة لا ريب فيها؛ وإني لأعلم أنك تميل إلى كل ما هو خارج عن المألوف. ولو أن هذه المسألة في رأيي تقع ضمن اختصاص واتسون أكثر مما هي ضمن اختصاصنا.

قلتُ: أهو مرضٌ ما؟

– بل جنون. وجنونٌ من نوع غريب أيضًا! لن تصدق أن أحدًا ممن يعيشون في يومنا هذا قد يكره نابليون الأول إلى الحدِّ الذي يدفعه إلى تحطيم كل ما يراه من تماثيله.

غاص هولمز في مقعده ثانية، وقال: إن ذلك لا يهمني بحال.

– بالضبط. هكذا شعرتُ أنا الآخر. ولكن عندما يرتكب الرجل جريمة سطو من أجل تحطيم تماثيل لا يملكها، فإنه يسحب القضية من بين يدي الطبيب ويضعها بين يدي الشرطي.

اعتدل هولمز في جلسته ثانيةً، ثم قال: هل قلت سطوًا! هذا مثيرٌ للاهتمام. دعني أسمع التفاصيل.

فأخرج ليستراد مفكرته الرسمية وأنعش ذاكرته بالنظر إلى بعض صفحاتها.

ثم قال: أُبلِغ عن أول حالة منذ أربعة أيام. حدثت في متجر مورس هادسن للصور والتماثيل الواقع على طريق كيننجتون. كان المساعد قد ترك واجهة المتجر دون رقابة للحظات عندما سمع صوتَ ارتطامٍ، فأسرع ليجد أحد تماثيل نابليون الجصِّية مهشمًا فوق الرفِّ الذي كان موضوعًا عليه بجوار عدة قطع فنية أخرى. أسرع المساعد بالخروج إلى الشارع، وأخبره العديد من المارة بأنهم لمحوا رجلًا يركض خارجًا من المتجر، إلا أن المساعد لم يرَ أحدًا ولم يجد أي وسيلة للتعرف على ذاك الوغد. بدت الواقعة كأحد أعمال الشغب الخرقاء التي تحدث من حين لآخر، وأُبلغ شرطي الدورية بذلك. ولم يكن التمثال الجصّي يساوي أكثر من بضعة شلنات، وبدت المسـألة برمتها صبيانية لا تستحق أي نوع من التحقيق.

أما الحالة الثانية فقد كانت أكثر خطورة، وأشد غرابة كذلك. وقد وقعت ليلة أمس.

على بُعد بضع مئات الياردات من متجر مورس هادسن الواقع على طريق كيننجتون، كان يقطن طبيب ممارس مشهور يُدعى الدكتور بارنيكوت، يمتلك واحدة من أكبر العيادات في الضفة الجنوبية لنهر التَّايمز. يقع منزل هذا الطبيب وعيادته الرئيسة على طريق كيننجتون، بينما تقع عيادته الفرعية ومستوصفه على بُعد ميلين في شارع لوور بركستون. كان الدكتور بارنيكوت واحدًا من أشد المعجبين بنابليون، حتى إن منزله يعجُّ بكتب هذا الإمبراطور الفرنسي وصوره وآثاره. ومنذ فترة قصيرة، ابتاع الطبيب نسختين جصِّيتين متطابقتين من تمثال رأس نابليون الشهير الذي صنعه النحَّات الفرنسي ديفاين. فوضع أحد هذين التمثالين في رَدهة بيته الواقع على طريق كيننجتون، والآخر على رف مدفأة عيادته بشارع لوور بركستون. حسنًا، ذُهِل الطبيب عندما عاد إلى منزله هذا الصباح ليجد أن منزله قد تعرَّض للسطو خلال الليل، وأنه لم يُسرَق منه شيء سوى رأس نابليون الجصِّي الذي كان في الرَّدهة. فقد أخذه أحدهم وحطَّمه بعُنف على سور الحديقة، حيث عُثِر أسفله على شظاياه المتناثرة.

أخذ هولمز يفرك كفَّيه ببعضهما، وقال: هذا الأمر جديدٌ عليَّ حقًّا.

– ظننتُ أنه سيروق لك. لكنني لم أصل لنهايته بعد. كان يُفتَرَض بالطبيب الذهاب إلى عيادته الفرعية في الثانية عشرة، ولك أن تتخيَّل ذهوله حين وصل ليجد أن نافذة العيادة قد فُتِحَت في الليل، وتناثرت القطع المتكسِّرة من تمثاله الثاني في جميع أرجاء الغرفة. لقد سُحِقِ في المكان الذي كان موضوعًا فيه. وفي المرتين لم نجد أي علامة تدلنا على شخصية المجرم أو المخبول الذي ارتكب هذه الشيطنات. ها أنا ذا قد أطلعتُك على وقائع ما حدث يا سيد هولمز.

فأجابه هولمز: إنها وقائع غريبة، إن لم تكن صادمة. هل لي أن أسأل إذا كان التمثالان المحطَّمان في غرفتي الدكتور بارنيكوت مُطابقين تمامًا لذاك الذي تحطَّم في متجر مورس هادسن؟

– لقد أُخِذ ثلاثتهم من القالب نفسه.

– هذه الحقيقة تدحض نظرية تأثُّر الجاني بأي نوع من الكراهية المُطلقة تجاه نابليون. فإذا أخذنا بعين الاعتبار مئات التماثيل الموجودة في لندن لهذا الإمبراطور العظيم، فمن قبيل المبالغة أن نفترض أن ثائرًا فوضويًّا كهذا الرجل يُصادَف أن يبدأ ثورته بتحطيم ثلاث نسخ من التمثال نفسه.

قال ليستراد: هكذا فكَّرت أنا أيضًا. بيد أن مورس هادسن هذا هو الموزع الوحيد للتماثيل النصفية في تلك المنطقة من لندن، وهذه التماثيل الثلاثة كانت هي الوحيدة الموجودة في متجره منذ سنين. لذلك، وعلى الرغم من وجود مئات التماثيل في لندن –كما تقول–، فمن الوارد جدًّا أن هذه التماثيل كانت الوحيدة الموجودة في ذلك الحي. ومن ثم فطبيعي لمتعصِّب محلّي أن يبدأ بتحطيمها. ما رأيك يا دكتور واتسون؟

أجبتُ: لا حدود لما يُمكن أن يُسببه المسُّ الأُحادي. فهناك حالة مرضية أطلق عليها علماء النفس الفرنسيون المعاصرون اسم idée fixe –أي الهاجس المرضي– والتي قد تكون طفيفة الأثر على شخصية الفرد، وتُصاحبها سلامة تامة للعقل في كل النواحي الأخرى. فإذا أمعن رجلٌ مثلًا في القراءة

عن نابليون، أو أن عائلته قد عانت من ويلات الحرب العُظمى مع فرنسا، فربما يتشكل لديه هذا الهاجس المرضي ويكون مدفوعًا تحت تأثيره إلى ممارسة أي اعتداءات غريبة.

هز هولمز رأسه قائلًا: لن يفي هذا التفسير بالغرض يا عزيزي واتسون؛ إذ لا يمكن لأي قدرٍ من الهواجس المرضية أن تُمكِّن مريض المسّ الأحادي المثير للاهتمام الذي تتحدث عنه هذا أن يكتشف أماكن تلك التماثيل الثلاثة.

– إذن كيف تُفسِّر أنت الأمر؟

– لستُ أحاول فعل ذلك. غير أني أُلاحظ نمطًا معينًا في تصرُّفات هذا الرجل الغريبة. فمثلًا في رَدهة الدكتور بارنيكوت، حيث كان الصوت ليوقظ الأسرة، أخذ الرجل التمثال إلى الخارج قبل تحطيمه، بينما في العيادة الفرعية، حيث كان خطر التنبيه أقل، فقد سحق التمثال في مكانه الذي كان فيه. يبدو الأمر مفرطًا في العبثية، لكنني لا أجرؤ على وصف أي شيء بالتفاهة حينما أفكِّر أن بعضًا من أكثر قضاياي تميُّزًا لم تكُن بدايته واعدة البتة. لعلك تذكُر يا واتسون كيف لم أنتبه إلى قضية أسرة أبيرنيتي المروِّعة في بدايتها إلا بملاحظة مدى انغماس البقدونس في الزبد في أحد أيام الحر. ولهذا السبب لا يسعني الضحِك من تماثيلك الثلاثة المكسورة يا ليستراد، ولسوف أكون ممتنًّا جدًّا إن أطلعتني على أي تطورات جديدة في تلك السلسلة العجيبة من الأحداث.

أتت التطورات التي طلبها صديقي في صورة أسرع وأكثر مأساوية مما كان يتصوَّر. كنت أبدل ثيابي بغرفتي في صبيحة اليوم التالي عندما سمعتُ طرقًا على الباب، وإذا بهولمز يدخل وفي يده برقية. قرأها بصوتٍ عالٍ:

– تعالَ فورًا، 131، شارع بت، كنسنجتون.

ليستراد.

سألت قائلًا: ما الأمر إذن؟

– لا أعلم، كل شيء وارد. لكنني أظنها تتمة لقصة التماثيل. في هذه الحالة ربما يكون صديقنا، محطِّم التماثيل، قد نفَّذ عمليته في منطقة أخرى من لندن. يوجد قهوة على الطاولة يا واتسون، وعربة تنتظرنا أمام الباب.

بعد نصف ساعة كنا في شارع بت، وهو شارع خلفي صغير وهادئ يقع مباشرةً بجوار أحد أكثر أحياء لندن نشاطًا. كان المنزل رقم 131 واحدًا في صفٍّ من المنازل المتلاصقة، وكانت جميع المنازل في هذا الشارع متوسطة الحال، ليس لها واجهة أمامية، وتعوزها الشاعرية. اقتربنا فرأينا مجموعة من أناسٍ فضوليين محتشدين أمام سور المنزل.

صفر هولمز وقال: يا إلهي! لقد وقعت هنا جريمة شروع في قتل على الأقل. لن يقف فتى بريد لندن لأجل شيءٍ أقل من هذا. يبدو من عنقه الممدود وكتفيه المتقوسين أن عُنفًا قد وقع. ما هذا يا واتسون؟ إن الدرجات العُليا من السلم مغمورة بالماء والأخرى جافة. أرى ما يكفي من آثار الأقدام على أية حال! حسنٌ حسن، ها هو ذا ليستراد عند النافذة الأمامية، وسنعرف ما حدث قريبًا.

استقبلنا المحقق بوجهٍ شديد العبوس وقادنا إلى غرفة الجلوس، وبها رأينا كهلًا أشعث الشعر مبلبلَ الفكر، يرتدي ثوبًا منزليًّا خفيفًا، ويذرع الغرفة جيئة وذهابًا. عرَّفنا به المحقق قائلًا إنه صاحب المنزل السيد هوراس هاركر، الصحفي بنقابة الصحافة المركزية.

قال ليستراد: الأمر مرتبط بتماثيل نابليون مرة أخرى. كنتَ مهتمًّا بالأمر ليلة أمس يا سيد هولمز، لذا خطر لي أن حضورك الآن قد يسرُّك، فقد اتخذت القضية منحًى أكثر خطورة من ذي قبل.

– ما الذي آلت إليه إذن؟

– إلى القتل. هلا أخبرت هذين السيدين بما حدث بالضبط يا سيد هاركر؟

استدار نحونا الرجل ذو الثوب المنزلي بوجهٍ بلغ من الحزن مبلغًا.

ثم قال: إنه لشيء غريب أن أقضي حياتي بأكملها في جمع أخبار الناس، والآن وقد أصبحتُ أنا جزءًا من خبرٍ حقيقي، أجد نفسي عاجزًا من هول اضطرابي وانزعاجي عن وضع كلمتين متجاورتين. لو كنتُ هنا بصفتي صحفيًّا، لأجريت مقابلة مع نفسي وكتبتُ عمودين لكل جريدة من جرائد المساء. لكنني الآن أفرِّط في حدث صحفي ثمين مُرددًا قصتي على مسامع سلسلة من أناسٍ مختلفين، ولا يسعني أنا الاستفادة منها. على أية حال، لقد سمعت باسمك سيد هولمز، ولو أنك فقط فسَّرت لي هذه الواقعة الغريبة، فسوف يعوِّضني ذلك عن مشقَّة سرد القصة لك.

جلس هولمز يستمع بآذانٍ مصغية.

– يبدو أن الأمر برمته يدور حول تمثال نابليون هذا الذي ابتعته لهذه الغرفة بالتحديد منذ نحو أربعة أشهر. كنتُ قد حصلتُ عليه بثمن بخسٍ من متجر هاردينج برازرز، الذي يقع على بُعد بيتين من محطة هاي ستريت. وقد اعتدتُ إنجاز معظم عملي الصحفي خلال الليل، وكثيرًا ما أستغرق في الكتابة حتى الصباح الباكر. وهذا ما فعلته اليوم. كنتُ جالسًا في حجرتي، التي تقع في الجزء الخلفي من سطح المنزل، في الثالثة صباحًا تقريبًا، حينما أيقنتُ من سماعي بعض الأصوات في الطابق السفلي. أصغيت السمع لكن الأصوات لم تتكرر، فاستنتجت أنها أتت من الخارج. وفجأة، بعد نحو خمس دقائق، دوَّت صرخة مرعبة؛ أفظع صوتٍ سمعتُه في حياتي يا سيد هولمز. ولسوف يتردد صداه في أذني ما حييت. تجمدتُ في مكاني من فرط الرعب لدقيقة أو دقيقتين. ثم التقطت عمود المدفأة ونزلتُ إلى الطابق السفلي. وحينما دخلتُ إلى هذه الغرفة التي نحنُ فيها وجدتُ النافذة مفتوحة على مصراعيها، ولاحظتُ فورًا غياب التمثال من فوق رف مدفأة الحجرة. وإني لأعجز عن فهم السبب الذي قد يدفع أي لصٍّ لسرقة شيءٍ كهذا، فما هو إلا تمثال جصِّي لا قيمة له.

وكما تلاحظ، فإن الخارج من هذه النافذة المفتوحة يمكنه الوصول لعتبة الباب الأمامية إذا خطا خطوة واسعة. وكان واضحًا أن هذا ما فعله اللص، فاستدرت وفتحت الباب الأمامي. وخطوت إلى الخارج في الظلام فكدت أسقط فوق جثة رجل كانت ممددة هناك. عدت إلى الداخل بسرعة لأحضر مصباحًا، وحينها رأيتُ هذا الرجل المسكين. كان في حلقه جرحٌ عميق والمكان كله غارقٌ في الدماء. كان ممددًا على ظهره بركبتين مرفوعتين وفمٍ مفتوحٍ بصورة مرعبة. لسوف يُطاردني هذا المنظر في أحلامي.

وبالكاد أسعفني الوقت لأنفخ في صافرة الشرطة، ثم مؤكد أني غبتُ عن الوعي بعدها، لأنني لم أدرِ بشيء حتى رأيت الشرطي يقف عند رأسي في الرَّدهة.

سأل هولمز: ومن القتيل إذن؟

قال ليستراد: لم نستدل على هُويته بعد. سترى الجثة في المشرحة، لكنها لم تدلُّنا على شيء حتى الآن. كان القتيل رجلًا طويل القامة قوي البنية بارز الملامح، ولا يجاوز عمره الثلاثين. يرتدي ثيابًا رثة، رغم أنه لا يبدو من العمال. وكانت الجثة تسبح في بركة من الدماء وإلى جوارها مدية مقبضها مصنوع من قرن الغزال. لا أعرف أهي السلاح الذي ارتُكب به الجريمة أم أنها تخصُّ القتيل نفسه. لم نرَ اسمًا على ثيابه، ولم نجد في جيوبه سوى تفاحة وحبل وخريطة صغيرة لمدينة لندن وصورة. ها هي ذي.

كان واضحًا أن الصورة التُقطت سريعًا بكاميرا صغيرة. يظهر بها رجلٌ رشيق حاد الملامح يُشبه القردة، له حاجبان كثيفان، والجزء السُفلي من وجهه بارز على نحو شديد الغرابة.

تفحَّص هولمز الصورة بعناية، ثم سأل: وما الذي حدث للتمثال؟

– وصلتنا أخبار عنه قبيل مجيئك. عُثر عليه مُهشَّمًا في الحديقة الأمامية لمنزل مهجور يقع على طريق كامدن هاوس. إنني ذاهب الآن لإلقاء نظرة عليه، هلا تأتي معي؟

– بالطبع. دعني أُلقي نظرة على المكان وحسب. وراح هولمز يعاين السجاد والنافذة، ثم قال: إما أن هذا الرجل يملك ساقين طويلتين جدًّا أو جسمًا بالغ الرشاقة. فالوصول إلى حافة نافذة بهذا الارتفاع من الخارج وفتحها ليس بالأمر الهيِّن. أما الرجوع فكان أسهل بالمقارنة. هل ستأتي معنا لرؤية حُطام تمثالك يا سيد هاركر؟

كان الصحفي المغموم قد استقر على مقعده خلف طاولة الكتابة.

قال: عليَّ أن أحاول الاستفادة مما حدث. وإن كنتُ متأكدًا أن الطبعات الأولى من جرائد المساء قد صدرت بالفعل وبها التفاصيل كاملةً. يا لحظي العاثر! أتذْكُرون عندما انهار المدرَّج المسقوف في حلبة سباق الخيل بمدينة دونكاستر؟ حسنًا، لقد كنتُ أنا الصحفيَّ الوحيد في المدرَّج، وكانت جريدتي هي الوحيدة التي لم تُغط الخبر، ذلك لأنني عجزت عن الكتابة عنه من شدة صدمتي. والآن ستفوتني الكتابة عن جريمة قتل وقعت أمام عتبة منزلي.

وبينما نغادر الغرفة سمعنا احتكاك قلمه الذي انطلق السيد هاركر يكتُب به على الورقة.

لم تكن البُقعة التي عُثر فيها على حطام التمثال تبعد سوى بضع مئات من الياردات. وقعت أعيننا لأول مرة على نصب هذا الإمبراطور العظيم، الذي أثار على ما يبدو قدرًا هائلًا من الكراهية المحمومة المخرِّبة في عقل هذا المجرم المجهول. تناثرت أجزاؤه المتكسِّرة فوق العشب، وأخذ هولمز يلتقطها الواحدة بعد الأخرى ويتفحصها بعناية. تيقَّنت من وجهه المصمِّم وسلوكه العازم أنه قد توصَّل أخيرًا إلى دليل.

سأل ليستراد: ما رأيك؟

هز هولمز كتفيه، وقال: ما زال الطريق أمامنا طويلًا. ومع ذلك – ومع ذلك – حسنٌ، لدينا بعض الدلائل التي يسعنا الانطلاق منها؛ مثل أن حيازة هذا التمثال التافه لها قيمة أكبر في عيني هذا المجرم

الغريب من حياة إنسان. هذه نقطة. ثم هناك امتناعه الغريب عن تحطيم التمثال في المنزل، أو حتى خارج المنزل مباشرةً، لو كان تحطيمه هو غايته الوحيدة.

– لقد اضطرب تفكيره وتشوَّش بعد أن التقى بهذا الرجل الآخر. ذلك الرجل على الأرجح لم يكن واعيًا بما يفعله.

– حسنًا، هذا وارد جدًّا. لكنني أريد أن ألفت انتباهك إلى موقع هذا المنزل بالذات الذي حُطِّم في حديقته التمثال.

نظر ليستراد حوله.

– إنه منزل مهجور، ومن ثم كان المجرم يُدرك أنه ما من أحدٍ يزعجه في حديقته.

– نعم، لكننا مررنا بمنزل آخر مهجور في أول الشارع، ولا بد أنه مرَّ به هو الآخر قبل أن يأتي إلى هنا. لماذا إذن لم يحطم التمثال هناك، رغم أن كل ياردة حمله فيها كانت دون ريب تزيد من خطر التقائه بأحدهم؟

قال ليستراد: إنني أستسلم.

أشار هولمز إلى مصباح الشارع الساطع فوق رؤوسنا، ثم قال:

– لقد استطاع أن يرى ما يفعله هنا بينما لم يستطع ذلك هناك. هذا هو السبب.

قال المحقق: ربَّاه! هذا صحيح. والآن تذكَّرت أيضًا أن تمثال الدكتور بارنيكوت لم يُحطَّم بعيدًا عن مصباحه الأحمر. حسنًا يا سيد هولمز، ماذا عسانا نفعل بهذه المعلومة؟

– نتذكرها – نحتفظ بها. فربما نتعثر بشيء ما لاحقًا له علاقة بها. ما الخطوات التي تعتزم أخذها الآن يا ليستراد؟

– إن الطريقة الأكثر عملية لحلّ القضية، في رأيي، هو معرفة هُوية القتيل. لن يكون هذا صعبًا. وعندما نعرف هُويته وهُوية أصدقائه، لن نلبث أن نعرف ما الذي كان يفعله في شارع بت ليلة أمس، ومن الذي قابله وقتله أمام عتبة منزل السيد هوراس هاركر. ألا تعتقد ذلك؟

– من دون شك؛ وإن لم أكن لأتعامل مع القضية بهذه الطريقة.

– ماذا كنت لتفعل إذن؟

– أوه، عليكَ ألا تدعني أؤثر في تفكيرك بأي شكلٍ كان! أرى أن تمضي أنت في خطتك وأنا في خطتي. ثم نتبادل الملاحظات في النهاية، وعندها سيُكمل كلٌّ منا عمل الآخر.

قال ليستراد: ليكن إذًا.

– إذا كنتَ تنوي الرجوع إلى شارع بت فربما ترى السيد هوراس هاركر ثانيةً. أبلغه نيابةً عني بأنني قد حسمت رأيي، وأنه من المؤكد أن قاتلًا مجنونًا خطيرًا يعاني من أوهام نابليونية كان في منزله ليلة أمس. سينفعه هذا في مقالته.

رمقه ليستراد بارتياب قائلًا: إنك لا تعتقد ذلك حقيقةً، صحيح؟

ابتسم هولمز.

– ألا أفعل؟ حسنًا، ربما لا أعتقد ذلك. لكنني موقن أنه سيثير اهتمام السيد هوراس هاركر ومتابعي نقابة الصحافة المركزية. والآن يا واتسون، أظن أن بانتظارنا يومَ عمل طويل ومعقد. وسأكون ممتنًّا يا ليستراد إذا استطعت مقابلتنا في شارع بيكر في السادسة من مساء اليوم. وحتى ذلك الحين أودُّ الاحتفاظ بهذه الصورة التي عُثر عليها في جيب القتيل. وإذا ثبتت صحة استنتاجاتي، قد أطلب منك الرفقة والعون في رحلة استكشافية صغيرة سنضطر إلى خوضها الليلة. وحتى ذلك الحين، لتصحبك السلامة والحظ السعيد!

سرتُ أنا وشيرلوك هولمز معًا حتى وصلنا إلى محطة هاي ستريت، حيث توقف عند متجر هاردينج برادرز الذي ابتاع منه الصحفي التمثال. استقبلنا مساعد شاب وأبلغنا أن السيد هاردينج لن يأتي قبل الظهيرة، وأنه بدأ العمل في المتجر حديثًا ولن يتمكن من إعطائنا أية معلومات. لاح على وجه هولمز خيبة الأمل والانزعاج.

ثم قال أخيرًا: حسنٌ حسن، ما كل ما يتمناه المرء يُدركه يا واتسون. ما دام السيد هاردينج لن يأتي قبل الظهيرة، فسوف نعود إليه في الظهيرة. إنني أسعى –مثلما خمَّنت أنت دون شك– إلى اقتفاء مصدر هذه التماثيل، لأعرف إن كان ثمَّة شيءٌ غير مألوف قد تسبب في مصيرها الغريب. لنذهب إلى السيد مورس هادسن، على طريق كيننجتون، ونرَ إن كان باستطاعته أن يُلقي أي قدرٍ من الضوء على المشكلة.

بعد مسيرة ساعة بالسيارة وصلنا إلى مؤسسة تاجر التماثيل. كان رجلًا بدينًا قصير القامة، وجهه أحمر حاد الطبع.

قال: نعم يا سيدي. على طاولتي تمامًا يا سيدي. لستُ أدري لماذا ندفع رسومًا وضرائب إذا كان باستطاعة أي همجي الدخول إلى هنا وتحطيم بضائع الناس. نعم يا سيدي، أنا من بعث للدكتور بارنيكوت تمثاليه. حدث شائن يا سيدي! مؤامرة تخريبية، هكذا أراها أنا. لن يمضي محطمًا التماثيل إلا أحد الفوضويين المخبولين. الجمهوريون الحُمر، هكذا أسميهم. من أين جئت بالتماثيل؟ لا أدري علاقة هذا السؤال بما جرى. حسنًا، إذا كنت حقًّا تريد أن تعرف، فقد جئت بها من شركة جيلدر وشركاه، في شارع تشيرش بمقاطعة ستيبني. إنها مؤسسة شهيرة في مهنتنا، وهي كذلك منذ عشرين عامًا. كم تمثالًا كان عندي؟ ثلاثة –اثنان وواحدٌ، يساوي ثلاثة– تمثالا الدكتور بارنيكوت وواحدٌ تحطَّم في وضح النهار فوق طاولتي. هل أعرف هذه الصورة؟ كلا، لا أعرفها. بل أعرفها. يا إلهي، هذا بيبو. إنه رجلٌ إيطالي، يعمل لدينا بالقطعة، وقد كان وجوده نافعًا في المتجر. كان يجيد النحت قليلًا والطلاء بالذهب والتأطير، وأعمال أخرى شتى. قد ترك العمل عندي في الأسبوع الماضي، ولم أسمع عنه منذئذ. كلا، لا أعرف من أين جاء ولا إلى أين ذهب. لم يُزعجني طيلة وجوده هنا. لقد غادر قبل يومين من واقعة تحطيم التمثال.

قال هولمز بينما نغادر المتجر: حسنًا، هذا هو كل ما يمكننا توقُّع الحصول عليه من مورس هادسن. أما بيبو فقد أصبح عاملًا مشتركًا في كلٍّ من كيننجتون وكنسنجتون، لذلك فهو يستحق رحلة من عشرة أميال بالعربة. والآن يا واتسون، لنذهب إلى شركة جيلدر وشركاه في مقاطعة ستيبني، حيث مصدر التماثيل ومنشؤها. يقينًا سنحصل على بعض العون هناك.

سرنا بالعربة على الطريق الهامشي للندن ومررنا في تسلسلٍ سريع بأماكنها الراقية وفنادقها ومسارحها وأماكنها الأدبية والتجارية، ثم أخيرًا بأماكنها البحرية، حتى وصلنا إلى مدينة مجاورة للنهر يبلغ عدد سكانها مئة ألف نسمة، أكثرهم من منبوذي أوروبا الذين تتفصَّد أجسامهم عرقًا في مبانٍ مكدسة بالشقق، مالئين الجو برائحتهم النتنة. وهنا، في شارع رئيس عريض كان يومًا محلَّ إقامة تجار المدينة الأثرياء، عثرنا على مصنع المنحوتات الذي كنا نبحث عنه. مشينا بالخارج عبر فناء واسع ممتلئ بالنصب التذكارية. ثم دخلنا لنجد أنفسنا في غرفة كبيرة بها خمسون عاملًا ينحتون التماثيل أو يضعونها في قوالب. كان المدير ألماني الجنسية أشقر الشعر ضخم البنية، استقبلنا بلُطف ومنح هولمز إجابات واضحة عن جميع أسئلته. وبمراجعة الدفاتر، اكتشفنا أن مئات القوالب كانت قد أُخذت من نموذج رُخامي لتمثال رأس نابليون الذي صنعه النحَّات الفرنسي ديفاين، غير أن هناك مجموعة من ستة قوالب بالتحديد أُرسل نصفها إلى مورس هادسن منذ عام أو نحوه، ونصفها الآخر إلى هاردينج برادرز في شارع كنسنجتون. ولم يعرف المدير سببًا لاختلاف هذه القوالب الستة عن أيٍّ من البقية. كما لم يستطع تخمين الدافع وراء رغبة أي شخص في تحطيمها –بل ضحك من الفكرة في الواقع. فقد كانت تلك التماثيل تساوي ستة شلنات بسعر الجملة، لكن بائع التجزئة كان يستطيع بيعها باثني عشر شلنًا أو أكثر. كان التمثال يتشكل من قالبين مختلفين لجانبي الوجه، ثم يُلصق هذان النصفان المصنوعان من جصِّ باريس معًا لصنع الصورة النهائية للتمثال. وغالبًا ما كان يؤدي المهمة عمَّال إيطاليون في الغرفة التي كنا بها. وعند الانتهاء من صُنع التماثيل توضع لتجف على الطاولة في الممر، ثم تُخزَّن بعد ذلك. وهذا هو كل ما استطاع إخبارنا به.

إلا أن ظهور الصورة كان له تأثير ملحوظ على المدير. فقد احمرَّ وجهه غضبًا، وانعقد حاجباه فوق عينيه الزرقاوين الألمانيتين.

صاح قائلًا: آه، الوغد! نعم بالطبع، أعرفه جيدًا جدًّا. فلطالما كانت هذه المؤسسة مكانًا محترمًا، والمرة الوحيدة التي زارنا فيها رجال الشرطة لم تكن إلا بسبب هذا الرجل. مرَّ على ذلك أكثر من عام الآن. كان قد طعن إيطاليًّا آخر في الشارع، ثم أتى إلى الورشة والشرطة في أثره، وقد قُبض عليه ها هنا. كان اسمه بيبو –ولم أعرف اسم عائلته قط. لقد نلتُ ما أستحق لأنني قبلتُ بتوظيف رجل له وجه كهذا عِندي. لكنه كان حِرَفيًّا ماهرًا، كان من أفضل الحرفيين على الإطلاق.

– بِمَ حُكِم عليه؟

– لقد نجا الرجل الذي طُعِن، فأفلت هو بعقوبة مخففة لمدة سنة واحدة. أعتقد أنه أُطلق سراحه الآن لا محالة؛ لكنه لن يجرؤ على أن يُرينا وجهه هنا. إن أحد أبناء عمومته يعمل هنا، وأراهن أنه يستطيع إخباركم بمكانه.

صاح هولمز: –لا، لا، لا تنبس بكلمة لابن العم – ولا كلمة واحدة، أتوسل إليك. إن المسألة في غاية الأهمية، وكلما توغلت فيها اتضحت أهميتها أكثر. عندما أريتنا في الدفاتر عملية بيع تلك القوالب لاحظت أن التاريخ كان الثالث من يونيو من العام الفائت. هلا أخبرتني بتاريخ القبض على بيبو؟

أجاب المدير: أستطيع استخراج التاريخ بالتقريب من كشف الأجور. ثم قلَّب بعض الصفحات وأردف قائلًا: نعم، لقد نال آخر أجرٍ له في العشرين من مايو.

قال هولمز: شكرًا لك. لا أظنني بحاجة إلى التطفل على وقتك وصبرك أكثر من هذا.

وبعد كلمة تحذير أخيرة من ذكر أي شيء يخص تحقيقنا لأي مخلوق، ولَّينا وجهينا صوب الغرب مرة أخرى.

مضت على وقت الظهيرة فترة طويلة قبل أن نتمكن من تناول وجبة غداء سريعة في أحد المطاعم. ورأينا إعلانًا لإحدى الجرائد معلقًا عند المدخل يقول: –جريمة في كنسنجتون. مجنون يرتكب جريمة قتل. وأظهرت محتويات الجريدة أن السيد هوراس هاركر قد تمكَّن من نشر قصته رغم كل شيء؛ ساردًا الواقعة بأكملها في عمودين يفيضان بالمبالغة والكلمات المنمقة. أسند هولمز الجريدة على حامل الإبريق وراح يقرؤها وهو يتناول طعامه؛ مقهقهًا مرة أو مرتين أثناء ذلك.

قال: لا بأس بهذه المقالة يا واتسون. استمع لهذا:

مما يبعث على الارتياح هنا علمي بأن اختلاف الرأي ليس واردًا في هذه القضية. ذلك لأن السيد ليستراد، وهو أحد أكثر ضباط الشرطة تمرسًا، والسيد شيرلوك هولمز، الخبير الاستشاري المعروف، قد خلُصا كلاهما إلى أن سلسلة الأحداث الغريبة التي انتهت بهذه النهاية المأساوية كان منشؤها الجنون وليس الجريمة المتعمَّدة. ليس ثمة تفسير مقبول لوقائع هذه القضية عدا الاضطراب العقلي.

إن الصحافة مؤسسة بالغة النفع يا واتسون لو علمت فقط كيف تستغلها. والآن، إن كنتَ انتهيت من تناول طعامك، فسوف نرجع إلى كنسنجتون لنرى ما سيقوله مدير متجر هاردينج براذرز عن المسألة.

اتضح أن مؤسس ذلك المتجر الضخم شخصٌ رشيق مهندم قصير القامة، شديد الأناقة، سريع البديهة، ذو ذهنٍ صاف ولسانٍ طليق.

– نعم يا سيدي، لقد قرأتُ عن الواقعة بالفعل في جرائد المساء. السيد هوراس هاركر هو أحد عملائنا، وقد بعنا له التمثال منذ بضعة أشهر. كنا قد أرسلنا في طلب ثلاثة تماثيل من هذا النوع من شركة جيلدر وشركاه من مقاطعة ستيبني. لقد بيع ثلاثتهم الآن. لمن؟ أوه، أراهن أن باستطاعتنا الإجابة عن هذا السؤال بسهولة إذا راجعنا دفتر المبيعات. نعم، ها هي البيانات. بِعنا أحد التماثيل للسيد هاركر، كما تعرف، والثاني للسيد جوسايا براون، القاطن بمساكن لابيرنم، في وادي لابيرنم بمقاطعة تشيزويك، والثالث للسيدساندفورد، القاطن في شارع لوور جروف بمدينة ريدينج. كلا، لم يسبق أن رأيت هذا الوجه الذي تُريني إياه في الصورة. كنتُ لأتذكر يا سيدي، فلم أرَ يومًا وجهًا أشد قبحًا منه. هل لدينا أي إيطاليين بين موظفينا؟ نعم يا سيدي، لدينا العديد منهم بين الحرفيين وعمال النظافة. أراهن أن بإمكانهم اختلاس نظرة خاطفة على دفتر المبيعات إذا أرادوا. فما من سبب محدد يجعلنا نُبقي أعيننا على هذا الدفتر. حسنًا، إنها مسألة شديدة الغرابة، وأرجو أن تُطلعني على أي جديد في تحرِّياتك.

دوَّن هولمز عدة ملاحظات أثناء شهادة السيد هاردينج، ولاحظت رضاه الكامل عن الاتجاه الذي كانت تسير إليه الأمور. لكنه رغم هذا لم يعقِّب بشيء سوى أننا إن لم نُسرِع سنتأخر عن موعدنا مع

ليستراد. وكما توقعنا، وصلنا إلى شارع بيكر لنجد المحقق فعلًا في انتظارنا، يذرع المكان جيئة وذهابًا بنفاد صبر. وقد بدا من مظهره الجدي أن يومه لم يضِع هباءً.

سأل: ما الأخبار؟ هل حالفك الحظ يا سيد هولمز؟

أجابه صديقي: لقد مررنا بيومٍ مليء بالأحداث، ومعظمها مهم. فقد التقينا ببائعي التجزئة كليهما وصاحب مصنع الجملة كذلك. يمكنني تعقب كل تمثال من التماثيل الآن من البداية.

صاح ليستراد: التماثيل! حسنٌ إذن، إن لك أساليبك الخاصة يا سيد شيرلوك هولمز، وليس لي أن أنتقدها بكلمة، ولكن أظن أني تفوقت عليك فيما أنجزته اليوم. فقد اكتشفت هُوية القتيل.

– أحقًّا ما تقول؟

– واكتشفتُ الدافع وراء الجريمة.

– عظيم!

– لدينا محقق تخصص عمله هو شارعا سافرون هيل والحي الإيطالي. والواقع أن هذا القتيل كان يرتدي حول عنقه قلادة بها رمز كاثوليكي ما، وتلك القلادة، بالإضافة إلى لون بشرته، جعلتني أظنه من الجنوب. ولكن المحقق هيل عرفه بمجرد أن وقعت عيناه عليه. إن اسمه بيترو فينوتشي من مدينة نابولي الإيطالية، وهو واحد من أخطر سفَّاحي لندن. لقد كان على تواصل مع المافيا، وهي كما تعلم منظمة سرية سياسية تفرض قوانينها عن طريق القتل. أترى الآن كيف بدأت المسألة تتضح. فالقاتل على الأرجح إيطالي الجنسية هو الآخر، وواحد من أعضاء المافيا. لقد خالف قوانينهم بشكلٍ ما، فكلَّفوا بيترو بتعقُّبه. وربما تكون الصورة التي وجدناها في جيب بيترو هي صورة هذا الرجل بالذات، التي احتفظ بها بيترو كي لا يطعن الشخص الخطأ. وهكذا طارد بيترو الرجل، ورآه يدخل أحد المنازل، فانتظره بالخارج، وخلال اشتباكهما تلقَّى الطعنة التي أودَت بحياته. ما رأيك يا سيد هولمز؟

صفق هولمز بيديه استحسانًا، وصاح قائلًا: ممتاز يا ليستراد، ممتاز! لكنني لم أتابع جيدًا تفسيرك لتحطيم التماثيل.

– التماثيل! إنك عاجز كليًّا عن إخراج تلك التماثيل من رأسك. إنها ليست بالجريمة الخطرة في نهاية المطاف؛ مجرد سرقة تافهة، عقوبتها ستة أشهر على الأكثر. إن ما نحقق فيه فعلًا هو جريمة القتل، وأؤكد لك أنني قد جمعت كل خيوطها في يدي.

– وما خطوتك التالية؟

– خطوة بسيطة جدًّا. سأذهب إلى الحي الإيطالي بصحبة هيل، وأعثر على الرجل الذي بحوزتنا صورته، وأقبض عليه بتهمة القتل. هل ستأتي معنا؟

– لا أظن ذلك. أتصوَّر أننا نستطيع بلوغ مرادنا بطريقة أبسط. ولكن لا يسعني أن أجزم، لأن الأمر كله يعتمد... حسنًا، إنه يعتمد كليًّا على عنصر خارج سيطرتنا تمامًا. ولكن يحدوني الأمل –في الواقع أراهن بنسبة اثنين إلى واحد– أنك إن رافقتنا الليلة سأقدر على مساعدتك في القبض عليه.

– في الحي الإيطالي؟

– كلا؛ أتصوَّر أن احتمالية عثورنا عليه أكبر في مقاطعة تشيزويك. إذا أتيت معنا إلى تشيزويك الليلة يا ليستراد، أَعِدُك أن آتي معك إلى الحي الإيطالي غدًا، ولن يضيرنا التأخير. والآن أظن أن بضع ساعات من النوم ستنفعنا جميعًا، فلستُ أنوي المغادرة قبل الحادية عشرة، ومن غير المحتمل أن نعود قبل الصباح. سوف تتناول العشاء معنا يا ليستراد، ثم يسعك النوم على الأريكة حتى يحين موعد الانطلاق. والآن يا واتسون سأكون ممتنًّا إذا أرسلت في طلب أحد سعاة البريد العاجل، فلديّ رسالة أودّ إرسالها، ومن المهم أن يحدث هذا فورًا.

أمضى هولمز المساء في التنقيب وسط ملفات الصحف اليومية القديمة التي تكدَّست بها إحدى غرف التخزين في المنزل. وعندما نزل أخيرًا رأيت في عينيه نظرة انتصار، لكنه لم يقُل شيئًا لأيٍّ منا عن نتيجة بحثه. أما أنا، فقد اتبعت أسلوب هولمز خطوة بخطوة في تعقُّب مختلف تعاريج هذه القضية المعقدة، ورغم أني لم أستطع استشفاف الهدف الذي نسعى إليه بعد، فقد أدركت بوضوح أن هولمز يتوقع من هذا المجرم الغريب محاولة السطو على التمثالين المتبقيين، وأن أحدهما، كما تذكرت، كان في تشيزويك. لا شك أن الغرض من رحلتنا هو أن نقبض على المجرم متلبسًا بجريمته، ولم أملك إلا أن أُعجَب بالطريقة الماكرة التي أقحم بها صديقي معلومته الزائفة في جريدة المساء، وذلك كي يوهم الرجل أن بإمكانه مواصلة خطته دون عقاب. لم أندهش عندما اقترح هولمز أن آخذ مسدسي معي. فقد أخذ هو نفسه سوط الصيد المُثقل الذي كان دومًا سلاحه المفضل.

وقفت العربة تنتظرنا أمام الباب في الحادية عشرة، ثم سارت بنا إلى مكان ما على الجانب الآخر من جسر هامرسميث. وهناك طُلِبَ من السائق الانتظار. ثم سرنا قليلًا حتى وصلنا إلى طريق منعزل اصطفت على جانبيه منازل جميلة، كلٌّ قائم على مساحته الخاصة. وعلى ضوء أحد مصابيح الشارع قرأنا على بوابة أحدها عبارة فيلا لابيرنم. كان واضحًا أن ساكني هذا المنزل قد ذهبوا للنوم، لأنه كان مظلمًا باستثناء نافذة قمرية فوق باب الرَّدهة كانت تُلقي بدائرة باهتة وحيدة من الضوء على ممشى الحديقة. أما السياج الخشبي الذي كان يفصل المنزل عن الشارع، فقد ألقى بظلٍّ مُعتم على جانبه الداخلي، وهنالك جثونا متجاورين.

همس هولمز: أخشى أن انتظاركما سيطول. من حُسن حظنا أنها لا تمطر. ولا أظن أن بإمكاننا حتى أن نجازف بالتدخين لتمضية الوقت. ولكنني أكاد أجزم أننا سنحصل على ما يعوِّضنا عن مشقتنا.

ومع ذلك، تبيَّن أن وقفتنا لم تطُل كما خوَّفنا هولمز، فقد انتهت نهاية غريبة ومفاجئة جدًّا. ففي غمضة عين، ودون أي صوتٍ ينبهنا إلى قدوم أحدهم، فُتحت بوابة الحديقة، وانطلق طيفٌ داكن ورشيق، بسرعة ونشاط القردة، مسرعًا على ممشى الحديقة. رأيناه يتقدم بخفة ليمر عبر الضوء المنبعث من فوق الباب ويختفي في ظلال المنزل القاتم. تلا ذلك فترة طويلة من الصمت حبسنا فيها أنفاسنا، ثم تنامى إلى مسامعنا صرير شديد الخفوت. كانت النافذة تُفتح. ثم انقطع الصوت وساد الصمت مجددًا. كان الرجل في طريقه إلى داخل المنزل. رأينا وميضًا ينبعث فجأة من أحد المصابيح التي يمكن طمس ضوئها داخل إحدى الغرف. وبدا أنه لم يجد ما يفتش عنه في تلك الغرفة، لأننا رأينا وميض المصباح من وراء ستارٍ آخر، ثم آخر.

همس ليستراد: لنذهب وننتظر عند النافذة المفتوحة. سنقبض عليه بمجرد أن ينسل منها.

ولكن قبل أن نتحرك من مكاننا ظهر الرجل مرة أخرى. وبينما مرَّ عبر رقعة الضوء الواهن رأيناه يحمل شيئًا أبيض اللون تحت ذراعه. ثم أخذ يسترق النظر إلى كل ما يحيط به، لكن سكون الشارع المهجور أعاد إلى نفسه الطمأنينة. فأعطانا ظهره وأنزل ما كان يحمله على الأرض، وفي اللحظة التالية سمعنا صوت طرقٍ حاد، تلاه صوت خشخشة وقعقعة. كان الرجل منهمكًا فيما يفعله لدرجة أنه لم ينتبه البتة إلى وقع خطواتنا ونحن نتسلل إليه فوق الأرض العشبية. ثم بوثبة نمر انقض هولمز على ظهره، وفي غمضة عين أمسكتُ به أنا وليستراد من كلا معصميه وأوثقناهما بالأصفاد. أدرناه ناحيتنا فرأيتُ وجهًا شاحبًا قبيحًا يرمقنا بملامح تلتوي من شدة الغضب، وعلمتُ أنه هو نفسه الرجل في الصورة التي بحوزتنا.

لكن ليس أسيرنا من استرعى انتباه هولمز. فقد جلس مقرفصًا عند عتبة الباب وأخذ يفحص بإمعان شديد الشيء الذي أحضره الرجل من المنزل. كان تمثالًا لنابليون يشبه ذاك الذي رأيناه في صباح هذا اليوم، وكان مهشمًا على نحوٍ مماثل. رفع هولمز كل كسرة منه إلى الضوء بعناية، ولكن لم يختلف أي منها عن بقية قطع الجصِّ المتناثرة الأخرى. ولم يكد ينتهي من فحصه حتى أُشعِلَت أضواء الرَّدهة، وانفتح الباب، وخرج صاحب المنزل. كان رجلًا بشوشًا ممتلئ الجسم يرتدي قميصًا وسروالًا.

قال هولمز: السيد جوسايا براون، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي؛ وأنت السيد شيرلوك هولمز من دون شك، صحيح؟ لقد وصلتني الرسالة التي أرسلتها مع ساعي البريد العاجل، وفعلتُ ما طلبت مني بالضبط. فقد أغلقنا جميع الأبواب في الداخل وانتظرنا أن يجدَّ جديد. حسنٌ، يسرني جدًّا أن أراك وقد قبضت على هذا الوغد. أرجو أن تتفضلوا بالدخول أيها السادة لتناوُل بعض المشروبات.

ولكن ليستراد كان متلهِّفًا لنقل أسيره إلى مكانٍ آمن، لذلك في ظرف دقائق معدودة كنا قد استدعينا عربة الأجرة وفي طريقنا نحن الأربعة إلى لندن. لم ينطق أسيرنا بكلمة واحدة، بل ظل يحدق إلينا بغضب من بين ثنايا شعره الأشعث، حتى إنه انقضَّ على يدي كذئبٍ جائع في لحظة من اللحظات لمَّا رآها قريبة منه. بقينا في مركز الشرطة مدة تكفي لنعرف أنهم لم يجدوا خلال تفتيش ملابس هذا الرجل سوى بضعة شلنات وسكينٍ طويلٍ ذي غمد على مقبضها آثار كثيرة لدمٍ أُريق حديثًا.

قال ليستراد وهو يودعنا: لا بأس. إن هيل على دراية بأفراد هذه الجماعة كلهم، ولسوف يعرف هُويته. وسترى أنت أن نظريتي بخصوص المافيا صحيحة. لكن لا شك أنني شاكرٌ جدًّا لك يا سيد هولمز خطتك البارعة في القبض عليه. وإن لم أفهمها تمامًا بعد.

قال هولمز: أخشى أن الوقت قد تأخر ولن يُسعفنا الآن لتقديم تفسيرات. ناهيك أن هناك جزئية أو اثنتين لم تتضحا بعد، وهذه القضية هي إحدى تلك القضايا التي تستحق أن تُستكمل حتى آخرها. إذا استطعت المجيء مجددًا إلى منزلي في السادسة من مساء الغد، سأثبت لك أنك حتى هذه اللحظة لم تُحط علمًا بجميع أبعاد هذه القضية، التي تحمل من السمات ما يجعلها فريدة من نوعها في تاريخ الجريمة.

وإذا حدث يا واتسون وسمحتُ لك بتأريخ المزيد من قضاياي الصغيرة، فإنني أتوقع أن تبث مغامرة تماثيل نابليون الفريدة تلك الحياة في صفحاتك.

عندما التقينا مرة أخرى في المساء التالي، كان في جعبة ليستراد معلومات وفيرة عن أسيرنا. اتضح أن اسمه بيبو، أما اسم عائلته فمجهول. وقد اشتُهر بين أفراد الجالية الإيطالية بكونه شخصًا كسولًا وعديم النفع. كان ذات مرة نحَّاتًا ماهرًا يعيش حياة نزيهة، لكنه اتبع سُبُل الشيطان وزُج به في السجن مرتين من قبل –مرة بسبب حادث سرقة تافه، ومرة، كما سمعنا آنفًا، لأنه طعن واحدًا من أهل بلده. كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة. ولم يعرف أحد بعد سبب تحطيمه التماثيل، وقد رفض الإجابة عن أي أسئلة في هذا الموضوع؛ لكنَّ الشرطة اكتشفت أن ثمَّة احتمالًا كبيرًا أن يكون هو الذي صنع هذه التماثيل بيديه، لأنه كان يعمل حينها في نحت التماثيل بمؤسسة جيلدر وشركاه. أنصت هولمز بانتباهٍ دمث إلى كل هذه المعلومات، والتي كنا نعرف الكثير منها بالفعل؛ أما أنا الذي أعرفه جيدًا، فرأيت بوضوح أن ذهنه مشغول بأمر آخر، ورأيت تحت ذاك القناع الذي اعتاد ارتداءه مزيجًا من القلق المشوب بالترقب. وأخيرًا هبَّ واقفًا والتمعت عيناه. كان جرس الباب يدق. وبعد دقيقة سمعنا وقع خطوات على الدرج، دخل رجل كهل أحمر الوجنتين أشيب السالفين، يحمل في يده حقيبة قماشية عتيقة الطراز وضعها فوق الطاولة.

– هل السيد شيرلوك هولمز هنا؟

أومأ صديقي مبتسمًا وقال: أظنُّك السيد ساندفورد القادم من مدينة ريدينج، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي، أخشى أني تأخرت قليلًا؛ لكنَّ حركة القطارات كانت بشعة. لقد كتبت إليَّ بخصوص التمثال الذي بحوزتي.

– بالضبط.

– ها هو ذا خطابك. لقد كتبت: أودُّ الحصول على نسخة من تمثال رأس نابليون الذي صنعه النحَّات الفرنسي ديفاين، وإنِّي على استعداد لدفع عشرة جنيهات مقابل النسخة التي بحوزتك. أحقًّا ما قُلت؟

– بالطبع.

– لقد أدهشني خطابك كثيرًا، فلم أفهم كيف علمتَ بامتلاكي شيئًا كهذا.

– لا شك أن هذا أدهشك، لكن التفسير بسيط للغاية. فقد أخبرني السيد هاردينج صاحب متجر هاردينج براذرز أنهم قد باعوك آخر نسخة لديهم، وأعطاني عنوانك.

– أوه، هكذا جرى الأمر إذن. هل أخبرك كم دفعتُ ثمنًا لها؟

– لا، لم يفعل.

– حسنًا، إنني رجلٌ نزيه، وإن لم أكن ثريًّا. لقد دفعت خمسة عشر شلنًا فقط مقابل هذا التمثال، وأظن أن عليك معرفة ذلك قبل أن آخذ العشرة جنيهات منك.

– لا ريب أن تحرُّجك من قبول الثمن يزيد من احترامي لك يا سيد ساندفورد. لكنني سبق وحددت السعر، وأنوي الالتزام به.

– حسنًا، هذا كرمٌ بالغٌ منك يا سيد هولمز. لقد أحضرت التمثال معي كما طلبت مني. ها هو ذا! وفتح حقيبته، فرأينا على طاولتنا أخيرًا نموذجًا كاملًا للتمثال الذي لم نكن قد رأيناه بعد إلا مهشمًا.

أخرج هولمز من جيبه ورقة، ووضعها برفقة عشرة جنيهات على الطاولة.

– تفضَّل بتوقيع هذه الورقة يا سيد ساندفورد في حضور هذين الشاهدين. إنها ببساطة إقرار منك بنقل كل حقٍّ لديك في هذا التمثال إليَّ. فكما تعلم أنا رجلٌ نظامي، وما يدريك ما قد تؤول إليه الأمور لاحقًا. شكرًا لك يا سيد ساندفورد، ها هي العشرة جنيهات، وأتمنى لك أمسية سعيدة جدًّا.

وما إن انصرف ضيفنا، حتى استحوذت تصرفات هولمز على انتباهنا. فقد بدأ بأخذ قطعة قماش بيضاء نظيفة من أحد الأدراج وبسطها على الطاولة. ثم وضع تمثاله الجديد في منتصفها. وأخيرًا التقط سوط الصيد خاصته ووجه إلى نابليون ضربة قوية على قمة رأسه. تهشم التمثال كسرًا، فانحنى هولمز بلهفة على شظاياه المتناثرة. ثم صاح صيحة انتصار مدوية وهو يمسك بإحدى الشظايا التي التصق بها شيء مستدير أسود اللون مثل حبة البرقوق.

صاح قائلًا: أيها السيدان، اسمحا لي أن أعرفكما باللؤلؤة السوداء الشهيرة لعائلة بورجيا.

جلستُ أنا وليستراد صامتين لدقيقة، ثم باندفاعٍ عفوي أخذنا نُصفق مثلما يصفق الجمهور على البراعة التي كُتبت بها عُقدة إحدى المسرحيات. غزت الحمرة الخفيفة وجنتي هولمز الشاحبتين، وانحنى لنا انحناءة كاتب مسرحي متمرِّس يتلقى ثناءً من جمهوره. في مثل تلك اللحظات كان هولمز يكُف للحظة عن كونه آلة تفكير، ويُظهر ولعه البشري بالإعجاب والتهليل. تلك الشخصية المتحفظة والمتغطرسة بتفرُّد، والمتنزهة دومًا عن الشهرة، تصبح حينئذٍ قادرة على التأثر حتى الأعماق بدهشة عفوية وإعجابٍ من صديق.

قال: نعم يا سادتي، إنها أشهر لؤلؤة في العالم في يومنا هذا، وقد استطعت لحسن حظي، ومن خلال سلسلة موصولة من الاستدلال الاستقرائي، أن أتتبعها بدءًا من غرفة أمير كولونا في فندق ديكر حيث ضاعت، وصولًا إلى داخل هذا التمثال، آخر تماثيل نابليون الستة، والذي صُنِع في مؤسسة جيلدر وشركاه بمقاطعة ستيبني. أتَذْكُر يا ليستراد الضجَّة التي تسبب فيها اختفاء تلك الجوهرة الثمينة، وجهود شرطة لندن التي ذهبت أدراج الرياح في محاولة استعادتها. كنتُ قد استُشِرتُ شخصيًّا في هذه القضية؛ بيد أني عجزت عن تقديم أي عون. حينها حامت الشكوك حول وصيفة الأميرة، التي كانت إيطالية الجنسية، وقد ثبت أن لها أخًا يعيش في لندن لكننا لم نستطع تعقُّب أي اتصال بينهما. كانت الوصيفة تُدعى لوكريتا فينوتشي، ولا شك عندي أن بيترو الذي قُتل منذ يومين كان أخاها. هكذا بحثتُ في تواريخ الصحف القديمة، فاكتشفتُ أن اختفاء الجوهرة حدث قبل يومين بالضبط من القبض على بيبو لارتكابه إحدى جرائم العنف، وقد أُلقي القبض عليه في مصنع جيلدر وشركاه، في اللحظة ذاتها التي كانت التماثيل تُصنع فيها. والآن تريان بوضوح تسلسل الأحداث، وإن كنتما بالطبع تريانها بعكس الترتيب الذي رأيتها أنا به. كانت اللؤلؤة بحوزة بيبو. ربما سرقها من بيترو، أو ربما كان بيترو حليفًا له، أو ربما كان بيبو هو حلقة الوصل بين بيترو وأخته. لا يهمنا أي احتمال منها هو الصحيح.

الحقيقة الأساسية أن اللؤلؤة كانت بحوزته، وفي تلك اللحظة، عندما كانت معه، طاردته الشرطة. فهرع إلى المصنع الذي كان يعمل فيه، وعَلِم أنه لا يملك سوى دقائق معدودة لإخفاء هذه الغنيمة الثمينة، وإلا سيُعثر عليها معه ما إن يخضع للتفتيش. ثم رأى ستة قوالب جصِّية لنابليون موضوعة لتجف في الممر. أحدها كان لم يزل طريًّا. وعلى الفور راح بيبو، الحرفيُّ الماهر، يصنع ثقبًا صغيرًا في الجصِّ الرطب، وأسقط اللؤلؤة فيه، ثم بلمسات خفيفة غطَّى الفتحة مجددًا. كان هذا مخبأً ممتازًا. ولا يمكن لأحدٍ أن يعثر عليه. ولكن حُكِم على بيبو بالسجن لمدة عام، وفي غضون ذلك وُزِّعت تماثيله الستة في أرجاء لندن. لم يعُد يعرف أيها يحتوي على كنزه. ولم يكن ليعرف هذا إلا بتحطيمها. فحتى رج التماثيل لم يكن ليُجدي نفعًا، لأن الجصَّ كان رطبًا وعلى الأرجح التصقت اللؤلؤة به – وهو ما حدث بالفعل. لم ييأس بيبو، بل واصل بحثه بقدرٍ كبير من البراعة والمثابرة. وعرف شركات البيع بالتجزئة التي اشترت التماثيل من ابن عمٍّ له يعمل مع جيلدر. ثم استطاع الحصول على وظيفة لدى مورس هادسن، وبتلك الطريقة تعقَّب ثلاثة منها. لم تكُن اللؤلؤة في أيٍّ منها. ثم وبمساعدة أحد أرباب العمل الإيطاليين، نجح في اكتشف مكان التماثيل الثلاثة الأخرى. كان أحدها عند هاركر. وهناك طارده حليفه، الذي اعتبر بيبو مسؤولًا عن ضياع اللؤلؤة، فطعنه بيبو في الاشتباك الذي تلا ذلك.

سألتُ قائلًا: إذا كان بيترو حليفَ بيبو، لماذا يحمل صورته معه؟

– كانت وسيلة لتعقُّبه إذا ما أراد الاستعلام عنه من أي شخص آخر. هذا هو التفسير المنطقي. على أية حال، عرفتُ بعد وقوع الجريمة أن بيبو سيُسرع على الأرجح في تحرُّكاته دونما إبطاء. فقد خشي أن تكتشف الشرطة سره، فأسرع قبل أن يسبقوه. وبالطبع لم أستطع الجزم بأنه لم يجد اللؤلؤة في تمثال هاركر. بل لم أستطع حتى التأكد من أنه كان يطارد اللؤلؤة؛ لكنني كنت موقنًا من أنه يبحث عن شيء ما، لأنه حمل التمثال عبر ثلاثة منازل من أجل أن يُحطمه في حديقة بها مصباح. ولمَّا كان تمثال هاركر واحدًا من ثلاثة، فقد كانت فرصة وجود اللؤلؤة بداخله كما أخبرتكما بالضبط، اثنين إلى واحد. وهكذا بقي تمثالان، وبدا منطقيًّا أن يطارد ذاك الذي في لندن أولًا. فحذرت سكان المنزل حتى نتجنب حدوث مأساة أخرى، وها نحن قد عُدنا سالمين غانمين. بحلول ذلك الوقت بالطبع كنتُ على يقينٍ من أننا نطارد لؤلؤة بورجيا. فقد ربط اسم القتيل الأحداث بعضها ببعض. ولم يتبق سوى تمثالٍ وحيد –تمثال مدينة ريدينج– وبداخله الجوهرة لا محالة. لذا فقد اشتريته من المالك في حضوركما – وها هو ذا.

جلسنا صامتين للحظة.

ثم قال ليستراد: حسنًا، لقد رأيتك تحلُّ قضايا لا حصر لها يا سيد هولمز، لكنني لم أشهد مثل هذه الاحترافية منك قط. إننا لا نغار منك في مكتب سكوتلاند يارد. كلا يا سيدي، بل نحن فخورون بك أيما فخر، وإذا زُرتنا غدًا، لن تجد رجلًا واحدًا، محققًا كبيرًا كان أو شرطيًّا صغيرًا، لا يسرُّه أن يصافحك امتنانًا.

قال هولمز: شكرًا لك! شكرًا لك! رأيته يشيح نظره وقد بدا لي متأثرًا بهذه العواطف البشرية الرقيقة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لكنه لم يلبث أن عاد إلى ذاك المفكِّر العملي البارد ثانيةً. وقال: ضع اللؤلؤة في الخزينة يا واتسون. وأخرج أوراق قضية التزوير الخاصة باللورد كونك سينجلتون. إلى اللقاء يا

ليستراد. إذا صادفت أي مشكلة صغيرة، سأكون سعيدًا، ما أمكنني، بأن أعطيك تلميحًا أو اثنين بخصوص حلها.

مغامرة الطلاب الثلاثة

حدث في العام 1895 أن صادفتنا مجموعة من الوقائع، التي لا أودُّ الدخول في تفاصيلها، والتي تسببت في قضائي أنا والسيد شيرلوك هولمز بضعة أسابيع في إحدى مدننا الجامعية العظيمة، وخلالها لاقينا مغامرتنا هذه، الصغيرة والمفيدة في آنٍ، والتي أوشك على سردها. ولا شك أن أي تفاصيل قد تساعد القارئ في تحديد الجامعة أو هُوية المجرم سيكون ذكرها جارحًا وغير حكيم. فمثل هذه الفضيحة المؤلمة ينبغي أن تُترك لتخبو. ومع ذلك، يمكن سرد الواقعة نفسها مع التزام الحيطة الواجبة، فهي تُبرز بعضًا من سمات صديقي المميزة. وسوف أسعى في حديثي إلى تجنب المفردات التي من شأنها أن تحصر الأحداث في مكانٍ بعينه، أو تلمِّح إلى أشخاصٍ معينين.

كنا آنذاك نقيم في مسكنٍ مفروش يجاور إحدى المكتبات التي كان شيرلوك هولمز يتابع فيها بعض بحوثه المضنية في المواثيق الإنجليزية القديمة – وهي بحوث أدَّت إلى نتائج مذهلة، لدرجة أنها قد تكون موضوعًا لإحدى رواياتي المستقبلية. وهناك في إحدى الأمسيات تلقَّينا زيارة من أحد المعارف، ويُدعى السيد هيلتون سومز، المدرس والمحاضر بكُليِّة سانت لوك. كان السيد سومز رجلًا طويل القامة هزيل الجسد، ذا طابع عصبي سريع الانفعال. ولطالما عهدته متوترًا، ولكن في هذه المناسبة خصوصًا كان في حالة من الهياج يصعب السيطرة عليها، لدرجة أن بدا واضحًا أن شيئًا غير عادي قد حدث.

– أثق يا سيد هولمز أن بإمكانك أن تعيرني بضع ساعات من وقتك الثمين. لقد مررنا بحادثٍ مؤلم جدًّا في سانت لوك، ولولا وجودك في المدينة لحسن الحظ، لاحترتُ فيما ينبغي لي فعله.

أجاب صديقي: إنني منشغل جدًّا في الوقت الحالي، ولا أرغب فيما يشتتني. أظن أن من الأفضل أن تستعين بالشرطة.

– لا، لا يا سيدي العزيز؛ هذا المسار مستحيل كليًّا. فإذا استحضرنا القانون لن نستطيع صرفه ثانيةً. وهذه واحدة من تلك القضايا التي يكون فيها تجنب الفضيحة ضرورة قصوى حفاظًا على سُمعة الكلية. وأنت معروفٌ بحفظك للأسرار مثلما أنت معروفٌ بقدراتك، وأنت الوحيد في العالم الذي يمكنه مساعدتي. أتوسل إليك يا سيد هولمز أن تفعل ما بوسعك.

لم يكن صديقي في حالة مزاجية جيدة منذ أن حُرم من بيئته المعهودة بشارع بيكر. فمن دون سجل قصاصاته، ومواده الكيميائية، وفوضاه المنزلية، كان رجلًا سريعَ الانزعاج. هز كتفيه باستسلامٍ فظ، بينما مضى زائرنا يروي قصته بكلمات متعجلة وحركات شديدة الانفعال.

– لا بد أن أوضح لك يا سيد هولمز أن غدًا هو أول يوم في امتحانات منحة فورتسكيو. وأنا أحد الممتَحِنين. مادتي هي اليونانية، وتحتوي الصفحة الأولى على فقرة طويلة للترجمة اليونانية لم يرها الطالب من قبل. هذه الفقرة مطبوعة على ورقة الامتحان، وبالطبع ستكون مزية هائلة إن استطاع الطالب أن يُعد لها مُسبقًا. لهذا السبب أولي عناية شديدة للحفاظ على سرية هذه الورقة.

واليوم، وصلت مسودات هذه الورقة من المطبعة في نحو الساعة الثالثة. يتألف السؤال من نصف فصل من أحد مؤلفات المؤرخ الإغريقي الشهير ثوقيديدس. وكان عليّ أن أقرأه بعناية، لأن النص يجب أن يكون صحيحًا تمامًا. وفي الرابعة والنصف لم أكُن قد أنهيتُ مهمتي بعد. لكنني وعدتُ أحد زملائي بتناول الشاي معه في غرفته، لذا تركت المسودة على مكتبي وغبتُ لأكثر من ساعة.

أنت تعلم يا سيد هولمز، أن أبواب كليتنا مزدوجة – يوجد لكل غرفة باب داخلي مكسو بالجوخ الأخضر، وآخر خارجي من خشب البلوط الثقيل. وحينما اقتربت من باب غرفتي الخارجي، تفاجأت برؤية مفتاحٍ فيه. وللحظة تخيَّلت أني تركتُ مفتاحي في الباب، لكنني حينما تحسست جيبي وجدته بداخله. والنسخة الوحيدة الموجودة منه – على حد علمي – هي مع خادمي بانيستر، الرجل الذي يعتني بغرفتي منذ عشر سنوات، والذي كانت أمانته ترقى فوق جميع الشكوك. اكتشفتُ أن هذا المفتاح كان مفتاحه فعلًا، وأنه قد دخل غرفتي ليسألني إن كنتُ أودُّ كوبًا من الشاي، ثم ترك المفتاح في الباب بإهمال بالغ عند انصرافه. لا بد أن زيارته لغرفتي حدثت بعد دقائق معدودة من مغادرتي. ولم يكن إهماله بشأن المفتاح ليُمثل مشكلة في ظروفٍ أخرى، لكنه في هذا اليوم بالذات قد تسبب في عواقب وخيمة إلى أبعد حد.

فما إن ألقيتُ نظرة على طاولتي حتى أدركت أن أحدًا قد عبث بأوراقي. كانت المسودة مكونة من ثلاث ورقات طويلة تركتها كلها مجتمعة. أما الآن فقد صارت إحداها ملقاة على الأرض، والأخرى على الطاولة الجانبية قُرب النافذة، والثالثة كانت حيث تركتها.

تحرك هولمز لأول مرة قائلًا:

– الصفحة «الأولى» على الأرض، و«الثانية» عند النافذة، و«الثالثة» حيث تركتها.

– بالضبط يا سيد هولمز. إنك تدهشني. كيف أمكنك معرفة هذا؟

– أرجو أن تُكمل حديثك الشائق للغاية.

– للحظة تخيلت أن بانيستر قد أخذ حريته التي لن تغتفر وعبث بأوراقي. لكنه أنكر هذا بجدية بالغة، وأنا مقتنع بصدقه. فكان البديل أن أحد المارَّة قد لاحظ المفتاح في الباب، وعلِم أنني كنت بالخارج، فدخل وألقى نظرة على الأوراق. ثمة مبلغ كبير من المال على المحك، نظرًا إلى القيمة العالية لهذه المنحة، وقد يجازف شخصٌ عديم الضمير من أجل التفوق على زملائه.

كان بانيستر شديد الاستياء مما حدث. وكاد يفقد وعيه حينما علِمنا أن أحدًا قد عبث بالأوراق من دون ريب. فأعطيته رشفة من البراندي وتركته منهارًا على أحد المقاعد ريثما أجري فحصًا دقيقًا للغرفة. وسُرعان ما لاحظت أن الدخيل قد ترك آثارًا أخرى بجانب الأوراق المبعثرة. فثمة عدة شظايا لبري قلم رصاص على الطاولة المجاورة للنافذة. وكذا سِن قلم رصاص مكسور كان ملقًى هناك أيضًا. من الواضح أن الوغد قد نسخ الورقة بسرعة كبيرة، وكسر سِن قلمه الرصاص، فاضطر إلى بريه.

قال هولمز الذي أخذ يستعيد روحه المرحة مع تزايُد اهتمامه بالقضية: ممتاز! لقد كان الحظ حليفك.

– لم يكن هذا كل شيء. فلدي طاولة كتابة جديدة ذات سطحٍ ناعم من الجلد الأحمر. وأنا مستعد أن أقسم – وكذلك بانيستر – أنها كانت ملساء ونظيفة. والآن صار بها قطع واضح يبلغ طوله نحو ثلاث بوصات – ليس مجرد خدش، وإنما قطعٌ حقيقي. وليس هذا وحسب، بل وجدت على الطاولة كرة صغيرة من الصلصال الأسود أو الطين، فيها شظايا من شيء أشبه بنشارة الخشب. وأنا موقن أن من ترك تلك الآثار هو نفسه الشخص الذي عبث بالأوراق. لكنني لم أرَ آثار أقدام ولا دليلًا آخر على هُويته. بلغت بي الحيرة ذروتها، حينما خطرت لي فجأة الفكرة المواتية بأنك موجودٌ في المدينة، فجئتُ مباشرة

لأضع الأمر بين يديك. ساعدني يا سيد هولمز! فأنت ترى ورطتي. إما أن أجد الرجل أو أؤجِّل الامتحان إلى حين تجهيز أوراق جديدة. ونظرًا إلى أن هذا غير ممكن، من دون ذكر تفسير، فسوف تُثار بالتأكيد فضيحة شائنة، لن تلقي بظلالها على الكلية وحدها وإنما على الجامعة بأسرها. لذلك أرغب، فوق كل شيء، في تسوية المسألة بهدوءٍ وتكتم.

نهض هولمز وقال وهو يرتدي معطفه: يسعدني النظر في الأمر وإسداؤك ما بوسعي من نُصح، فهذه القضية لا تخلو تمامًا من التشويق. هل زارك أحدٌ في غرفتك بعد أن وصلتك الأوراق؟

– نعم؛ أتاني الشاب دولت راس –وهو طالب هندي يعيش في المبنى ذاته– ليسألني عن بعض التفاصيل حول الامتحان.

– ولهذا السبب دخل؟

– أجل.

– وهل كانت الأوراق على طاولتك؟

– أغلب ظني أنها كانت مطوية.

– لكن هل تسهل معرفة أنها المسودة؟

– محتمل.

– ألم يدخل غيره غرفتك؟

– كلا.

– هل عرف أحدٌ بأن تلك المسودات ستكون هناك؟

– لا أحد سوى عامل المطبعة.

– هل كان ذاك الرجل المدعو بانيستر يعرف؟

– لا، قطعًا لا. لم يكن أحدٌ يعرف.

– أين بانيستر الآن؟

– لقد أصيب بإعياءٍ شديد، هذا الرجل المسكين. تركته منهارًا على المقعد، كي أعجل بالقدوم إليك.

– هل تركت بابك مفتوحًا؟

– أغلقتُ على الأوراقِ أولًا.

– إذن فاستنتاجنا يا سيد سومز هو أنه ما لم يكن الطالب الهندي قد علِم بأن الأوراق المطوية هي المسودات، فإن الرجل الذي عبث بها قد صادفها مصادفةً دون أن يعرف بوجودها.

– هذا ما يبدو لي.

ابتسم هولمز ابتسامة غامضة وقال:

– حسنًا، لنذهب. ليست قضية من قضاياك يا واتسون؛ فهي عقلية وليست جسدية. حسنًا، تعالَ إن أردت. والآن يا سيد سومز – نحن رهن إشارتك.

تطل غرفة جلوس عميلنا من نافذة طويلة منخفضة مغطاة بشبكة على الفناء العتيق المغطى بالأشنة للكلية القديمة. يُفضي الباب القوطي المقوس إلى درج حجريٍّ بالٍ. وفي الطابق الأرضي كانت غرفة المدرس. يعلوه ثلاثة طلاب، واحدٌ في كل طابق. كان الغسق قد حلَّ عندما وصلنا إلى مسرح قضيتنا. توقف هولمز ونظر باهتمامٍ إلى النافذة من الخارج. ثم اقترب منها ونظر إلى داخل الغرفة واقفًا على رؤوس أصابعه مشرئب العنق.

قال مرشدنا العليم: لا بد أنه دخل من الباب، فما من فتحة أخرى سوى خصاص النافذة.

قال هولمز: يا إلهي! وابتسم ابتسامة فريدة وهو يرمق رفيقنا: حسنًا، إن لم يكن ثمة ما يفيدنا هنا فيجدر بنا الدخول.

فتح المحاضر الباب الخارجي وأدخلنا إلى غرفتِه. وقفنا عند المدخل بينما فحص هولمز البساط، ثم قال:

– أخشى أنه ما من آثارٍ هنا، يصعُب على المرء أن يأمل في وجود أي منها في مثل هذا اليوم الجاف. يبدو أن خادمك قد تعافى تمامًا. لقد قلت إنك تركته على الكرسي؛ أي كرسي؟

– ذاك القريب من النافذة.

– هكذا إذن، بالقرب من تلك الطاولة الصغيرة. يمكنك الدخول الآن، فقد انتهيت من فحص البساط. لنفحص الطاولة الصغيرة أولًا. إن ما حدث شديد الوضوح دون شك. لقد دخل الرجل وأخذ الأوراق، ورقة تلو الأخرى، من الطاولة الأساسية. ثم حملها إلى الطاولة عند النافذة، لأنه يستطيع من هناك أن يراك إذا عبرت الفناء، ومن ثم يستطيع الهروب.

قال سومز: في الواقع لم يكن ليستطيع ذلك، فقد دخلتُ من الباب الجانبي.

– آه، هذا جيد! حسنًا، لقد اعتقدت ذلك على أية حال. دعني أرى الورقات الثلاث. لا توجد آثار أصابع – لا! حسنًا، لقد حمل هذه الورقة أولًا ونسخها. كم يحتاج من الوقت لفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة؟ ربع الساعة على الأقل. ثم ألقى بها والتقط الورقة التالية. كان في غمرة كل هذا عندما جعلته عودتك ينسحب بسرعة شديدة – شديدة للغاية، لأنه لم يجد وقتًا لإعادة الأوراق مكانها، الأمر الذي سيدُلك على وجوده هناك. ألم تسمع وقع خطوات مسرعة على الدَّرج عندما دخلت من الباب الخارجي؟

– لا، لا يمكنني قول هذا.

– حسنًا، لقد كان يكتب بسرعة شديدة لدرجة أنه قصف قلمه الرصاص، ومن ثم اضطر أن يبريه، كما لاحظت. هذا مهم يا واتسون. فالقلم الرصاص ليس من النوع العادي، بل أكبر من الأقلام العادية، والرصاص من النوع الطري؛ وكان لونه الخارجي أزرق داكن، واسم الصانع مطبوع بحروف فضية، والقطعة المتبقية منه يبلغ طولها حوالي بوصة ونصفًا. ابحث عن مثل هذا القلم الرصاص يا سيد سومز، وستحصل على الرجل المنشود. وسيساعدك أكثر أن أضيف أنه يمتلك سكينًا كبيرًا ثلمًا للغاية.

ذُهل السيد سومز بعض الشيء من كل هذا الفيض من المعلومات، وقال: يمكنني استيعاب النقاط الأخرى، لكن في الواقع بالنسبة لمسألة الطول هذه

حمل هولمز قطعة صغيرة عليها حرفا N تليهما مسافة من الخشب الخالي من الكتابة.

– هل فهمت؟

– لا، أخشى أنني حتى الآن...

– لطالما ظلمتك يا واتسون. فهناك آخرون مثلك. علام يدل هذان الحرفان: NN؟ إنها نهاية كلمة. وأنت تعلم بأن يوهان فابر هو اسم أشهر صانع لهذه الأدوات. أليس واضحًا أنه لم يتبق من القلم الرصاص إلا بقدر ما يلي اسم يوهان؟ ثم أمال الطاولة الصغيرة جانبًا لتواجه الإضاءة الكهربائية وقال: «كنت آمل أن تكون الورقة التي كُتب عليها رقيقة حتى تترك بعض الأثر على هذا السطح المصقول. كلا، لا أرى شيئًا. لا أعتقد أن بإمكاننا أن نعرف المزيد هنا. والآن إلى الطاولة الأساسية. أظن أن هذه الكرة الصغيرة هي كتلة الصلصال السوداء التي تحدثتَ عنها. وهي كما ألاحظ هرمية الشكل تقريبًا ومجوفة. وكما تقول يبدو أن بها حبات من نشارة الخشب. يا إلهي، هذا شائق جدًّا. والقَطع، إنه قطعٌ حقيقي فعلًا. يبدأ بخدش صغير وينتهي بفتحة ممزقة. إنني مدين لك بالكثير لتوجيه انتباهي إلى هذه القضية يا سيد سومز. إلى أين يؤدي هذا الباب؟».

– إلى غرفة نومي.

– هل دخلتها منذ خضت هذه المغامرة؟

– لا؛ لقد جئت إليك مباشرة.

– أود أن ألقي نظرة عليها. يا لها من غرفة قديمة الطراز ساحرة! هلا تفضلت بانتظاري لدقيقة ريثما أفحص الأرضية. كلا، لا أرى شيئًا. ماذا عن هذا الستار؟ إنك تعلق ثيابك خلفه. إذا اضطر أحدٌ إلى الاختباء في هذه الغرفة، فعليه أن يختبئ هنا، فالسرير شديد الانخفاض وخزانة الملابس شديدة الضيق. لا أحد هناك، صحيح؟

وبينما سحب هولمز الستار، أدركتُ – من سلوكه الصارم المتأهب بعض الشيء – أنه كان مستعدًّا لحدوث أي طارئ. والواقع أن الستار المسحوب لم يكشف سوى ثلاثة أو أربعة أطقم من الملابس تتدلى من صف من المشابك. استدار هولمز مبتعدًا وانحنى فجأة على الأرض.

قال: مهلًا! ما هذا؟

كان هرمًا صغيرًا من مادة سوداء تشبه العجين، تشبه تمامًا تلك الموجودة على طاولة المكتب. حملها هولمز على راحة يده المفتوحة في وهج الإضاءة الكهربائية.

– يبدو أن زائرك قد ترك آثارًا في غرفة نومك مثلما تركها في غرفة الجلوس يا سيد سومز.

– ماذا عساه يريد من هنا؟

– أعتقد أن هذا واضح بما يكفي. لقد عدت من طريق غير متوقَّع، ومن ثم لم يأخذ حذره حتى صرت عند الباب. ماذا يمكنه أن يفعل؟ لقد حمل كل ما قد يدينه واندفع إلى غرفة نومك للاختباء.

– يا إلهي، هل تقصد أن تخبرني يا سيد هولمز أن الرجل كان سجين هذه الغرفة طوال الوقت الذي كنت أحادث فيه بانيستر، وأننا كنا لنقبض عليه بسهولة لو كنا نعرف بذلك؟

– هكذا أرى الأمر.

– لا بد أن هناك تفسيرًا آخر يا سيد هولمز. لا أدري إن كنت قد لاحظت نافذة غرفة نومي.

– إنها شبكية بإطارٍ من الرصاص، وتتألف من ثلاث نوافذ منفصلة، إحداها تتحرك على مفصلة وكبيرة بما يكفي لتسمح بمرور رجل.

– بالضبط. وهي تطل على زاوية من الفناء تجعلها خفية إلى حد ما. ربما يكون الرجل قد دخل من هنا، وترك آثارًا أثناء مروره عبر غرفة النوم، وفي النهاية وجد الباب مفتوحًا فلاذ بالفرار منه.

هز هولمز رأسه بنفاد صبر قائلًا:

لنكن عمليين، لقد فهمت من كلامك أن ثمة ثلاثة طلاب يستخدمون هذا الدَّرج وهم معتادون على المرور من أمام بابك، أليس كذلك؟

– بلى، هم كذلك.

– وهم جميعًا سيخضعون للامتحان؟

– نعم.

– هل لديك سبب للشك في أحدهم أكثر من الآخرين؟

تردد سومز قبل أن يقول:

– إنه سؤال حرج جدًّا، يصعب على المرء إلقاء الاتهامات دون وجود أدلة.

– دعنا نسمع شكوكك. وسأهتم أنا بأمر الأدلة.

– سأخبرك إذن في كلماتٍ قليلة عن شخصية الرجال الثلاثة القاطنين بتلك الغرف. في الطابق الأدنى يقطن جيلكريست، طالب لطيف ورياضي؛ يلعب في فريق الرجبي وفريق الكريكيت بالكلية، وقد وصل إلى مستوى رفيع في سباق الحواجز والوثب الطويل. إنه رجلٌ لطيف ويتمتع بصفات الرجل الحق. كان والده هو السير جابيز جيلكريست سيئ السمعة، الذي دمَّر نفسه في سباقات الخيول، تاركًا طالبي في فقر مدقع، لكنه دؤوب ومجتهد، وسوف يبلي حسنًا.

في الطابق الثاني يقطن دولت راس الهندي. وهو رجلٌ هادئ وغامض، مثل معظم الهنود. إنه متفوق فيما يفعل، وإن كان ضعيفًا في اليونانية. وهو يهوى الاعتدال والمنهجية.

أما الطابق العلوي فيخص مايلز ماكلارين. وهو شابٌ عبقري حينما يقرر العمل بجد. إنه واحدٌ من ألمع العقول في الجامعة، لكنه طائش ومستهتر وعديم المبادئ. لقد أوشك أن يُطرد بسبب فضيحة في لعب الورق في سنته الأولى. كان يتسكع طوال هذا الفصل الدراسي، ولا بد أنه ينتظر هذا الامتحان بفزع شديد.

– أهو إذن من تشتبه فيه؟

– لا أجرؤ على التمادي إلى هذا الحد. لكنه الأكثر احتمالًا من بين الثلاثة.

– بالضبط. والآن يا سيد سومز، لنلقِ نظرة على خادمك المدعو بانيستر.

كان رجلًا ضئيل البنية، أبيض الوجه، حليق الذقن، أشيب الشعر، في الخمسين من عمره. وكان لا يزال يعاني هذا الاضطراب المفاجئ في روتين حياته الهادئ. وجهه الممتلئ يرتعش اضطرابًا، ولا يمكنه الحفاظ على أصابعه ثابتة.

قال سيده: إننا نحقق في هذه الواقعة غير السارة يا بانيستر.

– نعم يا سيدي.

قال هولمز: –فهمت أنك تركت مفتاحك في الباب، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي.

– ألم يكن غريبًا أن تفعل ذلك في اليوم نفسه الذي كانت فيه تلك الأوراق بالداخل؟

– هذا من سوء حظي يا سيدي. لكنني فعلتُ ذلك من حينٍ لآخر في مناسبات أخرى.

– متى دخلت الغرفة؟

– كانت الساعة نحو الرابعة والنصف. هذا هو الوقت الذي يتناول فيه السيد سومز الشاي.

– كم من الوقت بقيت؟

– عندما علمتُ بغيابه انسحبت على الفور.

– هل نظرت إلى هذه الأوراق على الطاولة؟

– كلا يا سيدي؛ قطعًا لا.

– كيف تركت المفتاح في الباب؟

– كنت أحمل صينية الشاي في يدي. واعتزمتُ العودة من أجل المفتاح. لكنني نسيت.

– هل للباب الخارجي قفل زنبركي؟

– لا يا سيدي.

– إذن فقد كان مفتوحًا طوال الوقت. أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي.

– وهل كان بإمكان أي أحدٍ في الغرفة أن يخرج؟

– نعم يا سيدي.

– عندما عاد السيد سومز واستدعاك، هل ارتبكت كثيرًا؟

– نعم يا سيدي. فمثل هذه الواقعة لم تحدث قط خلال السنوات العديدة التي أمضيتها هنا. لقد كدتُ أفقد الوعي يا سيدي.

– هذا ما فهمته. أين كنت عندما بدأت تشعر بالإعياء؟

– أين كنت يا سيدي؟ ربَّاه، هنا، بالقرب من الباب.

– هذا غريب، فقد جلست على هذا الكرسي القريب من الزاوية. لمَ تجاهلت تلك الكراسي الأخرى؟

– لا أعلم يا سيدي. لم يكن مهمًّا بالنسبة لي أين أجلس.

– لا أظنه يعرف الكثير حقًّا يا سيد هولمز، فقد بدا في حالٍ شديدة السوء – كان مظهره مروعًا.

– هل بقيت هنا عندما غادر سيدك؟

– فقط لدقيقة أو نحوها. ثم أغلقت الباب وذهبت إلى غرفتي.

– فيمن تشك؟

– أوه، لا أجرؤ على القول يا سيدي. ولا أظن أن أي رجلٍ في هذه الجامعة قادرٌ على اقتراف مثل هذا التصرف. كلا يا سيدي، لن أصدق هذا.

قال هولمز: شكرًا لك؛ هذا يفي بالغرض، أوه، سؤالٌ أخير. هل ذكرت لأي من السادة الثلاثة الذين تخدمهم وقوع خطبٍ ما؟

– لا يا سيدي؛ ولا كلمة.

– ألم ترَ أيًّا منهم؟

– نعم يا سيدي.

– جيد جدًّا. والآن يا سيد سومز، سنأخذ جولة في باحة الكلية، إذا سمحت.

أضاءت ثلاثة مربعات صفراء من الضوء فوقنا في الظلام.

قال هولمز وهو ينظر إلى أعلى: طيورك الثلاثة كلها في أعشاشها، مهلًا! ما هذا؟ يبدو أن أحدهم شديد الانفعال.

كان الهندي، وقد ظهر ظله الداكن فجأة من وراء الستار. إذ كان يذرع غرفته ذهابًا وإيابًا بسرعة.

قال هولمز: أود إلقاء نظرة سريعة على كل من هذه الغرف، أهذا ممكن؟

أجاب سومز: ليست مشكلة على الإطلاق. إن هذه المجموعة من الغرف هي الأقدم في الكلية، وليس غريبًا أن يُلقي الزوار نظرة عليها. تعالَ معي وسأصحبك بنفسي.

قال هولمز بينما نطرق باب جيلكريست: من دون أسماء من فضلك! فتح الباب شابٌّ طويل نحيف ذو شعرٍ كتاني، ورحب بنا حينما علِم بمسعانا. كان في الغرفة بعض الأنماط المعمارية المحلية المثيرة للاهتمام، والتي تعود إلى العصور الوسطى. افتتن هولمز بأحدها أيما افتتان لدرجة أنه أصر على رسمها في مفكرته، وقصف قلمه الرصاص، واضطر إلى استعارة واحد من مضيفنا، ثم استعار سكينًا لبري قلمه. تكرر نفس الحادث الفريد في غرفة الهندي – وهو رجلٌ صامت ضئيل البنية ذو أنف معقوف، نظر إلينا بارتياب وبدا سعيدًا بانتهاء دراسات هولمز المعمارية. لم أرَ في أي من الحالتين أن هولمز قد وصل إلى الدليل الذي كان يسعى إليه. ولم يتبين إلا في الزيارة الثالثة أن مهمتنا بالفعل قد باءت بالفشل. فلم ينفتح الباب إثر طرقاتنا، ولم يأتِ من خلفه سوى سيلٍ من السُّباب. زأر الصوت الغاضب قائلًا: لا يهمني من أنت. يمكنك أن تذهب إلى الجحيم! فغدًا الامتحان، ولن يجبرني أحد على الخروج.

قال مرشدنا، وقد احمر وجهه غضبًا بينما انسحبنا وهبطنا الدَّرج: صبيٌّ فظ، لا بد أنه لم يعرف أنني الطارق، لكن أسلوبه يخلو من أي كياسة. بل بدا مريبًا في الواقع في ظل هذه الظروف.

كان ردّ هولمز غريبًا، فقد سأله:

– هل يمكنك أن تخبرني كم يبلغ طوله بالضبط؟

– في الواقع يا سيد هولمز لا أستطيع أن أجزم. إنه أطول من الهندي، لكنه ليس فارعَ الطول مثل جيلكريست. أفترض أن طوله نحو خمس أقدام وست بوصات.

قال هولمز: هذا مهم جدًّا. والآن يا سيد سومز، أتمنى لك ليلة طيبة.

صاح مرشدنا بدهشة وفزع قائلًا: يا إلهي، مؤكَّد لن تتركني يا سيد هولمز بهذه الطريقة المفاجئة! يبدو أنك لا تدرك الموقف. فالامتحان غدًا. وعليَّ أن أتخذ إجراءً محددًا الليلة. لا يمكن السماح بإجراء الامتحان إذا كانت إحدى أوراقه قد عُبث بها. ينبغي مواجهة الموقف.

– لا بد أن تترك الأمر على ما هو عليه. سأمر بك في وقتٍ مبكر من صباح غدٍ ونتناقش. قد أكون قادرًا حينئذ على وضع خطة بعينها. أما الآن، فلا تغير أي شيء – لا شيء على الإطلاق.

– ليكن إذن يا سيد هولمز.

– فليطمئن بالك. فسوف نجد دون شك طريقة للخروج من ورطتك. سآخذ الصلصال الأسود معي، وكذا شظايا القلم الرصاص. إلى اللقاء.

عندما خرجنا في ظلام الفناء ألقينا نظرة أخرى على النوافذ. كان الهندي لا يزال يذرع غرفته. أما الآخران فلم يكونا ظاهرين.

سألني هولمز عندما خرجنا إلى الشارع الرئيس: حسنًا، ما رأيك في هذا يا واتسون؟ إنها لعبة صغيرة نوعًا – مثل خدعة الثلاث ورقات، أليست كذلك؟ فهناك ثلاثة رجال لا بد أن الجاني واحدٌ منهم، هيا اختر. أيهم في رأيك؟

– الرجل سليط اللسان في الطابق الأخير. فهو صاحب أسوأ سمعة. وإن كان الهندي ماكرًا بدوره. لمَ يذرع غرفته جيئة وذهابًا طوال الوقت؟

– لا بأس في ذلك. أناسٌ كُثر يفعلون ذلك عندما يحاولون حفظ أي شيء عن ظهر قلب.

– لقد رمَقَنا بطريقة غريبة.

– كذلك ستفعل أنت إن أتى حشدٌ من الغرباء إليك في وقتٍ تستعد فيه لامتحان في اليوم التالي، وكل لحظة لها قيمة. لا، لستُ أرى مشكلة في هذا. وكذلك كانت الأقلام الرصاص والسكاكين جميعها عادية. لكن ذاك الرجل يصيبني بالحيرة.

– من؟

– بانيستر الخادم. ما دوره في القضية؟

– لقد بدا لي صادقًا.

– وكذلك بدا لي. وهذا هو الجزء المحير. ما الذي يجعل رجلًا صادقًا لهذه الدرجة... حسنًا، حسنًا، ها هو متجر أدوات مكتبية كبير. سنبدأ بحثنا من هنا.

لم تكن في المدينة غير أربعة متاجر للأدوات المكتبية، وفي كل منها أخرج هولمز شظايا القلم الرصاص وعرض ثمنًا كبيرًا للحصول على نسخة طبق الأصل منه. اتفق الجميع على أن من الممكن طلب نسخة،

وأن هذا القلم ذو حجمٍ غير معتاد ونادرًا ما يحتفظون بمثله في المخزون. لم يبدُ على صديقي انزعاج من إخفاقه، بل هز كتفيه في استسلام شبه ساخر.

– لا فائدة يا عزيزي واتسون. لم يفضِ هذا الدليل الوحيد إلى شيء. لكنني في الحقيقة لا أشك أن باستطاعتنا بناء قضية وافية من دونه. يا إلهي، إن الساعة تقارب التاسعة يا واتسون، وقد كانت صاحبة السَّكن تثرثر عن إعدادها البازلاء الخضراء في السابعة والنصف. أظن بتدخينك المستمر يا واتسون، وعدم انتظامك في الوجبات، ستتلقى إنذارًا بالطرد من السكن وسأشاركك المصير نفسه – ولكن ليس قبل أن نحل قضية المعلم القلِق، والخادم المهمل، والطلاب الثلاثة المنفعلين.

لم يُشر هولمز إلى المسألة مجددًا في ذاك اليوم، رغم أنه جلس شاردًا لفترة طويلة بعد عشائنا المتأخر. وفي الثامنة صباحًا دخل غرفتي بمجرد أن ارتديت ملابسي.

قال: حسنًا يا واتسون، حان وقت الذهاب إلى سانت لوك. هل يمكنك الذهاب دون تناول الإفطار؟

– بالتأكيد.

– سيظل سومز في قلقٍ رهيب حتى نتمكن من إخباره بشيء إيجابي.

– هل لديك أي شيء إيجابي لتخبره به؟

– أعتقد ذلك.

– هل توصلت إلى استنتاج ما؟

– نعم يا عزيزي واتسون؛ لقد حللت اللغز.

– لكن ما الدليل الجديد الذي عثرت عليه؟

– آها! لم أستيقظ في السادسة صباحًا دون سبب. فقد قضيت ساعتين من العمل الشاق وقطعت ما لا يقل عن خمسة أميال، وحصلت على شيءٍ لأتباهى به. انظر إلى هذا!

مد يده، ورأيتُ في راحته ثلاثة أهرام صغيرة من الصلصال الأسود الطري.

– مهلًا يا هولمز! كان معك اثنان فقط بالأمس!

– وحصلت على واحدٍ آخر صباح اليوم. من العدل أن نفترض أن الشكل رقم 3 قد أتى من المكان نفسه الذي أتى منه الشكلان رقم 1 و2، أليس كذلك يا واتسون؟ حسنًا، هلم بنا لنخرج صديقنا سومز من كربه.

وبالطبع وجدنا المعلم التعيس في غرفته وقد اعترته حالة من الانفعال المثير للشفقة. ففي غضون بضع ساعات سيُعقد الامتحان، وكان لا يزال يواجه معضلة بين إعلان الحقائق، أو السماح للمجرم بالتنافس على منحة دراسية قيمة. كان مضطربًا لا يستطيع الوقوف ساكنًا، ركض نحو هولمز ويداه ممدودتان في لهفة:

– حمدًا لله على حضورك! خشيت أن تكون شعرتَ باليأس فتخليت عن القضية. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أعقد الامتحان؟

– نعم؛ دعه ينعقد بكل سرور.

– لكن هذا الوغد...؟

– لن يحضر الامتحان.

– هل عرفته؟

– أظن ذلك. وما دامت القضية لن تُعرض على الملأ فلا بُد أن نمنح أنفسنا سلطات معينة، ونحل الأمر بأنفسنا في محكمة ميدانية سرية صغيرة. اجلس أنت هناك يا سومز إذا سمحت! وأنت هنا يا واتسون! وسوف آخذ أنا المقعد ذا الذراعين في المنتصف. أعتقد أن مظهرنا الآن مهيب بما يكفي لبث الرعب في صدر المجرم. فلتتفضل بقرع الجرس!

دخل بانيستر، ثم تراجع منكمشًا بدهشة وخوف جليين من مظهرنا القضائي.

قال هولمز: تفضَّل بإغلاق الباب، والآن يا بانيستر، هلا أخبرتنا بحقيقة ما حدث أمس؟

شحب لون الرجل من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

– لقد أخبرتك بكل شيء يا سيدي.

– أليس لديك ما تضيفه؟

– كلا يا سيدي، مُطلقًا.

– حسنًا إذن، عليَّ أن أمنحك بعض الاقتراحات. حينما جلستَ على هذا الكرسي أمس، هل فعلت بهدف إخفاء بعض الأشياء التي من شأنها أن توضح هُوية من دخل الغرفة؟

شحب وجه بانيستر.

– لا يا سيدي؛ قطعًا لا.

قال هولمز بلطف: كان مجرد اقتراح. وأنا أعترف بصراحة أنني غير قادر على إثباته. لكنه يبدو واردًا بما يكفي، ففي اللحظة التي أدار فيها السيد سومز ظهره أطلقت سراح الرجل الذي كان مختبئًا في غرفة النوم تلك.

لعق بانيستر شفتيه الجافتين.

– لم يكن هناك رجل يا سيدي.

– آه، هذا مؤسف يا بانيستر. فحتى الآن كنت لأصدق أنك تقول الحقيقة، لكنني الآن صرتُ أعلم أنك تكذب.

تجهم وجه الرجل في تحدٍّ.

– لم يكن هناك رجل يا سيدي.

– دع عنك هذا يا بانيستر!

– لا يا سيدي؛ لم يكن من أحدٍ هناك.

– في هذه الحالة لن يسعك تقديم مزيد من المعلومات لنا. هلا بقيت في الغرفة من فضلك؟ قف هناك بالقرب من باب غرفة النوم. والآن يا سومز، أودُّ منك أن تتفضل بالصعود إلى غرفة الشاب جيلكريست، وتطلب منه النزول إلى غرفتك.

بعد برهة عاد المُعلم، مصطحبًا معه الطالب. كان شابًّا حسن الطلعة، طويل القامة، نحيلًا، خفيف الحركة، ذا خطوات رشيقة، ووجهٍ وسيم محبب. نظر إلينا الواحد تلو الآخر بعينيه الزرقاوين المضطربتين، ثم استقرَّتا أخيرًا على بانيستر في الزاوية البعيدة بتعبيرٍ من الفزع المطبق.

قال هولمز: أغلق الباب من فضلك. والآن يا سيد جيلكريست، إننا بمفردنا هنا، ولا داعي لأن يعلم أحدٌ بكلمة واحدة عما يدور بيننا. يمكننا أن نتحدث بصراحة تامة مع بعضنا بعضًا. نريد أن نعرف يا سيد جيلكريست، أنَّى لرجل محترم مثلك أن يرتكب مثل هذا الفعل الذي ارتُكب بالأمس؟

ترنح الشاب البائس إلى الخلف وألقى نظرة امتلأت رعبًا ولومًا إلى بانيستر.

صاح الخادم: كلا، لا يا سيد جيلكريست؛ لم أتفوه بكلمة – ولا كلمة واحدة!

قال هولمز: صحيح، لكنك تفوهت بها الآن. والآن يا سيدي، لا بد أنك ترى أن موقفك بعد كلمات بانيستر أصبح ميؤوسًا منه، وأن فرصتك الوحيدة تكمن في الاعتراف الصادق.

للحظة حاول جيلكريست بيدٍ مرفوعة أن يتحكم في ملامحه الملتوية، وفي التالية ألقى بنفسه على ركبتيه بجانب الطاولة، ودفن وجهه بين يديه، وانفجر في نوبة من النشيج العميق.

قال هولمز برقة: اهدأ، اهدأ، فالإنسان خطَّاء، وعلى الأقل لا يمكن لأحدٍ أن يتهمك بأنك مجرم غاشم. ربما يكون من الأسهل أن أخبر السيد سومز بما حدث، وأن توقفني إن أخطأت. هل أفعل؟ حسنًا، حسنًا، لا تُتعب نفسك بالإجابة. استمع وسترى أنني لن أجور عليك.

منذ اللحظة التي أخبرتني فيها يا سيد سومز ألا أحد يمكنه أن يعرف بوجود الأوراق في غرفتك – حتى بانيستر – بدأت القضية تتخذ شكلًا محددًا في ذهني. استبعدتُ بالطبع عامِل المطبعة. فقد كان بإمكانه فحص الأوراق في مكتبِه. وكذا لم أظن أن للهندي علاقة بالأمر. فإن كانت المسودات مطوية فلم يكن ليعرف كُنهها. ومن ناحية أخرى، بدت مصادفة غير واردة أن يجرؤ أحدٌ على دخول الغرفة بالصدفة في اليوم نفسه الذي كانت فيه الأوراق على الطاولة، فاستبعدت هذا الاحتمال. لقد كان الرجل الذي دخل الغرفة يعلم بوجود الأوراق هناك. فكيف علم بذلك؟

عندما اقتربت من غرفتك بالخارج فحصتُ النافذة. وقد أذهلتني بافتراضك أني أفكر في احتمالية إقحام شخص ما نفسه فيها في وضح النهار، وتحت أعين قاطني كل تلك الغرف المقابلة. فقد كانت فكرة سخيفة. وإنما كنتُ أقيس الطول الذي يسمح للشخص برؤية الأوراق الموجودة على الطاولة خلال عبوره من أمام النافذة. إن طولي يبلغ ستة أقدام، ولا يمكنني فعل هذا إلا ببذل بعض الجهد. من المستحيل لأحدٍ أقل طولًا من هذا أن يحظى بفرصة رؤية الأوراق. وهكذا أصبح لدي سببٌ يدعوني للتفكير في أنه إذا كان أحد طلابك أطول من المعتاد، فإنه أكثر واحد بين الثلاثة يستحق المراقبة من كثب.

دخلت الغرفة وأخبرتك بملاحظاتي بخصوص الطاولة الجانبية. أما الطاولة المركزية، فلم أصِل منها لشيء، حتى ذكرت في وصفك لجيلكريست أنه بارعٌ في الوثب الطويل. حينها تجلَّى لي الأمر كله في لحظة، ولم أكن أحتاج إلا إلى أدلة دامغة مؤيِّدة، وسرعان ما حصلت عليها.

ما حدث كان الآتي. قضى هذا الشاب فترة ما بعد الظهيرة في الملاعب الرياضية، حيث كان يتدرب على الوثب. وعاد حاملًا حذاء الوثب المزود كما تعلم بعدة زوائد حادة من الأسفل. وبينما مرَّ بنافذتك رأى – لطوله البالغ – هذه المسودات على طاولتك، وخمَّن ماهيتها. ولم يكن ليقع أي ضرر لولا أنه لاحظ لدى مروره ببابك المفتاح الذي تركه خادمك بإهمال. فداهمته فكرة أن يدخل ويرى إن كانت بالفعل المسودات. لم تكن المغامرة خطيرة، لأنه يستطيع دومًا الادعاء بأنه قد دخل ليطرح سؤالًا.

وهكذا عندما رأى أنها بالفعل المسودات، استسلم للإغراء، فوضع حذاءه على الطاولة. ما الذي وضعته على ذلك الكرسي القريب من النافذة؟

قال الشاب: قفازين.

نظر هولمز إلى بانيستر منتصرًا: لقد وضع قفازيه على الكرسي، وأخذ المسودات ورقة تلو الأخرى لنسخها. كان يظن أن المعلم لا بد سيعود من البوابة الرئيسة، وحينها سيراه. لكنه كما نعرف عاد من البوابة الجانبية. فجأة سمع صوته أمام الباب. لم يجد مهربًا. نسي قفازيه، لكنه أخذ حذاءه واندفع نحو غرفة النوم. أتلاحظ أن الخدش على تلك الطاولة خفيف من أحد الجانبين، لكنه يتعمق في اتجاه باب غرفة النوم. هذا وحده كافٍ ليبين لنا أنه قد سحب حذاءه في هذا الاتجاه واختبأ هناك. وقد تُركت قطعة من التربة الملتصقة حول زوائد الحذاء على الطاولة، وتفككت قطعة أخرى وسقطت في غرفة النوم. يمكنني أن أضيف أنني خرجت إلى الملاعب الرياضية هذا الصباح، ورأيت أن الطين الأسود المتماسك يستخدم في حفرة الوثب، فأخذت عينة منه، مع بعض القش أو نشارة الخشب المنثورة فوقها لمنع الرياضيين من الانزلاق. هل ما قلته هو الحقيقة يا سيد جيلكريست؟

نهض الطالب معتدلًا وقال:

نعم يا سيدي، إنها الحقيقة.

صاح سومز: يا إلهي، أليس لديك ما تضيفه؟

– بلى يا سيدي لدي، لكن صدمة هذا العرض المخزي أربكتني. إن معي رسالة هنا يا سيد سومز، كتبتها في وقت مبكر من صباح اليوم بعد ليلة بلا راحة. كان ذلك قبل أن أعرف أن خطيئتي قد كُشفت. ها هي ذي يا سيدي. سترى أني أقول «لقد عقدت العزم على عدم حضور الامتحان. لقد عُرض عليّ تكليف في الشرطة الروديسية، وإنني ذاهب إلى جنوب إفريقيا في الحال.

قال سومز: يسعدني حقًّا سماعي بأنك لا تنوي الاستفادة من ميزتك غير العادلة. ولكن لمَ غيرت نيتك؟

أشار جيلكريست إلى بانيستر.

قال: هذا الرجل هو من أعادني إلى الطريق القويم.

قال هولمز: تعال الآن يا بانيستر. لقد اتضح لك مما قلته أنك الوحيد الذي كان بإمكانه السماح لهذا الشاب بالخروج، لأنك بقيت في الغرفة، ولا بد أنك أغلقت الباب حينما غادرت. ولأن هروبه عبر تلك النافذة أمرًا يستحيل تصديقه. هلا أمطت اللثام عن النقطة الأخيرة في اللغز، وأخبرتنا بسبب تصرفك؟

– الأمر في غاية البساطة يا سيدي بمجرد أن تعرفه؛ ولكن مع كل براعتك كان محالًا أن تعرف. لقد كنتُ فيما مضى يا سيدي كبير خدم السير جابيز جيلكريست العجوز، والد هذا السيد الشاب. وعندما أفلس أتيت للعمل خادمًا في الكلية، لكنني لم أنس قط سيدي القديم بعد أن انهار عالمه. فظللت أعتني بابنه قدر استطاعتي لأجل الأيام الخوالي. حسنًا يا سيدي، حينما دخلت إلى هذه الغرفة أمس بعد أن اكتُشفت الواقعة، كان أول ما رأيته هو قفازا السيد جيلكريست المدبوغان ملقيان على ذلك الكرسي. كنت أعرف هذين القفازين جيدًا، وفهمت معنى وجودهما. لئن شاهدهما السيد سومز لانتهت اللعبة. جلستُ على الكرسي، ولم يكن ليزحزحني شيء حتى ذهب السيد سومز إليك. حينها أخرجتُ سيدي الشاب المسكين، الذي دللته في صغره على ركبتيّ، واعترف لي بكل شيء. ألم يكن من الطبيعي يا سيدي أن أنقذه، ألم يكن من الطبيعي أيضًا أن أحاول الحديث معه كما كان والده المتوفَّى ليفعل، وأجعله يفهم أنه لا يستطيع الاستفادة من مثل هذا الفعل؟ هل يمكنك لومي على ما فعلتُ يا سيدي؟

قال هولمز بمودة ناهضًا على قدميه: في الحقيقة، لا. حسنًا يا سيد سومز، أعتقد أننا حللنا مشكلتك الصغيرة، وفطورنا ينتظرنا في المنزل. تعال يا واتسون! أما أنت يا سيدي، فأنا على ثقة من أن المستقبل ينتظرك في روديسيا مشرقًا. لقد هبطت لمستوى متدنٍ في واقعتنا هذه. دعنا نرى إذن إلى أي مدى تستطيع الارتقاء.

مغامرة نظارة الأنف الذهبية

عندما أنظر إلى المجلدات الثلاثة الضخمة التي تضم مخطوطات أعمالنا لعام 1894، أعترف أني أجِد صعوبة بالغة في أن أختار من بين هذه المواد الثرية، القضايا الأكثر تشويقًا بحد ذاتها، والتي في الوقت ذاته تعبر بأفضل ما يكون عن القدرات الفريدة التي اشتهر بها صديقي. أخذتُ أقلِّبُ الصفحات وأنظر إلى ملاحظاتي على قصة العلقة الحمراء المقيتة، والميتة الشنيعة لكروسبي المصرفي. وعثرتُ أيضًا على سرد لمأساة أديلتون، ومحتويات الرابية الأثرية البريطانية العجيبة. كذلك فقد وقعت قضية تقسيم التركة بين سميث ومورتيمر في تلك الفترة، ومطاردة أوريه، قاتل البوليفار واعتقاله –وهي مأثرة فاز على إثرها هولمز بخطاب شكر بخط يد الرئيس الفرنسي، ووسام جوقة الشرف. لكل واحدة من هذه القضايا حكاية، بيد أني لا أظن أيًّا منها قد جمع عناصر التشويق الفريدة مثلما فعلت واقعة يوكسلي أولد بليس، التي لا تضم فقط مقتل الشاب ويلوبي سميث المؤسف، وإنما تلك التطورات اللاحقة المثيرة للاهتمام التي كشفت لنا عن دوافع الجريمة.

كانت ليلة جامحة عاصفة من ليالي أواخر نوفمبر. كنت أجلس أنا وهولمز معًا في صمت طوال المساء، وقد انهمكَ في فك شفرة ما تبقى من نقوش أصلية على أحد الرقوق المطموسة، مستخدمًا عدسة قوية، فيما انكببتُ أنا على قراءة إحدى الدراسات الحديثة عن الجراحة. وفي الخارج أخذت الريح تعوي في شارع بيكر، بينما المطر يقرع النوافذ بغزارة. عجبتُ من شعورنا بقبضة الطبيعة الحديدية في أعمق أعماق المدينة، وسط عشرة أميال تحيط بنا من كل اتجاه مما بناه البشر، وأن ندرك أن لندن بأسرها بالنسبة لقوى الطبيعة البدائية الجبارة ليست سوى كومة صغيرة من التراب كتلك التي تتناثر في الحقول. اقتربتُ من النافذة ونظرت إلى الشارع الخاوي بالخارج. كانت المصابيح المتباعدة تتوهج على امتداد الطريق الموحل والرصيف اللامع. انطلقت عربة أجرة وحيدة تشق طريقها ناثرة الماء حولها آتية من نهاية شارع أوكسفورد.

قال هولمز وهو يضع عدسته جانبًا ويطوي الرق المطموس: حسنًا يا واتسون، لحسن الحظ أننا لسنا مضطرين إلى الخروج الليلة. أما أنا فقد أنجزت ما يكفيني من العمل لجلسة واحدة. يا له من عمل مرهق للعينين! وبحسب ما استطعت فهمه، فهو ليس إلا تقارير لأحد الأديرة يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر. مهلًا! مهلًا! مهلًا! ما هذا؟

في خضم هبوب الرياح، سمعنا صوت حوافر خيل وصرير عجلة تحتك بحافة الرصيف؛ فقد توقفت عربة الأجرة التي رأيتُها عند باب مسكننا.

هتفتُ عندما خرج رجل منها: ماذا عساه يريد؟

– يريد! إنه يريدنا. أما نحن أيها المسكين واتسون فنريد معاطف وأربطة عنق وأحذية مطاطية وكل وسيلة اخترعها الإنسان يومًا لمجابهة هذا الطقس. ولكن تمهَّل قليلًا! ها هي ذي عربة الأجرة تغادر مرة أخرى! ثمة أملٌ بعد. كان سيُبقيها منتظرة إذا كان يريد منا أن نذهب معه. اهبط سريعًا يا صديقي العزيز وافتح الباب، فإن جميع أهل الدار قد أووا إلى فُرُشهم منذ مدة طويلة.

عندما سقط ضوء مصباح الرَّدهة على وجه ضيفنا، لم أجد صعوبة في التعرف عليه. كان ستانلي هوبكنز، المحقق الشاب الواعد، والذي أبدى هولمز اهتمامًا حقيقيًّا ملموسًا بمسيرته المهنية مراتٍ عدة.

سأل بلهفة قائلًا: هل هو بالداخل؟

صاح هولمز من أعلى قائلًا: اصعد يا سيدي العزيز. أرجو ألا تكون لديك مشاريع لنا في مثل هذه الليلة.

صعد المحقق الدَّرج، وانعكس ضوء مصباحنا على معطف المطر اللامع خاصته. ساعدته على خلعه بينما أشعل هولمز النار في حطب المدفأة.

قال هولمز: والآن يا عزيزي هوبكنز، اقترب ودفِّئ أصابع قدميك. إليك سيجارًا، وسوف يعد لك الطبيب وصفة الماء والليمون خاصته، إنها دواءٌ جيد في ليلة كهذه. لا بد أنه شيءٌ مهم ذاك الذي أخرجك في مثل هذه العاصفة.

– هذا مؤكد يا سيد هولمز. لقد قضيت فترة ظهيرة صاخبة بحق. هل قرأت شيئًا بخصوص قضية يوكسلي في الطبعات الأخيرة من الصحف؟

– لم أقرأ اليوم أيًّا مما كتب بعد القرن الخامس عشر.

– حسنًا، لقد كانت فقرة واحدة فقط، وكل ما ورد فيها خطأ، لذا لم يفُتك شيء. لكنني لم أتقاعس. لقد وقعت الحادثة جنوبًا في كِنت، على بعد سبعة أميال من مدينة تشاتام وثلاثة أميال من خط السكك الحديدية. وصلتني برقية بها في الثالثة والربع، فوصلت إلى يوكسلي أولد بليس في الخامسة، وأجريت تحقيقي، ثم عدت إلى محطة تشيرنج كروس في القطار الأخير، ومنها استقللت عربة أجرة إليك مباشرة.

– ما يعني، حسبما أظن، أن معالم قضيتك ليست واضحة تمامًا بالنسبة لك.

– بل يعني أنني لا أستطيع معرفة رأس القضية من ذيلها. فهي من أعقد القضايا التي توليتها حسبما رأيت منها حتى الآن، وإن بدت لأول وهلة بسيطة إلى الحد الذي لا مجال معه للخطأ. لا يوجد دافع يا سيد هولمز. هذا هو ما يزعجني –لا أستطيع وضع يدي على الدافع. يوجد رجلٌ قد قُتِل –لا ريب في ذلك– ولكن، حسبما أرى، لا يوجد سبب على وجه الأرض يجعل أحدهم يتمنى الأذى له.

أشعل هولمز سيجاره واستند إلى ظهر مقعده قائلًا:

– أخبرنا عنها إذن.

قال ستانلي هوبكنز: إن الحقائق التي بحوزتي واضحة جدًّا، كل ما أريده هو أن أعرف ما تعنيه. لقد حدثت القصة هكذا، حسبما فهمت. منذ بضع سنوات، أصبح هذا المنزل الريفي المدعو يوكسلي أولد بليس ملكًا لرجلٍ مسن يُدعى البروفيسور كورام. كان مريضًا ملازمًا لفراشه نصف الوقت، والنصف الثاني إما يقضيه في التجول بصعوبة في أرجاء المنزل متكئًا على عصاه، أو يدفعه البستاني على كرسي متحرك في أرجاء المكان. كان محبوبًا وسط جيرانه القلائل الذين يزورونه، وقد ذاع عنه بينهم أنه رجل ذو ثقافة واسعة. تعيش معه مدبرة منزل عجوز تُدعى السيدة ماركر، وخادمة تُدعى سوزان تارلتون. جاءت كلتاهما معه منذ وصوله، ويبدو أنهما سيدتان خلوقتان. كان البروفيسور يؤلف كتابًا تثقيفيًّا، وارتأى منذ ما يقرب من عام أنه بحاجة إلى الاستعانة بمساعد. لكن أول اثنين استعان بهما لم ينجحا؛ غير أن الثالث، السيد ويلوبي سميث، وهو شاب جامعي حديث التخرج، بدا كأنه الشخص الذي يبحث البروفيسور عنه تمامًا. تمثل عمله في كتابة ما يمليه عليه البروفيسور طوال النهار، ثم يقضي المساء في

البحث عن المراجع والفقرات المرتبطة بعمل اليوم التالي. لا يوجد لدى ويلوبي سميث هذا ما يخجل منه، سواء حينما كان صبيًّا في أبنجهام، أو شابًّا في كامبريدج. لقد رأيت شهاداته وتيقنت أنه كان منذ نشأته محترمًا وهادئًا ومجتهدًا، لا يوجد ما يشينه البتة. ومع ذلك، فقد لقي هذا الشاب مصرعه صبيحة هذا اليوم في مكتب البروفيسور في ظروف لا يمكن إلا أن تشير إلى جريمة قتل.

عوت الريح وعصفت بالنوافذ، فاقتربتُ أنا وهولمز من النيران، بينما واصل المحقق الشاب سرد روايته الغريبة ببطء منتقلًا من نقطة إلى أخرى.

قال: لو فتَّش أحدهم إنجلترا بأكملها، فلا أظنه ليتمكن من العثور على أهل بيت أكثر تحفظًا أو بعدًا من المؤثرات الخارجية. فقد تمر أسابيع كاملة دون أن يخطو واحدٌ منهم خارج بوابة الحديقة. كان البروفيسور غارقًا في عمله وغير آبه لأي شيء آخر. أما الشاب سميث فلم يكن يعرف أحدًا في الحي، وعاش تمامًا مثلما يعيش ولي نعمته. لم يكن لدى المرأتين ما يهمهما خارج المنزل. وحتى البستاني مورتيمر، الذي يدفع البروفيسور على كرسيه المتحرك، فهو جندي متقاعد من الجيش، ورجل هَرِم فاضل كان أحد الذين شاركوا في حرب القرم. لم يكن يعيش في المنزل، وإنما في كوخ عبارة عن ثلاث غرف في الطرف الآخر من الحديقة. وما من أحد سوى أولئك الأفراد داخل منزل يوكسلي أولد بليس. وفي الوقت ذاته، تقع بوابة الحديقة على بعد مئة ياردة من الطريق الرئيس الذي يربط بين لندن وتشاتام، وتُفتح بمزلاج، ولا يوجد ما يمنع أي أحد من الدخول.

والآن سأطلعك على شهادة سوزان تارلتون، الوحيدة التي أمكنها أن تقدم شيئًا قاطعًا في هذه القضية. حدث وقت الضحى، بين الحادية عشرة والثانية عشرة، أن انهمكت سوزان في تعليق بعض الستائر في غرفة النوم الأمامية بالطابق العلوي. حينها كان البروفيسور كورام ما زال في فراشه، إذ إنه لم يكن يستيقظ قبل الظهيرة حينما يكون الطقس سيئًا. وانشغلت مدبرة المنزل ببعض الأعمال في الجزء الخلفي من المنزل. أما ويلوبي سميث فكان في غرفة نومه التي يستخدمها كغرفة جلوس؛ غير أن الخادمة سمعت في تلك اللحظة وقع خطواته عبر الممر هابطًا إلى المكتب الذي يقع في الطابق أسفلها مباشرة. لم تره، لكنها تقول إنها لا يمكن أن تخطئ خطاه السريعة الثابتة. لم تسمع باب المكتب يُغلق، لكن بعد دقيقة أو نحوها دوَّت صرخة مروعة من الغرفة أسفلها. كانت صرخة خشنة مبحوحة وغريبة وغير طبيعية لدرجة أنها قد تكون صادرة عن رجل أو امرأة على حد سواء. وفي اللحظة ذاتها، دوَّى صوت ارتطامٍ قوي اهتز له المنزل القديم، ثم ساد صمت مطبق. تجمَّدت الخادمة في مكانها للحظة، ثم استجمعت شجاعتها وركضت إلى الطابق السفلي. كان باب المكتب مغلقًا ففتحته. وحينها وجدت السيد ويلوبي سميث ممددًا بالداخل على الأرض. وللوهلة الأولى لم ترَ به أي إصابات، لكنها حينما حاولت رفعه رأت الدماء تنبثق من أسفل رقبته. كان عنقه مطعونًا في جرح صغير جدًّا لكنه بالغ العُمق لدرجة أن قطع الشريان السُّباتي. رأت الأداة التي سببت الجرح ملقاة إلى جانبه على السجادة. وكانت واحدة من سكاكين فك شمع الأختام الصغيرة تلك التي توجد على طاولات الكتابة قديمة الطراز، ذات مقبض عاجي ونصلٍ حاد. تلك السكين كانت واحدة من اللوازم المكتبية في مكتب البروفيسور.

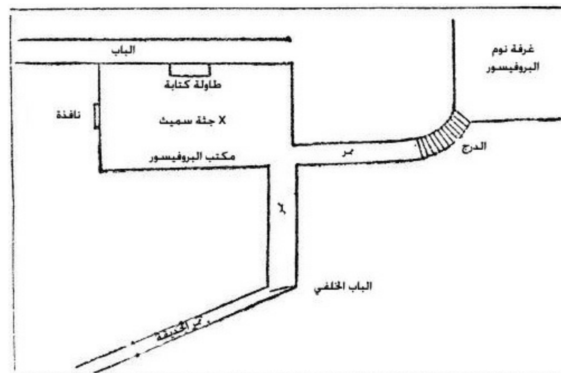
ظنَّت الخادمة في بادئ الأمر أن الشاب سميث قد مات بالفعل، ولكن بسكب بعض الماء من إبريقٍ زجاجي على جبهته، فتح عينيه للحظة. ثم غمغم قائلًا: البروفيسور، لقد كانت هي. تقول الخادمة إنها على استعداد لأن تُقسِم بأن تلك كانت كلماته بالضبط. حاول بيأسٍ أن يقول شيئًا آخر، ورفع يمناه في الهواء، ثم سقط ميتًا.

في الوقت نفسه وصلت مدبرة المنزل إلى مكان الحادث هي الأخرى، ولكن بعد أن فات الأوان لتسمع كلمات الشاب المحتضر. تركت سوزان مع الجثة وهرعت إلى غرفة البروفيسور؛ الذي كان جالسًا في السرير وقد اعتراه قلقٌ رهيب، فقد سمع ما يكفي ليُدرك بأن خطبًا مروَّعًا قد وقع. والسيدة ماركر على استعداد لأن تُقسم بأن البروفيسور كان ما زال مرتديًا ثياب نومه، وكان بالفعل يتعذر عليه ارتداء ملابسه من دون مساعدة مورتيمر، الذي يُفترض به الحضور إليه في الثانية عشرة. يؤكد البروفيسور أنه سمع صرخة آتية من بعيد، وهذا هو كل ما يعرفه. ولم يستطع تفسير كلمات الشاب الأخيرة: البروفيسور، لقد كانت هي، لكنه يتصور أنها كانت نتاج سكرات الموت. إنه موقن بأن ويلوبي سميث ليس له أعداء في هذا العالم، ولم يستطع أن يعثر على دافع للجريمة. كان أول ما فعله البروفيسور هو أن أرسل البستاني مورتيمر إلى الشرطة المحلية. وبعدها بقليل أرسل قائد الشرطة في استدعائي. لم يتحرك أي شيء من مكانه قبل وصولي، وصدرت أوامر صارمة بألا يسير أحد على الممرات المؤدية إلى المنزل. كانت فرصة رائعة كي أضع نظرياتك موضع التنفيذ يا سيد شيرلوك هولمز. لم ينقصني شيء حقًّا.

قال رفيقي بابتسامة مريرة نوعًا: باستثناء السيد شيرلوك هولمز. حسنٌ، حدِّثنا إذن عما استنتجته مما رأيت؟

– يجب أولًا أن أطلب منك يا سيد هولمز أن تلقي نظرة على هذه الخريطة التقريبية، التي ستمنحك فكرة عامة عن موقع مكتب البروفيسور والأماكن الأخرى المتعلقة بالقضية. فسوف تساعدك في متابعة تحقيقي.

ثم فض الخريطة التقريبية، التي أعدتُ إلحاقها هنا، ووضعها فوق ركبتي هولمز. نهضت، ووقفت خلف هولمز، وفحصتها من فوق كتفيه.



– إنها تقريبية جدًّا بالطبع، ولا تحوي إلا النقاط التي تبدو أساسية لي. أما الباقي فسوف تراه لاحقًا بنفسك. والآن، لنفترض قبل أي شيء أن القاتل دخل المنزل، كيف دخل أو دخلت؟ لا شك عن طريق ممر

الحديقة والباب الخلفي، اللذين يفضيان إلى غرفة المكتب مباشرةً. فأيُّ طريق آخر سيكون معقدًا جدًّا. ولا بد أن الهروب قد تم أيضًا من هذا الطريق، لأن سوزان كانت تعترض أحد المخرجين الآخرين من الغرفة، أما المخرج الآخر فيؤدي إلى غرفة نوم البروفيسور مباشرة. لذلك فقد ركَّزتُ انتباهي على الفور إلى ممر الحديقة، الذي كان متشبعًا بمياه الأمطار الحديثة، ومن ثم سيشي بأي آثارِ أقدام لا محالة.

بيد أن المعاينة أوضحت لي أني أتعامل مع مجرم حذر ومتمرس. فلم أجد آثار أقدام في الممر. ولكن لا مجال للشك في أن أحدهم قد مرَّ على الشريط العُشبي المحدد للممر، وقد فعل ذلك لتجنب ترك أثره. لم يسعني العثور على أثرٍ ذي طابع مميز، لكنني متأكدٌ من أن أحدهم قد وطأ العشب. ولا بد أنه القاتل، فلم يكن البستاني أو غيره في هذا المكان في الصباح، ولم يبدأ المطر في الهطول إلا مساءً.

قال هولمز: لحظة واحدة، إلى أين يؤدي ذلك الممر؟

– إلى الطريق.

– كم يبلغ طوله؟

– مئة ياردة أو نحوها.

– لا بد أنك عثرت على آثار أقدام في المنطقة التي تفصل بين الممر والبوابة، أليس كذلك؟

– للأسف، كان الممر في هذه المنطقة مغطًّى بالقرميد.

– حسنًا، ماذا عن الطريق نفسه؟

– كلا؛ فقد كان كله غارقًا في الوحل.

– يا للخسارة! حسنًا إذن، هل كانت تلك الآثار على العشب مقبلة أم مدبرة؟

– يستحيل معرفة ذلك. فلم تكن حدودها واضحة.

– هل كانت لأقدام كبيرة أم صغيرة؟

– لا يمكن تمييز ذلك.

أصدر هولمز صيحة تنم عن نفاد صبره، ثم قال:

– لقد هطلت الأمطار بغزارة ولم تهدأ العاصفة منذ ذلك الحين، ستكون قراءة الآثار الآن أصعب من قراءة هذا الرق. حسنٌ حسن، ليس بأيدينا حيلة. وماذا فعلت يا هوبكنز بعد أن تأكدت من أنك غير متأكد من أي شيء؟

– أظنني تأكدتُ من قدرٍ لا بأس به من الأشياء يا سيد هولمز. فأنا أعرف أن شخصًا ما قد دخل المنزل من الخارج بحذر. ثم عاينتُ الرواق. كان مفروشًا بحصائر جوز الهند ولم يترك أثرًا من أي نوع. ثم قادني هذا إلى غرفة المكتب ذاتها، فوجدتها مؤثثة بأسلوبٍ بسيط. كانت قطعة الأثاث الرئيسة فيها هي طاولة كتابة ضخمة ذات صوانٍ ثابت. يتألف هذا الصوان من عمودين من الأدراج يتوسطهما خزانة صغيرة. كانت الأدراج مفتوحة والخزانة موصدة. يبدو أن الأدراج تُترك مفتوحة طوال الوقت، ولا يُحتفظ فيها بشيءٍ ذي قيمة. أما الخزانة فاحتوت بعض الأوراق المهمة، لكن لم تكن ثمة علامة على أن أحدًا قد عبث بها، وأكد لي البروفيسور أنه ما من شيءٍ قد فُقِد. لذلك مؤكد أنها لم تكُن جريمة سرقة.

وها أنا أصل إلى جثة الشاب التي عُثر عليها بالقرب من الصوان، على يساره تحديدًا، كما هو موضح في تلك الخريطة التقريبية. وُجِّهت الطعنة إلى يمين رقبته من الخلف إلى الأمام، لذلك من المستحيل أن يكون هو من ألحقها بنفسه.

قال هولمز: إلا إذا كان قد سقط على السكين

– بالضبط، خطرت لي تلك الفكرة. لكننا وجدنا السكين على بعد عدة أقدام من الجثة، لذا يبدو هذا مستحيلًا. ثم بالطبع لدينا كلمات الشاب التي قالها وقت احتضاره. وأخيرًا لدينا ذلك الدليل الشديد الأهمية الذي وُجد القتيل قابضًا عليه بيمينه.

أخرج ستانلي هوبكنز من جيبه مظروفًا ورقيًّا صغيرًا. ثم فتحه وأخرج نظارة أنف ذهبية، يتدلى من طرفيها خيط مقطوع من الحرير الأسود. وأضاف إن ويلوبي سميث كان يتمتع بنظرٍ حاد، لا شك أنه انتزع هذه من وجه القاتل.

أخذ هولمز النظارة وتفحصها بأقصى درجات الانتباه والاهتمام. ثم وضعها على أنفه، وحاول أن يقرأ من خلالها، ثم ذهب بها إلى النافذة وحدق إلى الشارع، ثم عاينها بدقة شديدة تحت ضوء المصباح القوي، وأخيرًا جلس إلى الطاولة وهو يضحك ضحكة مكتومة، وكتب بضعة سطور على ورقة، ثم ألقى بها إلى ستانلي هوبكنز قائلًا:

– هذا هو أقصى ما يسعني تقديمه لك، قد تكون لها فائدة ما.

قرأ المحقق المشدوه ملاحظة هولمز بصوت عالٍ. وقد كانت كالتالي:

مطلوب للعدالة: امرأة حسنة المظهر ترتدي ثيابًا راقية. لها أنف غليظ بدرجة ملحوظة، يعلوه عينان متقاربتان. ولها جبهة مقطبة ونظرة محدقة، وربما كتفان مستديران. تشير الدلائل إلى أنها استعانت بصانع نظارات مرتين على الأقل خلال الأشهر القليلة الماضية. ونظرًا إلى أن نظارتها متينة لدرجة ملحوظة، وأن صانعي النظارات ليسوا كثرًا، فلن يكون من العسير تعقبها.

ابتسم هولمز لدهشة هوبكنز، والتي لا بد انعكست على ملامحي أنا الآخر.

ثم قال: إن استنتاجاتي شديدة البساطة، فلا شيء أفضل من النظارة يمكنه أن يُعطينا مجالًا أدق للاستدلال على الجاني، ولا سيما إن كانت نظارة جديرة بالملاحظة كهذه. فبالنسبة لكونها تنتمي إلى امرأة، فقد خمَّنتُ هذا من رقتها، وبالطبع من الكلمات الأخيرة التي تفوَّه بها القتيل أيضًا. أما بالنسبة لكونها أنيقة وحسنة المظهر، فذلك لأن النظارة كما ترى قد صُنِعت ببراعة من الذهب الخالص، ولا يمكن تصور أن أحدًا يرتدي نظارة كهذه يمكن أن يكون مهملًا في نواحٍ أخرى. سترى أيضًا أن المشبكين واسعان جدًّا على أنفك، ما يدل على أن السيدة لها أنف عريض جدًّا عند طرفه. وعادةً ما تكون هذه الأنوف قصيرة وغليظة، لكن ثمَّ عدد كافٍ من الاستثناءات يمنعني من الجزم أو الإصرار على هذه النقطة في وصفي. ورغم أن وجهي نحيل، فقد واجهتني صعوبة في ضبط النظارة بحيث تكون عيناي في مركز العدستين أو حتى قرب مركزها. لذلك فعينا هذه السيدة قريبتان جدًّا من أنفها. هل لاحظت يا واتسون أن العدسات مقعرة ومتينة لدرجة غير عادية. مؤكَّد أن سيدة كهذه، تعاني ضعف البصر

طوال حياتها، ستكتسب صفات شكلية تتناسب مع هذا الضعف، والتي قد تظهر على الجبهة والجفنين والكتفين.

أجبتُ: نعم، لقد فهمتُ كل حجة من حججك. غير أني أعترف بعجزي عن فهم قولك بأنها قد زارت صانع النظارات مرتين.

تناول هولمز النظارة قائلًا:

– ستلاحظ أن المشبكين مبطنان بشريطين صغيرين من الفلين لتخفيف الضغط على الأنف. أحدهما تغير لونه واهترأ إلى حد ما، أما الآخر فجديد. واضح أن أحد الشريطين قد سقط واستُبدل. لذا يمكنني استنتاج أن الشريط الأقدم لم يمضِ على وجوده سوى بضعة أشهر. والشريطان متماثلان تمامًا، لذا استنتجتُ أن السيدة قد عادت إلى المنشأة ذاتها لتحصل على شريطٍ مماثل.

صاح هوبكنز بنشوة الإعجاب: يا إلهي، هذا مذهل! كيف كانت تحت يدي كل هذه الأدلة دون أن أنتبه؟ وإن كنت أعتزم الذهاب في جولة لصانعي النظارات في لندن.

– مؤكَّد ستفعل. والآن، هل لديك شيء آخر تود إخبارنا به عن القضية؟

– كلا يا سيد هولمز. أظنك تعرف الآن كل ما أعرفه، وربما أكثر. لقد تحرَّينا عن رؤية أي غرباء على طرق البلدة أو في محطة السكك الحديدية، ولم نسمع بأحد. ما يعجزني هو افتقار هذه الجريمة لأي غاية من ارتكابها. لا أحد يمكنه أن يفترض ولو طيف دافع.

– آه! لستُ في وضع يسمح لي بمساعدتك في هذا. لكنني أفترض أنك تريد منا الذهاب إلى هناك غدًا؟

– إذا لم أكُن أطلب الكثير يا سيد هولمز، فثمَّ قطار سينطلق من محطة تشيرنج كروس إلى تشاتام في السادسة صباحًا، ليصل إلى يوكسلي أولد بليس بين الثامنة والتاسعة.

– علينا أن نستقله إذن. لا شك أن قضيتك تحتوي على عناصر أثارت اهتمامي بشدة، وسيسرني أن أنظر فيها. حسنًا إذن، فالساعة تقارب الواحدة صباحًا وحريٌّ بنا أن ننام لبضع ساعات. أراهن أنك تستطيع تدبُّر أمورك على الأريكة أمام المدفأة. سأوقد مصباحي الكحولي وأعدُّ لك كوبًا من القهوة قبل أن نذهب.

هدأت العاصفة في اليوم التالي، لكننا بدأنا رحلتنا في صباح قارس البرودة. رأينا شمس الشتاء الباردة تشرق فوق المستنقعات الموحشة لنهر التايمز وروافده الطويلة الكئيبة، والتي تذكرني دومًا بمطاردتنا لأحد سكان جزيرة أندمان في الأيام الأوَل من مسيرتنا المهنية. وبعد رحلة طويلة ومرهقة، نزلنا في محطة صغيرة على بُعد أميال من مدينة تشاتام. تناولنا إفطارًا سريعًا في نزلٍ محلي بينما كانوا يجهزون لنا عربة يجرها حصان. وهكذا وصلنا أخيرًا إلى منزل يوكسلي أولد بليس وصرنا جميعًا مستعدين لبدء العمل فورًا. وقد استقبلنا أحد رجال الشرطة عند بوابة الحديقة.

– حسنًا يا ويلسون، هل من أخبار؟

– كلا يا سيدي، لا شيء.

– أما من تقارير عن رؤية أي غرباء؟

– نعم يا سيدي. إنهم يؤكدون في المحطة أنه لم يأتِ أو يذهب أي غرباء منذ أمس.

– هل تحققت من الفنادق وأماكن الإقامة؟

– نعم يا سيدي؛ ما من أحد لا يمكننا تفسير وجوده.

– حسنًا، إن المسافة من هنا حتى تشاتام ليست طويلة. يمكن لأي أحد أن يقيم هناك، أو يستقل قطارًا دون أن يلاحظه أحد. هذا هو ممر الحديقة الذي حدثتك عنه يا سيد هولمز. أقسم أنني لم أرَ أثرًا عليه أمس.

– على أي جانب من الشريط العشبي رأيت الآثار؟

– هذا الجانب يا سيدي. على هذه الحافة الضيقة من العشب بين الطريق وحوض الزهور. لا يمكنني رؤية الآثار الآن، لكنها كانت واضحة لي في حينها.

قال هولمز وهو ينحني فوق الحدود العشبية: نعم، نعم؛ لقد مر أحدهم عليها. لا بد أن تلك السيدة انتقت خطواتها بحرص، أليس كذلك؟ فقد كانت لتترك أثرًا على الممر إن خطت فوقه، وكانت لتترك أثرًا أكثر وضوحًا على تربة حوض الزهور الناعمة.

– نعم يا سيدي، لا بد أنها تتمتع برباطة جأش.

رأيت نظرة ذات مغزى تعبُر وجه هولمز.

– هل تقول بأنها لا بد قد عادت من هذا الطريق؟

– نعم يا سيدي؛ فلا يوجد طريق غيره.

– على هذا الشريط العشبي؟

– بالتأكيد يا سيد هولمز.

– همم! إنه لأداء استثنائي، استثنائي بحق. حسنًا، أظن أننا قد أضنينا الممر بحثًا. لنتقدم. عادةً ما تبقى بوابة الحديقة هذه مفتوحة إذن، صحيح؟ ومن ثم لم يكن على ضيفتنا إلا أن تعبر منها. واضح أن فكرة القتل لم تكن في ذهنها، وإلا لكانت زودت نفسها بأي نوع من الأسلحة، بدلًا من الاضطرار لاستخدام هذه السكين الموجودة على طاولة الكتابة. ثم سارت بطول هذا الرواق، ولم تترك أثرًا على حصائر جوز الهند. ثم وجدت نفسها في غرفة المكتب هذه. كم بقيت هناك؟ لا سبيل لمعرفة ذلك.

– ليس أكثر من بضع دقائق يا سيدي. فقد نسيت إخبارك بأن السيدة ماركر، مدبرة المنزل، كانت تنظف الغرفة قبل الواقعة بفترة قصيرة – نحو ربع الساعة حسبما تقول.

– حسنًا، هذا يعطينا حدًّا زمنيًّا. إذن دخلت السيدة هذه الغرفة. وماذا فعلت؟ اتجهت إلى طاولة الكتابة. لأي سبب؟ ليس لأجل شيءٍ في الأدراج. فإذا كان ثمة ما يستحق السرقة، فمؤكد ستوصَد الأدراج عليه. لا؛ إنما كانت تسعى لشيء ما في ذلك الصوان الخشبي. مهلًا! ما هذا الخدش الموجود على واجهته؟ هلا أشعلت عود ثقابٍ يا واتسون؟ لماذا لم تخبرني بهذا يا هوبكنز؟

مضى هولمز يفحص العلامة التي ظهرت على الحلية النحاسية إلى يمين ثقب المفتاح، وامتدت نحو أربع بوصات، حيث خدشت طلاء السطح.

– لقد لاحظتُ هذا الخدش يا سيد هولمز. ولكن طبيعي أن تجد خدوشًا حول ثقب المفتاح.

– إن هذا الخدش حديث، حديث جدًّا. انظر كيف يلمع النحاس في موضع الخدش. لو كان الخدش قديمًا لاكتسب لون السطح. انظر إليه من منظوري. توجد بقايا طلاء أيضًا تتراكم على جانبي الخدش كما يتراكم التراب على جانبي الأخدود. هل السيدة ماركر هنا؟

دخلت سيدة عجوز حزينة الوجه إلى الغرفة.

– هل نفضتِ الغبار عن هذا الصوان صباح أمس؟

– نعم يا سيدي.

– هل لاحظتِ وجود هذا الخدش؟

– لا يا سيدي، لم ألاحظه.

– إنني واثق من هذا، فقد كانت منفضة التراب لتزيل بقايا الطلاء تلك. من يملك مفتاح هذا الصوان؟

– يحتفظ به البروفيسور في سلسلة ساعة الجيب خاصته.

– أهو مفتاح عادي؟

– كلا يا سيدي؛ بل مفتاح خزينة.

– عظيم. يمكنك الذهاب يا سيدة ماركر. ها نحن نحرز تقدمًا ضئيلًا. فقد دخلت سيدتنا إلى الغرفة، وتقدمت نحو الصوان، وإما فتحته أو حاولت فتحه. وبينما انهمكت في ذلك دلف الشاب ويلوبي سميث إلى الغرفة. وبسبب تعجُّلها في سحب المفتاح تركت هذا الخدش على الباب. أمسك ويلوبي بها فالتقطت أقرب شيء، والذي تصادف أن يكون هذه السكين، التي هاجمته بها لإجباره على أن يُرخي قبضته. بيد أن الضربة كانت مميتة، فسقط من فوره وهربت هي، إما بالشيء الذي جاءت من أجله أو من دونه. هل الخادمة سوزان هنا؟ هل كان بإمكان أحدهم أن يهرب من ذلك الباب بعد الصرخة التي سمعتِها يا سوزان؟

– كلا يا سيدي؛ هذا مستحيل. كنت لأرى هذا الشخص في الممر قبل أن أنزل الدرج. بالإضافة إلى أن الباب لم ينفتح مطلقًا، وإلا لسمعته.

– هذا يحسم أمر هذا المخرج إذن. لا شك أن السيدة خرجت من الطريق نفسه الذي دخلت منه. أما هذا الممر الآخر فقد فهمتُ أنه لا يُفضي إلا إلى غرفة البروفيسور. أما من مخرج منه؟

– لا يا سيدي.

– لنسِر فيه ونتعرف على البروفيسور. مهلًا يا هوبكنز! هذا مهم جدًّا، مهم جدًّا بحق. إن ممر البروفيسور مغطًّى هو الآخر أيضًا بحصائر جوز الهند.

– نعم يا سيدي، وماذا في ذلك؟

– ألا ترى لذلك صلة بقضيتنا؟ حسنٌ حسن، لن أصرَّ على الأمر. لا شك أنني مخطئ، وإن كنت أشعر بأن في ذلك دلالة ما. تعالَ معي وقدمني إلى البروفيسور.

قطعنا الممر الذي كان طوله نفس طول الممر المؤدي إلى الحديقة، وكانت في نهايته مجموعة قصيرة من الدرجات تفضي إلى الباب. طرق مرشدنا الباب وقادنا إلى غرفة نوم البروفيسور.

كانت غرفة واسعة جدًّا تصطف بها أعداد لا حصر لها من المجلدات التي فاضت بها الرفوف ووضعت في أكوام في الزوايا، أو تكدست في أرجاء الغرفة عند قواعد الخزانات. وفوق الفراش الذي توسَّط الغرفة، رأينا صاحب المنزل متكئًا على الوسائد. نادرًا ما رأيتُ أحدًا ذا مظهر أكثر تميزًا. التفت نحونا بوجهٍ نحيلٍ معقوف الأنف، وعينين ثاقبتين داكنتين، تتواريان في تجويفين عميقين أسفل حاجبين كثين متدليين. أشيب الشعر واللحية، عدا أن لحيته كانت ملطخة حول الفم بلونٍ أصفر غريب. توهَّجت السيجارة التي في فمه وسط كتلة متشابكة من الشعر الأبيض، وقد امتلأت الغرفة برائحة التبغ الكريهة بالفعل. وحينما مد يده إلى هولمز لاحظتُ أنها كانت ملطخة هي الأخرى باللون الأصفر للنيكوتين.

قال البروفيسور بإنجليزية راقية وبنبرة متكلفة إلى حدٍّ ما: هل تدخن يا سيد هولمز؟ تفضل سيجارة. وماذا عنك يا سيدي؟ أوصيكما بتجربة هذه السجائر، فقد أعدَّتها لي شركة أيونايدس في الإسكندرية خصيصًا. إنهم يرسلون لي ألفًا في كل مرة، ويحزنني القول إنني أضطرُّ إلى طلب دُفعة جديدة كل أسبوعين. تلك عادة سيئة يا سيدي، سيئة جدًّا، لكنني رجلٌ مسن ولا أملك سوى قليلٍ من الملذات. التبغ وعملي، هما كل ما تبقى لي.

أشعل هولمز سيجارة، وأخذ يُلقي بنظرات خاطفة إلى جميع أنحاء الغرفة.

صاح الكهل قائلًا: التبغ وعملي، ولكن لم يبقَ لي الآن سوى التبغ. واحسرتاه! يا لها من بطالة كارثية! من كان يتوقع مثل تلك الفاجعة الرهيبة؟ ذلك الشاب المحترم! أؤكد لكم أنه قد صار مساعدًا ممتازًا بعد أشهر قليلة من التدريب. ما رأيك فيما حدث يا سيد هولمز؟

– لم أحسم أمري بعد.

– سأكون مدينًا لك حقًّا إذا استطعت أن تُلقي ضوءًا على جريمة تفيض بغموضها. فبالنسبة لمولع بالكتب مسكينٍ ومُقعد مثلي، تلك الضربة تجعلني أقف مشلولًا. أشعر بأني فقدتُ قدرتي على التفكير. أما أنت فرجلٌ عملي –أنت رجل القضايا. فذلك جزء من روتين حياتك اليومي. ويسعك الحفاظ على توازنك في حالات الطوارئ. إننا محظوظون حقًّا بوجودك إلى جانبنا.

أخذ هولمز يسير ذهابًا وإيابًا في جانب الغرفة بينما كان البروفيسور الكهل يتحدث. ولاحظت أنه كان يدخن بسرعة غير معتادة. بدا لي واضحًا أنه يشارك مضيفنا إعجابه بالسجائر السكندرية الطازجة.

استأنف الكهل حديثه: بلى يا سيدي، كانت الضربة ساحقة. انظر؛ تلك هي أعظم إبداعاتي –كومة الأوراق التي على الطاولة الجانبية هناك. إنها تحليلي للوثائق التي عُثر عليها في الأديرة القبطية بسوريا ومصر. وهذا العمل سيؤثر عميقًا في أسس الأديان السماوية. ولكن بصحتي الواهنة تلك، لست أدري إن كنت سأتمكن من إكماله يومًا، الآن وبعد أن فقدتُ مساعدي. رباه! إنك تُدخن أسرع مني شخصيًّا يا سيد هولمز.

ابتسم هولمز، ثم قال وهو يتناول سيجارة رابعة من العلبة ويشعلها من عقب السيجارة التي انتهى منها:

– إنني ذواقة. لن أزعجك باستجواب مطوَّل أيها البروفيسور كورام، فأنا أعلم بأنك كنت في فراشك وقت ارتكاب الجريمة، ولم يكن بإمكانك معرفة أي شيء عنها. سأطرح عليك سؤالًا واحدًا فقط: ماذا قصد ذلك المسكين بكلماته الأخيرة في رأيك: البروفيسور – لقد كانت هي؟

هز البروفيسور رأسه، وقال: إن سوزان فتاة ريفية، وأنت تعلم الغباء المستفحل لتلك الطبقة. أعتقد أن المسكين كان يتمتم ببعض كلمات الهذيان غير المتماسكة، فحرَّفتها هي إلى تلك الرسالة عديمة المعنى.

– مفهوم. وهل لديك تفسير شخصي للفاجعة؟

– قد تكون حادثًا؛ ربما انتحار، لكنني أقول هذا الكلام بيننا فقط. فللشباب مشكلاتهم الخفية –ربما كانت علاقة غرامية لم نعرف بها قط. إنه افتراض أرجح من القتل.

– ولكن ماذا عن النظارة؟

– آه! إنني لست سوى رجل علم –رجلٌ حالم. لا يسعني تفسير الأمور العملية في الحياة. لكنني أعي يا صديقي أن تعقيدات الحب قد تأخذ أشكالًا غريبة. فلتأخذ سيجارة أخرى رجاءً. إنه لمن دواعي سروري أن أرى شخصًا يقدر قيمتها هكذا. مروحة، قفاز، نظارة –من يدري أي شيء قد يتمسك به الرجل أو يحمله كتذكار حينما يضع نهاية لحياته؟ هذا السيد يتحدث عن آثار خُطى على العشب؛ ولكن هذه النقطة تحتمل الخطأ على أية حال. أما بالنسبة للسكين، فربما قُذف بعيدًا عن الرجل التعِس وهو يسقط. ربما يكون كلامي صبيانيًّا، ولكن يبدو لي أن ويلوبي سميث قد لقي مصرعه بيده.

بدا هولمز مصدومًا من النظرية المطروحة عليه، واستمر يسير جيئة وذهابًا لبعض الوقت، مغرقًا في التفكير ومستنفدًا سيجارة تلو أخرى.

وأخيرًا قال: أخبرني أيها البروفيسور كورام، ماذا يوجد في تلك الخزانة في الصوان؟

– لا شيء قد يفيد لصًّا. أوراق عائلية وخطابات من زوجتي المسكينة وشهادات من جامعاتٍ كرمتني. ها هو ذا المفتاح، ألقِ نظرة عليها بنفسك.

تناول هولمز المفتاح ونظر إليه للحظة؛ ثم أعاده قائلًا:

– كلا؛ لا أظنه سيفيدني. أفضل النزول لحديقتك في هدوء وأدوِّر الأمر برمته في ذهني. علينا أن نأخذ نظرية الانتحار التي طرحتها بعين الاعتبار. إننا مدينون لك باعتذارٍ لتطفلنا عليك أيها البروفيسور كورام، وأعدك بألا نضايقك إلا بعد الغداء. سنعود مجددًا في الثانية بعد الظُهر ونبلغك بأي جديد يجدّ في تلك المدة.

كان هولمز شاردًا على نحو غريب، وقد أخذنا نذرع ممر الحديقة ذهابًا وإيابًا لبعض الوقت في صمت.

سألته في النهاية: هل أمسكت بإحدى الدلائل؟

قال: هذا يعتمد على تلك السجائر التي دخنتها. يُحتَمَل أن أكون مخطئًا كليًّا. السجائر ستبين لي.

صحت قائلًا: وكيف ذلك بحق السماء أيها العزيز هولمز؟

– حسنًا، حسنًا، سترى بنفسك. وإن لم يحدث، فلا ضير. وبالطبع لم يزل بحوزتنا خيط صانع النظارات لنعود إليه، لكنني أفضِّل أن أسلك الطريق المختصر إن وجد. آه، ها هي السيدة ماركر الطيبة! فلنستمتع بخمس دقائق من الحديث المفيد معها.

ربما ذكرتُ من قبل أن هولمز كان له أسلوب خاص متملق مع النساء يستخدمه متى أحب، وأنه سرعان ما يكسب ثقتهن. وقد نال ود مدبرة المنزل في نصف الوقت الذي حدده، وصار يتحدث معها كما لو كان يعرفها منذ سنوات.

– نعم يا سيد هولمز، مثلما تقول يا سيدي. إنه يدخن نوعًا فظيعًا من التبغ فعلًا. طوال النهار وأحيانًا طوال الليل يا سيدي. لقد دخلتُ غرفته ذات صباح –حسنًا يا سيدي، كنت لتظن أن ضباب لندن كله قد غشيها. يا للسيد سميث المسكين الصغير! كان مدخنًا هو الآخر، ولكن ليس بشراهة البروفيسور. هل كانت صحته أفضل؟ حسنًا، لا أدري أكانت أفضل أم أسوأ بالنسبة للمدخنين.

قال هولمز: آه! لكنَّ التدخين يفسد الشهية.

– حسنًا، لا أعرف شيئًا عن ذلك يا سيدي.

– هل البروفيسور قليل الطعام؟

– حسنًا، إنه يبدو لي متقلب.

– أراهن أنه لم يتناول إفطاره هذا الصباح، ولن يطلب غداءه بعد كل السجائر التي رأيته يستنفدها.

– إنك مخطئ في هذا يا سيدي، فقد تصادف أنه تناول فطورًا كبيرًا على نحو غير مألوف هذا الصباح. لا أذكر متى آخر مرة رأيته يتناول فطوره بمثل هذا الإقبال، وطلب صحنًا كبيرًا من شرائح اللحم لغدائه. لقد فوجئت عن نفسي، إذ إنني منذ دخلت تلك الغرفة بالأمس ورأيت السيد سميث الشاب ملقًى على الأرض وأنا لا أطيق النظر إلى الطعام. حسنًا، يختلف الناس كثيرًا في طبعهم، فالبروفيسور لم يدع الواقعة تُفسد شهيته.

قضينا الصباح في الحديقة، بينما ذهب ستانلي هوبكنز إلى القرية ليتحرَّى عن بعض الشائعات عن امرأة غريبة رآها بعض الأطفال على طريق تشاتام في صبيحة اليوم السابق. أما صديقي، فقد بدا أن كل طاقته المعهودة قد هجرته. لم أره يتناول قضية بمثل هذا الفتور قط. حتى الأخبار التي عاد بها هوبكنز بأنه قد عثر على الأطفال وأنهم رأوا قطعًا سيدة تطابق وصف هولمز تمامًا، وأنها كانت ترتدي إما نظارة أنف أو عوينات، فشلت في إثارة أي اهتمام لديه. لكنه أبدى انتباهًا أكبر حينما تطوَّعت سوزان، التي قدَّمت لنا الغداء، وأخبرتنا بأنها تظن أن السيد سميث قد خرج صباح أمس في نزهة، وأنه لم يعد إلا قبل نصف الساعة من وقوع المأساة. لم أفهم دلالة هذه الواقعة، لكنني أدركت أن هولمز كان ينسجها في مخططه الذي يحوكه في ذهنه. وفجأة هبَّ من مقعده ونظر في ساعته وقال: إنها الثانية يا سادة، علينا أن نصعد ونتحدث بصراحة مع صديقنا البروفيسور.

كان العجوز قد انتهى لتوه من تناول غدائه، ووشى طبقه الفارغ بالشهية الطيبة التي نسبتها له مدبرة منزله. كان مظهره شديد الغرابة دون شك حين نظر إلينا بعينيه المتوهجتين ولبدته البيضاء وسيجارته الأبدية المستكينة في فمه. كان مرتديًا ملابسه وجالسًا على مقعد ذي ذراعين قرب النار.

– حسنًا يا سيد هولمز، هل حللت هذا اللغز بعد؟ قالها وهو يدفع بعلبة السجائر الكبيرة الموضوعة على طاولة مجاوره له نحو رفيقي. مدَّ هولمز يده في اللحظة ذاتها، فسقطت العلبة من فوق الحافة. جثونا جميعًا لدقيقة أو اثنتين نحاول استعادة السجائر الشاردة من أماكن مستحيلة. وعندما نهضنا مرة أخرى، لاحظت أن عيني هولمز تلمعان والحُمرة تغزو وجنتيه. لم أرَ إشارات المعارك تلك تتبدَّى إلا في وقت الكوارث.

قال: نعم، لقد حللته.

حدقتُ أنا وستانلي هوبكنز فيه بذهول. ولاح شيءٌ يشبه السخرية على ملامح البروفيسور الكهل الهزيلة.

– حقًّا! في الحديقة؟

– لا! بل هنا.

– هنا! متى؟

– في هذه اللحظة.

– لا بد أنك تمزح يا سيد هولمز. إنك تُرغمني أن أخبرك بأن هذه المسألة أخطر من أن تُعامل بهذه الطريقة.

– لقد صُغت كل حلقة في سلسلتي واختبرتُها أيها البروفيسور كورام، وإنني واثق من متانتها. أما دوافعك والدور الذي لعبته تحديدًا في هذه الواقعة الغريبة، فلستُ قادرًا على تفسيرهما بعد. على الأرجح سأسمع هذا من شفتيك خلال دقائق معدودة. أما الآن فسأعيد صياغة ما حدث على مسامعك، حتى تُكمل أنتَ المعلومات التي ما زلتُ بحاجة إليها.

أمس دخلت سيدةٌ ما غرفة مكتبك. جاءت بنية الاستيلاء على وثائق معينة كانت في صوانك. وكان بحوزتها مفتاحٌ خاص بها. فقد سنحت لي الفرصة لأتفحَّص مفتاحك، ولم أرَ به ذاك التغيير الطفيف في اللون الذي كان لينتج عن خدش الطلاء. لذا لا بد أنّك لم تشارك في الجريمة. فقد أتت هذه السيدة –حسبما قرأت من الأدلة– دون علمك لسرقتك.

نفث البروفيسور سحابة من الدخان من بين شفتيه وقال: هذه المعلومات مشوِّقة ومفيدة جدًّا، هل من مزيد؟ مؤكد باستطاعتك معرفة ما حدث لهذه السيدة ما دمت قد تقفَّيتَ أثرها إلى هذا الحد.

– سأحاول. أوَّل ما حدث هو أن ضبطها مساعدك، فطعنَته كيما تهرب. وأنا أميل إلى اعتبار هذه الكارثة حادثًا مؤسفًا، فأنا موقن بأن السيدة لم تكن تنوي إلحاق مثل هذا الضرر الجسيم. ما من قاتلٍ يأتي أعزل. وإذ اعتراها الذعر من جراء فعلتها، هرعت باندفاع مبتعدة عن مسرح الفاجعة. ولسوء حظها فقدت نظارتها خلال العراك. ولمَّا كانت تعاني ضعفًا شديدًا في بصرها، فقد صارت عاجزة دونها. وهكذا ركضت في الرواق الذي ظنت أنها أتت منه –فكلاهما مغطى بحصائر جوز الهند– ولم تدرك إلا بعد فوات الأوان أنها في الرواق الخطأ، وأن مهربها قد سُدَّ من خلفها. ماذا عساها تفعل؟ لم تستطع العودة. ولم تستطع البقاء حيث كانت. عليها إذن المضي قدمًا، وقد فعلت. صعدت الدَّرج ودفعت بابًا فوجدت نفسها في غرفتك.

جلس الكهل فاغرًا فاه محدقًا إلى هولمز بقوة، وقد غشى الذهول والخوف ملامحه المعبرة. ثم هز كتفيه بصعوبة، وانفجر في نوبة من الضحك المُفتعل.

قال: كل ما قلته حسنٌ يا سيد هولمز، لكن ثمة خلل صغير في نظريتك المبهرة. فقد كنت في غرفتي في هذا الوقت ولم أتركها قط طوال النهار.

– أعي هذا أيها البروفيسور كورام.

– أتقصد إذن أنني كنتُ مستلقيًا على هذا الفراش ولم أدرك أن امرأةً قد دخلت غرفتي؟

– لم أقل هذا مطلقًا. بل كنت مدركًا لوجودها، وتحدثت معها، وتعرفتها، وساعدتها على الفرار.

انفجر البروفيسور مرة أخرى في ضحك مدوٍّ، ثم نهض وقد توهجت عيناه كجمرتين مشتعلتين وصاح قائلًا:

– إنك لمجنون! أنت تهذي. ساعدتُها على الفرار؟ وأين هي الآن؟

قال هولمز: إنها هناك وأشار إلى خزانة كتب مرتفعة في ركن الغرفة.

رأيتُ الكهل يرفع ذراعيه في استسلام، وتشنَّج وجهه العابس تشنُّجًا مريعًا، وسقط على كرسيه. وفي اللحظة ذاتها، دار باب خزانة الكتب المشار إليها حول مفصل، واندفعت منها امرأة تصرخ بلكنة غريبة أجنبية: أنت محق! إنني هنا.

كان لونها قد استحال بنيًّا بفعل الغبار وغطتها أنسجة العنكبوت التي عششت في جدران مخبئها، وكان وجهها أيضًا ملطخًا بالأوساخ. لم تكن جميلة بحال، فقد تمتعت بالصفات الشكلية ذاتها التي تكهن بها هولمز، بالإضافة إلى ذقن طويل بارز. وقفت مشوشة بسبب ضعف بصرها وانتقالها من الظلام إلى الضوء، ترمش بعينيها فيما حولها لترى من نحن وأين نقف. ورغم كل هذه المثالب، كان في أسلوب السيدة نبلٌ لا ريب فيه، وشجاعة تجلَّت في ذقنها البارز ورأسها المرفوع، ما استوجب شيئًا من الاحترام والتقدير لها. وضع ستانلي هوبكنز يده على ذراعها معتبرًا إياها أسيره، فأبعدت يده برفق ولكن بمهابة كاسحة أجبرته على طاعتها. أما الرجل العجوز فقد استلقى على كرسيه بوجهٍ مرتعش، وأخذ يحدق إليها بعينين تفيضان بالقلق.

قالت: نعم يا سيدي، إنني أنا الجانية، لقد سمعت كل ما قلتَه من مخبئي، وأعلم أنك عرفت الحقيقة. أعترف بكل شيء. أنا من قتلتُ هذا الشاب. ولكنك أصبت حينما قلت إنه كان حادثًا. لم أكن أعرف حتى إن ما حملته في يدي كان سكينًا، ففي يأسي التقطتُ أي شيء من على الطاولة وضربته به لحمله على إفلاتي. إنني أقول الحقيقة.

قال هولمز: أنا على يقين من أنها الحقيقة يا سيدتي. بيد أني أخشى أنك لستِ على ما يرام.

شحب لونها شحوبًا مروعًا، زادته خطوط الغبار الداكنة على وجهها. فجلسَت على طرف الفراش ثم استأنفت حديثها.

قالت: ليس أمامي متسع من الوقت هنا، لكنني أريدكم أن تعرفوا الحقيقة كاملة. إنني زوجة هذا الرجل. وهو ليس إنجليزيًّا. وإنما روسي. ولكن لن أقول اسمه.

لأول مرة تحرَّك الرجل العجوز وصاح قائلًا: بحق الرب يا آنا! بحق الرب!

رمقته السيدة بنظرة ازدراء عميقة وقالت: لمَ تتمسك بشدة بهذه الحياة البائسة التي تحياها يا سرجيوس؟ لقد أضرَّت بالكثيرين ولم يكن بها خيرٌ لأحد، ولا حتى لنفسك. على أية حال، لا يحق لي أن أنهي حياة كهلٍ ضعيف قبل أن يشاء الله. فأنا أحمل ما يكفي من الآثام منذ عبرت قدماي عتبة هذا المنزل الملعون. ولكن عليَّ أن أتكلم قبل أن يفوت الأوان.

كما أخبرتكم يا سادة، فأنا زوجة هذا الرجل. كان يناهز الخمسين من عمره عندما تزوجنا، وكنت أنا فتاة حمقاء في العشرين. وقد حدث ذلك في إحدى مدن روسيا، في إحدى الجامعات – لن أذكر المكان.

تمتم الرجل العجوز مرة أخرى: بالله عليكِ يا آنا!

– كنا مصلحين، ثوريين، عدميين، أنا وهو وكثيرون غيرنا. ثم حلَّت المشكلات عندما قُتل أحد ضباط شرطة، فاعتُقل الكثيرون، وصارت الأدلة مطلوبة، وكي ينقذ حياته ويكسب مكافأة كبيرة، خان زوجي زوجته ورفاقه. نعم، فقد اعتُقلنا جميعًا نتيجة لاعترافه. وجد بعضنا طريقه إلى المشنقة ونُفي آخرون إلى سيبيريا. كنتُ أنا ضمن المجموعة الثانية، ولكن لم تكن عقوبتي مدى الحياة. أما زوجي فقد جاء إلى إنجلترا بمكاسبه غير المشروعة، وعاش بهدوء منذ ذلك الحين، وهو يعلم جيدًا أنه، إذا علمت الأخوية بمكانه، فلن يمر أسبوع قبل أن تأخذ العدالة مجراها.

مد الكهل يدًا مرتعشة وتناول سيجارة، ثم قال: إن حياتي الآن بين يديكِ يا آنا. لطالما كنتِ كريمة معي.

قالت: لم أخبركم بعد بمدى خِسَّته، كان من بين رفاقنا في الأخوية صديقٌ قريبٌ لقلبي. كان نبيلًا وكريمًا ومُحبًّا –جميع الصفات التي افتقر إليها زوجي. وكان يمقت العنف. كنا جميعنا مُذنبين –إن كان فيما نفعله ذنب– لكنه لم يكن كذلك. وطالما كتب إلينا خطابات يثنينا فيها عن اتباع هذا المسار. كانت لتُنقذه تلك الخطابات. وكذلك دفتر يومياتي الذي كنتُ أدون فيه يومًا بيوم مشاعري تجاهه ووجهات النظر التي تبناها كل منا. وجد زوجي اليوميات والخطابات واحتفظ بهما. أخفاهما ثم حاول جاهدًا أن يُدين الشاب بجريمة تفضي به إلى حبل المشنقة. باءت جميع محاولاته بالفشل، ومع ذلك نُفي أليكسس إلى سيبيريا حيث يعمل حتى هذه اللحظة في أحد مناجم الملح. فكر فيما اقترفته يداك أيها الشرير النذل؛ الآن، في لحظتنا هذه، أليكسس –الرجل الذي لا تستحق ذكر اسمه– يعمل ويعيش كالعبيد، ورغم أن حياتك بين يدي سأدعك تحيا.

قال الكهل وهو ينفث دخان سيجارته: لطالما كنت امرأة نبيلة يا آنا.

كانت قد نهضت، لكنها لم تلبث أن سقطت مرة أخرى مع صيحة ألم صغيرة.

قالت: عليَّ أن أُنهي قصتي. عندما انتهت فترة عقوبتي، وطَّنت نفسي على استعادة اليوميات والخطابات التي من شأنها أن تحرر صديقي إذا ما أُرسلت إلى الحكومة الروسية. عرفتُ أن زوجي قدِم إلى إنجلترا. وبعد شهورٍ من البحث عثرت عليه. كنت أعلم أن اليوميات ما زالت بحوزته، لأنني حينما كنت في سيبيريا جاءني خطاب منه مرة يوبخني مقتبسًا بعض المقاطع من صفحاتها. لكنني كنت موقنة من أن طبيعته الانتقامية ستحول دون أن يمنحني إياها بمحض إرادته. عليَّ أن أستردَّها بنفسي.

ولأجل هذا استأجرت محققًا من مكتب تحرِّيات خاص، والذي دخل منزل زوجي بصفته مساعدًا، كان هذا مساعدك الثاني، سرجيوس، ذاك الذي تركك على عجل. لقد علِم أن الأوراق محفوظة في الخزانة، وحصل على نسخة من المفتاح. لكنه لم يُرِد التورُّط فيما هو أكثر. فزوَّدني بخريطة للمنزل، وأخبرني بأن غرفة المكتب دائمًا ما تكون خالية في الظهيرة، لأن المساعد يعمل بالأعلى. لذا استجمعت شجاعتي أخيرًا وجئت لأحصل على الأوراق بنفسي. وقد نجحت، ولكن بأي ثمن!

فلم أكد أتناول الأوراق وأغلق الخزانة حتى أمسك بي الشاب. كنت قد رأيته في صبيحة ذلك اليوم، إذ التقيتُ به في الطريق وسألته عن مكان البروفيسور كورام، ولم أعلم حينئذ أن الشاب نفسه يعمل لديه.

قال هولمز: مضبوط! مضبوط! لقد عاد المساعد وأخبر رب عمله عن المرأة التي التقى بها. ثم حاول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يخبر البروفيسور بأن القاتلة هي المرأة التي حدَّثه عنها لتوه.

قالت السيدة بلهجة آمرة ووجهٍ متقلص ألَمًا: دعني أتحدَّث. حينما سقط، اندفعتُ من الغرفة، واخترتُ الباب الخطأ، فوجدت نفسي في غرفة زوجي، الذي قال إنه سيسلِّمني للشرطة. فأخبرته بأنه إن فعل، ستكون حياته بين يدي. فإن سلَّمني للشرطة سأسلِّمه للأخوية. ولم أكُن أحرص على الحياة من أجل نفسي، وإنما لأبلغ هدفي. وقد أدرك البروفيسور أنني سأنفذ ما قلت – وأن مصيره مرتبط بمصيري. ولهذا السبب وحده تستَّر عليَّ. دفع بي إلى هذا المخبأ المظلم، الذي هو بقايا زمنٍ مضى، والذي لم يعرف بوجوده إلا هو. وكان قد اعتاد تناول وجباته في غرفته، ومن ثم استطاع أن يمنحني حصة من طعامه. واتفقنا على أن أهرب ليلًا حينما تغادر الشرطة وألا أعود مجددًا. غير أنك عرفتَ خططنا بطريقة ما. ثم أخرجت من صدر ثوبها حزمة أوراق صغيرة وقالت: هذه هي كلماتي الأخيرة. ها هي الأوراق التي ستنقذ أليكسس. وقد عهدتُ بها إلى شرفك وحبك للعدالة. خذها! سلِّمها إلى السفارة الروسية. والآن أتممت واجبي، و..

صاح هولمز: امنعوها! وقفز عبر الغرفة لينتزع من يدها قارورة صغيرة.

قالت وهي متكئة على الفراش: فات الأوان! فات الأوان! فقد سبق وتناولتُ السم قبل أن أغادر مخبئي. أشعر بالدوار! إنني أحتضر! أوصيك يا سيدي أن تتذكر الأوراق.

علَّق هولمز على ما حدث في طريق عودتنا إلى المدينة قائلًا: قضية بسيطة. بيد أن بها بعض العبر. فقد ارتكزت على نظارة الأنف منذ البداية. لكنني لست واثقًا من أننا كنا لنحلِّ قضيتنا لولا الفرصة المواتية التي جعلت القتيل ممسكًا بها. لقد تيقَّنت من متانة النظارة أن مرتديها دون شك قد صار مكفوفًا وعاجزًا بعدما حُرم منها. وحينما طلبت مني أن أصدق أنها سارت بطول الشريط العشبي الضيق دون أن تخطو خطوة واحدة خاطئة، أخبرتك –إن كنت تذكُر– بأنه كان أداءً استثنائيًّا. لكنني عددته في ذهني حينها مستحيلًا، إلا في حالة كان معها نظارة أخرى، وهذا مستبعد. لذا اضطررت إلى التفكير بجدية في فرضية أنها لم تزل داخل المنزل. وحينما لاحظتُ التشابه بين الممرين تجلَّت لي احتمالية أن ترتكب مثل هذا الخطأ بسهولة، وعندها ستصل إلى غرفة البروفيسور لا محالة. لذلك كنت في حالة تأهُّب قصوى لأي شيء يؤكد هذه الفرضية، وفتشتُ الغرفة بدقة باحثًا عن أي موضع يصلح لأن يُتخذ مخبأً. بدا البساط متصلًا ومثبتًا بإحكام، لذا استبعدتُ فكرة الباب السحري. ثم خطرت لي احتمالية وجود

تجويف خلف الكتب. فمثل تلك الأشياء شائعة في المكتبات القديمة كما تعلم. فلاحظت أن الكتب كانت مكوَّمة على الأرض في كل مكان آخر، إلا عند خزانة كتب وحيدة تُركت خالية. هذه إذن قد تكون الباب. لم أتمكن من رؤية أي علامات ترشدني، لكن البساط كان ذا لونٍ باهت، ما يجعله قابلًا للاختبار. ولهذا السبب دخنت عددًا كبيرًا من تلك السجائر الممتازة، وأسقطت الرماد في كل مكان أمام خزانة الكتب المشتبه بها. كانت خدعة بسيطة ولكنها فعالة جدًّا. ثم نزلت إلى الطابق السفلي وتأكدتُ –في حضورك يا واتسون ودون أن تدرك مغزى ملاحظاتي– من أن استهلاك البروفيسور كورام للطعام قد زاد – كما هو متوقَّع حينما يتكفَّل أحدهم بإطعام شخصٍ آخر معه. ثم صعدنا مجددًا إلى الغرفة، حيث تسنَّى لي أن ألقي نظرة جيدة على الأرض حين أسقطت علبة السجائر، ورأيتُ بوضوح الآثار الظاهرة على رماد السجائر، والتي وشت بأن السجينة خرجت من مكمنها في غيابنا.

حسنًا يا هوبكنز، ها نحن أولاء قد وصلنا إلى محطة تشيرنج كروس. أهنئُك على وصولك إلى خاتمة ناجحة لقضيتك. لا شك أنك ذاهبٌ إلى المكتب الرئيس. أما نحن يا واتسون، فأظن أن علينا التوجُّه معًا إلى السفارة الروسية.

مغامرة لاعب الرجبي المفقود

اعتدنا في منزلنا بشارع بيكر على وصول البرقيات الغريبة، بيد أني بصفة خاصة أذكر برقية وصلتنا في صبيحة يومٍ غائم من شهر فبراير، منذ نحو سبعة أو ثمانية أعوام، وتسببت في ذهول السيد شيرلوك هولمز لفترة امتدت رُبع الساعة. كانت موجهة إليه وكانت كالتالي:

– انتظرني رجاءً. حدث مروِّع. لاعب الجناح الأيمن من خط الهجوم مفقود، ولا غنى عنه غدًا. أوفرتن.

قال هولمز وهو يعيد قراءة البرقية مرة تلو أخرى:

– أُرسلت البرقية في العاشرة وستٍّ وثلاثين دقيقة بختم بريد شارع ستراند. واضح أن السيد أوفرتن كان منفعلًا جدًّا عندما أرسلها، لذلك تبدو البرقية مفككة إلى حدٍّ ما. حسنٌ حسن، أراهن أنه سيكون هنا بحلول الوقت الذي أنتهي فيه من مطالعة جريدة تايمز، وعندها سنعرف كل شيء. الواقع أن أي مشكلة مهما بلغت تفاهتها ستكون موضعَ ترحيب في أيامنا المضجِرة هذه.

وبالفعل كانت أحداث الفترة الأخيرة شديدة البطء، وقد تعلمتُ أن أخشى فترات الخمول هذه؛ فقد علَّمتني التجربة أن صديقي يتمتع بذهنٍ مفرط النشاط لدرجة يصبح معها من الخطير تركه من دون أفكارٍ تُشغِله. كنت قد أمضيت سنوات أحاول صَرْفَه تدريجيًّا عن هوسه بالمخدِّرات، الذي كاد يُنهي مسيرته المهنية المتميزة ذات مرة. وقد بتُّ الآن موقنًا أنه لم يعد يتوق إلى تلك المثيرات الزائفة في الظروف العادية، لكنني أعي جيدًا أن الشيطان لم يمُت، وإنما هو نائم، وأدركتُ أيضًا أن نومه خفيف ويقظته وشيكة حينما رأيت الشحوب يكسو وجهه الواجم، والكآبة تلوح في عينيه الغائرتين الغامضتين كلما مررنا بإحدى فترات الخمول. لذلك شعرت بامتنان للسيد أوفرتن هذا، كائنًا من كان، الذي جاءت رسالته المبهمة تلك لتكسر شوكة هذا الهدوء الخبيث الذي يجلب على صديقي خطرًا أشدّ من كل العواصف التي مر بها في حياته الجامحة.

وكما توقعنا، سرعان ما تَبِع المُرسِل برقيته، وأعلنت البطاقة التي تحمل اسم السيد سيرل أوفرتن من كلية ترينيتي في كامبريدج عن وصول شاب ضخم، يزن نحو مئة كيلوجرام من العظام والعضلات المفتولة. اجتاز عتبة الباب بمنكبيه العريضين وأخذ ينقل بصره من أحدنا إلى الآخر بوجهٍ وسيم أنهكه القلق.

– السيد شيرلوك هولمز؟

أومأ صديقي مؤكدًا.

– لقد ذهبتُ إلى شرطة سكوتلاند يارد يا سيد هولمز. وقابلت المفتش ستانلي هوبكنز، وقد نصحني أن آتي إليك، قائلًا إن القضية، في رأيه، من اختصاصك أنت أكثر مما هي من اختصاص الشرطة النظامية.

– اجلس رجاءً وأخبرني ما المشكلة.

– إنه حدثٌ بشع يا سيد هولمز، بشعٌ بحق! أتعجب كيف لم يشب له رأسي بعد. أنت سمعتَ بالطبع عن لاعب الرجبي جودفري ستونتن، صحيح؟ إنه ببساطة محور ارتكاز فريقنا بأكمله. حتى إنني أفضل التخلِّي عن اثنين من مجموعة التشابك ما دُمت أحتفظ بجودفري في خط الهجوم. ما من أحدٍ من

اللاعبين يضاهيه، سواء في تمرير الكرة أو المناورة بها أو عرقلة الخصوم، كما أنه القائد الذي يجعلنا جميعًا متماسكين. ما الذي يُفترض بي فعله الآن؟ هذا هو سؤالي لك يا سيد هولمز. عِندي اللاعب مورهاوس –الاحتياط الأول– لكنه مُدرَّب على اللعب في خط الوسط، ودائمًا ما يتقدم نحو خط التشابك بدلًا من البقاء عند خط التماس. صحيح أنه يجيد الركلات الثابتة، ولكن تنقصه الحكمة، ولا يجيد العدو السريع البتة. إن مورتن وجونسن عدَّائي فريق أوكسفورد يمكنهما التغلب عليه بكل سهولة. ولديَّ أيضًا اللاعب ستيفنسون، وهو سريع بما يكفي، لكنه لا يستطيع إحراز الأهداف من منطقة الخمسة والعشرين مترًا، ولاعب الهجوم الذي يعجز عن تسديد ركلة إسقاط أو إحراز أهداف لا يستحق أن يلعب لأجل سرعته وحدها. كلا يا سيد هولمز، سننتهي بالهزيمة ما لم تساعدني في العثور على جودفري ستونتن.

استمع صديقي باستمتاع ودهشة إلى هذه الخطبة المطوَّلة التي تدفقت في حماس وجدية هائلين، وكان صاحبها يخبط بيده القوية على ركبته مؤكدًا كل نقطة فيها. وعندما سكت ضيفنا مدَّ هولمز يده ليفتح الجزء الخاص بحرف السين من دفتره الشخصي. وراح لأول مرة يُنقِّب دون جدوى في هذا المنجم المليء بمختلف المعلومات.

قال: لديَّ هنا آرثر ه. ستونتن، المزوِّر الصغير الصاعد، ولديَّ أيضًا هنري ستونتن، الذي ساعدتُ شخصيًّا في إعدامه، لكنَّ اسمَ جودفري ستونتن جديدٌ عليَّ.

وهنا حان دور ضيفنا ليُبدي دهشته.

– عجبًا يا سيد هولمز، لقد ظننتُك تعرف الكثير عن مختلف الأمور. إذا كنت لم تسمع يومًا باللاعب جودفري ستونتن، فأظنك لم تسمع أيضًا بسيرل أوفرتن؟

هز هولمز رأسه بمرح.

فصاح اللاعب الرياضي: يا للهول! لقد كنتُ لاعب الاحتياط الأول لفريق إنجلترا ضد فريق ويلز، وكنت أدرِّب فريق الجامعة طيلة هذا العام. ولكن لا أهمية لذلك كله! فلم أكن أتصوَّر أن هناك مخلوقًا واحدًا في إنجلترا لم يسمع بجودفري ستونتن، لاعب خط الهجوم البارع في فريق كامبريدج ونادي بلاكهيث وخمس مباريات دولية. ربَّاه! في أي عالمٍ تعيش يا سيد هولمز؟

ضحك هولمز من الدهشة الطفولية التي أبداها هذا الشاب الضخم.

–أنتَ من تعيش في عالم مختلف عن عالمي يا سيد أوفرتن، عالم أصحّ وألطف. إن فروعي تمتد إلى كثيرٍ من شرائح المجتمع، لكنها ويسرني القول لم تمتد يومًا إلى ميدان رياضة الهواة، الذي هو أفضل ميادين إنجلترا وأكثرها اتزانًا. ومع ذلك فقد أثبتَّ لي بزيارتك المفاجِئة هذا الصباح أنه حتى في عالم الهواء المنعش واللعب النزيه ربما يكون لي شيءٌ أقوم به. والآن يا سيدي العزيز، أرجو منك أن تجلس وتقص عليّ بتفصيلٍ وهدوء ما جرى بالضبط، وكيف تريد مني أن أساعدك.

لاح على وجه الشاب أوفرتن تلك النظرة المنزعجة لرجلٍ اعتاد استخدام عضلاته أكثر من عقله؛ لكنه شيئًا فشيئًا، أخذ يقصُّ علينا حكاية غريبة، تخللها كثير من التكرار والغموض الذي ربما أحذفه من روايتي.

– إليك ما حدث يا سيد هولمز. كما سبق وأخبرتك فأنا مدرِّب فريق الرجبي لجامعة كامبريدج، وجودفري ستونتن هو أفضل لاعب لديَّ. وغدًا يُفترض بنا أن نلاعب فريق أوكسفورد. كنا قد وصلنا جميعًا يومَ أمس وأقمنا في فندق بينتلي الخاص. وفي العاشرة مساءً ذهبتُ لأتمشى وأتأكد من أن جميع الرفاق قد خلدوا إلى النوم، فأنا أؤمن بأهمية التدريبات الصارمة ونيل قسطٍ وافرٍ من النوم للحفاظ على لياقة الفريق. تحدثتُ قليلًا مع جودفري قبل أن يذهب إلى فراشه، فوجدته شاحبًا مهمومًا، فسألته عن الخطب، فأجابني بأن كل الأمور على ما يرام –مجرد صداع خفيف لا أكثر، فتمنيت له نومًا هنيئًا وتركته. فإذا بالحارس بعد نصف ساعة يخبرني بأن رجلًا رثَّ الهيئة ذا لحيةٍ قد جاء برسالة إلى جودفري. ولم يكن جودفري قد نام بعد، فأخذَ الحارس الرسالة إلى غرفته. وعندما قرأها جودفري هوى على مقعده كمن ضُرب بفأسٍ على رأسه. فزع الحارس وهمَّ بالذهاب لاستدعائي، إلا أن جودفري أوقفه، ثم شرب قليلًا من الماء، واستعاد رباطة جأشه. بعدها نزل إلى الطابق السفلي، وتبادل بضع كلمات مع الرجل الذي كان ينتظره في الرَّدهة، ثم غادرا معًا. وآخر ما رآه الحارس منهما أنهما كانا يهرولان باتجاه شارع ستراند. وفي هذا الصباح كانت غرفة جودفري شاغرة، لم ينَم في فراشه مُطلقًا، وكانت جميع أغراضه في مكانها تمامًا كما رأيتها ليلة أمس. لقد رحل مع هذا الغريب دون سابق إنذار، ولم نسمع عنه خبرًا منذئذ. لا أعتقد أنه سيرجع ثانيةً. لقد كان رياضيًّا، رياضيًّا حتى النخاع، وما كان ليقطع تدريبه ويخذل مدربه لو لم يكن لعُذرٍ أقوى منه. كلا، إنني أشعر أنه قد ذهب دون رجعة ولن نراه ثانيةً أبدًا.

أصغى شيرلوك هولمز بانتباه شديد لهذه القصة الغريبة.

ثم سأل: وماذا فعلت؟

– أرسلت برقية إلى كامبريدج لأرى إن سمع أحدهم شيئًا عنه. لكنهم أجابوني بأن أحدًا لم يره.

– هل كان بإمكانه الرجوع إلى كامبريدج؟

– نعم، فثمة قطارٌ متأخر يغادر في الحادية عشرة والربع مساءً.

– لكنه على حد علمك لم يستقلَّ القطار، أليس كذلك؟

– بلى، لأن أحدًا لم يرَه.

– وماذا فعلت بعد ذلك؟

– أرسلت برقية إلى اللورد ماونت جيمس.

– ولِماذا اللورد ماونت جيمس؟

– لأن جودفري يتيم، واللورد ماونت جيمس هو أقرب أقربائه؛ إنه عمه على ما أعتقد.

– أحقًّا ما تقول؟ إن هذا يُلقي ضوءًا جديدًا على المسألة. فاللورد ماونت جيمس هو واحدٌ من أثرى أثرياء لندن.

– لقد سمعت جودفري يقول شيئًا من هذا القبيل.

– وهل كان صديقك على علاقة وثيقة به؟

– نعم، إنه وريثه الشرعي، وهذا الكهل يناهز الثمانين، ويعاني داء المفاصل أيضًا. يُقال إن بإمكانه تخشين عصا البلياردو بمفاصل أصابعه. هذا البخيل لم يُعطِ جودفري فلسًا واحدًا في حياته قط، لكن ثروته كلها ستؤول إلى جودفري في نهاية المطاف.

– وهل أتاك ردٌّ من اللورد ماونت جيمس؟

– لا.

– لِمَ قد يذهب صديقك إلى اللورد ماونت جيمس؟

– حسنًا، كان شيءٌ ما يؤرقه ليلة أمس، فإذا كانت المسألة متعلقة بالمال، فمُحتمل أن يلجأ إلى أقرب أقربائه الذي يملك منه الكثير، وإن كانت فرصته في الحصول على هذا المال تكاد تكون معدومة حسبما سمعت. لم يكُن جودفري مولعًا بهذا الكهل. وما كان ليذهب إليه لو كان بيده حيلة.

– حسنًا، يمكننا حسم ذلك سريعًا. فإذا كان صديقك قد ذهب إلى قريبه اللورد ماونت جيمس، فعليك إذن أن تفسر سر زيارة الرجل رثِّ الهيئة في مثل تلك الساعة المتأخرة، وسر الاضطراب الذي أحدثه مجيئه.

فضغط سيرل أوفرتن بيديه على رأسه قائلًا: أعجز عن تفسير ذلك.

قال هولمز: حسنٌ حسن، إنني متفرغ اليوم، ويسرني أن أنظر في المسألة. لكنني أوصيك بشدة أن تستعد لمباراتك بغض النظر عن عودة هذا السيد الصغير. فلا بد أنها ضرورة قاهرة، كما تقول، تلك التي جعلته يغادر بهذه الطريقة، ومن المحتمل أن تبقيه الضرورة ذاتها بعيدًا. لنذهب معًا إلى الفندق، ونرَ إن كان لدى الحارس معلومة جديدة يضيفها إلى المسألة.

كان شيرلوك هولمز خبيرًا في فن طمأنة الشهود المرتبكين، ولم يلبث أن استخرج كل ما لدى الحارس من معلومات بعد أن انفرد به في غرفة جودفري ستونتن المهجورة. لم يكن ضيف ليلة أمس من طبقة النبلاء، ولا من طبقة العمال. بل كان ببساطة كما وصفه الحارس رجلًا متوسط المظهر، يناهز الخمسين من عمره، ذا لحية شهباء، ووجهٍ شاحبٍ، وملابس بسيطة. وكان يبدو هو الآخر مضطربًا. فقد لاحظ الحارس رعشة يده عندما استلم منه الرسالة. حشر جودفري الرسالة في جيبه. لم يصافح الرجل الذي في الرَّدهة. تبادلا عباراتٍ قليلة، لم يُميز منها الحارس سوى كلمة وقت. ثم هرعا بالطريقة التي وُصفت سلفًا. وكانت ساعة الرَّدهة عندئذ تشير إلى العاشرة والنصف مساءً.

قال هولمز وهو يجلس على فراش ستونتن: أنت حارس الفترة المسائية إذن، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي، تنتهي نوبتي في تمام الحادية عشرة.

– ولم يرَ حارس الفترة الليلية شيئًا، صحيح؟

– نعم يا سيدي، لقد أتت فرقة مسرحية واحدة في وقت متأخر. ولم يأتِ أحدٌ آخر.

– وهل التزمت موقعك طيلة مساء أمس؟

– نعم يا سيدي.

– هل سلَّمت أي رسائل للسيد ستونتن؟

– نعم يا سيدي، سلَّمته برقية واحدة.

– آه! ذلك مثيرٌ للاهتمام. كم كانت الساعة عندئذ؟

– نحو السادسة.

– وأين كان السيد ستونتن عند استلامها؟

– هنا في غرفته.

– هل كنت حاضرًا عندما فتحها؟

– نعم يا سيدي، فقد انتظرت لأرى إن كان سيُرسل ردًّا لصاحب البرقية.

– حسنًا، وهل فعل؟

– نعم يا سيدي. لقد كتب رسالة.

– وهل أخذتها؟

– لا، بل أخذها بنفسه.

– لكنه كتبها في حضورك، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي. كنت واقفًا عند الباب، وكان موليًا لي ظهره ومنحنيًا على تلك الطاولة. وعندما كتبها قال: حسنًا أيها الحارس، سآخذ هذه الرسالة بنفسي.

– بأي شيءٍ كتبها؟

– بقلمِ حبر يا سيدي.

– هل أُرسِلَت البرقية في واحدة من تلك الاستمارات التي على الطاولة؟

– نعم يا سيدي، أُرسلت في هذه التي على القمة.

نهض هولمز من على الفراش. وحمل الاستمارات نحو النافذة، وراح يفحص الاستمارة التي كانت على القمة بعناية.

ثم ألقاها على الطاولة ثانيةً وهزَّ كتفيه في إحباط قائلًا: مؤسفٌ أنه لم يكتب بالقلم الرصاص. فكما لاحظت بلا شكٍّ يا واتسون، عادةً ما يترك الرصاص أثرًا على الورق – الأمر الذي انتهت بسببه كثير من الزيجات السعيدة. لكنني لا أجد أي أثر هنا. ومع ذلك، يسرني أنه كتب البرقية بريشة كتابة عريضة، ولا شك أننا سنستطيع تتبع أثر الكتابة على نشَّافة الحبر هذه. آه، نعم، هذا هو المطلوب بالتأكيد!

قطع هولمز شريطًا من الورق النشَّاف وعرض علينا الأحرف المبهمة التالية:

تحمَّس سيرل أوفرتن بشدة وصاح: ارفعها أمام المرآة!

قال هولمز: هذا غير ضروري. فالورقة رفيعة ويسعنا رؤية الرسالة على ظهرها. ها هي ذي. وقلب هولمز الورقة فقرأنا التالي:

stand by us for God's sake

قِف إلى جانِبِنا بحقِّ الربِّ.

– تلك إذًا هي خاتمة البرقية التي أرسلها جودفري ستونتن قبل سويعات من اختفائه. لقد فاتتنا ست كلماتٍ على الأقل من الرسالة؛ ولكن ما تبقَّى منها –قف إلى جانبنا بحق الرب!– يثبت أن هذا الشاب قد رأى خطرًا جسيمًا يحيق به، وأن أحدًا كان قادرًا على حمايته منه. هل لاحظتم كلمة جانبنا! ثمَّة شخصٌ آخر متورِّط معه. مَن عساه يكون سوى ذلك الرجل ممتقعِ الوجه ذي اللحية، الذي بدا هو الآخر متوتر الأعصاب؟ وما علاقة جودفري ستونتن إذًا بالرجل الملتحي؟ ومن الطرف الثالث الذي كانا يلتمسان العون ضد خطره المحدق؟ إن بحثنا ينحصر في البحث عن إجابات لتلك الأسئلة.

اقترحتُ قائلًا: ليس علينا إلا أن نكتشف إلى من أُرسلت هذه البرقية.

– بالضبط يا عزيزي واتسون. إن فكرتك، رغم صعوبتها، قد خطرت لي بالفعل. ولكن أظنك تعرف أنك إذا ذهبت إلى مكتب البريد طالبًا الاطلاع على بيانات رسالة شخص آخر، ستواجه إعراضًا من موظفي المكتب في تنفيذ طلبك. فهذه المسائل تستلزم كثيرًا من الإجراءات الروتينية! ومع ذلك، فأنا واثق أننا بقليل من الكياسة والدهاء ربما نتمكن من بلوغ غايتنا. والآن يا سيد أوفرتن، أود أن أراجع تلك الأوراق المتروكة على الطاولة في حضورك.

كان على الطاولة عدد من الرسائل والفواتير والدفاتر، تصفحها هولمز وعاينها بأصابع سريعة ورشيقة، وعينين ثاقبتين. ثم قال أخيرًا: لا شيء هنا. بالمناسبة، هل كان صديقك يتمتع بصحة جيدة؟ ألم يكُن يُعاني خطبًا ما؟

– بل كان في أتم صحة.

– هل رأيته يومًا مريضًا؟

– ولا ليومٍ واحد. لقد لازم الفراش يومًا بسبب إصابة في ساقه، كما انزلقت رضفة ركبته ذات مرة، لكنها لم تكن شيئًا يُذكر.

– ربما لم يكن قويًّا كما تحسب. أظن أنه ربما كان يُعاني مشكلة سرية ما. وإذا أذنت لي سأضع واحدة أو اثنتين من هذه الأوراق في جيبي، في حال احتجنا إليها في تحقيقنا في المستقبل.

– مهلًا! مهلًا! هكذا صاح أحدهم بصوتٍ متذمر، ونظرنا فإذا بنا أمام كهلٍ قصير غريب الأطوار، ينتفض ويختلج عند مدخل الباب. كان يرتدي ملابس سوداء باهتة، ويعتمر قبعة عالية عريضة الحافات، ويضع ربطة عنق بيضاء مفكوكة –كان مظهره في المُجمَل مظهرَ كاهن شديد البساطة أو مساعد حانوتي. ومع ذلك، رغم هيئته الرثة، بل المعدمة، كان في صوته خشخشة حادة، وفي أسلوبه حماسة نزِقة تجذب الانتباه.

سأل قائلًا: من أنت يا سيد، وبأي حق تلمس أوراق ذلك الرجل المحترم؟

– إنني محقق خاص، وأحاول تفسير اختفائه.

– أوه، أحقًّا هذا؟ ومن وَكَّلك، هه؟

– هذا الرجل المحترم، صديق السيد ستونتن، فقد أحالته إليَّ شرطة سكوتلاند يارد.

– من أنتَ يا سيد؟

– اسمي سيرل أوفرتن.

– أنت إذن من أرسل إليَّ البرقية. أنا اللورد ماونت جيمس. لقد أتيت بأقصى سرعة استطاعت حافلة محطة بيزووتر أن تحملني بها. إذن أنت من وكَّلت محققًا؟

– نعم يا سيدي.

– وهل أنت مستعد لدفع أتعابه؟

– إنني موقن يا سيدي أن صديقي جودفري سيدفعها بمجرد أن نعثر عليه.

– ولكن ماذا لو لم تعثر عليه أبدًا، هه؟ أجبني!

– لا شكّ أن أسرته في تلك الحالة...

صرخ الرجل الضئيل قائلًا: مُحال يا سيد! لا تسألني بنسًا – ولا بنسًا واحدًا! هل تفهم ذلك أيها السيد المحقق! فأنا كل ما تبقَّى من أسرة هذا الشاب، وأؤكد لك إنني لست مسؤولًا. وإذا كان لدى ابن أخي أية طموحات في نيل الإرث، فذلك لأنني لم أبدد مالًا قط، ولست مستعدًّا لفعل هذا الآن. وأما بخصوص تلك الأوراق التي تتصرف فيها بحرية تامة، فأقول لك إنه إذا كان بينها أي شيءٍ ذي قيمة فأنت مُلزم بتوضيح ما ستفعله به.

قال شيرلوك هولمز: لك ذلك يا سيدي. هل لي أن أسأل في الوقت الحالي إذا كان لديك فكرة عن سبب اختفاء هذا الشاب؟

– لا يا سيد، ليس لدي فكرة. إنه كبير وناضج بما يكفي ليعتني بنفسه، وإذا كان من الحماقة بحيث يضيِّع نفسه فأنا أرفض تمامًا أن أتحمَّل مسؤولية البحث عنه.

ومضت عينا هولمز بخبث وقال: أتفهَّم موقفك تمامًا. ولكن ربما لا تتفهمني أنت. يبدو أن جودفري ستونتن رجلٌ فقير. وإذا كان قد اختُطِف فمُحال أن يكون ذلك من أجل شيءٍ يمتلكه هو. إن ثروتك قد بلغت من الشُهرة مبلغًا أيها اللورد ماونت جيمس، ومن الممكن جدًّا أن تختطف إحدى عصابات اللصوص ابن أخيك للحصول على معلوماتٍ منه عن منزلك وعاداتك وكنوزك.

امتقع وجه ضيفنا الضئيل العابس واستحال أبيض كربطة عُنقه.

– يا إله السماوات، يا لها من فكرة يا سيدي! ما خطر لي مثل هذا اللؤم قط! كم في هذا العالم من وحوش محتالين! لكن جودفري فتى طيب –إنه فتى مُخلص. لن يُرغمه شيء على خيانة عمه الهَرِم. سأنقل تُحَفي الثمينة إلى البنك الليلة. وفي هذه الأثناء لا تدَّخر وسعًا يا سيدي المحقق! أتوسَّل إليك ألا تترك بابًا دون طرقه حتى يعود ابن أخي آمنًا. أما عن المال، حسنًا، يمكنك أن تلجأ إليَّ دومًا ما دامت حاجتك لم تتجاوز الخمسة، أو حتى العشرة جنيهات.

حتى في أكثر حالاته تهذيبًا، لم يستطع هذا السيد البخيل أن يمنحنا معلومة تساعدنا، لأنه لم يكن يعلم إلا أقل القليل عن حياة ابن أخيه الخاصة. وهكذا صار دليلنا الوحيد كامنًا في البرقية المبتورة،

ومضى هولمز بنسخة منها يبحث عن الحلقة الثانية في سلسلته. ودَّعنا اللورد ماونت جيمس، وذهب أوفرتن للتشاور مع بقية أعضاء فريقه في المصيبة التي حلَّت بهم.

كان مكتب التلغراف على مقربة من الفندق. فترجلنا أمامه.

قال هولمز: هذا الأمر يستحق المحاولة يا واتسون. بالطبع لو كان معنا مذكرة لطالبنا برؤية البيانات، لكننا لم نبلغ هذه المرحلة بعد. ولا أظنهم سيتذكرون وجهينا في مكانٍ مزدحم كهذا. لنغامِر بالمحاولة.

وجه هولمز كلامه إلى الفتاة الجالسة خلف الحاجز بأرقِّ أسلوب لديه: أعتذر عن الإزعاج، ولكن ثمَّة خطأ صغير في البرقية التي أرسلتها البارحة. لم يصلني منها أي رد، وأخشى أن أكون قد نسيت كتابة اسمي في ختامها. هلا أخبرتِني إن كان هذا ما حدث؟

راحت الفتاة تقلِّب في مجموعة من دفاتر البيانات، ثم سألته قائلة: في أي ساعة أرسلت برقيتك؟

– بعد السادسة بقليل.

– ومن المرسل إليه؟

فوضع هولمز إصبعه على شفتيه ورمقني، ثم همس إليها بسرِّية قائلًا: كانت آخر كلماتها بحق الرب، وإنني قلقٌ جدًّا لعدم تلقِّي رد.

أخرجت الفتاة إحدى الاستمارات وبسطتها على الطاولة أمامها قائلة: ها هي ذي. ليس عليها اسم.

قال هولمز: لهذا السبب إذن لم أتلقَّ ردًّا. ويحي، هذا غباءٌ مني دون ريب! طاب صباحك يا آنستي، وشكرًا جزيلًا لإراحتك بالي. ثم خرجنا إلى الشارع مجددًا بينما يقهقه هولمز ويفرك يديه.

سألته: حسنًا؟

– إننا نحرز تقدمًا يا عزيزي واتسون، نحرز تقدمًا. كان لدي ست خطط مختلفة لإلقاء نظرة على تلك البرقية، وما كنت آمل أن أنجح من أول مرة.

– وما الذي جنيته؟

– جنيتُ نقطة انطلاق لتحقيقنا. وأوقف عربة أجرة قائلًا: محطة كينجز كروس.

– سنذهب في رحلة إذن؟

– نعم، أظن أن علينا الذهاب إلى جامعة كامبريدج معًا. يبدو لي أن كل الدلائل تشير إلى تلك الوجهة.

سألته بينما ترتج بنا العربة على طريق جرايز إنْ: أخبرني، هل تشتبه بعدُ في شيء قد يفسر مسألة الاختفاء؟ لا أظنني شهدت بين جميع قضايانا قضية كانت دوافعها أكثر غموضًا من هذه. أتظن حقًّا أنه اختُطِف ليُدلي بمعلومات عن عمه الثري؟

– أعترف يا عزيزي واتسون بأنِّي لا أظن هذا التفسير محتملًا. لكنني شعرتُه الأقرب إثارة لانتباه ذلك الكهل شديد العبوس.

– لقد أثار انتباهه بكل تأكيد. ولكن ما تفسيراتك البديلة؟

– أستطيع أن أذكر العديد منها. لا تنكر أن من الغريب والمثير للفضول أن هذه الواقعة حدثت في الليلة التي تسبق هذه المباراة المهمة، وأن يتورَّط فيها الرجل الوحيد الذي يبدو أن حضوره ضروري

لنجاح الفريق. وقد يكون الأمر كله من قبيل المصادفة بالطبع، بيد أنه مثيرٌ للاهتمام. إن رياضة الهواء خالية من المراهنة، ولكن يجري بين الجمهور قدرٌ لا بأس به من المراهنات الخارجية، ووارد أن يحاول أحدهم النيل من أحد اللاعبين مثلما ينال همجيو مضمار السباق من أحد الخيول. هذا أحد التفسيرات. ويوجد تفسير آخر شديد البداهة وهو أن هذا الفتى هو فعلًا الوريث الشرعي لتركة ضخمة، رغم بساطة موارده المالية الحالية، وليس مستبعدًا أن تُدبَّر مكيدة لاختطافه من أجل الحصول على فدية.

– هذه النظريات لا تضع البرقية في حسبانها.

– معك حق يا واتسون. فالبرقية ما زالت هي الخيط الملموس الوحيد الذي ينبغي لنا اتباعه، وعلينا ألا نسمح لانتباهنا بالشرود عنه. ها نحن الآن في طريقنا إلى كامبريدج لاكتشاف الغرض من هذه البرقية. إن مسار تحقيقنا مبهم الآن، لكنني سأندهش إن لم نحل المسألة أو نحرز تقدمًا معقولًا في حلها قبل حلول المساء.

كان الظلام قد حلَّ بالفعل عندما وصلنا إلى مدينة الجامعة العتيقة. استقل هولمز عربة أجرة في المحطة، وطلب من السائق الذهاب إلى بيت الدكتور ليزلي أرمسترونج. وبعد دقائق معدودة كنا واقفين أمام قصر كبير في أكثر الطرقات ازدحامًا. رافقنا أحدهم إلى الداخل، وبعد انتظارٍ طويل سُمِحَ لنا بالدخول إلى غرفة الفحص، حيث وجدنا الطبيب جالسًا خلف مكتبه.

يبدو مدى فقداني الصلة بمهنتي واضحًا عندما أجدني جاهلًا باسم ليزلي أرمسترونج. فقد عرفتُ الآن أنه ليس فقط أحد عمداء كلية الطب في الجامعة، وإنما هو أيضًا واحد من أكثر المفكرين شهرة في أوروبا، ومتخصص في أكثر من فرع من فروع العلم. ورغم عدم معرفتي بسجله الحافل، لا يسع المرء إلا أن ينبهر بنظرة واحدة إلى هذا الرجل، بوجهه المربع الكبير، وعينيه الشاردتين تحت حاجبيه الكثيفين، والهيكل الصلب لفكه الجامد. رجلٌ ذو شخصية عميقة، رجلٌ ذو عقلٍ يقظ، متجهم، زاهد، متحفظ، وقوي الشكيمة – هكذا بدا لي الدكتور ليزلي أرمسترونج. أمسك بطاقة التعريف الخاصة بصديقي في يده، ونظر إلينا وليس على ملامحه الصارمة ما يوحي بالرضا.

– لقد سمعت باسمك أيها السيد شيرلوك هولمز، وأعرف مهنتك، وهي مهنة لا أستسيغها بالمرة.

فقال صديقي في هدوء: وفي هذا يتفق معك كل مجرمي البلد أيها الدكتور.

– ما دامت جهودك موجهة نحو قمع الجريمة يا سيدي، فلا بد أن تلقى استحسان كل فرد عاقل من أفراد المجتمع. غير أنّي لا أستطيع أن أنكر أن الجهات الرسمية كافية جدًّا لهذا الغرض. وما كان انتقادي لمهنتك إلا لاعتيادك التطفُّل على أسرار الآخرين، والتنقيب عن المسائل العائلية التي يحسُن إخفاؤها، وتضييعك من دون قصد وقت الرجال الذين هم أكثر انشغالًا منك. فالآن على سبيل المثال كان عليَّ أن أكون منكبًّا على كتابة أطروحتي بدلًا من الحديث معك.

– كلام سليم أيها الدكتور؛ ومع ذلك قد يتبين لكَ أن هذه المحادثة أهم من الأطروحة. ويسعني القول بالمناسبة أننا نفعل النقيض من هذا الذي لك كل الحق في انتقاده، وأننا نحاول منع أي شيء من قبيل كشف الأسرار الشخصية للعلن، وهو ما يقع بالضرورة ما إن تصبح القضية في يد الشرطة الرسمية

فعلًا. يُمكنك اعتباري مجرد جندي غير نظامي يتقدم قوَّات البلد النظامية. لقد جئتُ لأسألك عن السيد جودفري ستونتن.

– ما خطبه؟

– أنت تعرفه، أليس كذلك؟

– إنه أحد أصدقائي المقربين.

– هل تعلم باختفائه؟

– آه، فعلًا! لم تتغير ملامح الطبيب المتغضنة.

– لقد غادر الفندق الذي يبيت فيه ليلة أمس، ولم يسمع عنه أحدٌ منذ ذلك الحين.

– لا شك أنه سيعود.

– إن غدًا موعدَ مباراة الجامعة.

– تلك الألعاب الصبيانية لا تثير تعاطفي. إن مصير الفتى يهمني بشدة، فأنا أعرفه وأحبه. أما مباراة الكرة فلا أبالي بها مُطلقًا.

– إذن أحتاج إلى مساعدتك للتحقق من مصير السيد ستونتن. هل تعرف مكانه؟

– بالطبع لا.

– ألم ترَه منذ البارحة؟

– نعم، لم أرَه.

– هل كانت صحة السيد ستونتن جيدة؟

– من دون شك.

– هل رأيته يومًا مريضًا؟

– إطلاقًا.

فأخرج هولمز ورقة ووضعها أمام عيني الطبيب، وقال: ربما يسعك إذن أن توضِّح لي سر هذه الفاتورة بقيمة ثلاثة عشر جنيهًا، دفعها السيد جودفري ستونتن الشهر الفائت للدكتور ليزلي أرمسترونج من جامعة كامبريدج. فقد وجدتُها بين الأوراق التي كانت على مكتبه.

فاحمرَّ وجه الطبيب غضبًا.

– لا أجد سببًا يدعوني لتقديم تفسيرات لك يا سيد هولمز.

أعاد هولمز الفاتورة إلى دفتره، وقال: إذا كنت تفضل التفسير علنًا، فسوف تضطر إليه عاجلًا أم آجلًا. لقد أخبرتك بالفعل أن باستطاعتي إخفاء ما يتحتَّم على الآخرين إعلانه، ومن الحكمة أن تمنحني ثقتك كاملةً.

– لا أعلم شيئًا عن هذه الفاتورة.

– هل سمعت من السيد ستونتن وهو في لندن؟

– بالطبع لا.

تنهد هولمز قائلًا بضجر: يا إلهي، يا إلهي؛ مكتب البريد واستهتاره ثانيةً! فقد أرسل إليك جودفري ستونتن برقية عاجلة جدًّا من لندن في السادسة والربع من مساء أمس –برقية ذات صلة باختفائه لا محالة– لكنك مع ذلك لم تستلمها. إن هذا لإهمال يستحق اللوم. سأذهب حتمًا إلى المكتب هنا وأسجل شكوى.

هبَّ الدكتور ليزلي أرمسترونج واقفًا خلف مكتبه وقد استحال وجهه الداكن قُرمزيًّا من شدة الغضب.

وقال: تفضل بالخروج من منزلي يا سيد. ويمكنك أن تخبر موكِّلك، اللورد ماونت جيمس، بأنني لا أريد أن يكون لي علاقة به أو بوكلائه. لا يا سيدي، لا تزد كلمة أخرى! ودق الجرس في حنق. رافق هذين الرجلين إلى الخارج يا جون! قادنا خادمٌ متعجرف بصرامة إلى الباب، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الشارع. ثم انفجر هولمز ضحكًا.

وقال: إن الدكتور ليزلي أرمسترونج رجلٌ مفعم بالحيوية والخُلُق الرفيع. لم أرَ من هو أنسب منه لسد الفراغ الذي تركه البروفيسور الشهير موريارتي، لو أنه سخَّر مواهبه في سبيل ذلك. والآن يا صديقي المسكين واتسون، ها نحن أولاء عالقان بلا أصدقاء في هذه المدينة القاسية، والتي لا يسعنا مغادرتها من دون التخلِّي عن قضيتنا. لكنَّ هذا الفندق الصغير الذي يقع أمام منزل أرمسترونج مباشرةً يناسب احتياجاتنا على نحوٍ غريب. إذا تفضَّلت بحجز غرفة أمامية وابتعت متطلِّبات الليلة، سأتمكن من إجراء القليل من الاستعلامات.

ولكن اتضح أن هذه الاستعلامات القليلة تطلَّبت وقتًا أطول مما توقَّع هولمز، فلم يعُد إلى الفندق حتى التاسعة مساءً تقريبًا. كان شاحبًا ومغتمًّا، يلطِّخه الغبار، ويُنهِكه الجوع والتعب. كان العشاء البارد جاهزًا على الطاولة، وبعد أن أكل ما يسد رمقه وأشعل غليونه، صار مستعدًّا لاتخاذ تلك الهيئة الساخرة جزئيًّا والفلسفية كليًّا التي اعتاد أن يتخذها كلما خرجت الأمور عن السيطرة. ثم سمعنا صوت عجلات عربة ما فهبَّ هولمز من مكانه وألقى نظرة خارج النافذة. فرأى عربة يجرها فرسان رماديان تقف تحت وهج مصباح الغاز أمام منزل الطبيب.

قال هولمز: غادرت هذه العربة منذ ثلاث ساعات، بدايةً من السادسة والنصف، وها هي ذي تعود مرةً أخرى. تلك مسافة عشرة أو اثني عشر ميلًا، وهو يفعل ذلك مرة، وأحيانًا مرتين في اليوم.

– ليس هذا غريبًا بالنسبة لطبيب يمارس مهنته.

– ولكن أرمسترونج ليس في الواقع طبيبًا يمارس مهنته. إنه محاضر واستشاري، ولا يهتم بالممارسة العامة التي تشتته عن أعماله النظرية. لماذا إذن يذهب في تلك الرحلات الطويلة التي لا بد أنها شاقة جدًّا بالنسبة له، ومن هذا الذي يذهب لزيارته؟

– إن الحوذي الخاص به...

–أتشك يا عزيزي واتسون أن الحوذي كان أول من سألت؟ لا أدري أكان ما فعله نابعًا من فساد أخلاقه الغريزي أم بتحريض من سيده، لكنه كان من الوقاحة أن أطلق كلبه عليَّ. ولكن لا الكلب ولا صاحبه أعجبهم منظر عصاي، وضاعت جهودي سُدى. ثم توترت العلاقات بيننا وصار استكمال

تحرياتي منه مستحيلًا. كل ما عرفته حصلت عليه من رجلٍ ودود من سكان باحة الفندق الذي نحن فيه، وهو من أخبرني بعادات الطبيب ورحلته اليومية. وفي لحظتها، وتأكيدًا لكلامه، وصلت العربة إلى بيت الطبيب.

– ألم تستطِع تعقُّبها؟

– رائع يا واتسون! إنك متألقٌ هذه الليلة. لقد خطرت لي هذه الفكرة بالفعل. لعلك لاحظت أن بجوار الفندق الذي نحن فيه متجرًا للدرَّاجات. فهرعت إليه واستأجرت درَّاجة وبتُّ مستعدًّا لتعقُّب العربة قبل أن تختفي عن ناظري تمامًا. لحقتُ بها سريعًا وتتبعت أضواءها، محافظًا على مسافة معقولة بيني وبينها نحو مئة ياردة، حتى خرجنا من المدينة. كنا قد سرنا قدرًا لا بأس به على الطريق الريفي عندما وقع حادثٌ مخزٍ إلى حدٍّ ما. فقد توقفت العربة، وترجَّل منها الطبيب، ثم رجع بخطوات سريعة إلى المكان الذي توقفتُ فيه، وقال لي بأسلوب تهكُّمي مفتخر إنه يعتذر من ضيق الطريق، ويأمل ألا تمثل عربته عائقًا أمام دراجتي. كانت صياغته لما قال مثيرة للإعجاب أكثر من أي شيء. قدتُ درَّاجتي على الفور متخطيًا العربة ومشيت على الطريق الرئيس بضعة أميال، ثم توقفت في مكان مناسب لأرى ما إذا كانت العربة ستمر. ولكن لم أرَ أثرًا لها، فعلمتُ أنها لا بد انسلَّت في أحد الطرق الفرعية العديدة التي كنت قد لاحظتها. فعُدت بالدراجة ولكن مرة أخرى لم أرَ أثرًا للعربة، والآن كما لاحظت، فقد عادت بعدي. بالطبع في بادئ الأمر لم يكُن لديَّ سببٌ معين لربط تلك الرحلات باختفاء جودفري ستونتن، وكنت أرغب في التحرِّي عنها من مُنطلق أن كل ما يخص الدكتور أرمسترونج مهمٌّ لنا في الوقت الحالي؛ ولكني الآن بعدما رأيته يراقب ويرصد كل من قد يتبعه في نزهاته تلك، فإن المسألة تبدو أكثر أهمية، ولن يهدأ لي بال حتى أستوضح أمره.

– يمكننا ملاحقته غدًا.

– فعلًا؟ إن هذا ليس بالسهولة التي تتصورها. هل تدري بالطبيعة الجغرافية لمقاطعة كامبريدج؟ إنها لا تسمح لأحدٍ بأن يتخذ منها مخبأً. هذا الريف الذي مررتُ منه الليلة كان كله منبسطًا وخاليًا مثل راحة يدك، والرجل الذي نلاحقه ليس مغفلًا، فقد أكَّد لي هذا الليلة. لقد أرسلت برقية إلى أوفرتن طالبًا منه أن يُطلِعنا على أي تطورات جديدة تحدث في لندن ويُرسلها على هذا العنوان، والآن لا يسعنا إلا التركيز على الدكتور أرمسترونج، الذي سمحت لي الفتاة الفاضلة في مكتب البريد بقراءة اسمه على بيانات رسالة ستونتن العاجلة. إنه يعرف مكان الفتى –أقسم على ذلك– وما دام يعرف، فالخطأ خطؤنا إن لم ننجح في معرفته نحن أيضًا. عليَّ الاعتراف بأن الورقة الرابحة بحوزته الآن، وكما تعرف يا واتسون، فأنا لستُ معتادًا أن أغادر اللعبة في تلك الحالة.

ورغم هذا لم يُقرِّبنا اليوم التالي من حل اللغز. ثم تلقَّينا رسالة بعد الإفطار، فمررها هولمز إليَّ بابتسامة، وهكذا مضت:

سيدي

أؤكد لك أنك تضيِّع وقتك برصدك تحركاتي. فلديَّ –كما لاحظت ليلة أمس– نافذة في مؤخرة عربتي، فإذا أردت يومًا أن تذهب في جولة من عشرين ميلًا تقودك إلى نفس المكان الذي بدأت منه، فما عليك إلا

اتباعي. وفي الوقت ذاته، أؤكد لك أن التجسس عليَّ لن يفيد السيد جودفري ستونتن بأي حال، وأنا موقنٌ أن أفضل خدمة يمكنك إسداؤها لهذا الرجل المحترم هي أن ترجع إلى لندن من فورك وتُبلغ موكِّلَك أنك عجزت عن اقتفاء أثره. سوف يُهدَر وقتك في كامبريدج لا محالة.

المخلص

ليزلي أرمسترونج

عقَّب هولمز: خَصمٌ صادقٌ وصريح هذا الطبيب. حسنٌ حسن، إنه يُثير فضولي، وعليَّ حقًّا أن أعرف المزيد قبل أن أتركه.

قلتُ: إن عربته تقف أمام بابه الآن. ها هو ذا يدخلها. وقد رأيته يُلقي نظرة على نافذتنا قبل أن يدخل. هل لي أن أجرب حظي مع الدرَّاجة؟

– كلا يا عزيزي واتسون! فمع كامل احترامي لنباهتك الفطرية لكنني لا أظنك ندًّا مناسبًا لهذا الطبيب الفاضل. أعتقد أن بإمكاننا الوصول إلى ما نريد إذا أجريتُ بعضًا من استكشافاتي المستقلة. أخشى أنني مضطر إلى تركك وشأنك، فظهور مُحققَيْن غريبَيْن في مثل هذه القرية الهادئة قد يثير من القيل والقال أكثر مما أريد. لا شكَّ أنك ستجد بعض المعالم التي تُسلِّيك في هذه المدينة الجليلة، وآمل أن أعود إليك بأخبار أفضل قبل المساء.

ولكن مرة أخرى قُدِّر لصديقي أن يخيب رجاءه. فقد عاد في الليل منهكًا وخاوي الوفاض.

– لقد ضاع يومي هباءً يا واتسون. فبعد أن عرفتُ وجهة الطبيب العامة، أمضيت اليوم في زيارة جميع القرى الموجودة في ذاك الجانب من كامبريدج، وتبادُل الملاحظات مع أصحاب الحانات ووكالات الأنباء المحلية. وقد غطَّيت بعض المناطق: تشيسترتون وهيستون ووتربيتش وأوكينجتون. استكشفتُها جميعًا وعدت من كلّ منطقة منها بخُفي حنين. ما كانت أودية النعاس هذه لتغفل عن رؤية عربة يجرها فرسان. لقد ربح الطبيب جولة أخرى. هل هناك برقية من أجلي؟

– نعم؛ لقد فتحتها. ها هي ذي:

– اطلب بومبي من جيرمي ديكسون،

كلية ترينيتي.

لكنني لم أفهمها.

– أوه، إنها واضحة بما يكفي. لقد جاءت من صديقنا أوفرتن، وهي إجابة عن سؤالٍ سألته إياه. ما عليَّ إلا أن أرسل رسالة إلى السيد جيرمي ديكسون، ولا شكَّ عندي أن الحظ سيبتسم لنا بعدها. بالمناسبة، هل ثمَّة أخبار عن المباراة؟

– نعم، نشرت الصحيفة المحلية تقريرًا ممتازًا في طبعتها الأخيرة. لقد فاز فريق أوكسفورد بهدف وتسديدتين. تقول السطور الأخيرة في وصف المباراة:

– إن هزيمة الفريق الأزرق ترجع كليًّا إلى الغياب المؤسف للاعب الدولي اللامع جودفري ستونتن، الذي شعرنا بضرورة وجوده في كل لحظة من لحظات المباراة. إن ضَعْف خط الهجوم وانعدام الترابط بين

لاعبيه قد أضاعا كلاهما جهود فريق بارز ومجتهد.

قال هولمز: كان صديقنا أوفرتن مُحقًّا في هواجسه إذن. أما أنا، فأتفق مع الدكتور أرمسترونج، ولا أبالي بلعبة الكرة هذه مُطلقًا. لننم مبكرًا الليلة يا واتسون، فأنا أتوقَّع يومًا حافلًا بالأحداث غدًا.

روَّعني مشهد هولمز في الصباح الذي تلا، فقد كان يجلس أمام المدفأة ممسكًا بمحقنته الصغيرة. لطالما ربطت بين تلك الأداة ونقطة الضعف الوحيدة في شخصية هولمز، وقد خشيت وقوع الأسوأ عندما رأيتها تلمع في يده. لكنه ضحك عندما رأى ارتياعي ووضعها على الطاولة.

– لا، لا يا صديقي العزيز، لا داعي للقلق. إنها ليست بأداة شرٍّ هذه المرة، وإنما هي المفتاح الذي سيحل لغزنا. فأنا أضع جميع آمالي على هذه المحقنة. لقد عُدت لتوي من رحلة استكشافية صغيرة والأمور كلها تبشر بالخير. تناول فطورك جيدًا يا واتسون، فقد اعتزمتُ تعقُّب الدكتور أرمسترونج اليوم، وبمجرد أن أبدأ لن أقف لراحة أو لطعام حتى أقبض عليه في جحره.

فقلتُ: أحبِّذ في هذه الحالة أن نأخذ إفطارنا معنا، لأنه سينطلق باكرًا. إن عربته أمام الباب.

– لا يهم. دعه يذهب. سيكون أذكى مما أتصور إن استطاع الذهاب إلى مكان لا يمكنني تعقُّبه فيه. عندما تنتهي من تناول فطورك رافقني إلى الطابق السُفلي، فسوف أعرفك بمحقق من أبرز الاختصاصيين في المهمة التي نحن مُقدمون عليها.

عندما نزلنا تبِعتُ هولمز إلى باحة الحظيرة، حيث فتح بابَ صندوق وأخرج كلبًا بدينًا ذا أذنين متدليتين وفروٍ باللونين الأبيض والبني، كان هجينًا من البيجل والفوكسهاوند.

قال: دعني أعرِّفك إلى بومبي. بومبي هو فخر كلاب الصيد المحلية قاطبةً، وهو لا يجيد العدو كما هو واضح من بنيته، ولكن لديه حاسة شم خارقة. لا بأس يا بومبي، قد لا تكون سريعًا، لكنني أظنك سريعًا جدًّا مقارنةً برجلين لندنيين في منتصف عمريهما، لذلك سأسمح لنفسي بربط هذا الزمام الجلدي في طوق عنقك. والآن هلُم يا فتى، وأرِنا ما يسعك فعله. ثم اقتاده هولمز باتجاه باب منزل الطبيب. تشمَّم الكلب المكان للحظة، ثم انطلق يركض في الشارع وهو ينبح نباحًا حادًّا متحمسًا ويشد زمامه محاولًا الركض بسرعة أكبر، حتى صرنا بعد نصف الساعة خارج المدينة نحثُّ الخُطى على أحد الطرق الريفية.

سألت هولمز: ماذا فعلت يا هولمز؟

– حيلة عتيقة ومبتذلة، لكنها تُجدي نفعًا من حينٍ لآخر. ذهبتُ إلى باحة الطبيب هذا الصباح وأفرغت محقنتي الملأى بخلاصة اليانسون على عجلات العربة الخلفية. يمكن لكلب الصيد أن يتعقَّب رائحة اليانسون من هنا وحتى قرية جون أوجروتس، وسيضطر صديقنا أرمسترونج إلى عبور نهر الكام بعربته كي يتمكن من تضليل بومبي عنه. أوه، يا للنذل الماكر! هكذا تملَّص مني في تلك الليلة.

انعطف الكلب فجأة عن الطريق الرئيس متجهًا إلى ممر عشبي. سرنا في هذا الممر مسافة نصف ميلٍ حتى أفضى بنا إلى طريق آخر متسع، ثم اتخذ الطريق منعطفًا حادًّا ناحية اليمين باتجاه المدينة التي غادرناها لتونا. بعدها انحرف بنا باتجاه جنوب المدينة ومضينا في عكس الاتجاه الذي ابتدأنا منه.

قال هولمز: تلك الالتفافة تصبّ في مصلحتنا تمامًا إذن، أليس كذلك؟ لا غرو أن تحرِّياتي في تلك القرى لم تثمر شيئًا. لقد لعب الطبيب لعبته ببراعة، وإن المرء ليودُّ أن يعرف السبب وراء مثل هذا الخداع المُتقن. لا بد أن هذه التي إلى يميننا هي قرية ترامبنجتون. ربَّاه! ها هي العربة تستدير باتجاهنا. أسرع يا واتسون، أسرع، وإلا سينتهي أمرنا!

هرع هولمز باتجاه بوابة إلى داخل أحد الحقول، جارًّا بومبي الذي أخذ يقاوم السحب خلفه. ولم نكد نتخذ من السياج مخبأً حتى سمعنا خشخشة العربة وهي تمر مغادرة. ولمحتُ الدكتور أرمسترونج بداخلها؛ كانت كتفاه متهدِّلتين، ورأسه مدفونًا بين يديه، ومظهره كله ينم عن أسى شديد. وتيقنت من النظرة الجادة التي عَلَت وجه صديقي أنه رآه هو الآخر.

قال: أخشى أن لتحقيقنا نهاية مُظلمة، لكننا أوشكنا على معرفتها. تعالَ يا بومبي! آه، لقد كان يزور هذا الكوخ الذي في الحقل!

لم يكن ثمَّة شك أننا قد بلغنا نهاية رحلتنا. انطلق بومبي يركض هنا وهناك وينبح بلهفة خارج البوابة حيث آثار عجلات العربة التي غادرت لتوها ما زالت واضحة. كان هناك ممشى يؤدي إلى الكوخ المنعزل. ربَط هولمز الكلب إلى السياج ومضينا مسرعين إلى الأمام. طرَق صديقي الباب الريفي الصغير، ثم طرقه مرة أخرى، ولكن لم يأتِ رد. لم يكن الكوخ خاليًا، فقد نما إلى سمعنا صوت خافت – صوتٌ أشبه بأنين يفيض بالألم واليأس، وينطوي على كآبة يتعذر وصفها. توقف هولمز مترددًا، ثم نظر خلفه باتجاه الطريق الذي اجتزناه لتونا. كانت ثمَّة عربة قادمة منه، ولم نلبث أن ميَّزنا فرسيها الرماديين.

صاح هولمز: يا إلهي، لقد عاد الطبيب إلى هنا. ليس أمامنا بديل إذن. لا بد أن نفهم ما يحدث قبل أن يصل إلى هنا.

ثم فتح هولمز الباب وخطونا داخل الرَّدهة. علا صوت الأنين في آذاننا حتى صار نحيبًا واحدًا متواصلًا وعميقًا يمتلئ بالأسى. كان الصوت قادمًا من الدور العلوي. فانطلق هولمز إلى أعلى وانطلقتُ وراءه. دفع بابًا كان مواربًا ووقف كلانا وقد هالنا المنظر الذي أمام أعيننا.

كانت ترقد على الفراش جثة فتاة جميلة. وجهها الهادئ الشاحب ينظر لأعلى بعينين زرقاوين واسعتين معتمتين تظهران من بين جدائل شعرها الذهبي الغزير. وعلى حافة الفراش، قبع شابٌّ في وضع بين الجلوس والركوع، دافنًا وجهه في ثيابه وقد أضنى جسمه البكاء. كان مستغرقًا في حزنه المرير لدرجة أنه لم ينظر إلينا قط حتى وضع هولمز يده على كتفه.

– هل أنت السيد جودفري ستونتن؟

– نعم، نعم، إنني هو –لكنكما تأخرتما أكثر من اللازم. لقد ماتت.

كان الرجل مصدومًا لدرجة أنه لم يرَ فينا سوى طبيبين قد أُرسلا لمساعدته. حاول هولمز أن ينطق ببضع كلمات للتعزية، وأن يوضح القلق الذي سببه اختفاؤه المفاجئ لأصدقائه، عندما سمعنا خطوات على الدرج، تلاها ظهور وجه الدكتور أرمسترونج المتجهم العابس المرتاب عند الباب.

قال: حسنًا إذن لقد نلتُما مرادكما يا سادة، وقد اخترتما لتطفلكما لحظة شديدة الحساسية من دون ريب. لن أتشاجر في حضرة الموت، لكنني لو كنتُ أصغر سنًّا، ما كنت لأسمح لسلوككما الفاحش هذا

بأن يمر دون عقاب.

أجابه صديقي في وقار: اعذرني أيها الدكتور أرمسترونج، أعتقد أن بيننا سوء تفاهم صغير. إذا تفضَّلت وهبطت معي إلى الطابق السُفلي يمكن لكلينا أن يوضح للآخر موقفه في هذه القضية المؤسفة.

وبعدها بدقيقة صرنا نحن والطبيب المتجهم في غرفة الجلوس بالأسفل.

قال: إذن، ماذا لديك لتقوله؟

– آمل أن تُدرك أولًا وقبل كل شيء أن اللورد ماونت جيمس ليس من وكَّلني، وأنني لا أتعاطف معه في هذه القضية بالمرة. فإذا فُقد رجلٌ صار واجبي التحقق من مصيره، ومتى فعلت ذلك انتهت المسألة بالنسبة لي؛ وما دامت لا توجد جريمة، فإنني أكون أكثر حرصًا على كتمان الفضائح أكثر مني على إعلانها. إذا لم يكن ثمَّة انتهاكٌ للقانون في هذه المسألة –مثلما أظن– يمكنك الوثوق في تبصُّري وتعاوني في إبقاء الحقائق بعيدة عن أعين الصحافة.

فخطا الدكتور أرمسترونج للأمام سريعًا وشدَّ على يد هولمز بقوة.

وقال: أنت رجلٌ محترم. لقد أسأت الحكم عليك. وإني لأحمد الرب أن ندمي على ترك ستونتن المسكين بمفرده في هذا المأزق قد دفعني إلى العودة بالعربة ثانيةً، ومن ثم إلى التعرُّف عليك. ما دام لديك كل هذا القدر من المعلومات، فلن يكون شرح الموقف صعبًا بحال. فقبل عامٍ من الآن استأجر جودفري ستونتن منزلًا في لندن وأقام فيه لفترة، وارتبط عاطفيًّا بابنة صاحبة المنزل وتزوَّجها. كانت فتاة طيبة بقدر ما كانت جميلة، وذكية بقدر ما كانت طيبة. ما كان لرجلٍ أن يخجل من زوجة مثلها. غير أن جودفري كان الوريث الشرعي لهذا الرجل الهَرِم المشاكس، ويقينًا كان خبر زواجه كفيلًا بأن يحرمه من الميراث. كنت أعرف الفتى جيدًا، وأحببته لخصاله الكثيرة الرائعة. فعلتُ ما بوسعي لمساعدته في ترتيب الأمور، وبذلنا أقصى ما بالإمكان لإبقاء هذا الزواج طي الكتمان، فما إن تفلت همسة واحدة عنه لن يلبث أن يعرف به الجميع. وقد نجح جودفري في ذلك، بفضل هذا الكوخ المنعزل وبفضل تكتُّمه هو نفسه. وهكذا لم يعرف بسرِّهما سواي أنا وخادم واحد مخلص ذهب حاليًّا للخدمة في قرية ترامبنجتون. ولكن الضربة القاصمة قد جاءت في النهاية في صورة مرض خطير ألمَّ بزوجته. كان درنًا من أفتك الأنواع. وقد كاد الفتى المسكين يجن من فرط الهم، واضطر في الوقت ذاته إلى أن يذهب إلى لندن للعب هذه المباراة، إذ لم يكن يسعه التملُّص منها دون تقديم تفسيرات من شأنها أن تفضح سرَّه. حاولت التخفيف عنه ببرقية، فردَّ عليَّ بواحدة يستغيثني فيها أن أبذل كل ما يمكن. كانت هذه هي البرقية التي يبدو أنك اطَّلعت عليها بشكلٍ يتعذر عليَّ تفسيره. لم أخبر جودفري بمدى خطورة المرض، فقد علمتُ أن لا فائدة تُرجى من ذلك، لكنني أرسلت الحقيقة إلى والد الفتاة، فما كان منه إلا أن أبلغ جودفري بها برعونة شديدة. وكانت النتيجة أن جاء جودفري من فوره في حالة تشارف الجنون، وبقي في تلك الحالة راكعًا أمام فراش زوجته، حتى وضع الموتُ حدًّا لمعاناتها هذا الصباح. هذا هو كل شيء يا سيد هولمز، وأنا على يقين أن باستطاعتي الاعتماد على تكتُّمك أنت وصديقك.

شدَّ هولمز على يد الطبيب.

وقال: هيا بنا يا واتسون.، فخرجنا من البيت المحزون إلى شمس الشتاء الغائمة.

مغامرة منزل آبي جرينج

ذات صباح قارس البرودة يكسوه الصقيع في شتاء عام 1897 أيقظني شخصٌ يشدُّني من كتفي. كان هولمز هذا الشخص. وبمجرد أن سقط ضوء الشمعة التي في يده على وجهه المتحمس المنحني باتجاهي أدركتُ من نظرة واحدة أن ثمة خطبًا ما.

صاح قائلًا: تعالَ يا واتسون، تعال. لقد أصبحت اللعبة على قدمٍ وساق. لا تَزِد كلمة! ارتدِ ثيابك وتعالَ!

بعد عشر دقائق كنا في عربة أجرة نشق طريقنا عبر الشوارع الصامتة إلى محطة تشيرنج كروس. بدأ الفجر يبزغ ضعيفًا، واستطعنا بالكاد أن نلمح عامل النظافة وهو يمر بجوارنا بطيفه المشوَّش ومعالمه غير الواضحة في صباح لندن الضبابي. اندسَّ هولمز بصمت في معطفه الثقيل، ولم أتوان عن فعل الشيء نفسه، فقد كان الهواء شديد البرودة ولم يتناول أي منا إفطاره. لم نشعر بالدفء الكافي إلا بعد أن احتسينا بعض الشاي الساخن في المحطة، وجلسنا في مكانينا بقطار كِنت، حينها بدأ هولمز بالحديث وأنا بالاستماع إليه. أخرج ورقة من جيبه وقرأها بصوت عالٍ:

منزل آبي جرينج، مدينة مارشام، مقاطعة كِنت،

3:30 صباحًا

عزيزي السيد هولمز:

سأكون في غاية الامتنان إذا حصلت على مساعدتك الفورية في قضية تبدو مثيرة للاهتمام بحق. إنها من نوعيتك المفضلة. وبخلاف إطلاق سراح الليدي، سأتأكد من بقاء كل شيء على حاله مثلما وجدته. ولكن أرجو منك ألا تُضيِّع لحظة واحدة، إذ يصعب عليّ أن أترك السير يوستاس في مكانه.

المخلص،

ستانلي هوبكنز.

ثم استأنف هولمز: لقد استدعاني هوبكنز سبع مرات حتى الآن، ولم تكن استدعاءاته يومًا غير مبررة. أظنك ضممت كل قضية من قضاياه في مجموعتك القصصية، وعليَّ الاعتراف يا واتسون بأن لديك قدرة فريدة على الانتقاء، تعوِّض ما أستنكره في قصصك. فإن عادتك الميؤوس منها للنظر إلى كل الأشياء من منظور روائي لا عِلمي قد دمرت ما كان يمكن أن يصير سلسلة تثقيفية –بل وكلاسيكية– من البراهين. إنك تتغافل عن عمل غاية في البراعة والدقة، وتركِّز على التفاصيل الحسية التي ربما تثير القارئ، لكنها يستحيل أن تثقِّفه.

أجبته بشيءٍ من المرارة: لماذا لا تكتبها بنفسك؟

– سأفعل يا عزيزي واتسون، سأفعل. فأنا مشغول حاليًّا إلى حدٍّ ما كما تعرف، بيد أني أنوي تكريس سنوات شيخوختي لتأليف مرجع من مجلد واحد يشرح فن التحرِّيات من جميع نواحيه. أما تحقيقنا الحالي فيبدو أنه متعلق بجريمة قتل.

– هل تعتقد إذن أن السير يوستاس هذا ميت؟

– أظن ذلك. فخطاب هوبكنز يفيض بالانفعال وهو ليس بالرجل العاطفي. نعم، أتصوَّر أن عُنفًا قد وقع، وأن الجثة قد تُركت لمعاينتنا. ما كان هوبكنز ليرسل في استدعائي لو كانت الواقعة مجرد انتحار. أما بالنسبة لإطلاق سراح الليدي، فيبدو أن تلك الليدي كانت محتجزة في غرفتها وقت وقوع المأساة. إننا ذاهبون إلى أناس مترفين يا واتسون؛ ورقٌ مجزَّع، والأحرف الأولى ي. ب، وشعار النبالة، وعنوانٌ فاتن. أعتقد أن الرفيق هوبكنز سيكون عند حُسن ظني به وأنّنا سنحظى بصباح مثير للاهتمام. لقد ارتُكبت الجريمة قبل الثانية عشرة من ليلة أمس.

– كيف عرفت؟

– بالاطلاع على مواعيد القطارات وحساب الوقت. فكان لا بد أولًا من استدعاء الشرطة المحلية، ثم الاتصال بمكتب شرطة سكوتلاند يارد، ثم ذهاب هوبكنز إلى موقع الجريمة، ثم إرساله في استدعائي. لا بد أن كل ذلك قد استغرق ليلة كاملة. حسنًا، ها نحن وصلنا إلى محطة تشيزل هيرست، ولن نلبث أن نتأكد من صحة شكوكنا.

سرنا بالعربة عبر طرق البلدة الضيقة لبضعة أميال حتى وصلنا إلى بوابة حديقة، فتحها لنا حارس عجوز لاح على وجهه الشاحب أثر كارثة شنيعة. كان المدخل عبارة عن ممر وسط حديقة فخمة تحيط به من الجانبين صفوف أشجار الدردار القديمة، وينتهي بمنزلٍ منخفض وفسيح له شرفة مُعَمَّدة مستوحاة من تصميمات أندريا بالاديو[5]. وكان واضحًا أن الجزء الأوسط من واجهة المنزل المغطى بأوراق اللبلاب هو الأشد قدمًا، بينما ظهر التجديد على النوافذ الكبيرة، وبدا أحد أجنحة المنزل محدَّثًا بالكامل. استقبلنا عند مدخل الباب المحقق الشاب ستانلي هوبكنز بوجهه المتحمس اليقظ.

– لشد ما يسرني مجيئك يا سيد هولمز. وأنت أيضًا أيها الدكتور واتسون! ولكن إذا عاد بي الزمن مجددًا ما كنتُ لأزعجك، فما إن استعادت الليدي رباطة جأشها حتى سردت ما حدث بوضوحٍ يكفي لإنهاء مهمتي هنا. أتذكُر عصابة اللصوص من لويشام؟

– مَن؟ أفراد آل راندال الثلاثة؟

– بالضبط؛ الأب وابناه. إنهم مرتكبو الجريمة. ليس لدي شكٌّ في هذا. لقد نفَّذوا عملية في سيدنهام منذ أسبوعين، وشوهدوا حينها وذُكِرت أوصافهم. ومن الغريب أن يجرؤوا على تنفيذ عملية أخرى بهذه السرعة، وعلى هذه المسافة القريبة من العملية الأولى، لكنهم الجناة هنا دون ريب. وعقوبتهم هذه المرة هي الإعدام شنقًا.

– هل مات السير يوستاس إذن؟

– نعم، فقد ضُرب على رأسه بمحراك نار المدفأة الخاص به.

– أخبرني السائق أن اسمه السير يوستاس براكنستول.

– بالضبط، إنه أحد أكثر الرجال ثراءً في كِنت. إن الليدي براكنستول في غرفة الجلوس الصباحية. يا لها من مسكينة، لقد مرت بتجربة مروِّعة. كانت تبدو شبه ميتة حينما رأيتها لأول مرة. أعتقد أن من الأفضل لك أن تقابلها وتسمع شهادتها. ثم نذهب بعدها لمعاينة غرفة العشاء معًا.

لم تكن الليدي براكنستول شخصًا عاديًّا. فنادرًا ما شهدتُ امرأة بهذا البهاء والحضور الأنثوي والوجه الجميل. شقراء ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين وبشرة كانت لتبدو أكثر كمالًا لولا التجربة التي مرت بها للتو فتركتها مستنزفة وشاحبة. لم تكن معاناتها نفسية فحسب، بل وجسدية أيضًا، فقد ظهر فوق إحدى عينيها تورم أرجواني بشع، وأخذت الخادمة –وهي سيدة طويلة ورصينة– تُكمِّده بالماء والخل بمثابرة. كانت الليدي مستلقية منهكة على الأريكة، لكن بمجرد أن دخلنا الغرفة رمقتنا بنظرة متفحصة سريعة ولاح تعبير يقظ على ملامحها الجميلة، أكَّد لنا أنَّ تجربتها الشنيعة لم تؤثر في ذكائها أو تزعزع شجاعتها. كانت ترتدي رداء نوم فضفاضًا باللونين الأزرق والفضي، ولمحتُ ثوب سهرة أسود مغطًّى بالترتر موضوعًا على ظهر الأريكة بجوارها.

قالت الليدي بضجر: لقد أخبرتك بكل ما جرى يا سيد هوبكنز، ألا تستطيع إعادته نيابةً عني؟ حسنًا، ما دمت تظنه ضروريًّا، سأقصص على هذين السيدين ما حدث. ألم يذهبا إلى غرفة العشاء بعد؟

– رأيتُ أن من الأفضل أن يسمعا قصة سيادتك أولًا.

– سأكون في غاية الامتنان إن تكفَّلت أنت بترتيب الأمور. فإن فكرة أنه ما زال مستلقيًا في مكانه هناك تُرعبني. انتفضت ودست وجهها في يديها. وبينما تفعل انزلق كُم الثوب الفضفاض كاشفًا عن ساعديها. فصاح هولمز في دهشة:

– لديك إصابات أخرى يا سيدتي! ما هذا؟

ظهرت كدمتان حمراوان حديثتان على ذراعها الأبيض البضّ، فغطَّته سريعًا.

– لا شيء. تلك الكدمات لا علاقة لها بالجريمة البشعة التي حدثت ليلة أمس. اجلس أنت وصديقك وسأخبركما بكل ما أستطيع.

أنا زوجة السير يوستاس براكنستول، وقد تزوجنا منذ عامٍ تقريبًا. أظن أن لا فائدة تُرجى من إنكار حقيقة أن زيجتنا كانت تعِسة. أخشى أن جيراني جميعًا سيقرّون بتلك الحقيقة، حتى وإن حاولت أنا إخفاءها. ربما يقع جزء من الذنب عليَّ. فقد نشأت في جنوب أستراليا حيث البيئة أكثر تحررًا وأقل تحفظًا من هذه الحياة الإنجليزية بكل ما فيها من آداب وتعصُّب لا يناسبني. إلا أن السبب الأساسي يكمن في الحقيقة التي يعرفها الجميع، وهي أن السير يوستاس كان سكِّيرًا معتمدًا. إن البقاء مع مثل هذا الرجل ولو لساعة واحدة أمرٌ مرهق. فلك أن تتخيل معنى أن تُقيَّد إليه امرأة حساسة ومحبة للحياة ليل نهار. إن افتراض أن مثل هذا الزواج مُلزِمًا يعد كُفرًا وإثمًا ودناءة. أرى أن تشريعاتكم الوحشية تلك ستجلب اللعنة على هذه البلاد –فالرب لن يدع كل هذا الشر مستمرًّا. جلست مُنتصبة للحظة، واحمرت وجنتاها، وتوهجت عيناها تحت كدمة جبينها البشعة. فساعدتها يد الخادمة ذات الملامح الصارمة واليد القوية المهدئة على الاستلقاء مجددًا على الوسادة، ثم تحولت فورة غضب الليدي إلى نشيجٍ حار. وأكملت أخيرًا:

– سأقص عليكما ما حدث ليلة أمس. ربما تعرفان أن جميع الخدم في هذا المنزل ينامون في الجناح الحديث. وهذا الجزء الأوسط يحوي غرف المعيشة كلها والمطبخ، أما غرفة نومنا فهي في الأعلى. وتنام

خادمتي تيريزا في الغرفة التي تعلو غرفتي. ما من أحدٍ آخر، وما من صوت قد يوقظ أولئك النائمين في الجناح البعيد. ولا بد أن اللصوص كانوا على دراية جيدة بهذا، وإلا ما كانوا ليتصرفوا مثلما فعلوا.

دخل السير يوستاس غرفته في العاشرة والنصف مساءً تقريبًا، وقد ذهب الخدم إلى مخادعهم بالفعل. لم يكن مستيقظًا سوى خادمتي التي بقيت في غرفتها أعلى المنزل في حال احتجت إليها. جلست في هذه الغرفة حتى الساعة الحادية عشرة أطالع أحد الكتب. ثم أخذت جولة سريعة لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام قبل أن أذهب إلى الطابق العلوي. اعتدت أن أفعل ذلك بنفسي، لأن السير يوستاس كما أخبرتكم لم يكن يعوَّل عليه دائمًا. تفقَّدتُ المطبخ وحجرة المؤن وغرفة الأسلحة وغرفة البيلياردو وغرفة الرسم، وأخيرًا غرفة العشاء. وبينما اقتربت من النافذة المغطاة بالستائر السميكة، شعرت فجأة بالريح تهب في وجهي فعلمت أن النافذة مفتوحة. أبعدت الستار جانبًا فوجدت نفسي وجهًا لوجه أمام رجل مسن عريض المنكبين كان قد خطا لتوه إلى داخل الغرفة. ونظرًا إلى أن النافذة كانت من النوع الفرنسي الطويل، فقد كالباب الباب الذي يفضي إلى المرج مباشرةً. كنت أمسك بشمعة غرفتي مضاءة في يدي، وعلى ضوئها رأيت خلف هذا الرجل اثنين آخرين على وشك الدخول بدورهما. خطوت إلى الخلف، ولكن ما لبث أن هاجمني الرجل. قبض أولًا على رسغي ثم بعدها على رقبتي. فتحت فمي لأصرخ فإذ به يوجه لكمة عنيفة إلى عيني أسقطتني على الأرض. ثم لا بد أني غبت عن الوعي بضع دقائق، لأنِّي حينما أفقت وجدتهم قد قطعوا حبل الجرس وقيَّدوني بإحكام إلى المقعد الخشبي الموضوع على رأس طاولة العشاء. كان الحبل مربوطًا بقوة لم أستطع معها التحرك، والمنديل الموضوع على فمي منعني من إصدار أي صوت. في هذه اللحظة دخل زوجي تِعس الحظ إلى الغرفة. واضح أنه سمع بعض الأصوات المريبة فجاء مستعدًّا لمثل هذا المشهد الذي رآه. كان يرتدي قميصه وسرواله، ويحمل في يده هراوته المفضلة ذات الرأس المعقود. اندفع راكضًا نحو أحد اللصوص، فانحنى لصٌّ آخر –المسن– والتقط محراك النار من الموقد وضرب به زوجي ضربة مروعة وهو يمر بجواره. فسقط دون صوت، ولم يتحرك بعدها قط. حينها غبتُ عن الوعي ثانيةً، ولكن لبضع دقائق قليلة لا أكثر. فعندما فتحت عينيَّ كانوا قد جمعوا كل القطع الفضية من الصوان، وفتحوا زجاجة نبيذ كانت موضوعة فيه. كان كل منهم يحمل كأسًا في يده. هل أخبرتكما أن أحدهم كان رجلًا مسنًّا ذا لحية، وأن الاثنين الآخرين كانا شابين أصلعين؟ قد تكون عصابة مؤلفة من أبٍ وابنيه. كانوا يتهامسون معًا، ثم أتوا ليتأكدوا أني ما زلت مربوطة بإحكام. ثم انصرفوا أخيرًا وأغلقوا النافذة وراءهم. مرت ربع ساعة تقريبًا قبل أن أستطيع تحرير فمي. حينها سمعت الخادمة صرخاتي وهرعت لمساعدتي. وسرعان ما انتبه بقية الخدم، وأرسلنا في طلب الشرطة المحلية، التي اتصلت على الفور بلندن. وذلك يا سادة هو كل ما أستطيع إخباركم به، وأرجو ألا أضطر إلى إعادة سرد هذه القصة المؤلمة ثانيةً.

سأل هوبكنز: هل لديك أسئلة يا سيد هولمز؟

قال هولمز: لن أحمل الليدي براكنستول فوق طاقتها ولن أضيع وقتها أكثر مما فعلت. ولكن قبل أن أذهب إلى غرفة العشاء، أود أن أسمع شهادتك. ناظرًا إلى الخادمة.

قالت الخادمة: لقد رأيت أولئك الرجال قبل حتى أن يدخلوا المنزل. فعندما جلست بجوار نافذة غرفتي رأيت ثلاثة رجال في ضوء القمر يقفون عند بوابة الكوخ هنالك، لكنني لم آبه بهم في حينها. ولم أسمع صراخ سيدتي إلا بعد مرور أكثر من ساعة، فهرعت لأسفل لأجد المسكينة تمامًا كما قالت لكم، وسيدي على الأرض وقد كُسرت جمجمته ولطَّخت دماؤه الغرفة. كانت مربوطة هناك وثوبها ملطخًا بدماء سيدي وكان هذا كفيلًا بأن يفقدها صوابها، لكنها كانت دومًا شجاعة، لم تتغير يومًا منذ كانت الآنسة ماري فريزر من مدينة أديلايد، وحتى أصبحت الليدي براكنستول سيدة منزل آبي جرينج. لقد استجوبتم سيدتي بما فيه الكفاية أيها السادة، وعليها الآن أن تذهب إلى غرفتها بصحبة خادمتها العجوز تيريزا كي تحصل على الراحة التي هي في أمس الحاجة إليها.

وضعت المرأة الهزيلة ذراعها حول سيدتها بحنان أمومي وقادتها إلى خارج الغرفة.

قال هوبكنز: لقد رافقتها هذه الخادمة طوال حياتها. كانت تعتني بها منذ نعومة أظفارها، وأتت معها إلى إنجلترا حينما غادرت أستراليا لأول مرة منذ ثمانية عشر شهرًا. تُدعى تيريزا رايت، وهي من نوع الخادمات الذي لم نعد نصادفه اليوم. من هنا يا سيد هولمز، تفضل!

اختفى الاهتمام الشديد من وجه هولمز المعبر، وأدركت أن القضية فقدت سحر غموضها كله بالنسبة له. فلم يبقَ إلا القبض على الجناة، لكنهم ليسوا سوى بضعة محتالين مبتذلين لن يلوث هولمز يديه معهم. قرأت في عيني صديقي انزعاجًا قد يحس به أي خبير متمرس وذي علم اكتشف أنه استُدعي من أجل قضية تافهة. بيد أن مسرح الجريمة في غرفة عشاء منزل آبي جرينج كان غريبًا بما يكفي ليجذب انتباهه ويعيد إليه اهتمامه المتلاشي.

كانت غرفة العشاء فسيحة ومترفة، بسقفٍ من البلوط المنحوت وجدرانٍ مكسوة بالألواح البلوطية، اصطُفت عليها رؤوس الغزلان والأسلحة القديمة. في الجانب المواجه للباب رأينا النافذة الفرنسية الطويلة التي سمعنا بها. وعلى اليمين رأيت ثلاث نوافذ أصغر حجمًا ملأت الغرفة بضوء شمس الشتاء البارد. أما على اليسار فلمحت مدفأة واسعة وعريضة برف ضخم متدلٍّ من البلوط. وبجوار المدفأة كان هناك مقعد ثقيل بلوطي بذراعين، وقضيبان متقاطعان بالأسفل. ظهر بين فتحات المقعد حبل قرمزي مربوط عند الذراعين بالقضيبين المتقاطعين بالأسفل. انزلق الحبل عند تحرير الليدي، لكن العقد التي رُبط بها الحبل ظلت معقودة كما هي. لم تلفت انتباهنا هذه التفاصيل إلا لاحقًا، إذ كان تفكيرنا منصبًّا بكُليته على الجثة الشنيعة الممددة على البساط المصنوع من جلد النمر أمام المدفأة.

كانت جثة رجل طويل قوي البنية يناهز الأربعين من عمره. كان ممددًا على ظهره ووجهه إلى الأعلى، حيث تظهر أسنانه البيضاء من بين لحيته السوداء القصيرة. كانت يداه المضمومتان مرتفعتين فوق رأسه، وبجوارهما هراوة صغيرة ذات رأس معقود. كانت ملامحه الداكنة الوسيمة الشبيهة بملامح النسر قد تشنَّجت في فورة مقتٍ انتقامي، فكسا وجهه تعبير شيطاني بشع. واضح أنه كان في فراشه عندما سمع الأصوات المنذرة بالخطر، فقد كان يرتدي رداء نوم مطرزًا بالغ الأناقة، بينما برزت قدماه الحافيتان من سرواله. كان رأسه متضررًا على نحو مروع، وشهدت الغرفة بأكملها على وحشية الضربة

التي أردته قتيلًا. وبجواره رقد محراك النار، وقد تقوَّس من أثر الضربة. عاين هولمز كلًّا من المحراك وما أحدثه من دمار لا يوصف.

علَّق قائلًا: لا بد أنه رجل قوي، هذا الكهل راندال.

قال هوبكنز: نعم، لقد سمعت عن بعض جرائم هذا الرجل، وهو فعلًا صعب المراس.

– هل ستواجه صعوبة في القبض عليه؟

– لا، إطلاقًا. كنا ننتظر ظهوره منذ فترة اعتقادًا منّا أنه فرَّ إلى أمريكا. أما الآن وقد علمنا أن العصابة ما زالت هنا، فلست أرى سبيلًا لهروبهم. لقد أبلغنا الموانئ كلها بالفعل، وعرضنا مكافأة لمن يقبض عليهم قبل حلول المساء. ما يُحيِّرني هو جرأتهم على ارتكاب هذا الفعل الجنوني وهم يعلمون أن الليدي ستدلي بأوصافهم، وأننا سنتعرف عليهم فورًا.

– بالضبط. فالتصرف الطبيعي هو أن يُسكتوا الليدي براكنستول كذلك.

اقترحتُ قائلًا: ربما لم يدركوا أنها استعادت وعيها.

– احتمالٌ وارد. فإذا بدت غائبة عن الوعي لن يروا داعيًا لأن يسلبوها حياتها. ماذا عن هذا الرجل المسكين يا هوبكنز؟ فقد سمعت عنه قصصًا غريبة.

– كان رجلًا طيب الخُلق حينما يفيق من سُكْرِه، وشيطانًا مريدًا حينما يثمل، حتى لو لم يشرب كثيرًا. الواقع أنه لم يصل إلى حد الثمالة الكاملة إلا قليلًا. كان يصير في مثل هذه الأوقات كمن تلبَّسه الشيطان، وكان قادرًا على فعل أي شيء. وعلى حد علمي أنه بالرغم من ثرائه ولقبه فقد كاد أن يُقبَض عليه مرة أو مرتين. فقد ذاعت فضيحة عنه عندما سكب بنزين على أحد الكلاب ثم أضرم فيه النار –وما زاد الأمر سوءًا أنه كان كلب الليدي– ولم يكن التكتم على تلك الواقعة سهلًا. وبعدها ألقى بقنينة خمر على الخادمة تيريزا رايت تلك، وحدثت مشكلة بسبب ذلك. على أية حال، سيصبح هذا المنزل –فيما بيننا– أفضل كثيرًا من دونه. إلامَ تنظر الآن؟

كان هولمز جاثيًا على ركبتيه يفحص بانتباه شديد العُقَد في الحبل الأحمر الذي قُيِّدَت به الليدي. ثم عاين بحرص الطرف الممزق المهترئ الذي انقطع منه الحبل عندما جذبه اللص.

علّق قائلًا: لا بد أن جرس المطبخ أصدر رنينًا عاليًا عندما انجذب هذا الحبل.

– ما كان ليسمعه أحد. فالمطبخ في مؤخرة المنزل.

– كيف عَلِم اللص أن أحدًا لن يسمعه؟ كيف جرؤ على جذب حبل الجرس بهذا التهور؟

– بالضبط يا سيد هولمز، بالضبط. فقط طرحت هذا السؤال على نفسي مرارًا. لا بد أن هذا الرجل كان على دراية جيدة بالمنزل وعاداته. لا بد أنه كان يعلم تمام العلم أن الخدم سيكونون جميعًا في فُرشهم في هذه الساعة المبكرة، وأن من المحال أن يسمع أحدهم رنين جرس المطبخ. وعليه لا بد أن اللص كان على علاقة وثيقة بأحد الخدم. مؤكد أن هذا بدَهي. لكن في هذا المنزل ثمانية من الخدم وجميعهم طيبو الأخلاق.

قال هولمز: إذا افترضنا عدم وجود دلائل أخرى، فقد يرتاب المرء في الخادمة التي ألقى عليها سيدها قنينة خمر. ولو أن ذلك ينطوي على خيانة الليدي التي طالما أخلصت لها هذه المرأة. حسنًا إذن، المسألة بسيطة، فبمجرد أن تقبض على راندال لن تجد على الأرجح صعوبة في معرفة شريكه. إن قصة الليدي تبدو مدعومة بالأدلة، هذا إن كانت تحتاج إلى أدلة بعد كل التفاصيل التي رأيناها بأعيننا. وسار هولمز إلى النافذة الفرنسية وفتحها. ما من علامات هنا، لكنّ الأرض صلبة كالحديد، ومن غير المتوقع أن تتضرر. وأرى أن تلك الشموع على رف المدفأة قد أُشعِلت.

– نعم، فقد تلمَّس اللصوص طريقهم على ضوء تلك الشموع إلى جانب شمعة غرفة الليدي.

– وما الذي سرقوه؟

– حسنًا، لم يسرقوا الكثير؛ فقط نصف دزينة من القطع الفضية الموجودة في الصوان. وتعتقد الليدي براكنستول أنهم هم أنفسهم توتروا من مقتل السير يوستاس، فلم ينهبوا المنزل كله كما كانوا يخططون.

– لا شك أن هذا صحيح. ومع ذلك فقد شربوا بعض النبيذ كما فهمت.

– ذلك لتهدئة أعصابهم.

– مضبوط. ولم يلمس أحد أثناء التحقيق تلك الكؤوس الموضوعة على الصوان، أليس كذلك؟

– بلى، حتى الزجاجة ما زالت في موضعها كما تركوها.

– لنلق نظرة عليها. مهلًا! مهلًا! ما هذا؟

اصطفت الكؤوس الثلاثة مخضبة بلون النبيذ، واحتوى أحدها على شيءٍ من الثُمالة. ووُضعت الزجاجة بجوارهم ممتلئة حتى ثُلثيها، وبجانبها سدادة فلينية طويلة داكنة. يوحي مظهر السدادة والغبار الذي يغطي الزجاجة أن النبيذ الذي استمتع به القتلة لم يكن عاديًّا.

تغير سلوك هولمز. تلاشى الفتور الذي كان طاغيًا عليه ومرة أخرى رأيت اهتمامًا يلوح في عينيه الثاقبتين الغائرتين. رفع سدادة الفلينة وفحصها بدقة.

ثم سأل: كيف نزعوها؟

أشار هوبكنز إلى درج نصف مفتوح. وبداخله رأينا مفرش مائدة وفتاحة زجاجات كبيرة.

– هل ذكرت الليدي براكنستول أن الفتاحة استُخدمت؟

– لا، فهي كما تعلم كانت غائبة عن الوعي عندما فُتحت الزجاجة.

– صحيح. الواقع أن هذه الفتاحة لم تُستخدم. لقد فُتحت الزجاجة بفتّاحة جيب لا يزيد طولها على بوصة ونصف، ومرتبطة بمدية متعددة الاستخدامات على الأرجح. إذا فحصت أعلى السدادة ستلاحظ أن الفتاحة قد انغرزت فيها ثلاث مرات قبل انتزاعها. لم تُثقب قط. أما فتاحة الزجاجات الطويلة هذه فكانت لتثقب السدادة وتجذبها من أول محاولة. عندما تقبض على هذا الرجل ستعثر بحوزته على إحدى هذه المديات متعددة الاستخدامات.

قال هوبكنز: مذهل!

– إلا أنني أعترف أن بهذه الكؤوس شيئًا يحيرني. لقد رأت الليدي براكنستول الثلاثة رجال يشربون، أليس كذلك؟

– بلى، لقد كانت واضحة في هذا الشأن.

– إذن انتهى الأمر، ماذا عسانا نقول بعد؟ ومع ذلك عليّ الاعتراف بأن هذه الكؤوس الثلاثة لافتة للنظر جدًّا يا هوبكنز. ألا توافقني الرأي! حسنًا، حسنًا، لننس الأمر. فربما المعرفة والقدرات الخاصة يدفعان بصاحبهما إلى أن يبحث عن تفسير معقد للأمور، بينما يوجد تفسير أبسط لها. مؤكد أن مسألة الكؤوس هذه مجرد صدفة. حسنًا، طاب صباحك يا هوبكنز. لا أرى جدوى من وجودي هنا، فقضيتك تبدو في غاية الوضوح. أبلغني عندما تقبض على راندال، وعند حدوث أي تطورات أخرى. إنني موقن أني سأهنئك قريبًا على اختتامك للقضية بنجاح. هلم بنا يا واتسون، أعتقد أننا سنكون أكثر نفعًا في منزلنا.

خلال رحلة عودتنا، لمحت في وجه هولمز حيرة شديدة من شيءٍ لاحظه. ثم من حين لآخر كان يتخلى بصعوبة عن هذا التعبير ويتحدث كما لو أن المسألة محسومة، ثم تعود الشكوك لتُمطره ثانية، وأُدرك من حاجبيه المعقودين وعينيه الشاردتين أنه قد عاد ثانيةً إلى غرفة عشاء منزل آبي جرينج التي وقعت فيها مأساة منتصف الليل هذه. أخيرًا، وبينما زحف قطارنا ببطء مغادرًا إحدى محطات الضواحي، اندفع هولمز بحركة فجائية وقفز إلى الرصيف جاذبًا إياي لأتبعه.

قال بينما راقبنا العربات الخلفية لقطارنا تختفي عند المنحنى: اعذرني يا رفيقي العزيز. أعتذر منك لجعلي إياك ضحية لما قد تبدو مجرد إحدى نزواتي، ولكن بحياتي يا واتسون إنني عاجز عن ترك تلك القضية في هذه الحالة. بل إن كل حدسٍ أملكه يصرخ معترضًا على ذلك. هذا خطأ، هذا كله خطأ، أكاد أقسم أنه خطأ. ومع ذلك فإن قصة الليدي كانت محكمة، وشهادة الخادمة الداعمة لها كافية، والتفاصيل كلها دقيقة نوعًا. ماذا لديّ لمناهضة هذا كله؟ ثلاث كؤوس من النبيذ، لا أكثر. ولكن لو أنني لم آخذ الأمور بمسلماتهما، لو أنني أمعنت التدقيق في كل شيء مثلما كنت لأفعل لو تولّينا القضية من بدايتها، ولو لم تُلقَ أمامنا القصة جاهزةً لتعبث بعقلي، أما كنت لأعثر على دليل أكثر وضوحًا أرتكز عليه؟ بالطبع كنت لأفعل. اجلس على هذه الدكة يا واتسون ريثما يصل قطار تشيزل هيرست، واسمح لي بأن أضع الدليل أمامك، لكنني أناشدك أولًا أن تتخلى عن فكرة أن ما قصته علينا الخادمة أو سيدتها لا بد أن يكون صحيحًا بالضرورة. لا ينبغي أن نسمح لشخصية الليدي الفاتنة بأن تشوِّش حُكمنا على الأمور.

فلا ريب أننا إذا نظرنا إلى بعض تفاصيل قصتها بحيادية سنجد أنها مثيرة للريبة. لقد استولى هؤلاء اللصوص على غنيمة معتبرة في سيدنهام منذ أسبوعين. ونشرت الصحف أوصافهم وبعض المعلومات عنهم، وطبيعي أن يستخدمها أي شخص يريد اختراع قصة عن لصوص وهميين. الواقع –وكقاعدة عامة– أن لصوصًا نجحوا في هكذا مهمة سيسعون إلى الاستمتاع بوليمتهم في سلامٍ وهدوء بدل الانخراط في عملية أخرى محفوفة بالمخاطر. ومرة أخرى أكرر، من غير المألوف أن يعمل اللصوص في مثل هذه الساعة المبكرة؛ من غير المألوف أن يضرب اللصوص سيدة لمنعها من الصراخ، فذلك مؤكد سيزيد من

صراخها؛ من غير المألوف أن يرتكب اللصوص جريمة قتل في حين أنهم يفوقون الرجل عددًا ومن ثم يسهل عليهم التغلب عليه؛ من غير المألوف أن يرضوا بمثل هذه الغنيمة الصغيرة بينما هنالك المزيد في متناول أيديهم؛ وأخيرًا عليّ القول بأنه من غير المألوف أن يترك هكذا رجال زجاجة الخمر نصف ممتلئة. ما رأيك في كل هذه الأمور غير المألوفة يا واتسون؟

– إن أثرها التراكمي كبير دون شك، ومع ذلك وارد جدًّا أن يحدث كل منها على حدة. إن أكثر الأمور غرابة بالنسبة لي هو تقييد الليدي إلى المقعد.

– حسنًا، لستُ متأكدًا من هذا يا واتسون، فمن الواضح أنهم وُضعوا أمام خيارين: إما أن يقتلوها أو يقيدوها بطريقة لا تستطيع معها لفت الانتباه إلى هروبهم فورًا. ولكن على أية حال، ألم أؤكد لك لتوي وجود عنصر اللا احتمالية في قصة الليدي؟ والآن علاوة على كل هذا تأتي واقعة كؤوس النبيذ الثلاث.

– ماذا عن كؤوس النبيذ؟

– هل يمكنك استعادة صورتها في ذهنك؟

– يمكنني رؤيتها بوضوح.

– قيل لنا إن الرجال الثلاثة شربوا منها. هل ترى ذلك محتملًا؟

– لمَ لا؟ كان هناك نبيذ في كل كأس.

– بالضبط، ولكن أحدها فقط احتوى على ثُمالة النبيذ. لا بد أنك لاحظت تلك الحقيقة. ما السبب في رأيك؟

– إن آخر كأسٍ مُلئَت من الزجاجة سيبقى بها على الأرجح ثُمالة نبيذ.

– محال. فالزجاجة كانت ملأى بالنبيذ، وليس واردًا أن تخلو الكأسان الأوليان من الثُمالة بينما تحتوي الثالثة على كمٍّ كبير منها. هناك تفسيران ممكنان لا ثالث لهما. أولهما أن أحدهم بعد ملء الكأس الثانية قد رجَّ الزجاجة بعنف، لذلك ظهرت الثُمالة في الكأس الثالثة. ولكن هذا مستبعد. نعم، نعم، أنا متأكد أنني على حق.

– ما افتراضك إذًا؟

– أنه لم يُستخدم سوى كأسين، ثم سَكَب أحدهم رواسب كليهما في الكأس الثالثة، بغية ترك انطباع زائف بوجود ثلاثة أشخاص. بتلك الطريقة ستحتوي الكأس الأخيرة على كل الثمالة، أليس كذلك؟ بلى، أنا واثق من هذا. لكنني إذا أصبت لتوي التفسير الصحيح لهذه الظاهرة الصغيرة، ستتحول هذه القضية على الفور من قضية عادية إلى قضية بالغة الغموض، لأن معناه الوحيد هو أن الليدي براكنستول وخادمتها قد كذبتا علينا عمدًا، وأن علينا ألا نصدق كلمة واحدة من حكايتهما، وأن لديهما سببًا قويًّا للتستر على المجرم الحقيقي، وأن علينا حل قضيتنا بأنفسنا دون أي مساعدة منهما. تلك هي المهمة التي تنتظرنا الآن يا واتسون، وها قد وصل قطار تشيزل هيرست.

فوجئ منزل آبي جرينج كثيرًا بعودتنا، ولكن ما إن علم شيرلوك هولمز بذهاب ستانلي هوبكنز ليقدم تقريره في المركز الرئيس حتى استولى على غرفة العشاء وأوصد بابها من الداخل، ثم انهمك لساعتين في

أحد هذه التحقيقات الدقيقة المضنية التي كانت دومًا حجر الأساس لصروح استنتاجاته العبقرية. جلست في الزاوية كتلميذٍ شغوف يتابع شرح معلمه، وتتبعت كل خطوة من هذا البحث الفريد. النافذة، والستائر، والبساط، والمقعد، والحبل؛ كل منها خضع تباعًا لفحص هولمز الدقيق وتأمله الوافي. أزيل جثمان البارونيت المسكين ولكن بقيت كل الأشياء الأخرى كما تركناها في الصباح. ثم لدهشتي رأيت هولمز يقفز إلى رف الموقد الضخم. إذ تدلَّى فوق رأسه بضع بوصات من الحبل الأحمر الذي كان ما زال مرتبطًا بسلك الجرس. ظل يرمقه طويلًا ثم في محاولة للاقتراب منه أسند ركبته على الدعامة الخشبية المثبتة على الحائط. هكذا أصبحت يده على مسافة بضع بوصات من طرف الحبل المقطوع، ولكن بدا أنه لم يسترعِ انتباهه بقدر الدعامة نفسها. وأخيرًا قفز إلى الأرض بصيحة ارتياح.

قال: تمت يا واتسون. لقد حللنا قضيتنا – إحدى أكثر القضايا تميُّزًا في مجموعتنا. ولكن، ربَّاه، كم كنت بطيء الفهم، وكم أوشكت على ارتكاب أكبر خطأ في حياتي! أظن أن السلسلة كادت تكتمل الآن، وإن كان بها بعض الحلقات المفقودة.

– هل عرفت الجناة؟

– الجاني يا واتسون. فالجاني شخص واحدٌ فقط، لكنه ذو بأس شديد. إنه قويٌّ كالأسد –انظر إلى الضربة التي ثنت ذلك المحراك. الجاني شخص يبلغ من الطول ستة أقدام وثلاث بوصات، رشيقٌ كالسنجاب، ذو أصابع ماهرة، وأخيرًا، سريعُ البديهة على نحوٍ ملحوظ، فهذه القصة البارعة بأكملها من اختلاقه. نعم يا واتسون، إننا نقف أمام عمل شخصٍ غير عادي بالمرة. ومع ذلك فقد ترك لنا في حبل الجرس هذا دليلًا لا يدعُ معه مجالًا للشك.

– أين الدليل؟

– حسنًا، لو أردتَ أنت يا واتسون أن تجذب حبل جرس، أين تتوقع أن ينقطع؟ مؤكد سينقطع عند نقطة اتصاله بالسلك. فلماذا ينقطع على بُعد ثلاث بوصات من طرفه مثلما حدث مع هذا الحبل؟

– لأنه مهترئ في هذا الجزء؟

– بالضبط. فهذا الطرف الذي يمكننا فحصه في المقعد مهترئ. لقد كان ماكرًا بما يكفي ليفعل هذا بسكينه. أما الطرف الآخر فليس مهترئًا. لن يسعك ملاحظته من هنا، ولكن إذا صعدت على رف الموقد سترى أنه مقطوع بعناية دون أي أثر للاهتراء. يمكنك تخيل ما حدث. فقد احتاج الرجل إلى الحبل، لكنه لم يكن ليجذبه خشية أن ينطلق الإنذار برن الجرس. ماذا يفعل إذًا؟ فقد صعد إلى رف الموقد، وعندما لم يستطع بلوغ طرف الحبل العلوي، وضع ركبته على الدعامة الخشبية –يمكنك رؤية أثر ركبته على الغبار– وهكذا قطع الحبل بسكينه. أنا لم أستطع بلوغ نقطة القطع، فهي تبعد عني ثلاث بوصات على الأقل، لذا استنتجت أنه أطول مني بثلاث بوصات على الأقل. انظر إلى البقعة الموجودة على هذا الكرسي البلوطي! ما هذا؟

– دماءٌ.

– إنها دماءٌ دون ريب. هذه وحدها كفيلة بإبطال قصة الليدي كلها. فإذا كانت جالسة على المقعد وقت وقوع الجريمة، من أين أتت تلك البقعة؟ كلا، لم تجلس في المقعد إلا بعد أن قُتِل زوجها. أراهن أن

ثوبها الأسود عليه بقعة شبيهة لتلك. إننا لم نَخُض بعد معركتنا الخاسرة يا واتسون، ولكن ها نحن في معركة انتصارنا الأكبر، ذلك أنها قد بدأت بالهزيمة وانتهت بالنصر. أودُّ الآن أن أتحدث قليلًا مع الممرضة تيريزا. إلا أن علينا توخِّي الحذر لفترة إن كنا نريد الحصول على المعلومات التي نريد.

كان لتلك الممرضة الأسترالية المتجهِّمة شخصية مثيرة للاهتمام. كانت قليلة الكلام ومتشككة وفظَّة، ومضى بعض الوقت قبل أن يؤثر فيها سلوك هولمز المرح وتقبله الصريح لكل ما تقول، فصارت تعامله بلطفٍ مشابه. ولم تحاول إخفاء بغضها لرب عملها الراحل.

– نعم يا سيدي، لقد ألقى عليَّ قنينة الخمر فعلًا. سمعته يومًا يسبُّ سيدتي، فأخبرته أنه ما كان ليجرؤ على التفوُّه بكلمة إن كان أخوها موجودًا. حينها ألقى عليَّ القنينة. ليته ألقى عليَّ دزينة من القناني وترك عصفورتي الجميلة وشأنها. لقد كان يسيء معاملتها طوال الوقت، وكانت كبرياؤها تمنعها من الشكوى. فلم تكن حتى تخبرني بكل ما يفعله معها. لم تخبرني قط عن سبب تلك الكدمات التي رأيتَها أنت على ذراعِها هذا الصباح، إلا أنني متأكدة أنه طعنها بأحد دبابيس القبعات. هذا الشيطان الخبيث –لتغفر لي السماء إن تحدثت عنه هكذا وهو ميت، لكنه كان شيطانًا يسير على الأرض. كان في غاية اللطف عندما قابلناه لأول مرة منذ ثمانية عشر شهرًا، وإن كنت أشعر أنا وسيدتي بأن ذلك كان منذ ثمانية عشر عامًا. كانت قد وصلت لتوها إلى لندن. نعم، كانت رحلتها الأولى –فلم تغادر قبلها بلدها قط. جذبها السير بماله ولقبه وأساليبه اللندنية الزائفة. وإن كانت سيدتي ارتكبت خطأً ما فقد دفعت ثمنه بأقصى ما يمكن لامرأة أن تدفع. في أي شهرٍ التقينا به؟ حسنًا، حدث ذلك عقب وصولنا مباشرةً. فقد وصلنا في يونيو والتقينا به في يوليو. ثم زُفَّت إليه سيدتي في يناير من العام الفائت. نعم، لقد نزلت لتجلس في غرفة الصباح ثانيةً، ومؤكد ستقابلك، ولكن لا تنهكها بأسئلتك، فقد مرَّت بما لا يحتمله مخلوق.

كانت الليدي براكنستول مستلقية على الأريكة ذاتها، لكنها بدت أكثر إشراقًا من ذي قبل. دخلت الخادمة معنا، وبدأت مرة أخرى تداوي الكدمة الموجودة على جبين سيدتها.

قالت الليدي: أرجو ألا تكونوا هنا لاستجوابي ثانيةً.

أجابها هولمز بلطف: لا، لن أسبب لكِ أي إزعاج أيتها الليدي براكنستول، ولستُ راغبًا إلا في تسهيل الأمور عليكِ، فأنا أعلم كم أنتِ متعبة. إذا تعاملتِ معي كصديق ووثقتِ بي ستجدينني أهلًا لثقتك.

– ماذا تريد مني أن أفعل؟

– أخبريني بالحقيقة.

– سيد هولمز!

– لا، لا أيتها الليدي براكينستول، لن يُجدي هذا نفعًا. لعلَّك سمعتِ القليل عن سمعتي. وسوف أراهن بها كلها على حقيقة أن قصتك بأكملها ملفقة.

حدَّقت كل من الليدي والخادمة إلى هولمز بوجهين ممتقعين وأعين خائفة.

صاحت تيريزا: أنت شخصٌ وقح. هل تقصد أن سيدتي كاذبة؟

نهض هولمز من مقعده.

– أليس لديكِ شيء لتخبريني به؟

– بل أخبرتك بكل شيء.

– فكِّري ثانية أيتها الليدي براكنستول. أليس من الأفضل أن تكوني صريحة؟

لاح التردد للحظة على وجهها الجميل. ثم أتت فكرة أخرى قوية فصيَّرته جامدًا كالقناع.

– لقد أخبرتك بكل ما أعرف.

التقط هولمز قبعته وهز كتفيه قائلًا: أنا آسف. ثم غادرنا الغرفة والمنزل من دون كلمة أخرى. كانت ثمة بركة في الحديقة فسار إليها صديقي. كانت متجمدة فيما عدا فجوة صغيرة تسع بجعة وحيدة. رمقها هولمز ثم تخطاها ذاهبًا إلى البوابة. وهناك كتب رسالة قصيرة لستانلي هوبكنز وتركها مع حارس المنزل.

قال: إما أن تُصيب أو تخيب، لكننا مُلزَمين بفعل شيء من أجل صديقنا هوبكنز، كيما نبرر زيارتنا الثانية هذه. لن أخبره بما عرفت بعد. أعتقد أن محطتنا التالية ستكون مكتب الشحن الخاص بخطوط أديلايد وساوثهامبتون، والذي يقع في نهاية شارع بول مول كما أتذكر. يوجد خط آخر من البواخر يربط بين جنوب أستراليا وإنجلترا، لكننا سنغطي الخط الأطول أولًا.

بمجرد أن دخل هولمز ببطاقته إلى مكتب المدير ضمن اهتمامه الفوري، ولم يلبث أن حصل على كل المعلومات التي احتاج إليها. ففي يونيو من العام 1895، لم تصل سوى باخرة واحدة إلى أحد مواني البلد. كانت تلك الباخرة تُدعى روك أوف جيبرالتر، وهي أكبر بواخرهم وأفضلها. وأثبت لنا سجل الركاب أن الآنسة فريزر من أديلايد وخادمتها قد جاءتا إلى لندن على متن هذه الباخرة. كانت الباخرة الآن في طريقها إلى أستراليا، في بقعة ما من جنوب قناة السويس. وقد قادها الطاقم نفسه منذ 1895، باستثناء شخص واحد. فقد ترقَّى الضابط الأول السيد جاك كروكر إلى رتبة قبطان وتولَّى قيادة سفينته الجديدة باس روك، والتي ستبحر بعد يومين من ساوثهامبتون. يعيش القبطان في سيدنهام، لكنه على الأرجح سيأتي هذا الصباح للحصول على التعليمات، إن كنا نودُّ انتظاره.

كلا، لم يكن لدى السيد هولمز رغبة في رؤية القبطان، لكن يسعده معرفة المزيد عن سجله وشخصيته.

كان سجله مهيبًا، فلم يكن في الأسطول كله ضابط يناطحه. أما شخصيته، فكان موثوقًا به خلال فترات الخدمة، لكنه متى نزل عن متن سفينته أصبح شخصًا متهورًا سريع الغضب وعصبيّ المزاج، إلا أنه طيب القلب وأمين ومخلص في الوقت ذاته. تلك كانت زُبدة المعلومات التي غادر بها هولمز مكتب الشحن الخاص بخطوط أديلايد وساوثهامبتون. بعدها ذهبنا بالعربة إلى شرطة سكوتلاند يارد، ولكن بدلًا من الدخول ظل جالسًا في العربة عاقدًا حاجبيه مستغرقًا في تفكير عميق. وأخيرًا انطلق بالسيارة إلى مكتب تلغراف تشيرنج كروس، وأرسل برقية، ثم عدنا أخيرًا إلى شارع بيكر ثانيةً.

قال هولمز ونحن ندخل منزلنا: كلا، لم يسعني فعلها يا واتسون. فبمجرد إصدار هذه المذكرة، ما من مخلوقٍ على الأرض يستطيع إنقاذه. لقد شعرتُ مرة أو مرتين خلال مسيرتي أني أحدثت ضررًا أكبر

بالقبض على المجرم مما أحدثه هو بارتكابه جريمته. والآن تعلَّمت الاحتراس، وصرتُ أفضِّل التحايل على قانون إنجلترا بدلًا من التحايل على ضميري. لنعرف المزيد أولًا قبل أن نتصرف.

زارنا المفتش ستانلي هوبكنز قبل حلول المساء. ولم تكن الأمور تسري على ما يرام معه.

– أعتقد أنك ساحر يا سيد هولمز. حقًّا أظن أحيانًا أن لديك قوًى خارقة. والآن، أنَّى لك أن تعرف أن القطع الفضية المسروقة كانت في قاع تلك البركة؟

– لم أعرف.

– لكنك طلبت مني تفتيشها.

– هل وجدتها إذًا؟

– نعم، وجدتها.

– يسعدني كثيرًا أني ساعدتك.

– لكنك لم تساعدني. لقد صعَّبت عليَّ المهمة كثيرًا. أيّ لصوص أولئك الذين يسرقون الفضة ثم يلقون بها في أقرب بركة؟

– مؤكد أنه تصرف غريب نوعًا. لقد خطر لي فقط أنه إن كان سارقو القطع الفضية لا يريدونها، وأخذوها تمويهًا ليس إلا، فمن الطبيعي أن يرغبوا في التخلص منها.

– ولكن لماذا راودتك هذه الفكرة؟

– حسنًا، إنها واردة. فعند هروبهم من النافذة الفرنسية كانت البركة أمامهم، وبها فجوة صغيرة مغرية بين الجليد، أمام ناظريهم تمامًا. هل من مكان أفضل من ذلك لإخفاء المسروقات؟

صاح ستانلي: آه، مكان للإخفاء –هذا أفضل! نعم، نعم، فهمتُ كل شيء الآن! كان الوقت باكرًا، وما زال هناك أناسٌ في الطرقات، وخشي اللصوص أن يراهم أحد بالفضة، لذلك أغرقوها في البركة معتزمين العودة من أجلها حين تصبح المنطقة آمنة. ممتاز يا سيد هولمز– ذلك أفضل من فكرتك عن التمويه.

– معك حق، إن نظريتك رائعة. لا ريب أن أفكاري كانت جامحة بعض الشيء، ولكن لا يسعك أن تنكر أنها أدَّت إلى اكتشافك القطع الفضية.

– نعم يا سيدي، نعم. فالفضل كله يعود لك. إلا أنني أواجه عقبة سيئة.

– عقبة؟

– نعم يا سيد هولمز. فقد قُبض على عصابة آل راندال في نيويورك هذا الصباح.

– يا للهول! مُؤكَّد أن ذلك يدحض نظريتك أنهم ارتكبوا جريمة قتل في كِنت الليلة الماضية يا هوبكنز.

– لقد دمَّرتها يا سيد هولمز، دمَّرتها تمامًا. ولكن ما زال هناك عصابات من ثلاثة أفراد بخلاف آل راندال، أو ربما نحن بصدد عصابة جديدة لم تسمع بها الشرطة من قبل.

– معك حق، هذا وارد جدًّا. ماذا؟ هل ستغادر؟

– نعم يا سيد هولمز، فلن أرتاح حتى أصل للجناة. ألا تراودك أفكار يمكن أن تساعدني؟

– لقد أعطيتك فكرة.

– أية فكرة؟

– حسنًا، لقد اقترحت وجود تمويه.

– ولكن لماذا يا سيد هولمز؟ لماذا؟

– آه، هذا هو السؤال بالطبع. لكنني أردت أن أودع الفكرة في ذهنك؛ فقد تجد فيها ما يفيد. ألن تنتظر لتناول العشاء؟ حسنًا، إلى اللقاء، وأبلغنا بما تؤول إليه الأمور.

انتهينا من تناول العشاء ونُظفت الطاولة، ثم أخذ هولمز يلمِّح إلى المسألة ثانيةً. كان قد أشعل غليونه ومد قدميه بخُفَّيهما أمام لهيب نيران المدفأة. وفجأة نظر إلى ساعته.

– إنني أتوقع حدوث تطورات يا واتسون.

– متى؟

– الآن –في غضون دقائق معدودة. هل تظن أنِّي أسأت التصرف مع ستانلي هوبكنز قبل قليل؟

– بل أثق في حُكمك.

– ردٌّ حكيم يا واتسون. لا بد أنك ترى الأمر على هذا النحو: إن ما أعرفه ليس رسميًّا، بينما ما يعرفه هوبكنز رسمي. ومن ثم لدي الحق في إصدار حكمٍ شخصي، أما هو فلا. بل عليه الإبلاغ بكل ما يعرف، وإلا كان خائنًا لمهنته. لن أضعه في مثل هذا الموقف المؤلم في قضيتنا الملتبسة، بل سأحتفظ بما لديّ من معلومات حتى تتضح المسألة في ذهني.

– ولكن متى يحدث ذلك؟

– لقد آن الأوان بالفعل. إنك ستشهد الآن المشهد الأخير من مأساة صغيرة رائعة.

تعالى صوتٌ على الدرج، ثم فُتح الباب ليدخل أكثر الرجال الذين مروا عبر هذا الباب يومًا لياقة. كان شابًّا فارع الطول، بلحية ذهبية وعينين زرقاوين، وبشرة سفعتها الشمس الاستوائية، وخطوة رشيقة توحي بأن هذا الهيكل الضخم يتمتع بالنشاط مثلما يتمتع بالقوة. أغلق الباب خلفه، ثم وقف بقبضتين مضمومتين وصدرٍ منتفخ، كما لو أنه يختنق تحت وطأة شعورٍ مستبد.

– اجلس أيها القبطان كروكر. هل وصلتك برقيتي؟

غاص زائرنا في المقعد ذي الذراعين وأخذ ينقل بصره بيننا بتساؤل.

– وصلتني برقيتك وأتيت في الموعد الذي حددتَه أنت. لقد علمت بذهابك إلى المكتب. لم يبق أمامي سبيل للهروب منك. لنسمع الأسوأ إذًا، ماذا تنوي فعله معي؟ هل ستلقي القبض عليّ؟ تكلَّم أيها الرجل! لا يسعك الجلوس هكذا والتلاعب بي كما يتلاعب القط بالفأر.

قال هولمز: أعطِه سيجارًا يا واتسون. عضَّ على هذا أيها القبطان كروكر، ولا تدع أعصابك تنفلت. ما كنت لأجلس هنا أدخن معك لو كنت أظنك مجرمًا عاديًّا، لك أن تتأكد من ذلك. كُن صريحًا معي وربما نخرج بحلٍّ جيّد. أما إذا تحايلت عليَّ فسوف أسحقك.

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– أعطِني سردًا حقيقيًّا لكل ما حدث في منزل آبي جرينج ليلة أمس –أُكرِّر، أريد سردًا حقيقيًّا دون زيادة أو نقصان. فأنا أعرف الكثير بالفعل، وإذا حِدت عن مسار الحقيقة بوصة واحدة سأطلق صافرة الشرطة هذه من نافذتي وستخرج المسألة من يدي للأبد.

أخذ البحار يفكر قليلًا. ثم خبط بيده الكبيرة التي سفعتها الشمس على ساقه، وصاح قائلًا:

– سأجرب حظي إذًا. أعرف أنك رجلٌ نبيل يحترم كلمته، وسأقصُّ عليك القصة كاملةً. إلا أنني سأقول شيئًا واحدًا أولًا. إنني فيما يخصني لست نادمًا على شيء ولا أخشى شيئًا، وإذا عدت بالزمن سأكرر ما فعلتُ بفخرٍ واعتزاز. اللعنة على هذا الوحش، لو كان يملك سبع أرواح كالقطط فإنه يدين بها كلها لي! لكنها الليدي ماري –ماري فريزر– فأنا لن أدعوها أبدًا بذاك الاسم اللعين. عندما يخطر لي أني قد أسبب لها مشكلة، أنا الذي قد أهب حياتي مقابل رسم ابتسامة واحدة على وجهها العزيز، فهذا هو ما يذيب روحي. ومع ذلك –مع ذلك– ماذا كان عساي أن أفعل؟ سأقصُّ عليكما قصتي يا سادة، ثم أخبراني رجلًا لرجل ماذا كان عساي أن أفعل؟

عليّ أن أعود بالزمن قليلًا. يبدو أنك تعرف كل شيء، لذا أتوقع أن تكون على دراية بأني التقيتُ الليدي عندما كانت هي واحدة من الركاب وأنا ضابطٌ أول على متن الباخرة روك أوف جيبرالتر. ومنذ أول يومٍ رأيتها عرفتُ أنها المرأة الوحيدة بالنسبة لي. ازداد حبي لها في تلك الرحلة يومًا بعد يوم، وكم من مرة منذ ذلك الحين جثوت فيها على ركبتي في ظلمة نوبة الحراسة الليلية وقبَّلت ظهر تلك السفينة لأني أعلم أنها سارت عليها بقدميها الغاليتين. لم نرتبط رسميًّا قط. كانت تعاملني بلباقة مثلما تعامل أي امرأة رجلًا. ولم أعترض على ذلك. كانت علاقتنا بالنسبة لي حبًّا خالصًا، وبالنسبة لها صُحبة طيبة وصداقة. كانت حرة عندما افترقنا، لكنني لم أستطع منذ ذلك الحين أن أعود حرًّا.

عندما عُدت من رحلتي البحرية التالية سمعتُ أنها تزوجت. حسنًا، ما الذي يمنعها من الزواج ممن تُحب؟ لقبٌ وثروة –من يستحقهما أفضل منها؟ لقد خُلقت للحصول على كل ما هو جميل وبهيّ. لم أحزن لزواجها. فلم أكن غيورًا أنانيًّا هكذا. بل فرحتُ ببساطة لأن الحظ ابتسم لها، وأنها لم تُلق بنفسها إلى التهلكة في سبيل بحَّار مُعدم. هكذا أحببت ماري فريزر.

حسنًا، لم أعتقد قط أنني سأراها ثانيةً؛ لكنني ترقَّيت في رحلتي الأخيرة، ولم تكن الباخرة الجديدة جاهزة للانطلاق بعد، لذا اضطررت إلى الانتظار بضعة أشهر مع رفاقي في سيدنهام. وذات يوم صادفتُ تيريزا رايت، خادمتها، بإحدى الطرق الريفية. وأخبرتني عنها، وعنه، وعن كل شيء. أقول لكم يا سادة أني كدتُ أجن مما سمعت. كيف يجرؤ هذا الحقير السكير أن يرفع يده على من لا يستحق حتى أن يلعق حذاءها! قابلت تيريزا مجددًا ثم التقيت بماري نفسها، ثم التقيت بها مرة أخرى. ثم انقطعت عني. ولكن في أحد الأيام جاءني إخطار بأن رحلتي ستبدأ في غضون أسبوع، وعزمتُ أن أراها مرة أخيرة قبل أن أغادر. ظلت تيريزا صديقتي دومًا، فقد كانت تحب ماري وتمقت هذا الشرير بقدر مقتي له. ومن تيريزا عرفت عادات المنزل، وأن ماري اعتادت أن تسهر للقراءة في غرفتها الصغيرة بالأسفل. وهكذا تسللت ليلة أمس وحككت النافذة. في البداية رفضت أن تفتح لي، لكنني علمت أن قلبها صار لي الآن، ولن تتركني في صقيع الليل بالخارج. همست لي أن أذهب إلى النافذة الأمامية الكبيرة،

فوجدتها مفتوحة أمامي مُفضية بي إلى غرفة العشاء. ومرة أخرى سمعت من شفتيها أمورًا جعلت الدم يغلي في عروقي، ومرة أخرى لعنت هذا الوحش الذي يسيء إلى المرأة التي أحب. حسنًا أيها السيدان، كنت واقفًا معها أمام النافذة بكل براءة، والسماء شاهدة على ذلك، فإذا به يندفع كالمجنون إلى الغرفة ويسبها بأرذل ما يمكن أن يسب به رجل امرأة، وضربها على وجهها بالعصا التي كانت في يده. أسرعت أمسك بمحراك النار، وجرت بيننا معركة عادلة. انظرا هنا إلى ذراعي حيث موضع ضربته الأولى. ثم حين جاء دوري، اخترق المحراك رأسه كما لو كان يقطينة متعفنة. هل تظنناني ندمت؟ كلا! فقد كانت إما حياته أو حياتي، أو بالأحرى إما حياته أو حياتها، فأنَّى لي أن أتركها تحت سطوة هذا المجنون؟ هكذا قتلته. هل أخطأت؟ حسنًا إذن، كيف كان سيتصرف أي منكما أيها السيدان لو كنتما مكاني؟

كانت ماري قد أطلقت صرخة عندما ضربها، فنزلت على إثرها تيريزا من غرفتها بالدور العلوي. رأيت زجاجة نبيذ على الصوان ففتحتها وسكبت القليل بين شفتي ماري، إذ إنها كانت شبه ميتة من أثر الصدمة. ثم أخذت رشفة أنا أيضًا. كانت تيريزا هادئة كالثلج، وشاركتني وضع الخطة. كان علينا أن نجعل الجريمة تبدو من فعل اللصوص. ظلت تيريزا تعيد قصتنا على مسامع سيدتها، بينما صعدت على الرف وقطعت حبل الجرس. ثم ربطتها في مقعدها وأتلفت طرف الحبل ليبدو طبيعيًّا، وإلا سيتساءلون كيف سيصعد اللص إلى هذا المكان ليقطع الحبل. ثم جمعت بضع قطع فضية لتأكيد فكرة السرقة، ثم طلبت منهما إطلاق الإنذار بعد مغادرتي بربع ساعة. ألقيت بالقطع الفضية في البركة وهرعت إلى سيدنهام، شاعرًا لأول مرة في حياتي أني فعلت شيئًا ذا جدوى في ليلتي. وتلك هي الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة يا سيد هولمز، حتى لو كلفتني رقبتي.

ظل هولمز صامتًا يدخن لبرهة. ثم سار عبر الغرفة وصافح زائرنا، ثم قال:

– أرى ذلك وأعلم أن كل كلمة قُلتها صحيحة، لأنك لم تقُل شيئًا لم أعرفه سلفًا. فما من أحد يمكنه الوصول إلى جرس الحبل من الدعامة إلا إذا كان بهلوانًا أو بحارًا، وليس سوى بحار من يستطيع ربط العقد التي ثبتت الحبل في المقعد. وهذه الليدي لم تلتقِ ببحارة إلا مرة واحدة، في رحلتها إلى هنا، ولا بد أنها عرفت هذا الشخص، لأنها كانت تحاول جاهدة التستر عليه، ما يعني حبها له. أرأيت كم كان سهلًا عليّ أن أضع يديَّ عليك بمجرد أن سِرتُ وراء الدليل الصحيح؟

– لم يخطر لي أن الشرطة بإمكانها أن تكشف حيلتنا.

– الشرطة لم ولن تفعل؛ على حد اعتقادي. والآن انظر إليَّ أيها القبطان كروكر، فهذه مسألة شديدة الخطورة، وإن كنتُ أعترف أنك تصرفت تحت أقصى الظروف الاستفزازية التي يمكن أن يتعرض إليها رجل تطرفًا. ولستُ متأكدًا أن تصرفك في سبيل الدفاع عن حياتك يُعد مشروعًا. ولكن هذا متروك لهيئة المحلفين البريطانية لتبت فيه. وفي الوقت نفسه أنا متعاطف معك لدرجة أنك إذا اخترت الاختفاء في الساعات الأربع والعشرين القادمة أعدك بأنه لن يعيقك أحد.

– وبعدها سينكشف كل شيء؟

– مؤكد سينكشف.

احتقن وجه البحار غضبًا.

– أي اقتراح هذا الذي تعرضه عليَّ؟ إنني أعلم ما يكفي من القانون، لأدرك أنهم سيقبضون على ماري باعتبارها متواطئة في الجريمة. أتظن أني سأتركها وحيدة تواجه العواقب بينما أنسلُّ أنا بعيدًا؟ لا يا سيدي، ليصبوا جام غضبهم عليَّ، ولكن بحق السماء يا سيد هولمز، جِد طريقة لإبعاد ماري المسكينة عن المحاكم.

مدَّ هولمز يده للمرة الثانية للبحَّار.

– كنتُ أختبرك ليس إلا، وأنت تظهر صدقك في كل مرة. حسنًا، إنني أحمل نفسي مسؤولية هائلة، لكنني أعطيتُ هوبكنز تلميحًا عظيمًا، فإن لم يستطع اغتنامه، لن أستطيع منحه المزيد. انظر أيها القبطان كروكر، سنفعل هذا في إطار القانون. فأنت السجين. وأنت يا واتسون ستمثل هيئة المحلفين البريطانية، ولم أرَ أحدًا يصلح لهذا الدور أكثر منك. وأنا القاضي. والآن يا سيادة ممثل هيئة المحلفين، لقد سمعت الدليل. هل ترَ السجين مذنبًا أم بريئًا؟

قلتُ: بريئًا يا سيدي.

– صوت الشعب هو صوت الرب. لقد بُرئت ذمتك أيها القبطان كروكر. ما دام القانون لم يجد ضحايا أخرى لك فأنت بمأمنٍ مني. عُد إلى هذه الليدي بعد عام، ولعل مستقبلها ومستقبلك يثبتان صحة الحُكم الذي نطقنا به الليلة.

أندريا بالاديو هو مصمم ومهندس معماري فينيسي، ويُعد الأكثر تأثيرًا في تاريخ الهندسة المعمارية الغربية.

مغامرة البقعة الثانية

كنت قد نويت أن تكون مغامرة منزل آبي جرينج هي آخر ما أنقله لجمهوري من مآثر صديقي السيد شيرلوك هولمز. ولم يكن قراري هذا ناتجًا عن نقصٍ في تلك المآثر، فلدي مذكرات لمئاتٍ عدَّة من القضايا التي لم أُشِر إليها مطلقًا، ولم يكن كذلك ناجمًا عن فتور اهتمام قرائي بشخصية هذا الرجل الفريد وأساليبه الاستثنائية. بل إن السبب الحقيقي يكمُن في عدم رغبة السيد هولمز في مواصلة نشر تجاربه. لقد كانت سجلات نجاحاته ذات قيمة عملية له عندما كان ممارسًا فعليًّا لمهنته؛ لكنه منذ تقاعد من عمله في لندن وسخَّر نفسه لدراسة النحل وتربيته في ساسكس داونز، غدا كارهًا للشهرة، وطلب بصورة قاطعة أن أراعي رغباته في هذا الشأن بدقة. ولم أنجح في الحصول على موافقته على نشر تقرير خاضع لمراقبته الدقيقة عن هذه الواقعة إلا حينما وضحتُ له أنِّي قد قطعت وعدًا بنشر مغامرة البقعة الثانية عندما يحين وقتها، وأقنعته بأن هذه السلسلة الطويلة من الحلقات ينبغي أن تُتوج بأهم قضية دولية طُلب منه تولِّيها. لذا إن بدوت غامضًا إلى حدٍّ ما في التصريح بتفاصيل بعينها خلال سردي للقصة، فسوف يتفهَّم جمهوري أن ثمَّة سببًا وجيهًا وراء تكتمي.

حدث في عامٍ من الأعوام، بل في عقدٍ من العقود، الذي ينبغي أن يظل مُبهمًا، أن جاءنا ضيفان من مشاهير أوروبا ليزورانا بين جدران غرفتنا المتواضعة بشارع بيكر في صبيحة أحد أيام الثلاثاء في الخريف. لم يكن أحدهما سوى اللورد بيلينجر الشهير، بأنفه القصير ونظراته الحادة وملامحه التي وشت بصرامته وسيطرته، والذي شغل منصب رئيس وزراء بريطانيا لمرتين. أما الآخر، الأنيق ذو الملامح المحددة والبشرة الداكنة وجميع محاسن العقل والجسم، والذي بالكاد قد بلغ منتصف عمره، فهو معالي الوزير تريلوني هوب، وزير الشؤون الأوروبية للدولة، والسياسي الأبرز في البلاد. كانا يجلسان جنبًا إلى جنب على أريكتنا التي تناثرت عليها الأوراق، وقد تبدى جليًّا على وجهيهما المُنهكين بالقلق أنهما لم يجيئا إلا لمسألة شديدة الإلحاح. كانت يدا رئيس الوزراء النحيفتان بعروقهما الزرقاء تقبضان بإحكام على مقبض مظلته العاجي، فيما أخذ ينقل بصره بكآبة من هولمز إليَّ بوجهٍ هزيلٍ زاهد. أما الوزير الأوروبي فقد أخذ يفتل شاربه بعصبية ويعبث في سلسلة ساعته.

– ما إن اكتشفت ما فقدته يا سيد هولمز في الثامنة من صباح اليوم حتى أبلغتُ رئيس الوزراء على الفور. وقد جئنا إليك بناءً على اقتراحه.

– هل أبلغتما الشرطة؟

قال رئيس الوزراء بأسلوبه السريع الحاسم الذي اشتُهر به: كلا يا سيدي، لم نفعل، وليس ممكنًا أن نفعل. إن إبلاغ الشرطة يعني –على المدى البعيد– إبلاغ العامة. وهذا تحديدًا ما نرغب في تفاديه.

– ولِمَ يا سيدي؟

– لأن المستند المعنيّ ذو أهمية قصوى، حتى إن نشره ببساطة قد يؤدي –بل على الأغلب سيؤدي– إلى تعقيدات بالغة الخطورة في الشأن الأوروبي. ولستُ أبالغ إن قلتُ بأن الحرب والسلام قد يكونان متوقفين على هذه المسألة. وما لم يُسترد بأقصى درجات السرية، فقد لا يُسترد أبدًا، ذلك لأن الغاية القصوى لمن أخذوه هو أن تُعلَن محتوياته على الملأ.

– مفهوم. والآن أيها السيد تريلوني هوب، سأزيدُ امتنانًا لك إن أخبرتني بالملابسات التي اختفى فيها هذا المستند تحديدًا.

– يمكنني فعل هذا بكلماتٍ قليلة يا سيد هولمز. هذا المستند عبارة عن رسالة –استلمتُها من أحد الحكام الأجانب– منذ ستة أيام. وكانت من الأهمية بمكان أن لم أتركها في خزانتي قط، بل كنت آخذها كل مساء إلى منزلي في وايتهول تيراس، وأبقيها في غرفة نومي بصندوق رسائل مغلق. وقد كانت هناك ليلة أمس. إنني واثق من هذا. حتى إنني فتحتُ الصندوق قبل أن أذهب لتناول العشاء، ورأيتُ المستند بداخله. وفي الصباح كان قد اختفى. ظلَّ صندوق الرسائل في موضعه بجانب المرآة على المزينة طوال الليل. إنني خفيف النوم، وكذلك زوجتي. وكلانا مستعدان للقسم بأنه ما من أحدٍ قد دخل الغرفة أثناء الليل. ومع ذلك أعاود القول بأن الورقة قد اختفت.

– في أي وقتٍ تناولت العشاء؟

– في السابعة والنصف.

– وكم مضى قبل أن تخلد إلى الفراش؟

– كانت زوجتي قد ذهبت إلى المسرح، فانتظرتها. ولم نذهب إلى غرفتنا قبل الحادية عشرة والنصف.

– إذن فقد ظلَّ صندوق الرسائل دون حراسة لأربع ساعات.

– إن دخول تلك الغرفة ليس مسموحًا لأحد سوى مدبرة المنزل في الصباح، وخادمي الشخصي وخادمة زوجتي خلال بقية اليوم. وكلاهما مؤتمن ويخدماننا منذ زمنٍ طويل. كذلك ما كان لأيٍّ منهما أن يعلم بأي شكل أن صندوق الرسائل يحوي شيئًا أكثر قيمة من الأوراق الإدارية العادية.

– من كان يعلم بوجود تلك الرسالة؟

– لا أحد في المنزل.

– كانت زوجتك تعلم دون شك.

– لا يا سيدي؛ لم أقل شيئًا لزوجتي حتى فُقدت الورقة هذا الصباح.

أومأ رئيس الوزراء برأسه موافقًا.

وقال: إنني على علمٍ يا سيدي منذ زمنٍ طويل بمدى عُمق إحساسك بالواجب العام. وأنا أثق أنه في حالة وجود سر بهذه الأهمية، فسوف توليه من الأهمية ما يغلب أشد علاقاتك حميمية.

فانحنى وزير الشؤون الأوروبية للدولة امتنانًا لما قيل.

وأجاب: لقد أنصفتني يا سيدي. فحتى هذا الصباح لم أتفوَّه بكلمة لزوجتي عن المسألة.

– أمن الممكن أنها تكهَّنَت بها؟

– كلا يا سيد هولمز، ما كان بإمكانها التكهُن – ولا بإمكان أي شخصٍ آخر.

– هل فقدت أي مستندات من قبل؟

– كلا يا سيدي.

– من يعلم بوجود هذه الرسالة في إنجلترا؟

– كل عضو من أعضاء مجلس الوزراء قد أُبلِغ بها بالأمس؛ لكنَّ التعهُّد بالسرية الذي يؤخذ في كل جلسة من جلسات مجلس الوزراء قد شُدِّد بتحذيرٍ رسمي من رئيس الوزراء. ربَّاه! لو كنت أعلم أنني سأضيعه شخصيًّا بعد بضع ساعات! شوَّهت وجهه الوسيم تكشيرة يأس، وأخذ يشد شعره بيديه. ومرَّت لحظة رأينا فيها لمحة خاطفة من طبيعة الرجل العفوية المتقدة شديدة الحساسية. ولكن سرعان ما حل محلها القناع الأرستقراطي، وعاد الصوت الهادئ مرة أخرى يقول: وبجانب أعضاء مجلس الوزراء، هناك اثنان أو ربما ثلاثة من المسؤولين الإداريين يعلمون بوجود الرسالة. فيما عدا هؤلاء، لا أحد في إنجلترا يعلم يا سيد هولمز، أؤكد لك.

– وماذا عن خارجها؟

– أعتقد أن أحدًا خارجها لم يرها سوى الرجل الذي كتبها. إنني واثق تمام الثقة من أنه لم يُطلع وزراءه أو القنوات الرسمية المعتادة.

أخذ هولمز يفكر هنيهة، ثم قال:

– والآن يا سيدي لا مفر من أن أسألك عن طبيعة هذا المستند تحديدًا، ولِمَ لاختفائه عواقب وخيمة؟

تبادل السياسيان نظرة سريعة وقطب رئيس الوزراء حاجبيه الكثين في عبوس.

– إن الظرف يا سيد هولمز من النوع الطويل الرفيع، ذو لونٍ أزرق باهت. وقد خُتِم بشمعٍ أحمر مدموغ على شكل أسدٍ رابض. إنه معنون بخط كبير غليظ إلى...

قال هولمز: أخشى سيدي أنه رغم ما تتسم به هذه التفاصيل من أهمية وتشويق، فلا بد أن تتعمق تحرِّياتي إلى أصول الأشياء. ماذا كانت الرسالة؟

– ذلك سرٌّ دولي بالغ الأهمية، وأخشى أنني لا أستطيع إخبارك، ولا أرى هذا ضروريًّا. إذا استطعت أن تعثر على هذا الظرف الذي وصفته ومحتوياته بقدراتك التي قيل إنك تمتلكها، فسوف تستحق عرفانًا من بلادك، وسوف تجني أي مكافأة في سلطتنا أن نمنحها لك.

نهض شيرلوك هولمز مبتسمًا، وقال:

– أنتما اثنان من أكثر الرجال انشغالًا في البلاد. وأنا أيضًا لديَّ على نطاقي الصغير قدر كبير من المسؤوليات. يؤسفني بشدة أنني عاجز عن مساعدتكما في هذا الشأن، وأن استمرار هذه المقابلة سيكون مضيعة للوقت.

هبَّ رئيس الوزراء واقفًا وقد لاح في عينيه الغائرتين ذاك الوميض القاسي الخاطف الذي يرتعد من مرآه مجلس الوزراء. وبدأ حديثه قائلًا: لم أعتد يا سيدي – لكنه تمالك غضبه وعاد إلى مقعده. ولدقيقة أو أكثر جلسنا جميعًا في صمت. ثم هز السياسي العتيد كتفيه باستهجان قائلًا:

– لا بد أن نقبل شروطك يا سيد هولمز. ولا شك أنك محق، ومن غير المنطقي أن نتوقع منك التصرُّف دون أن نضع ثقتنا فيك كاملةً.

قال السياسي الأصغر سنًّا: أتفق معك يا سيدي.

– سأخبرك إذن، معتمدًا بالكامل على أمانتك وأمانة زميلك الدكتور واتسون. ولعلي أناشد وطنيتك أيضًا، لأنني لا أستطيع تصوُّر مصيبة أكبر للبلاد من خروج تلك المسألة إلى العلن.

– يمكنك أن تثق بنا تمامًا.

– إذن فقد كانت الرسالة من حاكم أجنبي معين أزعجته التطورات الاستعمارية الأخيرة لهذا البلد. وقد كُتبت على عجل وعلى مسؤوليته الشخصية تمامًا. وقد أظهرت التحريات أن وزراءه لا يعلمون شيئًا عن المسألة. وقد صيغت في الوقت ذاته بأسلوب شديد السوء، وتخللتها بعض عبارات ذات طابع استفزازي لدرجة أن نشرها سيفضي لا محالة إلى حالة بالغة الخطورة للرأي العام في هذه البلاد. ستندلع حالة من الهياج يا سيدي، حتى إنني لا أتردد في القول بأنه في غضون أسبوع من نشر تلك الرسالة، ستتورط البلاد في حربٍ كبرى.

كتب هولمز اسمًا على رقعة من الورق وسلمها إلى رئيس الوزراء.

– بالضبط. كان هو. وهذه الرسالة –تلك التي قد تعني إنفاق آلاف الملايين وإزهاق أرواح مئة ألف رجل– هي التي فُقدت بهذه الطريقة التي يتعذر تفسيرها.

– هل أخبرت المُرسل؟

– نعم يا سيدي، أرسلنا إليه برقية مشفرة.

– لعله يرغب في أن تُنشر الرسالة.

– كلا يا سيدي. فلدينا سببٌ وجيه يجعلنا متيقنين من أنه أدرك بالفعل أنه قد تصرف بأسلوبٍ متهور وأرعن. بل إن نشر هذه الرسالة سيتسبب له ولبلاده في مصيبة أشد وطئًا منا.

– إذا كان الأمر هكذا، فمَن مِن مصلحته أن تخرج الرسالة؟ لِمَ قد يرغب أي أحدٍ في سرقتها أو نشرها؟

– مهلًا يا سيد هولمز، فأنت تأخذني إلى مناطق السياسة الدولية العليا. ولكن إذا جلت بفكرك في الوضع الأوروبي، فلن تواجه صعوبة في إدراك الدافع. إن أوروبا كلها معسكرٌ مسلح، ويوجد تحالفان ذوا قوة عسكرية متوازنة. أما بريطانيا العظمى فتحمل الميزان. إذا زُجت بريطانيا إلى الحرب ضد أحد التحالفين، فستضمن تفوق التحالف الآخر سواء انضم إلى الحرب أو لا. هل تفهمني؟

– بوضوح تام. إذن فمن مصلحة أعداء هذا الحاكم الحصول على تلك الرسالة ونشرها، لإحداث جفوة بين بلاده وبلادنا.

– نعم يا سيدي.

– وإلى من سيُرسَل هذا المستند إذا سقط في أيدي العدو؟

– إلى أي من حكومات أوروبا العُظمى. ربما هو في طريقه إليها الآن بأسرع ما يمكن لباخرة أن تنقله.

دفن السيد تريلوني هوب رأسه في صدره وتأوه بصوت عالٍ. فوضع رئيس مجلس الوزراء يده على كتفه برفق.

– إنه حظٌّ عاثر يا زميلي العزيز. ليس لأحدٍ أن يلومك، فأنت لم تغفل عن أي سبيلٍ للحيطة. والآن يا سيد هولمز، صارت لديك الحقائق كاملة. أي مسار توصي به؟

هز هولمز رأسه بحزن.

– أتعتقد يا سيدي أن حربًا ستندلع ما لم يسترد ذلك المستند؟

– أظنها واردة جدًّا.

– إذن، فلتستعد للحرب يا سيدي.

– هذا قول قاسٍ يا سيد هولمز.

– فكر في الحقائق يا سيدي. من المستبعد أنه أُخذ بعد الحادية عشرة مساءً، فحسبما فهمت، كان السيد هوب وزوجته كلاهما في الغرفة منذ تلك الساعة وحتى اكتشاف ضياعه. إذن فقد أُخذ مساء أمس بين الساعة السابعة والنصف والحادية عشرة والنصف، وربما أقرب إلى السابعة، لأن أيًّا كان من أخذه، فقد كان يدري بوجوده دون شك، ومُرجَّح أن يسارع بالحصول عليه في أقرب وقت ممكن. والآن يا سيدي، لو أن مستندًا بهذه الأهمية قد أُخذ في تلك الساعة، فأين عساه يكون الآن؟ ما من أحدٍ لديه سبب للاحتفاظ به. لقد مُرِّر سريعًا إلى من هم في حاجة إليه. فما فرصتنا في اللحاق بهم أو حتى تعقبهم؟ إن ذلك لبعيد المنال.

نهض رئيس الوزراء من على الأريكة.

– ما تقوله منطقي للغاية يا سيد هولمز. يبدو الأمر قد خرج عن أيدينا بالفعل.

– لنفترض جدلًا أن الخادم أو الخادمة قد أخذا هذا المستند..

– كلاهما من الخدم القديم المُجرَّب.

– ما فهمته منك أن غرفتك تقع في الطابق الثاني، وأنه ما من مدخل لها من خارج المنزل، وأنه لا يمكن لأحدٍ أن يصعد إليها من داخل المنزل دون أن يشعر به الآخرون. لا بد إذن أن من أخذه كان الآخرون من داخل المنزل. إلى من سيمرره اللص؟ إلى واحد من عدة جواسيس دوليين وعملاء سريين قد تكون أسماؤهم مألوفة لي. هناك ثلاثة يُقال إنهم الأكفأ في مهنتهم. سأبدأ تحرياتي بالخروج واكتشاف إن كان كلٌّ في موقعه. فإذا وجدتُ أحدهم غائبًا –خاصة إذا كان متغيبًا منذ الليلة الماضية– سيشير ذلك قليلًا إلى المكان الذي بلغه المستند.

سأل وزير الشؤون الأوروبية للدولة: ولم عساه يغيب؟ كان ليأخذ الرسالة إلى سفارة في لندن على الأرجح.

– لا أظنه سيفعل. فأولئك العملاء يعملون بصورة مستقلة، وعلاقاتهم بالسفارات في أغلب الأحيان متوترة.

أومأ رئيس الوزراء برأسه موافقًا.

– أعتقد أنك محق يا سيد هولمز. فسوف ينقل غنيمة ثمينة كهذه إلى المقر الرئيس بنفسه. أظنك اخترت مسارًا ممتازًا لبدء العمل. والآن يا هوب لا يسعنا التغافل عن واجباتنا الأخرى بسبب هذه المحنة.

إذا حدثت أي تطورات جديدة خلال اليوم فسوف نتواصل معك، ولا شك أنك ستخبرنا بنتائج تحقيقاتك.

أومأ السياسيان برأسيهما وسارا بخطى رزينة إلى خارج الغرفة.

عندما انصرف ضيفانا الشهيران أشعل هولمز غليونه في صمت، ثم جلس لبعض الوقت غارقًا في أعمق أفكاره. كنت قد فتحت جريدة الصباح وانهمكتُ في قراءة جريمة مثيرة وقعت في لندن ليلة أمس، عندما هتف صديقي وهب واقفًا ثم وضع غليونه على رف المدفأة.

قال: نعم، ما من طريقة أفضل للتعامل مع المسألة. إن الوضع محبطٌ، ولكن لم ينعدم الأمل بعد. فحتى الآن، إذا استطعنا اكتشاف هوية سارق المستند، يمكن ألا يكون قد خرج من بين يديه بعد. فالمسألة بالنسبة لهؤلاء مسألة مال في كل الأحوال، وأنا لديَّ الخزانة البريطانية بأكملها خلفي. إذا كان معروضًا للبيع فسوف أشتريه – حتى لو كلفني ذلك بنسًا إضافيًّا على ضريبة الدخل. ووارد أن يكون هذا الرجل قد احتفظ به ليرى عطاءات هذا الجانب قبل أن يجرب حظه مع الجانب الآخر. وما من أحدٍ قادر على لعب تلك اللعبة الوقحة سوى هؤلاء الثلاثة؛ أوبرشتاين، ولا روثيير، وإدواردو لوكاس. سألتقي بكل واحدٍ منهم.

ألقيت نظرة سريعة على جريدتي الصباحية.

– أتقصد إدواردو لوكاس القاطن بشارع جودولفين؟

– نعم.

– لن تلتقِي به.

– لمَ لا؟

– لقد قُتل في منزله ليلة أمس.

لقد أدهشني صديقي كثيرًا أثناء مغامراتنا حتى إنني اعتراني إحساسٌ بالنشوة حينما رأيتُ كم أدهشته بما قلت. حدَّق بذهول، ثم انتزع الجريدة من يدي. وكانت هذه هي الفقرة التي انشغلت بقراءتها حينما هبَّ من مقعده:

جريمة قتل في وستمنستر

ارتُكبت ليلة أمس جريمة قتل غامضة في 16 شارع جودولفين، واحد من منازل القرن الثامن عشر المنعزلة قديمة الطراز التي تقع بين النهر والدير، بجوار البرج الكبير لمجلسي البرلمان. كان السيد إدواردو لوكاس –الذي اشتُهر في أوساط المجتمع بشخصيته الساحرة وسمعته الطيبة كواحد من أفضل هواة الساكسفون في البلاد– قد اتخذ هذا المنزل الصغير الراقي سكنًا له منذ عدة سنوات. كان السيد لوكاس رجلًا عزبًا، يبلغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا، ويضم منزله كلًّا من السيدة برينجل، مدبرة منزله العجوز، وميتون خادمه. اعتادت الأولى أن تأوي إلى فراشها باكرًا وتنام في الطابق العلوي. أما الخادم فكان خارج المنزل طوال المساء في زيارة لصديق له في هامرسميث. وهكذا كان

السيد لوكاس بمفرده في المنزل منذ العاشرة. ولم يتضح بعد ما جرى في هذا التوقيت، لكن الشرطي باريت لاحظ عندما مر في شارع جودولفين في الثانية عشرة إلا الربع أن باب المنزل رقم 16 كان مواربًا. طرق الباب لكنه لم يتلق إجابة. لاحظ ضوءًا في الغرفة الأمامية فتقدم ناحية الممر وطرق مرة أخرى، لكن دونما إجابة. حينها فتح الباب ودخل. كانت الغرفة في حالة من الفوضى العارمة، حيث كان الأثاث مكومًا إلى جانب واحد، وكان مقعدًا واحدًا ساقطًا على ظهره في منتصف الغرفة. وبجانب هذا المقعد، كان الساكن المأسوف له راقدًا وممسكًا بأحد أقدام المقعد. كان قد تلقَّى طعنة في قلبه لا بد أنها أردته قتيلًا من فورها. السكين الذي ارتُكبت به الجريمة خنجر هندي مقوَّس، انتزعه القاتل من بين مجموعة تذكارية من الأسلحة الشرقية التي زينت أحد الجدران. ويبدو أن الجريمة لم تُرتكب بدافع السرقة، إذ لم يحاول أحد سرقة المحتويات القيمة للغرفة. كان السيد إدواردو لوكاس معروفًا ومحبوبًا بشدة، ولسوف يثير حتفه الغامض والعنيف همًّا أليمًا وتعاطفًا شديدًا بين دائرة واسعة من الأصدقاء.

سألني هولمز بعد فترة ساد فيها الصمت: حسنًا يا واتسون، ما رأيك في هذا؟

– إنها لصدفة مذهلة.

– صدفة! هذا أحد الرجال الثلاثة الذين اشتبهنا في اضطلاعهم بدور في هذه الأحداث المأساوية، وقد تعرض لميتة عنيفة في الوقت نفسه الذي عرفنا فيه بوقوع هذه الأحداث المأساوية. ليس من المحتمل إطلاقًا أن تكون مصادفة. كلا يا عزيزي واتسون، فالحدثان متصلان – لا بد أنهما كذلك. وعلينا أن نجد الصلة.

– لكن مؤكد قد علمت الشرطة الآن بكل شيء.

– مُطلقًا. إنهم لا يعلمون إلا بما رأوه في شارع جودولفين. لم ولن يعلموا شيئًا عن وايتهول تيراس. لا يعلم أحد بشأن الحدثين، ويستطيع تعقب الصلة بينهما سوانا. ثمة نقطة واضحة كان من شأنها أن تجعلني أشتبه في لوكاس على أية حال. فشارع جودولفين بويستمنستر لا يبعد عن وايتهول تيراس سوى دقائق سيرًا على الأقدام. أما العميلان السريان الآخران اللذان ذكرتهما فيعيشان في أقصى الغرب. لذا كان يسهُل على لوكاس مقارنةً بهما أن يوطِّد علاقة أو يتلقى رسالة من منزل وزير الشؤون الأوروبية للدولة – إنها ملاحظة صغيرة، ولكن حينما تتزاحم الأحداث في سويعات قليلة هكذا، فقد تكون تلك الملاحظة جوهرية. مهلًا! ماذا لدينا هنا؟

أتت السيدة هدسون حاملة بطاقة تعريف لسيدة ما على صينية. ألقى هولمز نظرة عليها، ثم رفع حاجبيه وناولني إياها.

وقال: أخبري الليدي هيلدا تريلوني هوب بأن تتفضل بالدخول.

بعد لحظات ازدادت شقتنا المتواضعة شرفًا –فوق ما حظيت به من زيارات الصباح– باستقبال أجمل امرأة في لندن. كنت قد سمعت كثيرًا عن جمال الابنة الصغرى لدوق مدينة بلمينستر، لكن لا وصف لها أو تأمُّل في صورِها ذات اللونين الأبيض والأسود قد هيأني لرؤية هذا الحسن الرقيق الناعم أو

لجمال ذاك الوجه الفاتن. ولكن عندما رأيناها في صباح ذلك الخريف لم يكن جمالها هو أول ما لفت انتباهنا. فقد كانت وجنتاها جميلتين، لكنهما صارتا شاحبتين من الانفعال، عيناها متوهجتان، لكنه توهُّج الحمى، وكان فمها الرقيق مزمومًا ومسحوبًا في محاولة لضبط النفس. كان الرعب –لا الجمال– هو أول ما رأته الأعين حينما وقفت ضيفتنا الجميلة للحظة داخل إطار الباب المفتوح.

– هل كان زوجي هنا يا سيد هولمز؟

– نعم يا سيدتي، كان هنا.

– أتوسل إليك يا سيد هولمز ألا تخبره بقدومي إلى هنا. أومأ هولمز برأسه بفتور، وأشار إلى الليدي لتتخذ مقعدًا.

– إنك تضعينني في موقف شديد الحساسية يا سيدتي. أرجو أن تجلسي وتخبريني بما تريدين؛ لكني أخشى ألا أستطيع تقديم أي وعدٍ غير مشروط.

قطعت الغرفة وجلست مولية ظهرها إلى النافذة. كان حضورها ملكيًّا، طويلة القامة كانت، ورشيقة وذات أنوثة طاغية.

قالت ويداها المقفزتان تتشابكان وتتباعدان بينما تتحدث: سيد هولمز، سأتحدث معك بصدق على أمل أن يدفعك هذا إلى أن تفعل المثل معي. إن الثقة بيني وبين زوجي تامة في كل الأمور عدا أمر واحد؛ السياسة. إنه متحفظ تمامًا فيما يخصها ولا يخبرني بأي شيء. والآن صرتُ أعلم بوقوع حادث مؤسف جدًّا في منزلنا ليلة أمس. وأعلم بأن ثمة ورقة قد اختفت. لكن لأن المسألة تتعلق بالسياسة، رفض زوجي أن يضع ثقته الكاملة فيّ. والآن من الضروري –أقول من الضروري– أن أفهم الأمر بأكمله. أنت الشخص الوحيد من غير أولئك السياسيين الذي يعرف الحقائق الكاملة. فأتوسل إليك يا سيد هولمز أن تخبرني بما حدث بالضبط وما سيترتب عليه. أخبرني بكل شيء يا سيد هولمز. لا تدع اعتبارًا لمصالح عميلك يحملك على الصمت، لأنني أؤكد لك أن مصالحه –ما دام لا يرى سواها– ستُخدم على نحوٍ أفضل بوضع كامل ثقته في. ما تلك الورقة التي سُرقت؟

– سيدتي، إن ما تطلبينه مني مستحيل حقًّا.

فأخذت السيدة تئن وقد دفنت وجهها بين يديها.

– لا بد أن تفهمي أن الأمر مستحيل حقًّا يا سيدتي. فإذا كان زوجك يعتقد أن من الأنسب ألا يُطلعك على تلك المسألة، فهل لي أنا، من عرفت بالحقائق الكاملة تحت التعهد بالسرية المهنية، أن أفشي ما أخفاه؟ ليس من العدل أن تطلبي هذا. هو من يجب أن تطلبي منه.

– لقد فعلت، وجئت إليك ببارقة أملٍ أخيرة. ولكنك ما زلت تستطيع يا سيد هولمز، دون أن تخبرني بأي شيء محدد، أن تُسدي إليَّ صنيعًا عظيمًا، لو أنك أطلعتني على نقطة واحدة.

– وما هي يا سيدتي؟

– هل من المحتمل أن تتأثر الحياة السياسية لزوجي بسبب هذه الواقعة؟

– صراحةً يا سيدتي، ما لم تُحل هذه المشكلة على نحوٍ صحيح، فلا شك أن عاقبتها ستكون مؤسفة جدًّا.

– آه! شهقت بعنف كأنما تأكدت من صحة ما تخشاه.

– لدي سؤال آخر يا سيد هولمز. لقد فهمت من ملاحظة أبداها زوجي دون تحفُّظ في غمرة صدمته بهذه الكارثة أن ثمة عواقب وخيمة فيما يخص الشأن العام قد تنجم عن فقدان هذا المستند.

– إن قال هذا، فليس لي أن أنفي بكل تأكيد.

– وما طبيعة هذه العواقب؟

– كلا يا سيدتي، ها أنتِ ذي تسألينني ثانيةً أكثر مما أستطيع أن أجيب.

– إذن فلن أضيع المزيد من وقتك. ولستُ ألومك يا سيد هولمز على رفضك الحديث بحرية أكبر. أما أنت فإنني على يقين أنك لن تسيء الظن بي لرغبتي في مشاركة زوجي قلقه، حتى وإن كان هذا رغم إرادته. ومرة أخرى أرجوك ألا تقول شيئًا عن زيارتي. مضت باتجاه الباب، والتفتت لتنظر إلينا نظرة أخيرة لمحت فيها هذا الوجه الجميل الشاحب، وتلك العينين الخائفتين، وذاك الفم المزموم. ثم انصرفَت.

قال هولمز مبتسمًا بعدما اختفى صوت حفيف ثوبها بإغلاق الباب الأمامي:

– والآن يا واتسون، إن الجنس اللطيف من اختصاصك، ماذا كانت لعبة تلك السيدة الجميلة؟ ماذا أرادت حقًّا؟

– إن كلامها واضح وقلقها طبيعي تمامًا من دون ريب.

– هممم! فكِّر في هيئتها يا واتسون – أسلوبها، انفعالها المكبوت، اضطرابها، إصرارها على طرح الأسئلة. تذكر أنها تنتمي إلى طبقة لا تُظهر مشاعرها ببساطة.

– كانت متأثرة جدًّا بكل تأكيد.

– تذكر أيضًا الجدية الغريبة التي أكَّدت بها أن من مصلحة زوجِها أن تعرف بكل شيء. ماذا قصدت بهذا؟ ولا بد أنك لاحظت يا واتسون كيف اختارت جلستها بحيث يكون مصدر الضوء خلفها. فلم تكن ترغب في أن نقرأ تعبيرات وجهها.

– نعم؛ لقد اختارت الكرسي الوحيد في الغرفة.

– ومع ذلك فإن دوافع النساء شديدة الغموض. أتذكُر تلك السيدة من مدينة مارجيت التي اشتبهت فيها للسبب ذاته: فقد ثبت أن حلَّ القضية يكمن في أنها لا تضع مساحيق تجميل على أنفها. كيف يمكنك الارتكاز على مثل هذه الرمال المتحركة؟ إن أكثر أفعالهن تفاهة قد يعني الكثير، وقد يعتمد أكثر تصرفاتهن غرابة على مشبك أو مصفف شعر. طاب صباحك يا واتسون.

– هل ستخرج؟

– نعم؛ سأمضي النهار في شارع جودولفين مع أصدقائنا من رجال الشرطة. إن حل مشكلتنا يكمن مع إدواردو لوكاس، وإن كنت أعترف بأنني لا أملك أدنى فكرة عن طبيعة هذا الحل. إن وضع الفرضية

قبل الوقوف على الحقائق لهو خطأ فادح. هلا بقيت منتبهًا يا عزيزي واتسون واستقبلت أي ضيوف جدد؟ سأنضم إليك على الغداء إن استطعت.

طوال هذا اليوم واليومين التاليين كان هولمز في حالة مزاجية يسميها أصدقاؤه: تكتمًا. ويسميها الآخرون: كآبة. يخرج ويعود، ويدخن دون انقطاع، ويعزف مقطوعاتٍ على كمانه، ويغرق في أحلام اليقظة، ويلتهم الشطائر في غير أوقات الطعام المعتادة، وقلَّما أجاب عن الأسئلة العابرة التي كنت أطرحها عليه. بدا لي جليًّا أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام معه ولا مع تحقيقه. لم يتفوَّه بشيءٍ عن القضية، ولم أعرف تفاصيل التحقيق، وخبر القبض على جون ميتون، خادم القتيل، ثم إطلاق سراحه بعد ذلك إلا من الصحف. وقد أعلنت هيئة الطب الشرعي أن الجريمة هي دون شك جريمة قتل عمد، بيد أن الجناة ظلُّوا مجهولين. لم يظهر أي دافع؛ فقد كانت غرفة القتيل ممتلئة بالأشياء القيّمة، لكن أيًّا منها لم يؤخذ. كما لم يُعبث بأوراقه، فقد فحصتها الشرطة بعناية، وتبيَّنت منها أن القتيل كان مولعًا بالسياسة الدولية، وكان ثرثارًا لا يكلّ ولا يمل، كما كان ملمًّا بلغات عديدة، وكاتبًا دؤوبًا للخطابات. وكان صديقًا حميمًا لسياسيين بارزين في عديدٍ من البلدان. لكن لم يُعثر بين المستندات التي ملأت أدراجه على أي شيء ذي مغزى. أما فيما يخص علاقاته بالنساء، فقد بدت منحلة وسطحية. كان يعرف الكثير منهن، لكن قليلًا منهن كن صديقات له، ولم يحب أيًّا منهن. كانت عاداته منضبطة وسلوكه غير مؤذٍ. لذا كانت وفاته لغزًا حقيقيًّا، ومن المرجح أن تظل هكذا.

أما اعتقال الخادم جون ميتون، فلم يحدث إلا بدافع اليأس بديلًا عن التقاعس التام. ولكن تعذَّر إثبات أي تهمة عليه. ففي تلك الليلة كان يزور أصدقاءه في هامرسميث، وكانت حجة غيابه دامغة. صحيحٌ أنه بدأ رحلة عودته إلى المنزل في وقتٍ كان يُفترض أن يُمكنه من الوصول إلى وستمنستر قبل الوقت الذي اكتُشفت فيه الجريمة، لكنه فسَّر ذلك بأنه قد قطع جزءًا من طريق العودة سيرًا على قدميه، وهو ما بدا واردًا نظرًا إلى صفاء تلك الليلة. لقد وصل بالفعل في الساعة الثانية عشرة، وبدا مصعوقًا من تلك المأساة غير المتوقعة. فلطالما كانت علاقته بسيده جيدة. وقد عُثر على العديد من أمتعة القتيل –لا سيما علبة صغيرة من شفرات الحلاقة– في حقائب الخادم، لكنه أوضح أنها كانت هدايا من المتوفَّى، وهذا ما أكدته مدبرة المنزل. عمل ميتون خادمًا للوكاس لثلاثةِ أعوام. ومن الجدير بالملاحظة أن لوكاس لم يكن يصحب ميتون معه في سفره. وأحيانًا ما كان يزور باريس لثلاثة أشهر متتالية، ويترك ميتون مسؤولًا عن منزل شارع جودولفين. أما مدبرة المنزل فلم تسمع شيئًا ليلة الجريمة. وإذا كان سيدها قد استقبل ضيفًا يومئذ، فقد سمح له بالدخول بنفسه.

وهكذا ظل الغموض مخيمًا لثلاثة أيام، حسبما استطعت تتبعه من خلال الصُحف. وإذا كان هولمز يعرف المزيد، فقد أبقاه لنفسه، لكنه حينما أخبرني بأن المفتش ليستراد قد أطلعه على أسرار القضية، عرفتُ أنه كان على دراية وثيقة بكل التطورات. وفي اليوم الرابع وصلت برقية طويلة من باريس بدت كأنها تحل جريمة قتل لوكاس برمتها.

نقلًا عن جريدة الديلي تلغراف –فقد توصَّلت الشرطة الباريسية لتوها إلى اكتشاف يرفع الحجاب الذي علق حول المصير المأساوي للسيد إدواردو لوكاس، الذي لقي مصرعه قتلًا ليلة الاثنين الماضي

بشارع جودولفين، في وستمنستر. يعلم قراؤنا أن المتوفَّى قد عُثر عليه مطعونًا في غرفته، وأن بعض الشكوك قد ثارت حول خادمه، غير أن الاتهام سقط بثبوت حجة غيابه. أما أمس، فقد أبلغ خدم سيدة تُدعى مدام هنري فورناي، وتقطن في فيلا صغيرة بشارع أوسترليتز بباريس، السلطات بأنها قد جُنت. وعند الفحص تبيَّن أنها قد أصيبت بالفعل بنوعٍ خطير ودائم من الجنون. وخلال التحقيق اكتشفت الشرطة أن مدام هنري فورناي قد عادت من رحلة إلى لندن يوم الثلاثاء الماضي، وأن ثمة أدلة تربطها بجريمة وستمنستر. وقد أثبتت مقارنة الصور على نحوٍ قاطع أن السيد هنري فورناي وإدواردو لوكاس هما في الحقيقة شخص واحد، وأن المتوفَّى عاش لسبب ما حياة مزدوجة بين لندن وباريس. أما مدام فورناي فهي امرأة ذات أصول كريولية سريعة الانفعال، كانت تعاني في الماضي نوبات من الغيرة بلغت حد الجنون. ومن المُحتمل أنها ارتكبت تلك الجريمة الشنعاء التي سببت ضجة كبيرة في لندن في واحدة من تلك النوبات. لم تُقتفَ تحركاتها في ليلة الاثنين بعد، لكن لا ريب أن امرأة تُطابق مواصفاتها قد لفتت الأنظار بشدة في محطة تشيرنج كروس صباح الثلاثاء بهيئتها الشرسة وإيماءاتها العنيفة. لذا يُحتمل أن تكون الجريمة قد ارتُكبت في إحدى نوبات جنونها ذلك، أو أن التأثير الفوري للجريمة هو ما أفقد تلك المرأة التعِسة عقلها. وهي الآن عاجزة عن تقديم أي سرد متماسك لأحداث الماضي، ولا يرى الأطباء أملًا في أن تستعيد رشدها. وثمة دليلٌ على أن امرأة ما –والتي قد تكون هي نفسها مدام فورناي– قد شوهدت تراقب منزل شارع جودولفين لبضع ساعات ليلة الاثنين.

– ما رأيك في ذلك يا هولمز؟

كنت أقرأ له هذا التقرير بصوتٍ عالٍ ريثما يتناول فطوره.

نهض من أمام الطاولة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم قال:

– لقد صبرتَ كثيرًا يا عزيزي واتسون، ولكن لئن لم أخبرك بشيءٍ في الأيام الثلاثة الماضية، فذلك لعدم وجود ما يُقال. فحتى هذا التقرير الآتي من باريس، لا يقدم لنا كثير عون.

– إنه قاطع دون شك فيما يتعلق بمقتل الرجل.

– إن مقتل الرجل مجرد حادث –واقعة تافهة– إذا ما قورنت بمهمتنا الحقيقية، وهي تعقُّب هذا المستند وإنقاذ أوروبا من كارثة. ولم يحدث في الأيام الثلاثة الماضية سوى شيءٍ واحد مهم، وهو أنه لم يحدث أي شيء. إنني أتلقَّى التقارير من الحكومة كل ساعة تقريبًا، وهم متيقنون من عدم وجود أي علامة اضطراب في أي موضع بأوروبا. والآن، لو أن هذه الرسالة مفقودة –كلا، محالٌ أن تكون مفقودة– لكن لو كانت مفقودة، فأين عساها تكون؟ وفي حوزة من؟ ولمَ يحتفظ بها؟ هذا هو السؤال الذي يضرب ذهني كالمطرقة. أهي مصادفة حقًّا أن يلقى لوكاس مصرعه ليلة اختفاء الرسالة؟ هل وصلته الرسالة من الأساس؟ وإن كانت قد وصلته، فلماذا ليست بين أوراقه؟ هل أخذتها تلك الزوجة المجنونة معها؟ ولو أن هذا ما حدث، أهي في منزلها بباريس؟ كيف يمكنني البحث عنها دون إثارة شكوك الشرطة الفرنسية؟ إن القانون في هذه القضية يا عزيزي واتسون لخطيرٌ علينا بقدر خطورة المجرمين أنفسهم. الجميع ضدنا، ومع ذلك فإن المصالح المعرَّضة للخطر ليست هيِّنة. لئن استطعت أن أصل بهذه القضية إلى نهاية ناجحة، فستُمثل حتمًا قمة المجد لحياتي المهنية. آه، ها هي ذي آخر

صولاتي على الجبهة! قالها واختطف نظرة سريعة على المذكرة التي تلقَّاها ثم قال: مرحى! يبدو أن ليستراد قد اكتشف شيئًا مهمًّا. ارتدِ قبعتك يا واتسون، فسوف نذهب معًا في نزهة إلى وستمنستر.

كانت تلك زيارتي الأولى لمسرح الجريمة، وهو منزلٌ مرتفعٌ داكن ذو واجهة ضيقة، كان أشبه بجموده وقِدَمه وطابعه الرسمي بالقرن الذي شُيِّد فيه. رمقنا ليستراد من النافذة الأمامية بملامحه الشبيهة بملامح البولدوج، ومضى يرحب بنا بحرارة بعد أن فتح لنا الباب شرطيٌّ ضخم وأدخلنا إلى المنزل. كانت الغرفة التي دلفنا إليها هي الغرفة التي وقعت فيها الجريمة، التي لم يبقَ منها أثر عدا بقعة دم قبيحة غير منتظمة على البساط. كان هذا البساط عبارة عن مربع صغير في وسط الغرفة، محاط بأرضية جميلة قديمة الطراز من الألواح الخشبية المربعة المصقولة بعناية. رأينا فوق المدفأة مجموعة أسلحة تذكارية رائعة، استُخدم أحدها في تلك الليلة المأساوية. وقُرب النافذة وُضِع مكتبٌ فاخر. وقد دلَّت كل تفاصيل المنزل من صورٍ وبساط وستائر على ذوقٍ مترف يكاد يكون أنثويًّا.

سأل ليستراد: هل اطلعتما على الأخبار الواردة من باريس؟

أومأ هولمز برأسه.

– يبدو أن أصدقاءنا الفرنسيين قد أصابوا الهدف هذه المرة. لا شك أن الأمر كما يقولون بالضبط. فقد طرقت المرأة الباب في زيارة أظنها كانت مفاجئة له، هو الذي شيَّد حول حياته أسوارًا حصينة. فسمح لها بالدخول إذ لم يستطع تركها في الشارع. فمضت تخبره كيف اقتفت أثره، وتوبِّخه وشيءٌ قاد لآخر، ومع وجود هذا الخنجر في متناول اليد سرعان ما حلَّت النهاية. ورغم ذلك، لم يحدث الأمر سريعًا، فقد سُحبت كل تلك الكراسي إلى هناك، بل كان يمسك بأحدها في يده كما لو كان يحاول إبعادها باستخدامه. لقد فهمنا الأمر كله واضحًا كأننا شهدناه.

رفع هولمز حاجبيه.

– ومع ذلك أرسلت في طلبي؟

– آه، نعم، هذا أمرٌ آخر –مجرد أمرٌ تافه، لكنه من النوع الذي يستهويك– أمرٌ شاذ، أو بالأحرى مريب، ولا علاقة له بالواقعة الرئيسة – ولا يمكن أن يكون له علاقة بها، حسبما يبدو.

– ما هو إذن؟

– حسنًا، كما تعلم، فإننا بعد جريمة من هذا النوع نحرص بشدَّة على إبقاء الأشياء في أماكنها. لم نُحرِّك شيئًا، ويحرس المكان نهارًا وليلًا ضابط مسؤول. ولم يخطر لنا حتى صباح اليوم ترتيب المكان قليلًا، إذ إن القتيل قد دُفن وانتهى التحقيق في هذه الغرفة. هذا البساط، كما ترى، موضوعٌ على الأرض دون تثبيت. فحدث أن رفعناه فوجدنا...

– نعم؟ وجدتم..

توتر وجه هولمز قلقًا.

– حسنًا، إنني متأكد أنك لن تخمِّن أبدًا ما وجدناه ولو بعد مائة سنة. أترى تلك البقعة على البساط؟ المنطقي أن يتخلل إلى الأرضية قدر كبير منها، أليس كذلك؟

– دون أدنى شك.

– حسنًا، سيُدهشك سماع أن الخشب الأبيض قد خلا من أي أثرٍ لبقعة مماثلة.

– لا بقعة! لكن لا بد أن..

– نعم؛ هذا ما قد يتوقَّعه المرء. لكن تبقى الحقيقة أنه ما من أثرٍ.

أمسك بطرف البساط وقلبه ليُرينا صحة كلامه.

– لكن جانبه السفلي ملطخ تمامًا مثل جانبه العلوي. لا بد أن تترك أثرًا.

قهقه ليستراد مستمتعًا بحيرة الخبير الشهير.

– والآن سأُريك التفسير. ثمة بقعة ثانية لكنها لا توازي الأولى. انظر بنفسك. قلب جزءًا آخر من البساط بينما يتحدث، وهناك رأينا بوضوح بقعة قرمزية كبيرة على السطح الأبيض المربّع للأرضية قديمة الطراز. ماذا تستنتج من هذا يا سيد هولمز؟

– المسألة من أبسط ما يكون. تتطابق البقعتان، غير أن أحدهم أدار البساط. وهي مهمة سهلة نظرًا إلى أن البساط مربعٌ وغير مثبَّت.

– لا تنتظر الشرطة الرسمية منك أن تُخبرها يا سيد هولمز بأن أحدهم قد أدار البساط. ذلك واضح بما يكفي، فالبقعتان تتطابقان إذا وُضع البساط بتلك الطريقة. ولكن ما أريد معرفته هو من حرّك السجادة ولماذا؟

استطعت أن أرى في وجه هولمز الجامد اختلاجة سببها انفعالٌ بداخله.

قال: مهلًا يا ليستراد. هل كان الشرطي الذي في الممر مسؤولًا عن المكان طوال الوقت؟

– نعم.

– حسنًا، خُذ بنصيحتي. استجوبه بعناية. ليس أمامنا، فسوف ننتظرك هنا. خذه إلى الغرفة الخلفية. يمكنك على الأرجح أن تحصل على اعترافٍ منه إذا كنتما وحدكما. اسأله كيف جرؤ على السماح لأناسٍ بالدخول وتركهم بمفردهم في هذه الغرفة. لا تسأله إن كان قد فعل ذلك. تكلَّم كما لو أن الأمر مفروغٌ منه. أخبره أنك تعلم أن أحدهم قد دخل. اضغط عليه. وأخبره أن الاعتراف الكامل هو فرصته الوحيدة لنيل الغفران. افعل ما أقوله تمامًا.

صاح ليستراد: يا إلهي، إن كان يعرف شيئًا فلسوف أستخرجه منه! وانطلق إلى الردهة، وبعد لحظات قليلة سمعنا نبرته التوبيخية من الغرفة الخلفية.

وهنا صاح هولمز بلهفة محمومة: الآن يا واتسون، الآن! انفجرت كل قوة الرجل الشيطانية التي كانت مختبئة خلف تلك الهيئة الفاترة في نوبة مفاجئة من النشاط. انتزع البساط عن الأرض، ثم لم يلبث أن جثا على يديه وركبتيه يخدش كل مربع من الخشب تحتها. انحرف أحد المربعات جانبًا عندما نبش حافته بأظافره. ثم انفتح إلى الخلف كغطاء الصندوق. ورأينا تجويفًا صغيرًا أسود تحته. أقحم هولمز يده المتلهفة بداخله، ثم سحبها مطلقًا زمجرة غضب وإحباط، فقد كان التجويف خاليًا.

– أسرع يا واتسون، أسرع! أعده مكانه!

فأعدتُ الغطاء الخشبي مكانه، وسويت البساط عندما سمعنا صوت ليستراد يقترب في الممر. وعندما دخل وجد هولمز متكئًا بفتور على رف المدفأة في استسلامٍ وصبر، يحاول كبح تثاؤب يتعذر كبحه.

– آسف لطول انتظارك يا سيد هولمز. أرى أنك قد ضقت ذرعًا من المسألة برمتها. حسنًا، لقد اعترف. تعالَ هنا يا مكفيرسون. أخبر هذين السيدين بتصرفك الذي لا يغتفر.

انسلَّ الشرطي الضخم إلى الغرفة وقد بدا عليه الندم والانفعال الشديدان.

– لم أقصد ضررًا يا سيدي، صدِّقني. لقد أتت السيدة الشابة إلى الباب مساء أمس – كانت قد أخطأت المنزل. ثم تبادلنا أطراف الحديث قليلًا. إنه لأمر موحِش أن تظل في نوبة حراسة هنا طوال اليوم.

– حسنًا، ماذا حدث بعدها؟

– أرادت أن ترى مكان وقوع الجريمة التي قرأَت عنها في الصُحف، هكذا قالت. كانت شابة لبقة ومحترمة جدًّا يا سيدي، ولم أرَ ضررًا في السماح لها بأن تُلقي نظرة سريعة. وعندما رأت تلك العلامة على البساط، سقطت مغشيًّا عليها كأنما فارقت الحياة. هُرعت إلى الخارج وجلبت بعض الماء، لكنني لم أستطع إفاقتها. فخرجت قاصدًا حانة آيفي بلانت الواقعة عند الناصية لإحضار بعض البراندي، وعندما رجعت وجدت الشابة قد استعادت وعيها وانصرفت؛ أراهن أنها كانت خجِلة من نفسها، ولم تجرؤ على مواجهتي.

– وماذا عن تحريك هذا البساط؟

– حسنًا يا سيدي، لقد كان بلا شك منبعجًا بعض الشيء عندما عدت. فقد سقطت عليه كما أخبرتك، وهو موضوعٌ على أرض مصقولة دون شيءٍ يبقيه في مكانه، فسويته بعدئذ.

قال ليستراد بوقار:

– إنه درسٌ لك لتتعلم أنك لا تستطيع خداعي أيها الشرطي مكفيرسون، لا شك أنك ظننت أن إخلالك بواجبك لن يُكتشف أبدًا، غير أن نظرة واحدة على هذا البساط كانت كافية لتقنعني بأن أحدهم قد دخل الغرفة. من حسن حظك يا عزيزي أن شيئًا لم يُفقد، وإلا لوجدتَ نفسك في ورطة عظمى. وأعتذر لاستدعائك لمثل هذه المسألة التافهة يا سيد هولمز، لكنني ظننت أن عدم تطابق البقعة الثانية مع الأولى سيثير اهتمامك.

– هذا أكيد، لقد كان شيقًا بحق. هل أتت هذه المرأة مرة واحدة فقط أيها الشرطي؟

– نعم يا سيدي، لم تأتِ سوى مرة.

– ومن كانت؟

– لا أعرف اسمها يا سيدي. كانت مهتمة بإعلان يطلب كتَبة على الآلة الكاتبة، وأخطأت العنوان – وكانت شابة لطيفة وأنيقة جدًّا يا سيدي.

– هل كانت طويلة؟ جميلة؟

– نعم يا سيدي؛ كانت شابة فارعة الطول. وأعتقد أن بإمكانك القول إنها جميلة. وقد يراها البعض فائقة الجمال. قالت لي: أوه أيها الشرطي، هلا سمحت لي بإلقاء نظرة سريعة! كان أسلوبها، إن جاز

التعبير، جميلًا ومُقنعًا، وظننت ألا بأس أن أدعها فقط تُدخِل رأسها من الباب.

– كيف كان ملبسها؟

– مُحافِظ يا سيدي – كانت تضع عباءة طويلة تصل إلى قدميها.

– ومتى كان هذا؟

– كان الظلام قد بدأ يحل لتوه حينها. وكانوا يُشعلون مصابيح الشارع حينما جلبتُ البراندي.

قال هولمز: عظيم، هيا بنا يا واتسون، أعتقدُ أن لدينا عملًا أكثر أهمية في مكان آخر.

عندما غادرنا المنزل بقي ليستراد في الغرفة الأمامية، بينما فتح لنا الشرطي النادم الباب ليُخرجنا. استدار هولمز على الدَّرج ورفع شيئًا في يده. فحدق إليه الشرطي بانتباه شديد.

ثم صاح والذهول يعلو وجهه: يا إلهي، سيدي! فوضع هولمز إصبعه على شفتيه، وأعاد يده ثانيةً إلى جيبه العلوي، وعندما استدرنا هابطين إلى الشارع انفجر ضاحكًا وقال: ممتاز! تعالَ يا صديقي واتسون، إن الفصل الأخير على وشك أن يبدأ. وسوف يسرك أن تسمع بأن حربًا لن تندلع، وأن معالي الوزير تريلوني هوب لن يعاني انتكاسة في مسيرته المهنية العظيمة، وأن الحاكم الطائش لن يُعاقَب على طيشه، وأن رئيس الوزراء لن يواجه أي تعقيدات بخصوص الشأن الأوروبي، وأنه مع قليلٍ من اللباقة وحسن التدبير من جانبنا لن يضطر أحدٌ لدفع بنس فيما كان من المحتمل أن يكون حدثًا شديد البشاعة.

فضتُ إعجابًا بهذا الرجل الاستثنائي وصحت:

– لقد حللتها!

– كدت يا واتسون. لم تزل بعض النقاط غامضة. ولكن لدينا من الأدلة الكثير، وإن لم نتمكن من معرفة البقية فالخطأ خطؤنا. سنتجه مباشرةً إلى وايتهول تيراس ونمهِّد لنقطة التحوُّل.

حينما وصلنا إلى مقر إقامة وزير الشؤون الأوروبية للدولة، سأل شيرلوك هولمز عن الليدي هيلدا تريلوني هوب، فأدخلونا إلى غرفة الاستقبال.

قالت الليدي وقد تورد وجهها سخطًا:

– سيد هولمز! إن تصرفك هذا يفتقر إلى الشهامة والعدل. لقد طلبت كما وضحتُ من قبل أن تُبقي زيارتي سرًّا، خشية أن يظن زوجي أنني أتطفل على شؤونه. ومع ذلك، ها أنت ذا تفضحني بالمجيء إلى هنا وإعلان أن ثمة علاقة عمل بيننا.

– لسوء الحظ يا سيدتي، لم أجد بديلًا آخر. فقد كُلفت باستعادة هذه الورقة البالغة الأهمية. ولهذا عليَّ أن أطلب منك يا سيدتي أن تتلطَّفي وتضعيها بين يدي.

هبَّت السيدة واقفة، وامتقع وجهها الجميل في لحظة. لمعت عيناها وترنَّحت وظننت أنها ستفقد وعيها. ثم بجهد جهيد خرجت من الصدمة، وطردت الدهشة والسخط كل تعبيرٍ آخر من ملامحها.

– إنك.. إنك تهينني يا سيد هولمز.

– كفاكِ يا سيدتي، لا جدوى من كل هذا. تخلَّي عن الرسالة.

اندفعت ناحية الجرس.

– سيدلكم كبير الخدم إلى طريق الخروج.

– لا تقرعي الجرس أيتها الليدي هيلدا. لئن فعلتِ لتضيعين كل جهودي المخلصة لتجنب الفضيحة. سلميني الرسالة وستستقيم الأمور كلها. إن ساعدتِني فبإمكاني تسوية المسائل. أما إن وقفتِ ضدي فسأضطر إلى كشف أمرك.

وقفَت منتصبة بتحدٍّ كبير وهيئة ملكية، وقد ثبتت عيناها على عينيه كما لو كانت تريد قراءة أفكاره. كانت يدها على الجرس، وإن أمسكت عن قرعه.

– إنك تحاول إخافتي. وليس من الرجولة في شيء يا سيد هولمز أن تأتي إلى هنا وترهب امرأة. تقول إنك تعرف شيئًا. فما الذي تعرفه؟

– اجلسي رجاءً يا سيدتي. ستؤذين نفسك إن سقطت هناك. لن أتحدث حتى تجلسي. شكرًا لك.

– أمهلك خمس دقائق يا سيد هولمز.

– دقيقة واحدة تكفي يا ليدي هيلدا. إنني أعلم بزيارتك إلى إدواردو لوكاس، ومنحك إياه هذا المستند، وعودتك المُتقنة إلى منزله في الليلة الماضية، والطريقة التي أخذتِ بها الرسالة من المخبأ تحت البساط.

حدقت إليه بوجه شاحب وابتلعت لعابها مرتين قبل أن تتمكن من الحديث.

وأخيرًا صاحت قائلة:

– إنك مجنون يا سيد هولمز – مجنون!

فأخرج هولمز قطعة صغيرة من الورق المقوى من جيبه. كان وجه امرأة مقطوعًا من صورة.

– لقد أخذتُ هذه لأني ظننتها قد تنفع، وقد تعرف الشرطي عليها.

لهثت وسقط رأسها إلى الخلف على المقعد.

– على رسلك يا ليدي هيلدا. فالرسالة معك. وما زالت تسوية الأمر ممكنة. إنني لا أرغب في التسبب بمشكلة لك. واجبي يقتصر على إعادة الرسالة المفقودة إلى زوجك. خُذي بنصيحتي وكوني صريحة معي؛ إنها فرصتك الوحيدة.

كانت شجاعتها باهرة. فحتى تلك اللحظة لم تبدُ عليها الهزيمة.

– أكرر قولي لك يا سيد هولمز، إنك متأثر بأوهامٍ سخيفة.

فنهض هولمز من مقعده.

– أشعر بالأسف لأجلك يا ليدي هيلدا. لقد بذلت قصارى جهدي لأجل خاطرك؛ ويبدو أن كل هذا قد ضاع هباءً.

قالها وقرع الجرس فدخل كبير الخدم.

– هل السيد تريلوني هوب في المنزل؟

– سيكون في المنزل في الواحدة إلا الربع يا سيدي.

نظر هولمز إلى ساعته وقال:

– تبقَّت ربع الساعة، جيد جدًّا، سأنتظر.

ما كاد كبير الخدم يغلق الباب من خلفه حتى جثت الليدي هيلدا على ركبتيها عند قدمي هولمز، يداها ممدودتان، ووجهها الجميل ناظرٌ لأعلى وقد بللته الدموع.

ناشدته في نوبة من التوسل: أوه، أنقذني يا سيد هولمز! أنقذني! أستحلفك بالله ألا تخبره! إنني أحبه! ولم أكن لأجلب ذرة سوداء واحدة إلى تاريخه، وأعلم أن ما تُريد إخباره به سيفطر قلبه النبيل.

ساعد هولمز الليدي على النهوض: إنني في غاية الامتنان يا سيدتي لعودتك لرشدك حتى لو في اللحظة الأخيرة! لا توجد لحظة لنضيعها. أين الرسالة؟

اندفعت إلى المكتب، وفتحته وتناولت ظرفًا أزرق طويلًا.

– ها هي ذي يا سيد هولمز. ليتني لم أرها قط!

تمتم هولمز متسائلًا: كيف يمكننا إعادتها؟ بسرعة، بسرعة، لا بد أن نفكر في طريقة ما! أين صندوق الرسائل؟

– ما زال في غرفة النوم.

– يا لها من ضربة حظ! أسرعي يا سيدتي، أحضريه إلى هنا!

ظهرت بعد لحظة وبيدها صندوقٌ أحمر مسطح.

– كيف فتحتِه في السابق؟ ألديك نسخة من المفتاح؟ نعم، مؤكَّد لديك واحدة. افتحيه!

أخرجت الليدي هيلدا من صدر ثوبها مفتاحًا صغيرًا وفتحت الصندوق. كان مكدسًا بالأوراق، دفع هولمز الظرف الأزرق عميقًا بينها، بين أوراق مستند آخر، ثم أُغلق الصندوق بالمفتاح وأُعيد إلى غرفة النوم.

قال هولمز: نحن الآن جاهزون لاستقباله، وما زالت لدينا عشر دقائق. إنني أتجاوز الحدود لأصون سرك يا ليدي هيلدا. وفي المقابل ستقضين ما تبقى من وقتٍ في إخباري بصدقٍ عن المغزى الحقيقي من هذا التصرف العجيب.

صاحت الليدي قائلة: سأخبرك بكل شيء يا سيد هولمز، أوه يا سيد هولمز، إنني مستعدة لقطع يدي اليمنى قبل أن أتسبب له في ضرر! ما من امرأة في لندن بأسرها تحب زوجها كما أفعل، ورغم ذلك، لو عرف بما فعلت –أو بالأحرى ما أُجبرت على فعله– فلن يسامحني أبدًا. إن كبرياءه الشامخة لن تدعه ينسى أو يصفح عن هفوة صدرت من أحد. ساعدني يا سيد هولمز! إن سعادتي وسعادته وحياتنا على المحك!

– أسرعي يا سيدتي، فلم يعد لدينا متسع من الوقت!

– لقد كانت رسالة مني يا سيد هولمز، رسالة طائشة كُتبت قبل زواجي، رسالة حمقاء، رسالة من فتاة مندفعة ومحبة. لم أقصد ضررًا، لكنه سيراها جريمة. لو أنه قرأ تلك الرسالة لتلاشت ثقته فيَّ من دون رجعة. لقد مرت سنوات منذ أن كتبتها، وظننتُ الأمر برمته قد طواه النسيان، ثم علمتُ مؤخرًا من

ذاك المدعو لوكاس بأن تلك الرسالة قد وقعت في يده، وأنه سيعرضها على زوجي. توسلت إليه أن يرحمني، فأخبرني أنه سيعيدها إن جلبتُ له مستندًا معينًا وصفه لي من صندوق رسائل زوجي، والذي أخبره بوجوده جاسوسٌ يعمل لديه في المكتب. وأكد لي أنه لن يُلحق أي ضرر بزوجي. ضع نفسك في مكاني يا سيد هولمز! ماذا كان عليّ أن أفعل؟

– ضعي ثقتك في زوجك.

– لم أستطع يا سيد هولمز، لم أستطع! من جانبٍ بدا الخراب مؤكدًا، ومن جانب آخر، ورغم أن سرقة أوراق زوجي هي تصرف شنيع، فلم أكن أعي عواقب المسائل السياسية، بل لم أكن أرى سوى مسائل الحب والثقة. وهكذا فعلتها يا سيد هولمز! أخذت نسخة من مفتاحه، زوَّدني بها ذاك المدعو لوكاس. ففتحتُ صندوق رسائله وأخذت الورقة وأوصلتها إلى شارع جودولفين.

– وماذا حدث هناك يا سيدتي؟

– طرقت الباب كما اتفقنا. ففتحه لوكاس، وتبعته إلى تلك الغرفة، تاركة باب الرَّدهة مواربًا خلفي، لأنني خشيت البقاء بمفردي مع هذا الرجل. وأذكُر أني لمحتُ امرأة ما بالخارج عندما دخلت. سرعان ما أتممنا الصفقة. كانت رسالتي على مكتبه؛ سلمته المستند فأعطاني الرسالة. وفي تلك اللحظة سمعت وقع خطوات في الممر عند الباب، فقلب لوكاس البساط بسرعة، وحشر المستند في مخبأ تحته، ثم أعاده إلى مكانه ثانيةً.

أما ما حدث بعد ذلك فهو أشبه بحلم مخيف. لقد رأيت وجهًا مكفهرًّا هائجًا، وسمعت صوت امرأة تصرخ بالفرنسية: لم يضع انتظاري عبثًا. أخيرًا ضبطتك معها، أخيرًا! ونشب صراعٌ وحشي. رأيته يحمل مقعدًا في يده، ولمع سكين في يدها. فهرعت هاربة من المشهد الرهيب، وركضت إلى خارج المنزل، ولم أعرف النتيجة المروعة إلا من الصُحف في صباح اليوم التالي. كنت سعيدة في تلك الليلة لأنني حصلت على رسالتي، ولم أكن أعرف ما يحمله لي المستقبل بعد.

وفي صباح اليوم التالي أدركت أنني استبدلت مشكلة بأخرى. نفذت معاناة زوجي لفقدانه الورقة إلى قلبي. وبالكاد استطعتُ منع نفسي من الذهاب والركوع عند قدميه وإخباره بما فعلت. لكن هذا أيضًا يعني اعترافًا بما فعلته في الماضي. وجئت إليك في ذاك الصباح لأفهم فداحة جريمتي. ومنذ اللحظة التي أدركت فيها أبعاد المسألة، استحوذت على ذهني فكرة واحدة لا أكثر، وهي أن أستعيد الورقة التي تخص زوجي. لا بد أنها ما زالت في المكان الذي وضعها فيه لوكاس، فقد أخفاها قبل دخول تلك المرأة المخيفة إلى الغرفة. ولولا مجيئها ما كنت لأعرف مكان مخبئه. كيف تأتَّى لي دخول الغرفة؟ راقبتُ المكان ليومين، لكنَّ الباب لم يُترك مفتوحًا قط. وليلة أمس أجريت محاولة أخيرة. وأنت تعلم بالفعل ما قمتُ به وكيف نجحت فيه. وهكذا أحضرت الورقة معي، وفكرتُ في تدميرها لأنني لم أجد طريقة لإعادتها من دون الاعتراف لزوجي بذنبي. يا إلهي، إنني أسمع وقع خطواته على الدَّرج!

اندفع وزير الشؤون الأوروبية للدولة إلى الغرفة بحماس صائحًا:

– هل من أخبار يا سيد هولمز؟ أي أخبار؟

– يساورني بعض الأمل.

قال بوجهٍ مُشرق: آه، حمدًا لله! سيتناول رئيس الوزراء غداءه معي، فهلا تشاركه آمالك؟ إن لديه أعصابًا فولاذية، ورغم ذلك فأنا أعلم أنه لم يذُق طعمًا للنوم منذ هذا الحدث الرهيب. جيكوبس، هلا طلبت من رئيس الوزراء أن يأتي؟ أما أنتِ يا عزيزتي، فأخشى أن هذه المسألة سياسية. سننضم إليك في غرفة الطعام في غضون دقائق.

بدا رئيس الوزراء هادئًا، لكنني استطعت أن أرى من بريق عينيه وارتعاشة يديه النحيلتين أنه يُشارك زميله الشاب حماسته.

– سمعتُ أن لديك ما تُبلغني به يا سيد هولمز.

أجاب صديقي: ليس لديَّ ما يُذكر حتى الآن؛ فقد بحثتُ في كل مكان يمكن للمستند أن يبلغه، وأنا واثق أنه ما من خطرٍ نخشاه.

– بيد أن هذا غير كافٍ يا سيد هولمز. لا يسعنا العيش فوق فوهة بركان إلى الأبد. لا بد أن نقبض بأيدينا على شيءٍ محدد.

– يحدوني الأمل في ذلك، وهذا هو سبب مجيئي إلى هنا. فكلما فكرتُ في الأمر أكثر ازددت قناعة بأن الرسالة لم تغادر هذا المنزل مُطلقًا.

– سيد هولمز!

– لو حدث هذا لعرفتُ ذلك بالتأكيد بحلول هذا الوقت.

– لكن لمَ يحتفظ بها من أخذها في هذا المنزل؟

– لست واثقًا أن أحدًا قد أخذها.

– إذن كيف عساها خرجت من صندوق الرسائل؟

– لست واثقًا أنها قد خرجت يومًا من صندوق الرسائل.

– التوقيت سيئ جدًّا لمثل هذه الدُّعابة يا سيد هولمز. لقد أكدت لك أنها خرجت من الصندوق.

– هل فحصت الصندوق منذ صباح الثلاثاء؟

– لا؛ لم تكن ثمة ضرورة.

– ربما تكون قد غفلت عنها.

– مستحيل، أؤكد لك.

– لكني غير واثق من ذلك؛ أعرف أن مثل تلك الأمور تحدث. أحسب أن في الصندوق أوراقًا أخرى. حسنًا، لربما اختلطت معها.

– لقد كانت على القمة.

– ربما هز أحدهم الصندوق فتغير مكانها.

– لا، لا؛ لقد أخرجت كل شيء.

قال رئيس الوزراء: يسهل حسم ذلك يا هوب، لنحضر صندوق الرسائل.

دق الوزير الجرس.

– جيكوبس، هلا جلبت صندوق رسائلي. هذه مضيعة هزلية للوقت، ولكن إن كان هذا ما يُرضيك، فسوف نفعله. أشكرك يا جيكوبس؛ ضعه هنا. إنني أحتفظ دائمًا بالمفتاح في سلسلة ساعتي. ها هي الأوراق كما ترى. رسالة من لورد ميرو، وتقرير من السير تشارلز هاردي، ومذكرة من بلجراد، وملاحظة حول ضرائب الحبوب الروسية الألمانية، ورسالة من مدريد، وملاحظة من لورد فلاورز – يا إلهي! ما هذا؟ لورد بيلينجر! لورد بيلينجر!

انتزع رئيس مجلس الوزراء الظرف الأزرق من يده.

– نعم، إنه هو – والرسالة لم تُمس. أهنئك يا هوب.

– شكرًا لك! شكرًا لك! يا له من حملٍ أُزيح عن قلبي. لكن هذا لا يُصدق – مستحيل. إنك ساحر يا سيد هولمز، مشعوذ! كيف علمت أنه هنا؟

– لأنني تأكدتُ من عدم وجوده في أي مكانٍ آخر.

ركض بجموح نحو الباب قائلًا: لا يمكنني تصديق عيني! أين زوجتي؟ لا بد أن أخبرها أن كل شيء على ما يرام. هيلدا! هيلدا! سمعنا صوته على الدَّرج.

نظر رئيس مجلس الوزراء إلى هولمز بعينين لامعتين.

وقال: دع عنك هذا يا سيدي؛ ثمَّة سرٌ خفي في هذه المسألة. كيف عادت الرسالة إلى الصندوق؟

استدار هولمز مبتسمًا ليتوارى عن النظرات المتفحصة لهاتين العينين الرائعتين، وقال:

– نحن أيضًا لدينا أسرارنا الدبلوماسية. والتقط قبعته واتجه نحو الباب.